

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

٥/٥
٤/٥

التباين

و

أثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع: التاريخ: ٥/٥

إعداد:

وليد أحمد محمود العناتسي

٥/٥
٤/٥

إشراف:

الأستاذ الدكتور: نهياد الموسى

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الدكتوراه في
اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية .

أب ٢٠٠٠ م

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة يوم الاثنين ، الرابع عشر من آب ، عام ألفين . وأجيزت .

أعضاء لجنة المناقشة

- الأستاذ الدكتور نهاد موسى (مشرفاً)

أستاذ النحو العربي .

- الأستاذ الدكتور محمد أكرم سعد الدين

أستاذ اللسانيات .

- الدكتور وليد سيف

أستاذ اللسانيات والصوتيات

- الدكتور عبد الحميد السيد

أستاذ النحو العربي (الجامعة الهاشمية)

التوقيع

رئيساً

عضواً

عضواً

عضواً

الإهداء

إلى أمسي وأبي ، اعترافاً بفضلهما وإدامة لحبهما .
 وإلى روح أستاذي العزيزين : الدكتور محمود إبراهيم والدكتور نصرت عبد
 الرحمن .

والسلامي :

إيساد

و

نضال

و

هناء

و

أنس

و

محمد

رجحاً لإيقاعهم

ونفساً بقدومهم .

والسلامي

الشكر والتقدير

الحمد لله على فضله الوفور وتوفيقه الوصول .

أشكر لأمي وأبي وأفراد عائلتي أن كانوا معي في كل لحظات عملي ،
فأزروني واحتملوا الغوضي التي خلفتها كسبي المتناثرة في أرجاء المنزل
وغوضي أوراقي التي نازعتهم في فراشهم .

وأشكر لأستاذي الدكتور نهاد الموسى ما أفاضه عليّ من علميه وسعة
صدره ، أثناء دراستي الجامعية ، وأثناء كتابة هذه الرسالة ، وما رسمه لي
من بُعد النظر وحسن التبصر في درسي القضايا اللغوية قديمها وحديثها .

وأشكر للدكتور وليد سيف أن غرس فيّ حبّ المعرفة ، وأن أفاض عليّ
من علمه ودماثة خلقه ، فبصّرني طريقاً مستقيماً سويّاً .

وللأستاذين محمد أكرم سعد الدين و عبد الحميد السيد شكر جزيل
ونضل مجنوظ اتبولهم مناقشة هذه الرسالة .

وأشكر للدكتور إبراهيم السعافين دعمه ومساندته لي ، فقد كان رجل
موقف وصاحب كلمة . وللدكتور عبد الجليل عبد المهدي ثقتة الغالية ، فهي
وسام أعتز به ما حييت .

وأشكر لأخي وصديقي أنور الخطيب أن كان خير معين علي النص
الأجنبي . ولكل أصدقائي وزملائي الذين أحاطوني برعايتهم وحبهم .

المحتويات

| الصفحة | الموضوع |
|----------|---|
| ب | قرار لجنة المناقشة |
| ج | الإهداء |
| د | الشكر والتقدير |
| هـ - ط | المحتويات |
| ي | الملخص بالعربية |
| ١ | المقدمة |
| ١٠ - ٥٤ | الفصل الأول: في بنية النظرية |
| ١٠ - ٣٣ | المبحث الأول: التباين اللغوي: مفهومه وقضاياها |
| ٣٤ - ٥٤ | المبحث الثاني: التباين في العربية |
| ٥٨ - ١٢٢ | الفصل الثاني: التباين في البنية الصوتية |
| ٥٨ - ٦٢ | المبحث الأول: الإبدال الصوتي |
| ٦٣ - ٩٧ | - الإبدال المطرد: |
| ٦٣ - ٧٧ | أولاً: اللغات المذمومة |
| ٧٧ - ٩٧ | ثانياً: ما أبدل على سبيل المماثلة: |
| ٧٨ - ٨٨ | ١- وزن افتعل |
| ٨٨ - ٨٩ | ٢- وزن تفاعل |

- ٩١ - ٩٠ -٣- إبدال النون ميماً
- ٩٣ - ٩١ -٤- إبدال السين صاداً
- ٩٤ - ٩٣ -٥- إبدال الهمزة هاء أول الكلمة
- ٩٦ - ٩٤ -٦- إبدال الواو همزة أول الكلمة
- ٩٧ - ٩٦ -٧- إبدال الواو تاءً
- ١٠٨ - ٩٨ - الإبدال غير المطرد
- ١٠٠ - ٩٨ -١- ما أبدل على سبيل المخالفة
- ١٠٩ - ١٠٠ -٢- إبدال الأصوات
- ١١٨ - ١٠٩ المبحث الثاني : في الوقف
- ١١٢ - ١٠٩ - الوقف على المنون بحير المختوم بالتاء
- ١١٤ - ١١٢ - الوقف على التاء هاء
- ١١٩ - ١١٤ المبحث الثالث : التخلص من النقاء الساكنين
- ١٢٢ - ١١٩ المبحث الرابع : في حركة الضمير المتصل
- ١٨٦ - ١٢٤ **الفصل الثالث : التباين في البنية الصرفية**
- ١٣٧ - ١٢٤ المبحث الأول : في أبنية الأفعال
- ١٣٣ - ١٢٥ - فَعَلْتُ وَأَفْعَلْتُ -
- ١٣٤ - ١٣٣ - فَعَلَ لَازِماً وَمَتَعِدِياً -
- ١٣٥ - ١٣٤ - فَعَلَ وَفَعَلَ -
- ١٣٧ - ١٣٥ - ما كان بالواو والياء من المعتل
- ١٦٥ - ١٣٨ المبحث الثاني : في أبنية الأسماء :
- ١٤٦ - ١٣٩ - أبنية متفرقة -
- ١٤٩ - ١٤٦ - اسم المفعول من الثلاثي معتل العين -

١٥٢ - ١٤٩

- بناء (فَعَلَة) جَمَع مَوْنَت سَالِمًا

١٦٥ - ١٥٢

- أبنية مصدر الثلاثي

١٨٦ - ١٦٦

المبحث الثالث : في الفصائل النحوية

١٧٩ - ١٦٦

- فصيلة الجنس

١٨٦ - ١٧٩

- فصيلة العدد

٢٢٤ - ١٨٧

الفصل الرابع : التباين في البنية النحوية

٢٠٢ - ١٨٧

المبحث الأول : في المطابقة

١٩٨ - ١٨٧

- المطابقة بين الفعل والفاعل جنساً وعدداً

٢٠٢ - ١٩٩

- كلا وكلتا

٢١٣ - ٢٠٣

المبحث الثاني : في الوظائف النحوية

٢٠٦ - ٢٠٣

- ما الحجازية وما التميمية

٢٠٨ - ٢٠٦

- في علامة إعراب المثني

٢١١ - ٢٠٨

- في الاستثناء المنقطع

٢١٣ - ٢١٢

- في خبر لا النافية للجنس

٢٢٤ - ٢١٤

المبحث الثالث : الاشتراك في الأدوات

٢٢٢ - ٢١٥

- التباين في وجوه حتى

٢٢٤ - ٢٢٢

- التباين في وجوه لن

٢٤٢ - ٢٢٦

الفصل الخامس : التباين الدلالي (المعجمي)

٢٤٢ - ٢٢٦

المبحث الأول : اختلاف اللفظين والمعنى واحد

(الترادف)

٢٣١ - ٢٢٦

- المترادف

- ٢٣٥ - ٢٣١ - ما اقتصت به القبائل من الفاظ
 ٢٤٢ - ٢٣٥ - ما ورد في القرآن من الألفاظ الخاصة
 ٢٥٥ - ٢٤٣ - المبحث الثاني : اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين
 (المشترك)

- ٢٤٩ - ٢٤٣ - المشترك اللفظي
 ٢٥٥ - ٢٤٩ - المتضاد

الفصل السادس : التباين في الرسم والهجاء

- ٢٨٩ - ٢٥٧ - المبحث الأول : في رسم العربيَّة
 ٢٧٤ - ٢٥٧ - العوامل الفاعلة في رسم العربية
 ٢٦٢ - ٢٥٩ - رسم العربية ورسم المصحف
 ٢٦٨ - ٢٦٢ - تعالق الرسم بالنظم اللغوية الأخرى
 ٢٧٤ - ٢٦٨ - المبحث الثاني : التباين في وجوه الرسم
 ٢٨٩ - ٢٧٥ - التباين في رسم الهمزة
 ٢٨٠ - ٢٧٥ - الألف الفارقة
 ٢٨٢ - ٢٨٠ - ابن وابنة
 ٢٨٤ - ٢٨٢ - كلا وكلتا
 ٢٨٤ - ٢٨٣ - المقصور والممدود
 ٢٨٧ - ٢٨٤ - الفصل والوصل
 ٢٨٨ - ٢٨٧ - ألف ما الاستهامية
 ٢٨٩ - ٢٨٨

الفصل السابع : نظرية التباين في العربية

- ٣٣٢ - ٢٩١ - المبحث الأول : الدراسات الحقلية في التراث العربي
 ٣٠١ - ٢٩١

| | |
|-----------|--|
| ٢٩٧ - ٢٩١ | - الدراسات الحقلية واللسانية الاجتماعية |
| ٣٠١ - ٢٩٧ | - الدراسات الإحصائية في التراث العربي |
| ٣٣٢ - ٣٠٢ | المبحث الثاني : نظرية التباين في العربية |
| ٣٠٥ - ٣٠٣ | - المفهوم والمصطلح |
| ٣١٦ - ٣٠٦ | - منهج الدرس |
| ٣٣٢ - ٣١٦ | - بنية النظرية |
| ٣٢٤ - ٣١٦ | - التعليل والتفسير |
| ٣٣٠ - ٣٢٤ | - الاشتراك |
| ٣٣٢ - ٣٣٠ | - الحمل على اللفظ والحمل على المعنى |
| ٣٣٦ - ٣٣٣ | الخاتمة |
| ٣٥٥ - ٣٣٨ | مصادر الدراسة ومراجعتها |
| ٣٥٧ - ٣٥٦ | الملخص بالإنجليزية |

المُنْخَص بالعربية

التباين وأثره في تشديد النظرية اللغوية العربية

إعداد : وليد أحمد محمود العناتسي

إشراف : الأستاذ الدكتور نهاد الموسى

تهدف هذه الدراسة إلى تعرف الواقع اللغوي العربي في عصور الاحتجاج ، وهي تجهد أن تكشف عن ظاهرة التباين في العربية وتحققاتها المتعددة على المستوى اللغوي التداولي ، حين تكون اللغة أداة للتواصل في المجتمع ، وعلى المستوى النظري حين تكون اللغة كاشفة لأنماط التفكير والثقافة السائدة آنذاك ، وما يترتب على ذلك من تباين وجهات النظر في رصد الظواهر وتحليلها .

وجُل ما تسعى إليه الدراسة الكشف عن البواعث اللغوية وغير اللغوية التي أفضت إلى تعدد الوجوه في الظاهرة الواحدة ، محاولة إقامة جسر يربط البنية اللغوية بالبنية الاجتماعية كسفاً لسيرورة اللغة في المجتمع ، وإجراء لقوانين الظواهر الاجتماعية عليها .

وقد جعلت الدراسة وكدها الإجابة عن جملة من الأسئلة ، أهمها :

- ما البواعث التي أسلمت إلى التباين في العربية ؟

- ما تجليات التباين في مستويات العربية المختلفة ؟

- ما الأنظار اللسانية الاجتماعية التي صدر عنها اللغويون العرب في درّسهم التباين ؟

- ما المعالم العامة للدراسات اللهجية العربية القديمة ؟

- ما المشابه العامة بين الدرس اللساني الاجتماعي العربي والدرس اللساني الاجتماعي الحديث . ولا سيما في مبحث التباين ؟

- ما الملامح العامة لنظرية التباين في العربية ؟ وما موقعها من النظرية اللغوية

العربية القديمة ؟

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وسبعة فصول وخاتمة . تناول الفصل الأول الأسس النظرية للتباين عموماً والتباين في العربية . واستندت الفصول (الثاني إلى السادس) مستويات التباين في العربية مادةً ومنهجاً . وجهد الفصل الأخير أن يتلمس الملامح العامة لنظرية التباين في العربية .

وخلصت الخاتمة إلى استطلاع بعض المشابه بين الدرس اللساني الاجتماعي العربي والدرس اللساني الحديث ، ثم عرضت لكيفية استثمار التباين على المستوى الوظيفي ؛ إذ يمكن الاستفادة كثيراً من التباين في تعليم العربية وتأصيل العامي وبناء المعجم التاريخي وقراءة التراث ومكاشفته .

المقدمة

مضى العرب في جاهليتهم يتوسلون العربية أداة للتواصل والتفاهم فيما بينهم ، صادقين عن وعي عام وإحساس باتفاق جامع على أنموذج لغوي واحد ، صادقين عن الفروقات الشكلية والسمات اللهجية الفارقة التي كانت تترأى أحياناً في مستوى الأداء النطقي.

ثم كان الإسلام . وأنزل القرآن ، والعرب على ما استحکم فيهم من عادات لغوية وأعراف لغوية اجتماعية تحضلت بالسليقة وتهذبت بالاكتساب واستحکمت بالذرية والممارسة . فكانت قراءة القرآن مطلباً سنياً من مطالب توكيد الإيمان بالعمل ، ونقله إلى ميدان التعبد الخالص على نحو تطبيقي .

وقد جهدت القبائل العربية والأفراد أن يحصلوا القرآن خيراً تحصيل وأن يلتزموا قراءته التزاماً يقينياً يسلمهم إلى الجنة ، فكان أن صدروا في قراءاتهم عما استحکم فيهم من عادات لغوية وأداءات نطقية . ثم استمع بعضهم إلى قراءة بعض فأخذها ماخذ المستهجن المنكر ، وكان ذلك شأنهم جميعاً ، يرى كل فريق أن قراءته هي الفضلى وأن ما خالفها خارج من السنة والاتباع ، داخل في الخطأ والابتداع . وهم في ذلك إنما يفضلون لغتهم ، على ما ألفوا وعلى ما سمعوا .

ثم فزعوا إلى الرسول ﷺ بحثاً عن الحقيقة والصواب ، فكان أن رخص لهم الرسول ، وأجاز قراءاتهم ، فسكنت عواصفهم وهدأت نفوسهم . والرسول في ذلك إنما يترسم منهجاً تيسيرياً في تقديم الدين الجديد ، فلا يكلف الناس ما لا يطيقون ، وهكذا كانت القراءات القرآنية أول كاشف للتباين في الأداء اللغوي على المستوى العلمي .

ولما مسّت الحاجة لتععيد العربية وتجريد أمثلتها ، لتقديمها في صورتها المثلى ، ورد اللغويون على موارد كثيرة من التباين في المستويات اللغوية المختلفة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والأسلوبية . فدلوا على موارد التباين هذه ، وعللوا لها وكشفوا عن بواعثها

فصححوا كثيراً منها ، وشدّدوا قليلاً . وبذلك انتقل التباين من وقائع لغوية متداولة إلى مادة لغوية مجموعة في الكتب .

ثم أصبح للتباين أصل في التأليف العلمي ؛ فصار مادة للتأليف ومصدراً من مصادر الفكر اللغوي العربي ؛ إذ صدر اللغويون في تأليفهم عن وعي علمي بظاهرة لغوية اجتماعية أفرزتها وقائع لغوية حقيقية ومادة وافرة من الأداء اللغوي الوظيفي ، فجهدوا أن يؤسسوا للتباين بوصفه ظاهرة لغوية وأداءً لغوياً فعلياً ، ونظرية لغوية في المستوى التنظيري العلمي .

وهكذا يفضي بنا درس التباين إلى أننا في طبقات مُستديرة ثلاث :

- وسط كلامي مستفيض ترتد كل صورة من صور التباين فيه إلى نظام مثال في الدماغ وعادات لغوية مستحكمة ، وإرث لغوي اجتماعي متواضع عليه .
- كتاب لغوي (نحوي أو صرفي أو دلالي) تجهد قواعده أن تصف ذلك النظام المثال وتفسره .
- ونظرية لغوية تكشف لنا عن أصول الوصف والتفسير أو عناصر المنهج وضوابطه .

ولما كان التباين ظاهرة ملازمة للغة في مستوياتها المختلفة ، وكانت تحقيقاتها انعكاساً لواقع الاستخدام اللغوي ، كان طبيعياً أن يواكب ذلك اتجاهٌ في مستوى النظر اللغوي ، فكانت ظاهرة تعدد الوجوه ماثلة في الفكر اللغوي العربي ، فيما عُرف بالخلاف النحوي خصوصاً والخلاف في مسائل اللغة عموماً . وبذلك تكون ظاهرة التباين - بما تكشف عنه من تمثّل للواقع - ركناً بارزاً في النظرية اللغوية العربية وعلى نحو أخص في الأصول .

ويمثل درس التباين في التراث اللغوي العربي أساساً متيناً في الفكر اللغوي العربي ؛ إذ يكشف عن وعي علاقة اللغة بالمجتمع ، وكيفية عكس البنية اللغوية للبنية الاجتماعية ، وكيفية تغير الأداء اللغوي وفقاً لعوامل اجتماعية متعددة كالبيئة والموطن والجنس والطبقة الاجتماعية والمهنة .

وقد جهدت هذه الدراسة أن ترصد أوجه التباين بوصفها وقائع لغوية متداولة ؛ أجل الكشف عن بواعثه والعوامل التي أسلمت إليه ، لغوية كانت أو اجتماعية .

ثم إنها تحاول الكشف عن أنظار اللغويين واتجاهاتهم اللغوية التفسيرية في رصد الظاهرة وتفسيرها ، كاشفين عن وعيهم بضرورة اللغة وانفعالها بالمجتمع الذي تتداول فيه .

وقد عمدت الدراسة في استقراء مادتها إلى اشتقاقها من مظانها المتنوعة مذهباً واختصاصاً . فعولت أولاً على التراث ذاته بما أثمرته جهود الأوائل في جمع اللغة وتدوينها وتصنيفها ، ثم توجيهها توجيهات لغوية وفق منحى شمولي مدروس . فتنوعت المصادر تنوعاً لافتاً ، بما يفضي إلى استفاد جميع مصادر المعرفة اللغوية ، سواء أكانت مصادر لغوية بحتة ، أم مصادر تتخذ من اللغة أساساً في علمها ومبادئه ، وهكذا دارت مصادر المادة في الأفلاك التالية :

- المصادر اللغوية الأصول : وهي التي تتضمن تدرأً ورافياً من المادة الممثلة الواقع اللغوي آنذاك ، وما انبنى على هذا الواقع من تنظير لغوي . ويتضمن هذا النوع المصادر اللغوية الموسوعية التي مثلت المرحلة الأولى من مراحل التأليف اللغوي عند العرب ، ويقصد بها تلك المصادر التي تناولت الظاهرة اللغوية العربية وفق منحى شمولي يستفد مستوياتها التحليلية : الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والمعجمية والهجائية . ويتقدم هذه المصادر كتاب سيبويه والخصائص وارتشاف الضرب وشرح المفصل وغيرها كثير .

- المصادر اللغوية المختصة : وهي المصادر التي انفردت بدرس مستوى واحد من المستويات اللغوية ، أو انفردت بدرس جانب واحد من جوانب التباين اللغوي ؛ من ذلك كتب المترادف والمشتراك والأضداد ، وكتب التصريف والهجاء وسوى ذلك . وأظهر هذه المصادر : المذكر والمؤنث للمبرد ، والأضداد للأبياري ، والإبدال لأبي الطيب اللغوي ، والهجاء لابن الدهان ، والمقصود والممدود للقراء ، وغيرها .

- المصادر المختصة بالقراءات القرآنية : وإنما كان ذلك لأنها توثق العربية المنطوقة آنذاك ، ومن شأنها تقوية وجه أو تضعيفه ، ويقويها في النفوس تجويز الرسول لها ، ثم رُبط العلماء لها بوجوه العربية ، فكان منها : السبعة في القراءات لابن مجاهد ، والنشر لابن الجزري ، وغيرها .

- مصادر غريب اللغة والقرآن والحديث : وتعنى بتفسير ما قلّ ونذر من ألفاظ وتراكيب ومعانٍ ، لم يكن للعرب ألفاً بها ، وإنما كان ذلك من باب الاستئناس ؛ لالتماس وجوه قد تكون قديمة ثم اندثرت ، أو جديدة ليس لها إرث قديم . فكان منها : غريب الحديث لأبي عبيد ، وغريب الحديث للبُستي ، والنوادر لأبي مینحل الأعرابي .

- مصادر الأعراب : وهي تلك المصادر التي عنيت بالتوجيه النحوي للمسائل اللغوية وبيان إعرابها ، وتفسير الوجوه الجائزة فيها ، وهذه المصادر كثيرة ومتعددة ؛ فمنها مغني اللبيب لابن هشام ومنها أعراب القرآن المتعددة .

- المصادر اللّهجية : وهي المصادر التي اقتصت بدراسة لهجات قبلية على التعيين ، وهذه المصادر أقلها من حيث الاختصاص ، ولكن اللهجات القبلية ماثورة هنا وهناك . وأهم الكتب المعنّية بتوثيق اللهجات : كتاب لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم لأبي عبيد .

- مصادر الفكر اللغوي : وهي تلك المصادر التي كانت تستبطن الظاهرة اللغوية وتوثق اتجاهات اللغويين والنحاة في درس الظاهرة وتوجيهها من منطلقات تأسيسية خاصة بهم . ويتبوأ صدارة هذه المصادر كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف .

- المصادر الأدبية والشروح : وهي المصادر التي وثقت منطوق العرب ، وصدورهم التلقائي العفوي في أداء لغتهم . ونجد ذلك في كتب الجاحظ

والمجموعات الشعرية وشروحها ، كشرح ديوان الحماسة والبيان والتبيين والكمال للمبرد .

- المصادر المعجمية : وهي تلك المعجمات التي جمعت اللغة وحفظتها كلسان العرب ومجمل اللغة والقاموس المحيط والمُخصَّص .

ثم كان مطلب الحدائث ضرورياً ، وإنما كان ذلك صدوراً عن رغبة سكنت نفس الكاتب مفادها : أن تناول التباين اللغوي في العربية من الجانب العربي وحده يظل منقوصاً ، وأنه لا بد لنا في هذه المرحلة من استئناف النظر ، أن نتبصر فيما بلغه الدرس اللغوي الحديث من آفاق . فكان الاعتماد على المصادر اللسانية الغربية الحديثة والمراجع العربية التي استفادت مناهج البحث اللساني ركيزة هامة في درس التباين ؛ قصد استكشاف الملامح النظرية والتطبيقية التي صدر عنها اللغويون العرب في دروسهم لغتهم عامسة ، ودرسهم تعدد الوجوه وتشعبها في الاستعمال ومنهج النظر والتفعيد .

المنهج :

إن الدراسة اتخذت سمتاً منهجياً واضحاً ، يقوم على مزج بين الأنظار الوصفية والأنظار التاريخية .

وينطلق منهج الدرس من فكرة ، مفادها أنه لا فوارق حاسمة جداً بين الدرس الوصفي والدرس التاريخي ؛ فإذا كان الوصفي يدرس اللغة مع ثبوت نسبي للزمن واستبعاد فعله في الظواهر اللغوية ، فإن التاريخي لا يفارق الوصفي في مرحلة منه ؛ إذ إنه لا بد من درس الظاهرة في زمن ثابت ، ثم الانتقال إلى زمن ثابت آخر ، وهكذا يكون الوصفي أساساً منهجياً لا يتم للمنهج التاريخي مسعاه دون الاعتماد عليه .

وهكذا تتخذ الدراسة سمتاً منهجياً واضحاً ، فهو منهج وصفي يقرر الظاهرة اللغوية ، ثم يقدم لها تفسيراً مستوحى من معطيات اللسانيات الحديثة ، ولما كان البعد الزمني فاعلاً في تفعيد العربية ، كان المنهج يميل إلى رصد فعل الزمن في الظواهر اللغوية .

ومنهج الدرس ببعديه الوصفي والتاريخي يدرس الظواهر اللغوية ثم يدرس أنظار اللغويين في الظاهرة ، وهكذا يدرس المنهج الوصفي الأنظار الوصفية في رسم ملامح التباين. في حين يدرس المنهج التاريخي النظر اللغوي التاريخي الذي عُلِّلَ التباين لدى اللغويين العرب .

وإذا كان السَّعت المنهجي العام وصفيًا ؛ فإنه يتخذ من الأنظار الوصفية والتاريخية الحادثة مستأنسًا . فيستفيد من اللسانيات التقابلية من جهة واللسانيات الاجتماعية التطبيقية من جهة ثانية ، ويتكى في جانب قليل منه على معطيات الساميات المقارنة ؛ وإنما كان ذلك لأن هذه الدراسة تقدم بوصفها دراسة لسانية عامة تتخذ من العربية عينة خاصة ومادة دَرَس .

ويسير منهج الدرس في محورين متوازيين :

الأول : دَرَس التباين بوصفه وقائع لغوية متداولة وناجزة في المجتمع اللغوي العربي.

الثاني : دَرَس التباين في مستوى النظر اللغوي ؛ أي التفسير والتعليل الذي كان مصاحباً للوقائع اللغوية ؛ إذ لا تجد ظاهرة مقررة إلا وقد عللها القداماء وفسروها ، فإن عز ذلك توفّرنا على تعليقات خاصة مما تسعفنا به اللسانيات المعاصرة .

بناء الرسائل:

وقد اقتضى بناء الرسالة أن تتوزعه فصولٌ سبعة على النحو التالي :

الفصل الأول : وهو فصل يؤسس لنظرية التباين مفهوماً ومعنى ؛ إذ يتناول النظرية وفق المفاهيم اللسانية الاجتماعية الحادثة بوصفها نظرية تدرس التباين في الأداءات اللغوية في المجتمع اللغوي الواحد ، ساعية إلى الربط بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية وفق متغيرات اجتماعية على التعيين ، فتدرس اختلاف الجنس وانعكاسه في الأداء اللغوي ، وتدرس اللغة أداة دالة على المهنة والطبقة الاجتماعية .

ثم يمضي الفصل في المبحث الثاني ليستفيد العوامل التي شكّلت التباين في الظاهرة اللغوية العربية على مستويين : مستوى الأداء اللغوي ومستوى التحليل والتفسير. ويتلمّس هذا المبحث ما صدر عنه اللغويون العرب أو صرّحوا به من أنظار لسانية اجتماعية ترصد التباين وتفسره .

الدلالات المعجمية في الاستخدام الوظيفي في أحواز جغرافية متعددة بما يفضي إلى الترادف في اللهجة الواحدة أو النظام اللغوي الكلي .

الفصل السادس : التباين في الرسم والهجاء .

وهذا فصل يحاول أن يؤسس للعوامل التي تُدافع قوانين الهجاء العربي ، فتتقله من رسم إلى آخر . ثم يتناول وجوهاً من التباين في الرسم محمولة على رسم المصحف أو موافقة اللفظ أو القياس .

الفصل السابع : نظرية التباين في العربية .

وهذا الفصل خلاصة البحث ومستصفاً لتأسيس تاريخ للدراسات الحقلية واللسانية الاجتماعية العربية ؛ إذ يقول بوجود نظرية للتباين في العربية ، وهي نظرية تسيير في المسار العام للنظرية اللغوية العربية ، وتشارك غيرها من النظريات الفرعية في الإسهام في رسم المعالم العامة للنظرية اللغوية العربية ، بما يحكمها من ضوابط ويسري عليها من قوانين فاعلة .

أما الخاتمة فتحاول استخلاص المشابه النظرية والتطبيقية بين اللسانيات الاجتماعية العربية واللسانيات الحديثة .

الفصل الأول : في بنية النظرية
وفيه مبحثان :

- الأول : التباين اللغوي : مفهومه وقضاياها .**
- الثاني : التباين في العربية .**

المبحث الأول

التباين اللغوي : مفهومه وقضاياها

توطئة :

اللغة ظاهرة اجتماعية عامة ، يشترك فيها أبناء الجنس البشري ، ويفردون بها دون سائر المخلوقات الأخرى . وتظهر أهمية اللغة في كونها تتوسط النشاط الاجتماعي للإنسان ؛ فهي الأداة الأولى للتواصل والتفاهم الاجتماعيين ، والوعاء الحامل لتقافة الجماعة الناطقة بها وخبراتها المتراكمة عبر العصور ، ووفقاً لها تحدد الانتماءات الاجتماعية والعرقية .

والقول باجتماعية اللغة يعني ضمناً أنها تدور على ألسنة أفراد بأعينهم يجمعهم انتماء اجتماعي وجغرافي . ويقوم استخدام الأفراد لذلك النظام وفق اعتبار أساس يُعرف بالتواضع والاصطلاح . وهذا الاصطلاح يكون القيد العام الذي تدور وفق أسسه وقوانينه اللغة ؛ فهو ينتظم قواعد نحوية وصرفية وصوتية ودلالية وقيماً ثقافية وأساساً اجتماعية تميزه من سواه من الأنظمة اللغوية الأخرى ، وبناء عليه يحدد انتماء الفرد اللغوي . ومثل هذا التآلف والتوافق يعرف وفق مفاهيم اللسانيات الاجتماعية بالمجتمع الكلامي .

ومع كل ما يقال عن الجماعة الكلامية (المجتمع الكلامي) من حيث توحيدها ؛ فإن هذا لا يعني أن أي مجتمع لغوي متجانس تمام التجانس ، وأن التواصل متحقق على نحو مطرد فيه ؛ ذلك أنه من النادر وجود مجتمع يقتصر على جماعة واحدة تستخدم نظاماً لغوياً واحداً للتواصل . وعليه يكون الفرد مضطراً للتفاعل مع أفراد يتحدثون لغة مفارقة للغة الجماعة ، ويعيشون تحت السقف الاجتماعي نفسه .

وتتبع التنوعات اللغوية في المجتمع الواحد - حسب اللسانيات الاجتماعية - من عوامل متعددة : كالهجرات السكانية ، ودوافع التجارة والصناعة ، والتبادل الثقافي ، والغزو

العسكري . ومن هنا فإن اشتمال المجتمع الواحد على لغات متعددة (محلية لهجيسة أو أنظمة مختلفة) أمر طبيعي وعادي ولا تخلو منه أي لغة (١).

وقد نجحت اللغة - من موقعها الاجتماعي - في اجتذاب ميادين بحث جديدة لم تكن من موضوعاتها التقليدية ، ولكنها استعارتها لوجه أو أكثر من وجوه التشابه فقد استعارت من مناهج علم الاجتماع والأنثروبولوجيا طرائق دراسة اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية يجري عليها ما يجري على غيرها من الظواهر الاجتماعية ، وكذلك تم الاعتماد على الأشكال اللغوية بوصفها مادة حاضرة وقادرة على تقديم صورة واضحة عن الأنماط الثقافية والروابط الاجتماعية التي تحكم مجتمعاً ما .

ونتيجة للعلاقات المتبادلة بين مناهج الدرس اللساني ومناهج الدرس الاجتماعي ، نشأ علم اللسانيات الاجتماعية ، الذي يقوم على دراسة اللغة في إطارها الاجتماعي ؛ أجل التوصل إلى ضوابط تحكم العلاقة بين الوظائف اللغوية والوظائف الاجتماعية ، وكيفية عكس البنية اللغوية للبنية الاجتماعية وفق متغيراتها المتعددة كالمستوى الاجتماعي والجنس والعمر والموطن وغيرها من المتغيرات .

واتضح لدى جُلِّ الدراسات اللسانية أن علاقة اللغة بالمجتمع لا تتجاوز الأوجه التالية :

الأول : أن البنية الاجتماعية قد تؤثر في البنية اللغوية وتحددها ، وينعكس هذا في تحديدها للسلوك اللغوي . وينضوي تحت هذا التصور الدراسات التي تبرز التنوعات اللغوية بوصفها عاكسة للديانة والأصل العرقي والجنس . كذلك تتضمن استخلاصاً مؤداه أن التزام المتكلم بهيئة أداء مخصوصة والتزامه بقواعد حوار ومفردات لغوية على التعيين إنما ينضبط بضوابط اجتماعية واقعية كالعلاقة بين المتحدثين ومدى رسميتها .

١ Wardhaugh, R. An Introduction to sociolinguistics, P: 23

الثاني : ويقف على النقيض من الأول ؛ إذ إن البنية اللغوية ، وما يرافقها من سلوك لغوي يؤثران في البنية الاجتماعية ويحددانها . وهذا الرأي مشتهر بنظرية سايبير - وورف .

الثالث : وهو توليف من الأول والثاني ؛ أي أن العلاقة بينهما علاقة متبادلة وذات اتجاهين ؛ فاللغة والمجتمعات مؤثران ومتأثران في الوقت نفسه . والتنوع وفقاً لهذا المذهب هو التأثير الجدلي في الطبيعة ، وفقاً لوجهة النظر الماركسية التي طبقها (دتمر Dittmar) ومؤداها أن السلوك الكلامي والسلوك الاجتماعي في تفاعل دائم .

الرابع : أنه لا علاقة بينهما البتة ؛ أي أن البنية اللغوية مستقلة عن البنية الاجتماعية .

ويبدو أنه بات متفقاً على وجهة النظر الثالثة التوفيقية ، يتجلى ذلك في الدراسات اللسانية الاجتماعية التطبيقية ولا سيما دراسات التباين اللغوي التي تسعى إلى الكشف عن ضوابط هذه العلاقة المتبادلة وتشكلاتها ومظاهرها ودلالاتها اللغوية والاجتماعية على نحو يأخذ بالمتغيرات اللغوية والمتغيرات الاجتماعية في الوقت نفسه .

وتأسيساً على ما سبق ؛ كان على اللسانيات الاجتماعية أن تستحدث طريقاً فسي منهج النظر يتسق مع مادة دراستها الحادثة ؛ قصد تجنب ما قد يحدث من تناقض . وبيان ذلك أن اللسانيات كانت تعتمد دراستها للغة على مفهوم اللغة المثالية وفق منحى سكوني ثابت ، وأكثر ما يكون بروز هذا عند تشومسكي رائد المدرسة التحولية ؛ إذ كان يرى أن الدراسة الحقيقية للغة إنما هي استبطان الكفاية اللغوية لدى المتكلم والسامع المثالي وبالاعتماد على حدسه أو حدس اللغوي يمكن الوصول إلى القوانين التي تحكم الأداء وتسييره . وعليه يمكن القول بانسجام الأداء اللغوي واطراده .

لقد كان تجاوز المدرسة التحولية للبعد الاجتماعي للغة من أهم الانتقادات التي وُجّهت إليها ، ومن أهمها انتقاد (دل هايمز Dell Hymes) لمفهوم الكفاية عند تشومسكي ؛ ذلك " أن القواعد اللغوية - التي هي مادة الكفاية - لا تمكن الإنسان من استخدام قواعد لغته في

مجتمعه على نحو صحيح وملامح ؛ لذلك لا بد للفرد من اكتساب قدرات أخرى تتمثل في القدرة على التواصل الاجتماعي ، وتعني القدرة التواصلية: القواعد الاجتماعية لاستخدام اللغة استخداماً مناسباً في المواقف المختلفة " (١) . ومن هنا لم يعد القول بانسجام اللغة أمراً مقبولاً في هذا الميدان ؛ فاللغة غير منسجمة لأنها تؤدي أغراضاً مختلفة ومتنوعة . فاستُبدلت بمقولة الانسجام مقولة التباين . وأصبحت الطبيعة التلقائية العفوية للأداء اللغوي هي المادة الأساسية للعلم اللغوي عند اللسانيين الاجتماعيين ولا سيما لابوف . (٢)

ويعد وليام لابوف (Labov) مُستحدث القول بالتباين وعدم انسجام الظاهرة اللغوية وتجانسها ، وقد انطلق في ذلك من رؤية ديناميكية تعامل اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية متحركة، وقامت تلك الرؤية على الأسس التالية :

أولاً : اللغة ظاهرة غير منسجمة وغير مطردة ، وتتصف بالتباين صفة لازمة .

ثانياً : اللغة في تباينها محكومة بعوامل لغوية واجتماعية .

ثالثاً : اللغة ظاهرة متغيرة ومتطورة باستمرار .

وحتى يستقيم له الأساس المنهجي النظري الذي يقيم عليه دراسته للتباين رفض الفصل التقليدي بين المستوى الوصفي الثابت والمستوى التطوري التعاقبي ، وبنى على ذلك القول بأن التباين هو الوجه الوصفي الثابت للتطور ، وأن التطور هو الوجه التطوري التاريخي للتباين . (٣)

التباين اللغوي : مفهومه وقضاياها

يُعرّف التباين (التنوع) اللغوي بأنه " مجموعة وحدات لغوية لها توزيع اجتماعي واحد " (٤)

¹⁾ Bell, R. An Introduction to Applied Linguistics . P: 76

²⁾ Abd - EL - Jawad, Lexical and Phonological Variation in Spoken Arabic in Amman. Ph. D. Dissertation, The University of Pa. 1981. P: 37

³⁾ عشاري أحمد محمود ، التوحيد بين اللسانيات الحديثة والعربية في دراسة المهجات . أشغال ندوة اللسانيات في خدمة اللغة العربية ، الجامعة التونسية ١٩٨١ . ص ٣٠٠ .

⁴⁾ Hudson, R.A : Sociolinguistics , P: 24

وعرّف فيرغسون التنوع الواحد (Variety) بأنه : مجموعة من أنماط الكلام الإنساني ، متجانسة التكوين ، يمكن تحليلها وفق أساليب الوصف السكوني الفنية المتوافرة ، وفيها ذخيرة من العناصر بترتيباتها أو عملياتها ، ومجال دلالي واسع يعمل في جميع السياقات الطبيعية قصد التواصل .^(١)

ونستطيع أن نستظهر في المجتمع الواحد أنماطاً مختلفة من التباين نجملها فيما يلي :

أولاً : التباين الداخلي . ويكون داخل النظام اللغوي نفسه ؛ إذ يسود المجتمع نظام لغوي متعارف عليه ، ولكنه يتضمن تنوعات داخلية تنضوي تحته ؛ من ذلك التنوع بين فصحي وعامية ، ورسمية ودارجة ، إضافة إلى اللهجات الجغرافية والاجتماعية وهذا (التنوع في إطار التوحد) عام في اللغات جميعاً .

ثانياً : التباين الخارجي . ويعني أن تستعمل في المجتمع الواحد أنظمة لغوية متباينة شكلاً ومضموناً ؛ وهو ما يعرف بالثنائية اللغوية أو التعدد اللغوي ؛ فسيادة الفرنسية والإنجليزية في كندا تباين خارجي ؛ ذلك أن نظام الفرنسية مباين لنظام الإنجليزية .

ثالثاً : التباين المركب . ويقصد به تلك الأنظمة اللغوية التي تنشأ نتيجة مزج أنظمة لغوية مختلفة أجلّ التواصل . ويتمثل هذا التباين في اللغات الهجين التي تنمو وتزدهر نتيجة حاجة أساسية لدى أناس يتكلمون لغات متباينة لإيجاد نظام لغوي تواصل متواضع عليه . وقد أُطلق على مثل هذه اللغات مصطلحات متعددة مثل : لغة التجارة ، ولغة اتصال واللغة المساعدة.^(٢)

ونتيجة للاهتمام المتزايد بدراسة العلاقة بين اللغة والمجتمع ، أصبح علم اللسانيات الاجتماعية أخصب ميادين اللسانيات وأكثرها وظيفية وفاعلية ؛ لتحقيق الهدف العام الذي تسعى اللسانيات النظرية إلى تحقيقه ، وهو نقل المعرفة اللسانية من التنظير إلى التطبيق في التخطيط اللغوي ، وتعليم اللغات وإصلاح أنظمة الكتابة وسواها .

1) Wardhaugh, R, P: 22

2) Wardhaugh, P: 55

وكان أن انشعب من اللسانيات الاجتماعية فرع يجعل وَكُذَهُ دراسة التباين اللغوي ووظائفه الاجتماعية ، ذلك هو علم اللهجات الذي يدرس اللهجات من زوايا متعددة قصد ضبط عوامل توزيعها وانتشارها وربطها بالمتغيرات الاجتماعية المختلفة . ويستقيم لنا هنا أن نميز أهم التنوعات اللغوية التي توصلت إليها الدراسات الحديثة :^(١)

| الرقم | مجال التقسيم | التنوعات اللغوية |
|-------|------------------------------|--|
| ١- | الرسمية (المكانة الاجتماعية) | الفصحى والعامية (وقد تكون لهجة متعارفاً عليها هي العليا) |
| ٢- | وسيلة الأداء | المكتوبة والمنطوقة |
| ٣- | الجنس | لغة الرجل ولغة المرأة |
| ٤- | الوظيفة الاجتماعية للغة | السياسة والاقتصاد والإعلام والتجارة والأدب ... |
| ٥- | العمر | لغة الأطفال ، ولغة البالغين ، ولغة كبار السن |
| ٦- | العرق | عربي ، أو أمريكي ، أو زنجي |
| ٧- | الجغرافيا | لغة الشمال ، والجنوب ، والوسط |
| ٨- | المهنة | طبيب ، ومزارع ، صيدلاني ، روائي ، مترس ، تاجر |
| ٩- | الخلفية الاجتماعية | مدني ، أو ريفي ، أو قروي ، أو بدوي |
| ١٠- | الطبقة الاجتماعية | الطبقة العليا (الغنية) ، أو الطبقة المتوسطة ، أو الطبقة الدنيا (الفقيرة) |

لعل مجالات النظر السابقة هي أهم المجالات التي عولج التباين في إطارها أما التقسيم اللوجي الشائع فيندرج وفقاً لما يأتي :

٥٢٨٢٢٢

^(١) تفصيل ذلك انظر : صري السبد ، علم اللغة الاجتماعي . ومحمد الحولي ، مدخل إلى علم اللغة : ١٦٣-١٧٧ . وحوليت غارمادي ، اللسانة الاجتماعية . ترجمة خليل أحمد . وأيضاً : Hudson : Sociolinguistics .

١ - اللهجات الاجتماعية:

وترتبط بالوضع الاجتماعي للمتكلمين متمثلاً في مجموعة عناصر (وهي التي تعرف بالمتغيرات الاجتماعية) هي : المهنة والممكن ومستوى التعليم والدخل والأصل العرقي والخلفية الثقافية والديانة والطائفة الاجتماعية والجنس .^(١)

وتنشأ هذه اللهجات بين التجمعات البشرية التي تشترك في العناصر المذكورة سابقاً ، وينعكس أثرها في الأداء الكلامي لهؤلاء على المستوى الصوتي أو الدلالي أو النحوي أو الصرفي . وأكثر ما يكون في المستوى الصوتي والمستوى المعجمي الدلالي ؛ إذ إن استخدام مفردة ما في لهجة ما قد يدل دلالة واضحة على الانتماء الاجتماعي للمتحدث ، وعليه قد يختلف الأداء الكلامي للغة الواحدة وفق هذا الاعتبار ، فلهجة المدني تختلف عن لهجة البدوي ، وهذه بدورها تختلف عن لهجة الريفي أو القروي . وكذا القول في لهجة أبناء الطبقة الغنية المباشرة لللهجة أبناء الطبقة الفقيرة الذين لم يحصلوا قدرًا كافيًا من التعليم . ومن أبرز الأمثلة على ذلك أنه من السهولة تبيين الأصل العرقي في الولايات المتحدة الأمريكية بالنظر إلى التنوع الذي يستخدمه المتكلمون ، إذ أصبحت إحدى اللهجات الإنجليزية الأمريكية معرفة بهم ، وهي إنجليزية السود (Black English) .^(٢)

وليس سهلاً فرز هذا النوع من اللهجات ؛ فهو يواجه صعوبات كثيرة لدى الفحص الميداني للتنوع في المدينة ، ومَرَدُّ ذلك إلى أن التحديد والفرز اللغوي في المدينة أصعب منه في القرية ، بل إن التباين في المدينة يطال تركيب الأسرة الواحدة لغوياً^(٣) .

وقد أجريت دراسات كثيرة لفحص التنوع اللغوي في المدن الكبرى للوصول إلى نتائج محددة تصل التباين في البنية اللغوية بالتباين في البنية الاجتماعية . ولعل أهم هذه الدراسات دراسة لابوف لمدينة (نيويورك) مستخدماً المتغير اللغوي / R / . إذ كان مبتغاه أن يكتشف إن كان ثمة علاقة اجتماعية ترتبط بتحقيق هذا المتغير قبل صائت أو عدم تحقيقه^(٤) .

1) Wardhaugh, R. P : 46

2) Wardhaugh h. R. P : 46

3) Wardhaugh h. R. P : 47

4) Hudson . PP: 148-152

وكان اعتماده على عينات ثلاث تمثل ثلاثة مستويات اجتماعية هي : الطبقة العليا والطبقة الوسطى والطبقة الدنيا . ولم يعتمد على السماع مرة واحدة بل كان يطلب إلى المتحدث أن يعيد النطق غير مرّة للتأكد من صحة النطق ، فكان أن اتّدى إلى أن تحقّق نطق المتغير / R / في بعض لهجات (نيويورك) يمثل قيمة اعتبارية تدل على المكانة الاجتماعية^(١).

أما الدراسات العربية التي اتخذت هذا المنحى فهي متعددة ومتباينة ؛ فمنها ما قام به باحثون عرب ومنهم من كان مستعرباً درس التباين في العواصم العربية كدمشق والقاهرة والبحرين وسواها . وقد تكون دراسة حسن عبد الجواد " التنوع المعجمي والصوتي في العربية المنطوقة في عمان " أو عبّ هذه الدراسات وأثرها مأخذاً ؛ إذ قام بدراسة عدد من المتغيرات الصوتية وأهمها صوت القاف / q / والصور التي يتحقّق فيها هذا المتغير ، ثم توصل إلى ربط تلك التتوعات بالبنية الاجتماعية للمتكلمين (العمر والجنس والخلفية الثقافية والطبقة الاجتماعية)^(٢).

٢- اللهجات الجغرافية :

وتحدد هذه اللهجات وفقاً لاعتبار أساس وهو الإقليم الجغرافي الذي تُتداول فيه اللغة ؛ ذلك أن اللغة أقرب ما تكون إلى الحصر في حيز جغرافي ، ثم إن تنوعاتها تتوزع ذلك الإقليم على نحو قريب من الانضباط ؛ فتكون اللهجة بذلك علماً على متكلميها محلياً أو إقليمياً ، ذلك أن العربية تدل على أن المتحدث ينتمي أولاً إلى بقعة جغرافية محددة من العالم هي الوطن العربي ثم إن لهجته المحلية تحدد انتماءه إلى فلسطين أو إلى الأردن أو مصر أو العراق . وداخل البلد الواحد نستطيع - إلى حد ما - معرفة لهجته إن كانت شمالية أو جنوبية .

وكان لهذا النوع من اللهجات حظ وافر من الدرس والتحليل ، ولا سيما لدى اللسانيين المهتمين باللسانيات التاريخية التعاقبية . فتوسّلوا في ذلك أساليب خاصة يعتمدونها في تحصيل غاياتهم من رصد الظواهر اللهجية . فقد أفادوا من علم الجغرافيا وما تضمنه من تقنية الخرائط ، فحاولوا رسم حدود دقيقة لانتشار اللهجات باستخدام الأطالس اللهجية ؛ إذ حاولوا إظهار الحدود الجغرافية لتوزيع سمة أو مَلْمَح لساني مخصّوص برسم خط على

1) Wardhaugh. P : 47

2) Abd - EL- Jawad, Lexical and Phonological Variaten in Spoken Arabic in Amman.

الخارطة ، يسمى خط توزيع اللهجة . وهو خط وُضِعَ قياساً على المحطات المتماثلة في درجات النهايات العظمى للحرارة في الخرائط الجوية التي تسمى (Isotherms)^(١) .

لم يكن استخدام هذه الخرائط للتنوع اللهجي حادثاً ، فهو ذو تاريخ طويل في اللسانيات الحديثة ؛ فقد وضع استخدامها أساساً متيناً لدراسة تغير اللغات مع الزمن وفق المنهج التعاقبي (التاريخي) . ووفقاً لوجهة النظر هذه ، فإن اللغات تختلف داخلياً كلما تباعد الناطقون باللغة بعضهم عن بعض زماناً ومكاناً . وتظهر هذه التغيرات في توليد اللهجات ، ومع دوران الزمن تصبح اللهجات الناتجة لغات جديدة ، كحال اللاتينية التي أصبحت في فرنسا الفرنسية ، وفي إيطاليا الإيطالية وفي إسبانيا الإسبانية . كذلك فإن التنوعات البريطانية والأمريكية للإنجليزية إنما هي بفعل الزمان والمكان ؛ إذ تم ذلك خلال قرنين من الزمن نتيجة الاستقلال السياسي والمحيط الأطلسي^(٢) .

ولا تقتصر الدراسات اللهجية الجغرافية على المستوى الصوتي ، بل تتجاوزها إلى المستويات النحوية والصرفية والدلالية . ففي المستوى الصوتي يقسم خطُّ ما الناطقين بالإنجليزية إلى قسمين : قسم ينطق كلمة (Bath) بالصائت الأول في (Father) ، والقسم الآخر على جانب آخر من الخط ينطقونه على نحو مغاير . وفي المستوى المعجمي ثمة خط يفصل المتكلمين إلى مجموعتين : الأولى تستخدم كلمة (elevator) والثانية (lift) للدلالة على المصعد^(٣) .

أما في العربية فنجد أمثلة حاضرة متداولة على المستويين الفصيح المكتوب والعامي المنطوق ، من ذلك أننا في الأردن وفلسطين نستخدم " تاريخ الولادة " ، في حين أن التعبير الشائع في المغرب العربي : تاريخ الازدياد (الزيادة) . وكذلك درجنا على استخدام كلمة " ثابت " في حين يستخدم أهل المغرب العربي كلمة " قار " ، والأمثلة على هذا غير واحد .

وبالنظر إلى المادة اللغوية التي اعتمدت عليها الدراسات اللهجية الجغرافية ، نجد أنها اتكأت على دراسة المناطق الريفية ؛ إذ عُدَّت هذه المناطق مناطق محافظة لغوياً ، وباستطاعتها توفير الأشكال اللغوية الأصلية (القديمة) ، أما المناطق الحضرية (المدنية) فهي محدثة وغير

1) Wardhaugh. P : 128. And Hudson. P : 39

2) Wardhaugh . P: 128

3) Wardhaugh, P: 128

مستقرة لغوياً ؛ لذلك يصعب إخضاعها لتقنيات المسح اللغوي . وكان أهم المآخذ على هذا النوع من الدراسات ما يأتي (١) :

- ١- إهمال المناطق المأهولة بالسكان (المدينة) ذات الانتشار العشوائي ؛ لما ينعكس على العينة من تعقيد .
- ٢- اختيار الراوية لا يكون مضبوطاً ، ولا يعكس أكثر من حكم خاص بالباحث الذي يجمع المادة بصلاحيته الراوية ليكون عينة ممثلة أو عدم صلاحيته .
- ٣- الافتقار إلى الصرامة (الدقة) العلمية التي تعتمد عليها في تعيين (Sampling) السكان .

٣ - اللهجات المهنية (الحرفية) :

وتنشأ بين أفراد ينتمون إلى حرفة واحدة ويستخدمون مصطلحات متعلقة بتلك المهنة ، مثل مصطلحات الأطباء والمهندسين والطارئين . ويمكن عدُّ هذه اللهجات من باب المصطلحات الفنية التي ينحصر استخدامها في فئة مخصوصة في مواقف ومناسبات على التعيين . ويغلب أن تمتاز هذه اللهجات من المعجم اللغوي المستخدم ، لا بالسماط الصرفية أو النحوية ، وتكون هذه اللهجات أكثر خصوصية حين تكون المهنة متوارثة في عائلة ما منذ عهد طويل ، كمهنة النجارة أو الحدادة أو الزراعة . ولا شك أن هذه اللهجات تساهم في تمييز الطبقة الاجتماعية بالنظر إلى مكانة هذه المهنة في السلم الاجتماعي للمجتمع الذي تدور فيه .

٤ - اللهجات الجنسية :

لا يخلو أي مجتمع من المجتمعات من جنسين بشريين : الرجل والمرأة . ويختلف كل مجتمع عما سواه من حيث الوظائف الاجتماعية التي يسندها إلى كل منهما . ومع ذلك فإنهما يشتركان في الوسيلة المستخدمة لتحقيق أغراضهما في التواصل ؛ أي اللغة . ولكن هل تؤدي اللغة على نحو مشترك ومتشابه بين الرجل والمرأة ؟ أم يؤدي الاختلاف الجنسي بينهما وظيفة في ميّز أسلوب المرأة من الرجل خارج الإطار البيولوجي ؟

تظهر الدراسات اللسانية الاجتماعية ، أن هذا النوع من الأسئلة قد دخل حيز البحث مع بروز التباين اللغوي مجالاً رحباً لدراسة التحققات المتباينة للأداء اللغوي ؛ إذ كان الجنس واحداً من المتغيرات الاجتماعية التي تضبط التباين ، وتسهم في تحديد العلاقة بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية .

إذ إن للرجل دوره في المجتمع والمرأة دورها المباين لدوره . فكيف يؤثر هذا التباين في الوظيفة الاجتماعية في الأداء اللغوي ؟؟

في النطاق اللساني العام أجريت دراسات لسانية كثيرة كشفت عن تباين بين الرجل والمرأة في الأداء اللغوي على المستويات التحليلية جميعها : صوتياً ونحوياً ودلالياً .

وكذا القول نفسه في اللسانيات العربية ، فبالإضافة إلى دراسة حسن عبد الجواد المتقدمة ، ثمة دراسات مختلفة حاولت رصد أثر الجنس في الأداء اللغوي . وسأقف على واحدة منها ؛ لشموليتها ووضوحها ، ولأنها كشفت عن نتائج هامة في الربط بين البنية الاجتماعية والوظائف الاجتماعية لكلا الجنسين في المجتمع العربي ، و الأداء اللغوي للرجل والمرأة .

هذه الدراسة هي دراسة مرتضى باقر " أنماط التمايز الجنسي - دراسة حالة في مقارنة العربية الفصحى " (١) . وقامت على عينة من الرجال والنساء في مدينة البصرة العراقية ، وتألقت هذه العينة من عشرة طلاب وعشر طالبات في مستوى السنتين الثالثة والرابعة ، ينتمون إلى خلفية اجتماعية واحدة ؛ فهم من سكان المدينة ومن أبناء الطبقة المتوسطة . وقد حاول ضبط عينته حين كان يتابع المحاضرات التي كانت مادتها مادة التحليل ؛ لضمان أكبر قدر من الرسمية .

أقام باقر دراسته على ثلاثة متغيرات لغوية ؛ قصّد تعرّف التنوعات اللغوية التي يؤديها الذكور والإناث ، ثم محاولة ربط ذلك بالوظائف الاجتماعية التي يمثلها التباين . وأهم هذه المتغيرات متغير صوتي هو صوت / K / ، إذ وجد أن له تحقيقين : [K و Ć] ومع تعلم استقرار هذا المتغير والمتغيرين الآخرين تحمّل له - كما لعبد الجواد وغيره - أن الرجال أكثر ميلاً من النساء نحو الاقتراب من الفصحى في المجتمع العربي ، وعند مساءلة أفراد العينة عن

1) Bakir. M.J Sex Differentiation Pattern : The Case of Approximation to Standard Arabic, Arab Journal of Language Studies Vol : 5 . N: 1 1986

نشرت هذه المقالة أيضاً تحت عنوان مقارب في مجلة :

Anthropological Linguistics Vol: 28, N: 1 . 1986

تقييمهم للأداء الذي قدموه ، اتفق الجنسان على أن المتغيرات الفصيحة أكثر رسمية من غيرها ، وكذلك أكدوا دلالة المتغير الفصيح على المستوى الرفيع من التعلم لدى المتكلم .

إن أهم ما يمكن أن نستخلصه من دراسة باقر وحسن عبد الجواد ، أنهما أظهرتا أنماطاً من التباين اللغوي مناقضة (مفارقة) لتلك التي استخلصت من دراسات غربية أجريت على المجتمعات الغربية أو الأمريكية* .

فقد أظهرت تلك الدراسات أن المرأة في المجتمع الغربي أكثر ميلاً إلى الفصحى والتأنق اللفظي ، ولديها ميل لإضفاء الرسمية على الموقف أكثر من الرجل وعلى النقيض تماماً في المجتمع العربي . ومثل هذا التناقض مردهً أصلاً إلى تباين التركيب الاجتماعي للمجتمع العربي والغربي وما يترتب عليه من اختلاف في الوظائف الاجتماعية لكلا الجنسين .

إن طبيعة المجتمع العربي - قبل عصر التحولات - أعطت الرجل وظائف اجتماعية يؤديها خارج البيت ، وهذه الوظائف في معظمها رسمية ؛ فهو مدير الشركة وأستاذ الجامعة ورئيس الوزراء وضابط الشرطة والمؤدّب في المدرسة والخطيب في المسجد . وهذه الوظائف إنما يغلب أن تؤدي بالفصحى أو ما يقاربها . أما المرأة فإن دورها الأساسي ينحصر في البيت لتأديب الأبناء والإشراف على متطلبات الزوج والبيت ، وأداؤها اللغوي خارج هذه الوظائف في حوارات مع نساء أخريات في شؤون نسائية بعيدة عن اهتمامات الرجال ومشاكلهم .

وعلى النقيض تماماً من هذه الدراسات ، تقف دراسة محمد حسن إبراهيم " الفصحى واللغة الراقية - مشكلة في اللسانيات الاجتماعية العربية - " فقد خلصت هذه الدراسة إلى القول : إن الذين فحصوا التباين اللغوي بالنظر إلى الجنس لم ينجحوا في تفسير المادة (العينة) ؛ لأنهم افترضوا أن الفصحى (التنوع الراقى II) هي اللغة ذات المكانة الاجتماعية . والصواب أن كل لهجة من اللهجات العامية (L) طورت لهجة محلية ذات مكانة اجتماعية ، وهذه اللهجات الراقية مفارقة للفصحى . وبناء على ذلك فإن المرأة العربية

*. يظهر أن أحمد مختار عمر قد وقع في هذا المثل في كتابه : اللغة واختلاف الجنسين ؛ إذ اعتمد على دراسات أجنبية ولم ينوّه هذه الفروق .

أكثر ميلاً إلى الاقتراب من اللغة المحلية الراقية ، وبالتالي فإن العربية الفصحى (H Variety) محايدة^(١) .

ولو أننا أمعنا النظر في الدور الاجتماعي الذي يؤديه الرجل والمرأة لاستطعنا أن نقف على جملة من السمات المتباينة بينهما . فعلى المستوى المعجمي يقوم معجم المرأة على خطوط عربية لا تخلو أي امرأة أن تهتم بها . فكونها أمّاً يعني ضمناً أنها تستخدم مفردات هذا الحقل الاجتماعي والدلالي ، فلا مناص لها من الألفاظ التالية : الأطفال ، العناية والحليب وتبديل الملابس والرضاعة والطبيب وصحة الطفل والصراخ والمهد . وكونها أمّاً لأبناء تجاوزوا مرحلة الطفولة يعني أنها تستخدم مفردات تُصوّر حرصها عليهم وشدة اشتياقها لحظة غيابهم وابتهاالها بالدعاء إلى الله أن يحفظهم من الزلاّت والعثرات وأن ييسّر لهم سبيل التوفيق والنجاح . وكونها امرأة تتداول مع صديقاتها وجاراتها الحديث اليومي ، فإن هذا التداول لا يعدو أن يكون متضمناً لمفردات مثل : الزواج ، المهر ، الضرة ، أهل الزوج ، العروس ، والعريس

أما الرجل فدوره الاقتصادي يحتم عليه تداول مفردات العمل والرواتب والضرائب وغلاء الأسعار والعلاقة مع رئيسه ومرؤوسيه ، وكونه متقفاً يدفعه هذا الدور إلى الحديث عن آخر الإصدارات والندوات والمحاضرات والإبداعات . ومثل هذا يقال عن الوظائف الاجتماعية الأخرى .

وعلى المستوى الأسلوبي ، نجد أن استحضار مواقف اجتماعية مُمثلة* ، يكشف عن مثل هذا التباين ، فلو استحضرننا حواراً بين امرأة وابنها نجد أنها تعتمد في جملها على تنغيم هابط يشي بأسلوب نُصَح ووعظ وتحذير ، مع إرداف ذلك بجمل فيها رائحة الدعاء ، ممزوجة بعبارات استعطاف تشير إلى خوفها عليه وحرصها على مصلحته . وكذلك الحال فيما إذا نظرنا في حديث يدور بين امرأة وابنتها ، ترسم الأم فيه لابنتها معالم طريقة في حياتها الجديدة مع زوجها عند الانتقال إلى بيت الزوجية .

1) Ibrahim, M.H. Standard and Prestige Language – A Problem in Arabic Sociolinguistics.

Anthropological linguistics, Vol: 28, No: 1 . P: 124 , 1986

* هذه أمثلة على التريب وهي مقتصرة على مواقف مخصوصة .

وكذا القول في حديث رجل إلى ابنه ، فإنه يُشتمُّ منه رائحة الإكراه والقوة ومحاولة فرض الرأي من الأب بدافع الخوف على مصلحته وبدعوى جهله وعدم قدرته على مَنز الصواب من الخطأ . فالدور الذي يؤديه الوالد يفرض عليه أن يكون صارماً وحاسماً ، وأما دور الابن في مرحلة القصور ، فإنه يدفعه إلى تقبل هذا الأسلوب - ولو على مضض .

وظائف التباين اللغوي

لما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية تتوسط النشاط الاجتماعي ، كان طبيعياً أن تقوم بينها وبين البنية الاجتماعية علاقات متبادلة ، ولأن الوظائف الاجتماعية التي يؤديها الأفراد متباينة ، فقد تنوعت الأداءات اللغوية وفاءً بمقتضيات التنوع الاجتماعي ؛ لتُسَلِّم اللغة إلى الكشف عن السلم الاجتماعي الذي ينضوي تحته المتحدثون ، والأداء المهني الذي يؤديه ، وطبيعة الضوابط الاجتماعية التي تسمح بتنوع ما في موقف ما ، ولكنها تحظره في موقف مغاير . فالمناسبات الشعائرية تتطلب كلاماً رسمياً أما المحاضرات العامة فتكون أقل رسمية ، والحوار العَرَضي لا يحتاج إلى رسمية . وعلى العموم فإن مستوى الرسمية محكوم بعدد من العوامل منها : نوع المناسبة (المتغيرات الاجتماعية) والعمر ومجموعة العوامل التي تدخل بين المشتركين في الحوار كالمهمة المتضمنة (غرض الحوار وأهدافه) وشكل التعبير كتابة أو حديثاً شفويًا^(١) .

ويمكن أن نجمل الوظائف التي يؤديها التباين اللغوي فيما يلي^(٢) :

١- التواصل الأمثل (الملائم) - (Proper Communication) :

يسعى المتحدث دائماً إلى إيصال الرسالة التي يبتغيها باللغة ؛ لذلك يكون حريصاً قدر الطاقة أن يزيل كل ما من شأنه أن يعترض الرسالة أو يحطم التواصل ؛ من هنا يختار المتحدث التنوع (الأسلوب) الملائم للسياق وللمستمع ، ويكون أحياناً مضطراً إلى تقليد أسلوب المستمع حتى يتحصل له ما يريد من التواصل . وأدل الأمثلة على ذلك أن التحول - الآن - يتم من الفصحى إلى اللهجة المتداولة لتيسير التواصل ؛ ففي الخطابات

1) Wardhaugh. P: 48

٢) هذه الوظائف مترجمة عن مقالة حسن عبد الجواد :

Social Functions of Language Variation. AL-Abhath, American University of Beirut, Vol: 34. 1986. PP: 21-37

السياسية والدينية ، يتحول المتحدثون إلى أسلوب مقارب لهجة المحكية ؛ أجل كسب مزيد من التعاطف ، كما هو الحال في خطابات جمال عبد الناصر حين كان يستخدم لغة الإعلام لتأكيد مبادئه ولإيصال رسالته إلى أكبر عدد ممكن من المستمعين .

والقول نفسه ينطبق على الشيخ محمد متولي شعراوي وغيره من الشيوخ ؛ إذ كانوا يخطبون بأسلوب قريب من العامية . والغرض الأساس من هذا التحول اللغوي تحقيق التواصل وضمان أكبر قدر من الاهتمام لتحقيق وظائف اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية ... الخ .

٢- الاندماج والمشاركة : (Koineizing and Sharing with others)

بات مقررأ في اللسانيات الاجتماعية أن لهجة ما - وفق عوامل سياسية وجغرافية ولغوية - تحتل المكانة الراقية في المجتمع ، وهي اللهجة التي يجتمع عليها أفراد المجتمع الواحد لغايات متباينة ، ومثل هذه اللهجات تكون محط أنظار أفراد المجتمع على اختلاف انتماءاتهم اللهجية ؛ لذلك يتحولون نحوها قصد تحقيق مزيد من الاندماج في المجتمع . كما هو الحال في فرنسية باريس والإنجليزية البريطانية ويونانية أثينا^(١) والعربية المدنية أو الفصحى .

٣- تجنّب السخرية والهزاء (التسخيف) (Avoiding of Ridicule and Stigma)

يحدث ذلك عندما يتحول شخص من تنوع إلى تنوع آخر ؛ ظناً منه أن التنوع الذي يستخدمه قد يكون مثار سخرية واستخفاف أو احتقار فيغادر تنوعه إلى آخر ينشد فيه الثقة بالنفس والتواصل . من ذلك أن الريفي قد يتحول عن سماته وخصائصه اللغوية المحلية إلى اللهجة المدنية ذات المكانة الرفيعة ، عندما يتنقل داخل المدينة ويجد أن كلامه المحلي غالباً ما يكون مثار السخرية، وهذه وجهة نظر " لابوف " ووجد لها حسن عبد الجواد ما يطابقها في مدينتي عمان وإربد .

1) Ahd-EL- Jawad. H , Social Functions of Language Variation, P : 25.

وقد ينشأ مثل هذا التحول لارتباط إحدى اللغات بالاستيطان ، كما حدث في الجزائر أثناء الثورة الجزائرية ؛ إذ كان ينظر إلى الناطقين بالفرنسية من الجزائريين على أنهم متواطئون مع العدو الفرنسي (١) .

٤- الطموح الاجتماعي وسهولة التنقل الاجتماعي : (- Social Ambition and Mobility)

ثمة شعور لدى كثير من الناس ولا سيما الشباب ، مفاده أن تبنيهم التلوع الذي تتحدثه الجماعة المسيطرة صاحبة السيادة والمكانة ، يمكنهم من تحقيق تقدم في السلم الاجتماعي ؛ لذلك ينزعون إلى تقليد كلام تلك الفئات لتحقيق نوع من المكانة الاجتماعية وهم مسكونون بهاجس مفاده : أن هذا السلوك اللغوي مفتاحهم للرقى اجتماعياً ولحسب فرص عمل أفيد . ويندرج في هذا النوع الإقبال على تعلم اللغات الأجنبية المقترنة بمكانة ما ؛ فإتقان الإنجليزية في الأردن يعني الحصول على فرص عمل أجدي وأنفع . وفيه دلالة على التمسح بأجناب الطبقات الغنية التي غالباً ما تقترن فيها اللغة الأجنبية بمستوى تعليمي متفوق . والقول نفسه ينطبق على متعلمي العربية من الكوريين ؛ إذ يرتبط تحصيل العربية لديهم بمناصب إدارية في شركات كبرى تعمل في المنطقة العربية .

٥- القوة (السلطة) مقابل الوحدة والإلفة : (- Power Vs Solidarity and Intimacy)

قد يعكس التباين طبيعة العلاقة الاجتماعية بين المتخاطبين ، في إطار الموقف الاجتماعي والوظيفة الاجتماعية التي يؤديانها . فالأستاذ الجامعي يخاطب زميله باسمه دون لقبه العلمي بما يكشف عن علاقة حميمة وبعده عن الرسمية ، أما خطاب الطالب أستاذه مهما بلغ من الحميمية فإنه لا يرقى إلى مخاطبته باسمه دون لقبه العلمي . كذلك فإن خطاب الرجل زوجته يتيح له مناداتها باسمها دون لقب ، أما مخاطبته امرأة أخرى كزميلته في العمل فيفرض عليه أن يقدم لخطابها بلقب : سيدة أو أنسة أو ما شابه .

كذلك فإن السن - في الثقافة العربية - يضبط كثيراً من أساليب الخطاب ؛ إذ إننا نقدم لخطاب كبار السن بزوائد كلامية ذات دلالة اجتماعية فنقول : الحاج أو الحاجة أو الشيخ أو أبو

1) Abd-EL- Jawad, H., Social Functions of Language Variation, P: 26-27

فلان وأم فلان . وقد وجد حسن عبد الجواد أن استخدام التركيب : أبو + الابن الأكبر ، يظهر الاحترام والتقدير والإلف (رفع التكليف) . أما استخدام كلمة (حاج) فقد تظهر الاحترام وكبير السن ولكنها قد تظهر عدم الإلف عندما يكون كبار السن على غير معرفة بالمخاطب (١) .

٦- الوحدة والاندماج مقابل الانفصال (Unity and Integration Vs Separation)

إذا نظرنا إلى المجتمع الأردني ، وجدناه يضم أصولاً عرقية متباينة ، ويجمع هذه الأصول جميعاً اللغة العربية ، وهم يستعينون باللغة العربية لقضاء احتياجاتهم وتحقيق تواصل مثالي ، غير أنهم يتداولون لغتهم فيما بينهم في غياب العرب شعوراً منهم بالانتماء ، ولتمييز أنفسهم من العرب . وربما يصدق هذا على كثير من الطلبة الأجانب في الأردن ؛ إذ إن الطلبة الماليزيين يتواصلون مع زملائهم العرب بالعربية فإذا استقلوا بأنفسهم تحدثوا المالابوية والحال نفسه ينطبق على الكوريين .

٧- التعرف المحلي والعرفي (Local and Ethnic Identification)

قد يعكس التحول من تنوع إلى آخر مشاعر المتحدث بتلك اللغة أو مشاعره نحو اللغة المتروكة . فقد نتخذ اتجاهات سنية نحو العبرية وفقاً لموقف سياسي معين ، ونرفض استخدام الإنجليزية في المواقف اليومية الاعتيادية اعتزازاً بلغتنا ورغبة في حمايتها وإقصاء الآخر عنها . في حين أن استخدام اللغة الإنجليزية لدى فئة محدودة يعكس انتقاصهم من قدر لغتهم ، وإظهار تصنعاً في مستوى التعليم الذي حصلوه .

وفي المجتمعات ثنائية اللغة أو متعدديتها ، يستخدم المتكلم لغته الأصلية ليعرف نفسه للمخاطب . وقد تنشأ هذه النوازع نتيجة عوامل طائفية وعرقية ؛ إذ يرى هؤلاء أن من حقهم ممارسة حياتهم بلغتهم الأصلية في تلك المجتمعات ، كما هو الحال في أيرلندا (٢) .

1) Abd-EL- Jawad. H. Social Functions of Language Variation . P : 29.

2) Abd-EL- Jawad. H. Social Functions of Language Variation . P : 34- 35.

المتغير اللغوي : (Linguistic Variable)

قامت دراسات التباين اللغوي على أسس فكرية وفلسفية مفارقة لما استقر في الأعراف اللسانية من سكونية الدراسة ومثالية المتكلم وانسجام اللغة واطرادها وفصل بين البعد السكوني الثابت والبعد التعاقبي . فكان لا يد من البحث عن أساس لغوي متين يمكن من خلاله وبواسطته تحقيق تلك المرامي . وقد وجد اللسانيون الاجتماعيون ضالتهم في المتغير اللغوي . ومع أنه أساس دراساتهم " إلا أنهم لم يقدموا محاولة لتعريفه تعريفاً حاسماً باستثناء القول إنه يجب ألا يتضمن تغييراً في المعنى " (١) .

ويمكن القول : إن المتغير اللغوي هو معنى واحد يعبر عنه ببنى متعددة ، وتعدد هذه البنى وتفاوتها مرده إلى متغيرات لغوية ومتغيرات اجتماعية . فقد يحقق أحد المتكلمين هذا المتغير على نحو ما ، ويحققه آخر على نحو مفارق له ، وقد يحقق المتكلم نفسه المتغير الواحد تحقيقات متباينة جراء تباين السياق أو الموقف . ففي الإنجليزية قد يستخدم شخص *Singing* معظم الوقت ، بينما يستخدم شخص آخر المتغير نفسه بأداء مختلف *Singin* غير أن الأول قد يستخدم التحقين في مناسبات مختلفة ، وهذا التنوع ذو دلالة في تحديد الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد (٢) .

أما في العربية فإننا نستخدم المتغيرات : مُعَلِّم ، وأستاذ ، ومدرس وشيخ ومحاضر للدلالة على معنى واحد وإن اختلفت السياقات الاجتماعية . وكذا القول في : الطعام ، والأكل والغذاء ، والتغذية ، والإطعام . وصفوة القول أن الغاية النهائية لدراسة المتغير اللغوي ربط التباين في البنية اللغوية بالبنية الاجتماعية وفق متغيرات الجنس والعمر والأصل العرقي وسواها . وحتى يستقيم العرض أقدم شواهد على المتغير اللغوي من العربية والإنجليزية .

- في المستوي الصوتي :

كلمة (farm) تنطق على هئتين : farm و faØm وكل صورة نطقية مرتبطة بعوامل اجتماعية محددة (٣) .

1) Hudson . PP : 157- 158.

2) Wardhaugh . P : 137.

3) Wardhaugh . P : 135.

وأما العربية المنطوقة فإن صوت القاف الفصحى يتحقق على أربعة تحققات هي :

| | | | |
|------|-------|-------|-----------|
| qalb | قَلْب | (q) | ق |
| ?alb | أَلْب | (?) | همزة |
| alb | قَلْب | () | ق البدوية |
| kalb | كَلْب | (k) | ك |

ويرتبط كل تحقق من هذه التحققات بالبنية الاجتماعية ولا سيما متغير الطبقة الاجتماعية والأصل الجغرافي . فالقاف الأولى تدل على اللغة الفصحى وعلى سمة التعليم والثقافة ، أما الهمزة فتدل على أن الناطق مدني ، وأما القاف البدوية فهي لهجة البدوي وأحياناً القروي ، أما الكاف فهي دالة على الفلاحين (الريفيين) الفلسطينيين في عمان^(١) . وقد يقع تداخل بعوامل الاختلاط ودوافع أخرى فتصبح القاف البدوية جارية على أسنة غير البدو وغير أهل القرى .

- في المستوى النحوي :

أورد هدسون كثيراً من المتغيرات النحوية التي درسها لابوف ، منها^(٢) :

- no / any في انجليزية المراهقين البيض والزواج الأمريكية :

I didn't eat $\left[\begin{array}{c} \text{no} \\ \text{Any} \end{array} \right]$ apples.

- وجود is / are أو عدمه في إنجليزية الزواج الأمريكية :

John $\left[\begin{array}{c} \text{is} \\ \emptyset \end{array} \right]$ tired.

• وجود that حرف وصل أو عدمه في الأمريكية الفصحى :

They think $\left[\begin{array}{c} \emptyset \\ \text{That} \end{array} \right]$ it's difficult.

1) Abul-FL- Jawad. Lexical and Phonological Variation in Spoken Arabic in Amman. P : 159.

2) Hudson. P : 58.

أما في العربية فإنه يمكن اعتبار ظاهرة التعدي والوزوم في الأفعال متغيراً لغوياً ؛ إذ يمكن لبعض الأفعال أن تتعدى بنفسها أو بحرف الجر :

شكرتسه و شكرت له

نصحتسه ونصحت له

وورد هاتين الصورتين للفعل يُحْمَلُ على ناموس التطور .

المنهجية العامة لدراسة التباين اللغوي

المتغير اللغوي هو الأداة التي يقاس بها التباين اللغوي ، أما منهج الدرس فيتكئ على الدراسات المسحية الكمية ؛ إذ يعتمد اللغويون على الخروج إلى الميدان (كما هو الحال في الأنثروبولوجيا) لجمع أكبر قدر ممكن من المادة اللغوية وفق محددات مضبوطة يضعها الباحث لتخدم المتغير المراد استخدامه . ويتوسلون لذلك وسائل متعددة لدى جمعهم المادة من مصادرها ، كالتسجيلات الصوتية والمقابلات ومراقبة الأحاديث العفوية للعائلات والاتصالات الهاتفية ، وهم حريصون - في ذلك - على صرف نظر المتحدث وانتباهه عن البعد التوثيقي ؛ أجل توفير أكبر قدر من العفوية والتلقائية في الأداءات الكلامية .

وحال الانتهاء من جمع المادة تُصنّف إلى متغيرات لغوية ويضم إلى كل متغير التحقيقات التي ظهرت في العينة ، " ويرصد الباحث كل أمثلة ورود الأشكال اللغوية للمتغير اللغوي ، ويحصى عدد المرات التي كان يمكن أن ترد فيها كل منها على حدة ولكن دون أن يحدث ذلك . وهكذا حتى يكتمل إحصاء جميع تكرار الأشكال اللغوية المغايرة ونسبة هذا التكرار من مجموع عدد المرات التي كان يمكن أن ترد فيها (١) .

ثم يتم تحليل المادة وفق القواعد اللغوية التباينية التي وضعها لآبوف ، وهي تحاول في عمومها أن تضع قواعد مضبوطة التباين ، تربط البنية اللغوية بالبنية الاجتماعية .

(١) عشاري أحمد محمود ، المرجع نفسه ، ص : ٣٠٣ .

مناهج دراسة التباين

برزت مناهج عدة حاولت استكشاف القواعد التي يجري عليها التباين اللغوي ، مفيدة من مناهج الاجتماعية والانثروبولوجية وتقنياتها الإحصائية في التحليل ؛ قصد تحديد العوامل اللغوية والاجتماعية التي تضبط التباين ، للوصول إلى نظرية تضبط سيرورة اللغة نحو التطور . وفيما يلي أهم هذه المناهج .

- أولاً : أنموذج بيبي * (The Baily Morpho - Variants)

لعل هذا الأنموذج يكون أول دراسة نحوية شاملة متعددة اللهجات وليست أحاديتهها ، ضمن الإطار العام للمدرسة التحولية . وفيه قدم بيبي أنموذجاً للكريولية الجامايكية يقوم على القواعد التحولية في صورتها الأولى في كتاب تشومسكي " البنى النحوية " بما يتضمنه من تحولات اختيارية وإجبارية ؛ هذا التقسيم الذي أطرح في " جوانب من نظرية النحو " (١) ١٩٦٥ و حلت محاه القواعد الإجبارية .

والافتراض المبدئي لهذا الأنموذج ، أن جميع التنوعات الكريولية يمكن وصفها بواسطة بنية العبارة نفسها والقواعد التحولية التي تعمل في البنية المورفونيمية ، أما المتغيرات فقدت على هيئة قائمة تتضمن جميع متغيرات الشكل المورفيمي التي يستخدمها المتكلمون في الجزيرة دون تمييز بينها .

وأهم ما يكون أن يقال عن هذا الأنموذج أنه فتح المجال لإعادة تقييم وضع اللغات الهجين والكريولية في علاقاتها بلغة الوالدين ، كما عزز منحى التفحص المنتظم للتغير ضمن علم اللغة ، بالرغم من أنه فشل في تقديم أدلة واضحة للعلاقة المتبادلة بين أشكال التغير والخصائص الاجتماعية أو النفسية لمستخدمي ذلك الشكل اللغوي .

* ترجمة من كتاب : Bell , Sociolinguistics , P : 51- 53 .

(١) هذه ترجمة مرئى بافر كتاب تشومسكي : Aspects of the Theory of Syntax .

وخلاصة القول أن هذا النموذج يغلب عليه المنحى السكوني والمنحى اللغوي الخالص ثم إن كفايته التنبؤية محدودة ؛ لضعف في تحديده للعلاقات اللغوية - الاجتماعية المتبادلة .

- ثانياً : أنموذج لابوف ، القواعد التباينية : (- The Labov Variable) (Rules Model)

اعتمد لابوف في أنموذجه هذا على القواعد التحولية في صورتها التقليدية ؛ لوضع قواعد تضبط المتغيرات اللغوية وحركتها في السياق اللغوي في مواقف اجتماعية مختلفة ؛ لذلك اقترح فكرة (القواعد التباينية) مع الإبقاء على النموذج التحولي كما هو ، في محاولة لتجنب الانتقادات التي وجهت إلى أنموذج بيلي المتقدم (١) .

يعتقد لابوف أن كل متغير يتصل بقاعدة نحوية ، وكل المتغيرات اللغوية عنده ترتبط بقاعدة صوتية أو إحدى التحويلات التركيبية . وهما نوعان من القواعد التي تشير إلى السياق اللغوي . ولكي يتم التوفيق بين القواعد النحوية وظاهرة التباين ، لا بد من اتخاذ فكرة (القاعدة التباينية) جنباً إلى جنب القواعد المعمول بها وهي القواعد الإجبارية والقواعد الاختيارية . ولما كان محتماً تطبيق القاعدة الإجبارية عند توافر الشروط المطلوبة . فإن القاعدة الاختيارية يجوز تطبيقها أو عدمه . أما القاعدة المتغيرة فلها درجة محددة من احتمال التطبيق عندما تتوافر الشروط المطلوبة . لذلك نراه يستخدم العلامات < أقل من و > أكثر من ، على يمين القاعدة . ولذلك تكتب القاعدة الخاصة بالمتغير / h / على سبيل المثال - عند حذفه - (٢) :

$$h \longrightarrow \langle \emptyset \rangle$$

إن تقديم المعلومات المتعلقة بهذه القواعد تحدد بطريقتين : (٣)

الأولى : إذا كانت العوامل الهامة هي العوامل اللغوية فحسب ، ينبغي أن تحدد السياقات اللغوية التي تسمح باستخدام المتغير وترصدها ، وعندئذ يمكننا توصيفها في هيئة قواعد سياقية

1) Wardhaugh, P : 53.

2) Hudson . P : 182.

3) Hudson . P : 182.

محددین بذلك درجات تأثير هذه العوامل المتباينة في احتمالات تطبيق القاعدة من خلال رصدها التدريجي بإشارات خاصة .

أما الطريقة الثانية ، فتستخدم عندما تكون المؤثرات اجتماعية لا لغوية ، وذلك بتشكيل صيغة تحدد احتمالات تطبيق القاعدة عند ذكر المعطيات المعيارية الخاصة بالمتغيرات الاجتماعية الواردة . وذلك على النحو التالي :

صياغة قواعد المتغير [t] و [?] في كلمات مثل Fortnht

$$[t]^{opt} [?] / v \text{ ————— } [+ \text{formal}_c]$$

ونقرأ هذه القاعدة على النحو الآتي [t] قد تقع اختياريًا وقفة حنجرية (همزة ?) في بيئة تتبع فيها صوت العلة وتسبق صامتاً أو حدًا كلمة عندما يكون السياق الاجتماعي رسمياً (١) .

وبالرغم من أن هذا المثال يبدو ساذجاً ، فإن تطبيقاته بعيدة عن السذاجة ، ولا سيما أنها لم تقتصر على إبراز كيفية انضواء التباين ضمن النموذج النحوي التحويلي . فقد بين أن نظامية التباين يمكن إثباتها وبرهنتها - ولو جزئياً - في الأداء الكلامي اليومي غير النحوي (٢) .

لقد حاول لا يوف جاهداً ضمان أكبر قدر ممكن من الضبط لقواعده ، ولكن ثمة نقائص تعثرها ؛ من ذلك أنه يصعب قبول فرضيته الأساسية بأن كل متغير لغوي يرتبط بقاعدة من القواعد التحويلية .

ومن العيوب الخطيرة لهذه القواعد أن القصد منها أن تستخدم في نظام نحوي يصلح لمجتمعات بأكملها لا لأفراد (وغالباً ما توضع النظم التحويلية للأفراد) وذلك لأن المقصود من الاحتمالات أن تعكس الاختلافات بين المتحدثين ، بأن تعنى بعوامل أخرى كالمكانة الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك من شأنه أن يسبب صعوبات جسيمة ، وذلك لأن مختلف الأفراد يتطلبون أنحاء مختلفة ولا سيما عندما يكون المعجم اختلافات .

1) Wardhaugh. P: 53.

2) Wardhaugh. P: 54.

وخلص القول أن نظرية لابوف الخاصة بالقواعد التباينية لم يكن لها أهمية تذكر في إرساء قواعد النحو منذ أن نشرت في نهاية الستينات حتى إنه هو نفسه قد توقف عن المضي في هذا الاتجاه بعد محاولاته الأولى لكتابة أنحاء تتضمن مثل هذه القواعد .

- ثالثاً : أنموذج الموجة : (The Baily's C.J Wave Model)

ويعرف بالميزان الضمني Implicational Scaling Model . وهو يقوم على معطيات دي كامب (De Camp) ثم طوره بيلي وبيكرتون . وأهم المنطلقات التي يقوم عليها :

١- أن التنوع يحدث من خلال الأفراد أو الزمن ، وليس جزءاً من قواعد الفرد الوصفية (الآتية) .

٢- أنه يمكن اقتفاء أثر السمات التي تميز لهجات الأفراد في ترتيب تسلسلي هرمي . وهذا المنهج يفترض أن التنوع اللغوي دائماً يتضمن تغيراً وأن التغير يتضمن تنوعاً^(١) .

وتتمثل قوة هذا النموذج في قدرته على وصف التنوعات عبر مستويات معجمية وصوتية متدرجة من الأكثر إلى الأقل في الهرم الاجتماعي^(٢) . أما وأهم مشكلات هذا النموذج فتتمثل في تقلت عدد من التنوعات الحرة التي تستعصي على الضبط .

1) Abul-EL- Jawad, H : Lexical and Phonological Variation in Spoken Arabic in Amman . PP :191- 192.

2) Bell. R. Socio linguistics, P : 57.

المبحث الثاني

التباين في العربية

جاء الإسلام دعوة جامعة ، موجهة إلى البشرية جمعاء ، مع اختصاص العرب بنزوله في جزيرتهم وبلغتهم . فكان أن استجاب لهذه الدعوة كثير من الأعاجم من الفرس والروم والأحباش وسواهم ، ولما كانت العربية لغة القرآن والدين الجديد ، كان مفروضاً على هؤلاء - فرضاً ضمنياً - أن يتعلموا العربية ليؤدوا بها عبادتهم ؛ وليتمكنوا من التواصل مع مصادره الشرعية والمعرفية ، وليتفاهموا مع رفقاتهم في الدين الجديد من الناطقين بالألسنة الأخرى .

ومع كل ما بذل هؤلاء الأعاجم من طاقة وجهد في تحصيلها ، بقي تحصيلهم قاصراً بحكم ما استحكم فيهم من عادات لغوية تحصلت لديهم بالاكْتساب ، فكان أن فشا اللحن واتسع إلى أن بلغ مرتبة الظاهرة . وصاحب هذا الفشو خشية على القرآن ولغته ، فمست الحاجة إلى تعليم العربية لأبنائها وللناطقين بغيرها من الوافدين إلى الدين الجديد .

وتطلب هذا المبتغى توافر مادة لغوية لدرسها وتحليلها . ففزع النحاة إلى تعويد اللغة و ضبط قواعدها وإحكام أصولها وفق ما توافر لهم من مادة حاضرة متداولة ، فوردوا على مادة لغوية غزيرة ومتباينة . يصل التباين فيها أحياناً حدَّ المفارقة الصارخة ، فكان هذا الوضع اللغوي مرآة عاكسة للأوضاع الاجتماعية والسياسية التي استقر عليها المجتمع العربي في الجاهلية ؛ فمتلما تمتعت القبيلة باستقلالها السياسي والاقتصادي ، تمتعت أيضاً ببعض السمات اللغوية الفارقة التي كانت متداولة في محيط القبيلة الجغرافي ، وإن تعدته أحياناً وفق دواعٍ سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية .

فلما أراد النحاة واللغويون أن يضعوا للغة قواعدها وأحكام ضبطها ، وجدوا أن هذا التباين يشغب عليهم ، ويعترض سبيلهم في الوصول إلى قواعد مُطردة ، يستقيم عليها بناء العربية في نظمها الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية ؛ لتكون مادة حاضرة للمتعلمين من العرب وغيرهم . فأفرغوا الوسع كله للتخلص من هذا الإشكال المنهجي ، لضمان أكبر قدر

ممكن من التحسب والتحرز في ضبطها . فاستقام لهم تدبير سديد ومنهج قويم يحقق لهم الغاية في الوصول إلى صورة منتظمة للعربية ، وكان منهجهم موجهاً توجيهياً فكرياً مؤداه نقاء اللغة وصفواها من كل الشوائب التي تُداخلها ، أما الأسس النظرية لذلك المنهج ، فهي قيود الانتقاء قررها النحاة وصولاً إلى فكرة النقاء .

وقيود الانتقاء التي قررها النحاة هي :

أولاً : القيد المكاني :

وينضبط هذا القيد بالجغرافيا ؛ إذ تم فيه انتقاء بقاع جغرافية محددة يصدق عليها قانون النقاء ، فحددوا القبائل التي يجوز الأخذ عنها ، فاستقرأوا اللغة من قبائل " قيس وتميم وأسد فبن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حَضْرِيّ قَطّ ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لَحْم ولا من جَذام فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقيبط ، ولا من قُضاعة ولا من غَسَّان ولا من إِياد فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون في صلاتهم بغير العربية ، ولا من تغلب ولا النمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ، ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ، ولا من عباد القيس ؛ لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطتهم للهند والفرس ، ولا من أزدعمان لمخالطتهم للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز ؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم " (١) .

وكانهم في ربطهم هذا كانوا يصدرون عن قاعدة رياضية تمثلوها ولم يصرحوا بها ، مفادها اطراد العلاقة بين البعد عن العجم وصفاء اللغة وخلوصها ؛ فكلما زاد التوغل في الصحراء العربية وزاد البعد عن العجم (مجتمعات لغوية أخرى) زاد صفاء اللغة وبالتالي كانت أصحّ للدرس وأدلّ على السليقة العربية وأقدر على التعبير عن نظام الكفاية اللغوية لديهم .

(١) السيوطي ، الاقتراح في علم أصول النحو ، ص : ١٩ - ٢٠ ، وكتاب الحروف للفرابي ، ص : ١٤٧ .

ثم إنهم في ذلك يصدرن عن وعي بتحديدهم لمادة اللغة التي يأخذونها ، فانصرفوا عن الأخذ عن المدنيين ، كأنما يتمثلون ما يتكئ عليه اللسانيون الاجتماعيون في دراسة التباين اللغوي ، حين يعمدون إلى انتقاء المناطق المحافظة لغوياً كالقرى والأرياف والمجتمعات المنعزلة ، ويصدفون عن الدراسة الميدانية للمدينة معقدة التركيب الاجتماعي^(١) ، فشاعت بينهم عبارة " فإنه لم يُؤخَذْ عن حضري قط " وهذا مَلْحَظٌ فيه طرافة وبعُد نظر .

ثم وردوا على مادة لغوية متداولة في البيانات التي صدق عليها قيد المكان تدور على السنة القبائل بأداءات لغوية متباينة تعبر عن التصد نفسه والغاية ذاتها . فكان لا بد من ضبط داخلي لهذه التتوعات ، فتأتى لهم أن الاستعمالات الدائرة فصيحة ، ولكن بعضها أكثر دورانياً على الألسنة وللناس به إلف واعتياد ، فاعتدوا بالأكثر استعمالاً ودورانياً ، وأنزلوه منزلة رفيعة ، ومنحوا الوجوه الأخرى رخصة وسعة على أنها مسموعة أو أن القياس يجيزها ، فتجاورت الاستخدامات وتزامنت ، وانتظم نظامُ الفصحى أكثر من وجهه للوظيفة اللغوية الواحدة . وقد أشار ابن جني إلى ذلك صراحة في خصائصه في " باب اختلاف اللغات وكلها حجة " (٢) .

وأنزل القرآن والعرب على ما استحکم فيهم من عادات لغوية تحصلت لديهم بالملكة وتهذبت بالاكْتِسَاب ، فأخذوا يقرؤونه وفق سلاتنهم وما يصدرن عنه من وعي بصحة لغتهم وموافاتها للصواب - شكلاً ومعنى ووظيفة - ، فكان أن تباينت قراءاتهم وفقاً لتباين لهجاتهم ، مما أفضى إلى مظنة لبس لدى كثير من الصحابة وأولي الأمر ، ثم إنه لما كان الرسول القائم على أمر القرآن وتفسيره وبيان ما يُشكّل على الصحابة منه ، فزعوا إليه باحثين عن يقين يدرون به شكهم ، فكانت إجابة الرسول في حديثه المشهور " نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف واف إماعاً إلى رخصة في القراءة وتيسيراً على الناس . " فالهذلي يقرأ " عتّى حين " يريد " حتى حين " ؛ لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها . والأسدي يقرأ : تعلمون وتعلم و " بسوّد وجوه " ... والتميمي يهمز والقرشي لا يهمز ... ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً ، لاشتد عليه ذلك ، وعظمت المحنة فيه ، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة وتذليل للسان وقطع للعادة " (٣) .

(١) ابن حمي ، الخصائص : باب في ترك الأخذ عن أهل المَدَن كما أخذ عن أهل الوب : ٢ / ٥ - ١٠ .

(٢) ابن حمي ، الخصائص : ٢ / ١٠ .

(٣) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، ص : ٣٠ . وانظر : مقدمة السبعة في القراءات لابن مجاهد : ٩ - ١٠ .

ثم حُمِلَ اللبْسُ على كلام الرسول ﷺ وتدولت آراء كثيرة تجتهد لتفسير ذلك الحديث ، فاختلَفوا فيه اختلافاً كثيراً^(١) ، وفسروه تفسيراً لغوياً وفقهياً . وأقرب ما يكون موافقة للحال اللغوية السائدة رأي أبي عبيد القاسم بن سلام ؛ إذ يقول : " قوله : سبعة أحرف يعني سبع لغات من لغات العرب ، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه ، هذا لم يسمع به قط ولكن يقول : هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن ، فبعضه نزل بلغة قريش وبعضه بلغة هذيل وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة أهل اليمن ، وكذلك سائر اللغات ومعانيها مع هذا كله واحد ، ومما يبين ذلك قول ابن مسعود : إني قد سمعت القراء فوجدتهم متقاربين ، فاقروا كما عَلَّمْتُمْ ، إنما هو كقول أحدكم : هلم وتعال . وكذلك قال ابن سيرين : إنما هو كقولك : هلم وتعال وأقبل " (٢) .

ولما استقرت القراءات القرآنية على هيئة من الأداء ثابتة ونهياً لها من عَدَّ حجة في أدائها وتحليلها وتفسير ظواهرها وضبط أحكامها ، قام علم القراءات علماً جديداً ثابت الأركان قوي الدعائم ، يجعل من أداء النص القرآني على وجوه شغله الشاغل ، فتفرغ لذلك نفر من العلماء يضبطون قواعده ويحررون أمثلته ويستحضرونها مما تهيأ لهم من معرفة واسعة بعلم العربية ولهجاتها ، فقعدوا قواعده وضبطوا شروط صحة القراءة ؛ فجعلوها ثلاثة^(٣) ، منها اثنان يُمْتَنان إلى علم العربية بنسب وثيق . أما الأول فهو أن تكون القراءة على وجه من وجوه العربية والنقل أو الرواية الواسعة التي تمثل ظاهرة ممتدة ، كما يقوم على مرجع الدراية ، وهو نظرة اللغة أو مؤسسة اللغة في بنيتها التي أقامها علماء العربية .

وهكذا تهيأ للعربية في صورتها الانتلافية عامل توحيد لم يتهيأ لغيرها من اللغات ، يسر لها سعة في التفسير ورخصة في الاستعمال .

(١) في تفسير هذا الحديث انظر : السيوطي : الإتيان في علوم القرآن : ١ / ١٥٣ - ١٦٧ .

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام ، غريب الحديث ، طبعة دائرة المعارف العبادية : ٣ / ١٥٩ - ١٦٠ . وانظر ابن فارس ، الصحاح . باب القول في اللغة التي لها نزل القرآن ، ص : ٣٢ - ٣٣ . وانظر أيضاً : الإتيان للسيوطي ، فيما وقع فيه بغير لغة المحجاز :

١ / ٤٦٩ - ١٨٥ . والبرهان في علوم القرآن للزركشي : ٢ / ٢٨٣ - ٢٨٦ . ولطائف الإشارات للقسطلاني : ١ / ٣١ - ٤٤ .

(٣) ابن الجزري ، تقريب النشر في القراءات العشر ، المقدمة بتحقيق إبراهيم عطوة ، ص : ٢٥ . وعبد الراجحي ، اللهجات العربية في القراءات القرآنية نقلاً عن النشر ، ص : ٧٥ .

وكان الشعر الجاهلي مرآة صادقة عكست التنوع اللهجي بين القبائل العربية ، فهو معبر عن الانتماء القبلي أحياناً ومعبرٌ عن الذوبان في المجتمع العربي الكلي حين ينظم بالعربية الفصحى الذائعة .

ويستقيم لنا هنا أن نعرض لشواهد دالة وممثلة تعكس التباين المتأتي من البعد الجغرافي .
عندما أراد اللغويون وضع ضوابط لتكوين الجملة الفعلية وترتيب عناصرها ، تحصل لهم أن الفعل في العربية يلزم حالاً واحدة لا يكاد يفارقها مع تباين الفاعل الظاهر مفرداً أو متثى أو مجموعاً ، واستقرّوا على هذا القانون ، فلما وردوا على (أكلوني البراعيث) ووجدوا لها أمثلة متقدمة في لهجة يُحتج بها (طيئ وأزد سنوءة) وقواها في نفوسهم أنها وردت في التنزيل " وأسروا النجوى " ووردت في حديث الرسول " يتعاقبون فيكم " وسماها بعض النحاة لغة " يتعاقبون فيكم " ^(١) اعتدوا بها وجعلوها لغة ، ولكنها تنزل عن منزلة الفصحى التي استقر فيها الفعل على الأفراد ^(٢) .

كما استقرّ لديهم من استقراء العربية وشواهدا أن اسم المفعول من الثلاثي معتل العين يكون بحذف واو مفعول لالتقاء الساكنين بعد نقل الحركة ، فقالوا مزور ومعود . ثم إنهم وردوا على مثل : مغيوم ومذووف ومصوون ^(٣) ، وتحقق لهم أنها على وجه من العربية مُتَقَبَّلٌ فَأَقْرَبُوه ولكنهم أنزلوه عن منزلة الحذف الفصحى وفق معيار كثرة الاستعمال .

وحين هموا بتحقيق دلالات المفردات والوجوه التي تستخدم وفقاً لها ، وجدوا أن كلمة " الساجد " تعني المنحني عند بعض العرب ، وفي الوقت نفسه تعني المنتصب في لغة طيئ ^(٤) ، فصنّفوها في الأضداد .

ولما قصدوا أن يميزوا الألفاظ بردها إلى جنسها النحوي تذكيراً أو تأنيثاً ، وردوا على مثل كثيرة مؤنثة في لهجة ومذكرة في أخرى ، فأقروا بجواز تذكيرها وتأنيثها كالذي ساقه ابن

(١) هو ابن مالك صاحب الألفية ، انظر شرح ابن عقيل ، ١ / ٤٢٩ .

(٢) انظر كتاب الأباري ، البيان في إعراب القرآن ، تعليقا على الآية " فعموا وصموا كثر منهم " ١ / ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٣) سيويه ، الكتاب ٤ / ٣٤٨ - ٣٤٩ ، واصلاح المنطق لابن السكيت ، ص : ٣١٢ ، وابن مالك ، شرح الكافية ، ٤ / ٢١٤٣ -

٢١٤٤ .

(٤) ابن الأباري ، الأضداد ، ص : ٢٩٤ .

الأنباري في الإبهام ؛ إذ قرر أن " العرب على تأنيثها إلا بني أسد أو بعضهم فإنهم يقولون هذا إبهام ، والتأنيث أجود وأحب إلينا . " (١)

" وفي مجال الإعراب مظنة الزلل الكبرى ، تمثل الوجوه المتأدية من اللهجات عنصر توسعة ؛ إذ تلغي مبدأ دلالة الحركة على معنى نحوي ذاتي مُلزم في شطر لا يُستهان به من ظاهرة الإعراب " (٢)

وإمعان النظر في المصادر الأصول يفضي إلى دهشة يلابسها تشكك في جردى التحصيل النظري للنحو العملي من جهة ، و يلابسها تنفس الصعداء جراء كثرة الرخص التي يتبجحها التباين من جهة أخرى ، فأني لنا أن نتصور رد فعل من جهد في استنكار القواعد النحوية من مثل : الفاعل مرفوع أبداً ، حين يرد على " خرق الثوب المسمار " . وحين يُجهد نفسه في القول : اسم إن منصوب وخبرها مرفوع أبداً ، ثم يرد على : إن خراسنا أسداً !!
فهذه وجوه يبيحها التباين وينزلها منازل متفاوتة في بناء العربية الانتلافي .

ومن أمثلة التعدد في الوجوه الإعرابية ، الباب المشهور بـ(ما الحجازية وما التميمية) والوظيفة النحوية التي تقوم بها كل واحدة منهما . وكذا القول في تعدد الوظائف النحوية التي تؤديها " حتى " . ويتصل بهذا الباب تباين في أصل كبير من الأصول التي قامت عليها التصنيفات النحوية للكلم العربي ؛ أي البناء و الإعراب ، فهذا الضابط الكلي الذي تتحصل به معرفة أحوال اللفظ العربي يداخله التباين (٣).

وأبرز ما يظهر لنا من هذه الأمثلة ، ما كان على " فعّال " وهو علم مؤنث ؛ إذ أجمل ابن هشام (٤) القول في أحكامه ورصد مواضع التباين ونسبها إلى قبائلها ، يقول : " وهذه الأسماء ونحوها للعرب فيها ثلاث لغات :

(١) ابن الأنباري ، المذكر والمؤنث ، ٤٠٠ / ١ ، وهو رأي الغراء .

(٢) لمّاد الموسى ، اللغة العربية وأبناؤها ، ص : ٢٤

(٣) في تفصيل القول في هذه المسألة انظر : لمّاد الموسى ، ظاهرة الإعراب في اللهجات العربية القديمة ، مجلة الأبحاث (الجامعة الأمريكية بيروت) السنة ٢٤ ، العدد ١-٤ . ١٩٧١

(٤) ابن هشام ، شرح شانور الذهب ، ص : ١٣٥-١٣٦ ، وأيضاً : أوضح المسالك ٤ / ١٢٠

إحداها : لأهل الحجاز وهي البناء على الكسر مطلقاً ، وعلى ذلك قول الشاعر :

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام

الثانية : لبعض بني تميم . وهي إعرابه إعراب ما لا ينصرف مطلقاً .

الثالثة : وهي لجمهورهم . وهي التفصيل بين أن يكون مختوماً بالراء فيبنى على الكسر ، أو غير مختوم بها فيمنع الصرّف . ومثال المختوم بالراء : سقار اسم ماء ، وحضار اسم لكوكب ، ووبار اسم لقبيلة ، وظفار اسم لبلدة .

ولو أمعنا النظر في الوجهين الثاني والثالث لوجدنا أنهما يتداولان في القبيلة نفسها (تميم) وهذه إشارة إلى ما قد يصيب اللهجة الواحدة من تباين لأسباب ودواعٍ متأصلة فيها ، كما تراها غيرها من اللهجات واقتراضها ، أو تعارف القبيلة على لهجتين إحداها قديمة فيها والثانية حادثة .

ولا يقف الأمر على تفاوت المادة التي تقع تحت هذين البابين العريضين (البناء والإعراب) ولكن تتعدى إلى النظام في بنيته الأساسية ؛ ذلك أن النحاة وجدوا نظام الإعراب في العربية - وهو مشترك بين الاسم والفعل - نظاماً ثلاثياً ؛ أي أنه يقوم على ثلاث حركات ، فالضمة علامة الرفع في الاسم والفعل ، والفتحة علامة النصب في الاسم والفعل ، والسكون علامة التجزم في الفعل ، أما الكسرة فعلمة الجر في الاسم .

ثم غرّضت لهم أمثلة اختصر فيها نظام الإعراب في الاسم من ثلاث علامات إلى اثنتين كما هو الحال في جمع المؤنث السالم والممنوع من الصرف . فجمع المؤنث السالم يرفع بالضمة ، وتتقاسم الكسرة حالاً النصب والجر . ولكن مزيداً من التفحص يكشف عن طور سابق لهذا الطور احتفظ فيه بالحركات الثلاث .^(١) أما ممنوع من الصرف ؛ فإنه يرفع بالضمة وتتقاسم الفتحة حالاً النصب والجر على الوجه الأوضح والأشيع ، وهو مخالف للأصل الثلاثي المقرر سلفاً . غير أن ورود أمثلة من هذا النظام الثلاثي في لهجة يحتج بها (لهجة أسد) يشير إلى أنها مرحلة غابرة من مراحل التطور .^(٢)

١ (محاد الموسى ، ظاهرة الإعراب في اللهجات العربية القديمة ، ص : ٥٨

٢ المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

ومستصنى الكلام في هذا القيد ، أن التباين الذي انتظم وجوه العربية إنما هو وجه من التيسير ، ووجه من انتظام اللهجات في نظام واحد بفعل فعل الإسلام في توحيد القبائل العربية ، فهو يتيح لهم أداء اللغة وفق ما استحكمت فيهم من عادات ولا يكلنهم مشقة التحول عنها .

ثانياً : القيدُ الزماني :

لما انتهى النحاة واللغويون إلى ضبط المنطقة الجغرافية التي تجمع منها مادة العربية ، فزعموا إلى تحديد قيد زمني يلتزمون فيه بما اجترحوا من نهج يكفل لهم الوصول إلى الهيئة الفضلى للعربية . فاهتدوا إلى تحديد زمني عُرف فيما بعد بعصور الاحتجاج . وهي ثلاثة قرون - على التقريب - يستفدُ العصرُ الجاهليُّ قرناً ونصفاً ويستفدُ صدرُ الإسلام والعصرُ الأموي وشطرُ يسير جداً من العصر العباسي قرناً ونصفاً ، ثم إنهم تسمَّحوا في هذا القيد فأزخَّوا له الحبل حتى مُنْتصف القرن الرابع في القبائل الموعظة في البداوة والانعزال التي يؤمن من جانبها اللحن والفساد اللغوي .

ورفق هذا القيد ، جمعت المادة باعتبار سكوني ثابت - ثبوتاً نسبياً - أثناء جمع المادة في فترة مترامية نسبياً . " وتنبغي الإشارة إلى أن ثلاثة قرون في حياة لغة تعتمد على المشافهة تتسع لمراحل من التطور جرت على الظاهرة اللغوية في العربية . وقد أسلم تحكيم هذا الاعتبار الزمني إلى تسجيل وجهين للظاهرة الواحدة ، وجه يمثل الطور السابق وآخر يمثل العاود اللاحق . وهذه الوجوه المترتبة على الأطوار المتعاقبة في تلك الفترة وجوه عربية لا يسبل إلى ردها . وهي عامل رئيس من عوامل التشعب في قواعد العربية . " (١)

فاللغة في تطورها تمر بمراحل متدرجة ؛ إذ إن حلول ظاهرة مكان أخرى لا يتم دفعة واحدة ، بل لا بد من طور تتجاوز فيه الظاهرتان ، فتقوى إحداها لعوامل سياسية أو اجتماعية أو لغوية ، أما الأخرى فتتوارى وتضعف ولكنها لا تزول أبداً ، بل تبقى عنصراً في الصورة التاريخية للنظام الذي تنتمي إليه ، وربما تسعنها ظروف مخصوصة فتحميها في الاستعمال من جديد .

(١) ملحد الموسى ، قضية التحول إلى الفصحى ، ص : ٥٢ - ٥٣ .

ويظهر أن النحاة واللغويين الأوائل قد صرّحوا بمثل هذه الآراء ، وصدروا فيها عن وعي بفعل الزمن في الظاهرة اللغوية ^(١) . ويكفي أن نشير إلى مثلين أو ثلاثة . فقد قال ابن جني في " باب ما يرد عن العربي مخالفاً لما عليه الجمهور " : " ... قد يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدا وعفا رسمها وتأبّدت معالمها . " ^(٢)

وقال المبرد في سياق حديثه عن أبنية الأفعال ومعلقاً على بناء " فَعَلَ يَفْعَلُ " إذا كانت لامه أو عينه حرف حلق : " واعلم أن الأصل مستعمل فيما كانت حروف الحلق في موضع عينه أو لامه ، نحو : زار يزير ونام ينم ، لأن هذا هو الأصل والفتح عارض لما ذكرت لك ها هنا ... " ^(٣) . وقال أبو حيان في لفظة ننسخ : " النسخُ : نقل الشيء من موضع إلى موضع ، وقيل : إبطال الحكم . واللفظ متروك . " ^(٤)

ومن أمثلة ذلك ، ما عرض للفلين شكر ونصح من انتقال ؛ إذ إن استقراء الشواهد يكشف عن أنهما لازمان يتعديان بحرف الجر ، فنقول : شكرت له ونصحت له . وعليه القرآن (أن أشكر لي) ^(٥) (نصحت لكم) ^(٦) ثم شهد هذان الفعلان انتقالاً إلى إسقاط حرف الجر ، كقول الشاعر :

سأشكر عمراً إن تراخت منيتي أيادي لم تمنن وإن هي جلت

ثم تعايش الطوران ، فأسفرا عن وجهين من التعدي واللزوم ^(٧) .

وأظهر ما يكون البعد التطوري في المستوى المعجمي ؛ إذ شهدت المفردات العربية التي كانت سائدة في الجاهلية تطوراً كبيراً في دلالتها ، فاستغني عن بعضها ، واستحدثت دلالات جديدة بفعل الدين الجديد ومعطياته الثقافية والدينية ، وهذا ما شكل ظاهرة في المعجمية .

١) منشور في : تقدم المساهمات في الأفطار العربية ندوة : Modern Approaches to the History of Arabic . K. Versteegh .

جوهرة ، الرباط : ١٩٨٧ . ص : ٢٠٠ .

٢) الحصائص : ١ / ٣٨٦ .

٣) المقضب : ٢ / ١١١ .

٤) تنفة الأريب عما في القرآن من الغريب ، ص : ٢٥٨ .

٥) سورة لقمان : آية ١٤ .

٦) سورة الأعراف : آية ٧٩ .

٧) : في ابن السكيت على " شكرتك ونصحتك " بالتما لمة . إصلاح المثلث ، ص : ٣١٢ وانظر : أدب الكاتب ، ص : ٥٢٣ .

العربية وعلم الدلالة العربي وهي ما يعرف بالألفاظ الإسلامية^(١) . فلو نظرنا إلى كلمة الصلاة ، فإنما كانت تعني الدعاء ، ثم انتقلت لتدل على عبادة مخصوصة تؤدي على نحو مخصوص . وكذا القول في الصيام والزكاة . ويمكن تمثيل التطور الدلالي الذي أصاب هذه المفردات كما يلي :

| | الزمن صفر | الزمن ١ | الزمن ٢ |
|--------|-------------|--------------|--------------|
| الصلاة | معنى الدعاء | معنى الدعاء | معنى العبادة |
| | | معنى العبادة | الدعاء |

الشائع المتداول ←
متروك ←

ويشير هذا الشكل إلى تعاصر الصلاة في معنيها ، ثم غلبة المعنى الشرعي .

ثالثاً : القيد النوعي :

واعتماد هذا القيد يقوم على فرز داخلي للهجاء التي أخذت منها العربية ؛ إذ به يتم تنقية اللغة من التناثر في أبلتها الصوتية والصرفية ودلالاتها ، فقد وجد اللغويون أن اللهجات تتفاوت في أقدارها ومنازلها وفق معيار نوعي هو الفصاحة ، وهو ينضبط بمقدار خلوة اللهجة من الأبلية المستبحة المتناثرة .

ولأسباب لغوية داخلية ، أجمع على أن لغة قریش هي أفصح اللغات وأنقاهها ، ويلخص ابن فارس جملة الأسباب المفضية إلى ذلك - نفتصر منها على الأسباب اللغوية - حيث يقول : "... وكانت قریش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة أسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفي كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلانقهم التي طبعوا عليها . فصاروا أفصح العرب . ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنفة تميم ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس مثل : تعلمون وتعلم ومثل " شعير " و " يعير " ٢ " ."^(٢)

^١ انظر كتاب أبي حاتم الرازي ، الزينة في الألفاظ الإسلامية العربية .

^٢ الصاحبي في فقه اللغة ، ص : ٢٨-٢٩ ، ولغة نص قريب من مضمون هذا النص في عالى ثعلب : ١٠٠/١

وقد قوئى هذا الاعتقاد القولُ بنزول القرآن بلغة قريش^(١) ، ثم كانت هناك لغات أدنى مرتبة ؛ عرفت باللغات المذمومة أو المستبحة ، وهي التي تحتفظ بسمة لهجية محلّية ثقيلة من فصاحتها في عُرّف اللغويين " أما العنينة التي تذكر عن تميم فقلبيهم الهمزة في بعض كلامهم عيناً . يقولون : " سمعت عن فلاناً قال كذا " يريدون أن ... وأما الكشكشة التي في أسد فقال قوم : إنهم يبدلون الكاف شيئاً فيقولون : عليش بمعنى عليك وقال آخرون : يصلون بالكاف شيئاً ، فيقولون : " عليكش . وكذلك الكسكة التي في ربيعة إنما هي أن يصلوا بالكاف شيئاً فيقولون " عليكس " .^(٢)

إن ورود هذه الظواهر اللهجية " المستبحة " إنما كان يحمل دلالات مائزة لكل قبيلة ؛ فكانت علماً على الانتماء القبلي من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يكن وجود مثل هذه الظواهر نافياً لفصاحة اللهجة عموماً ، أو دافعاً على الإعراض عن الاحتجاج بها ، وما هذا الاستباحت إلا مقياس نوعي اصططنعه النحاة لإنزال اللهجة منزلة أدنى في سلم التصنيف النوعي .

مناهج النظر ودورها في ظاهرة التباين

يستقيم لنا إضافة هذا العامل إلى عاملي الزمان والمكان السابقين ، وعده من عوامل التباين في العربية . وهذا العامل " منهجي ترتب على اختلاف طرائق النظر التي اصططنعها النحويون . فقد كانت المادة اللغوية التي وردت عليهم أو وردوا عليها واحدة أو تكاد ... ولكن استقراءهم إياها في سبيل رصد الظواهر المطردة فيها واستخراج الأحكام (القواعد) التي تجري عليها كان يتفاوت وخاصة في مجال تفسير تلك الظواهر والبحث عن عواملها وعلها " (٣) . ومن ذلك أنهم استقروا الأمثلة التي تعرض فيها " ليس " في التراكيب اللغوية ، من مثل :

﴿ ليس الله بأحكم الحاكمين ﴾^(٤)

﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾^(٥)

(١) ابن فارس ، الصحاح في فقه اللغة ، ص: ٣٢-٣٣

(٢) ابن فارس ، المصدر نفسه ، ص: ٢٩-٣٠ . وانظر أيضاً ابن حني : الخصائص : ١١/٢

(٣) لهاد الموسى ، اللغة العربية وأبناؤها ص : ٣١ .

(٤) سورة البقرة : ٨

(٥) سورة الفاشية : ٦

(وليست التوبة للذين يعملون السيئات)^(١)

(فليس عليكم جناح أن تقصروا الصلاة)^(٢)

فوجدوا أنها تدخل على الجملة الاسمية فتفتي إسناد الخبر إلى المبتدأ وترفع الاسم وتتصبب الخبر .

ثم كان أن وردوا على قول العرب : ليس خلق الله مثله ، فاختلفت أنظار القوم في تفسيرها وتوجيهها ، فوقف قوم عند ظاهر التركيب وتحصل لهم أن " ليس " هنا تستعمل استعمال (ما) وتدخل على الفعل ، فجعلوا ليس أداة نفي وحسب ولم يعملوها . وتجاوز آخرون وعلى رأسهم سيبويه هذا الظاهر القليل المغاير للظاهرة الغالبة فتأولوه إليها متمسكين بأن " ليس " في هذه الجملة جارية على نسقها المعتاد وأنها داخلة على جملة اسمية وأنها عامة ، وقدروا لذلك أن اسمها ضمير شأن محذوف وأن الجملة بعده خبره^(٣).

والقول نفسه يجري على " إذا " ، فقد قرئ في نفوسهم أنها ظرف للمستقبل متضمنة لمعنى الشرط ، وهي مختصة بالدخول على الجملة الفعلية ويكون الفعل بعدها ماضياً كثيراً ومضارعاً دون ذلك ، كقول أبي ذؤيب :

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا تردُّ إلى قليل تنقع^(٤)

فلما وردت عليهم أمثلة من قبيل : (إذا السماء انشقت)^(٥) ، و (وإذا الأرض مدت)^(٦) ، و (إذا السماء انفطرت)^(٧) ، و (وإذا الكواكب انتثرت)^(٨) . فذروا فيها فعلاً محذوفاً والاسم بعدها مرفوع على الفاعلية لا المبتدأ خلافاً للأخفش^(٩) .

١ (سورة النساء : ١٨ .

٢ (سورة البقرة : ١٠١ .

٣ (نجاد الموصي ، اللغة العربية وأبنائها : ٣٢ ، وانظر سيبويه : ٧٠ / ١ .

٤ (ابن هشام الأنصاري ، معنى اللبيب عن كتب الأعراب ، ص : ١٢٧ .

٥ (سورة الانشقاق ، آية : ١ .

٦ (سورة الانشقاق ، آية : ٣ .

٧ (سورة الانشقاق ، آية : ١ .

٨ (سورة الانشقاق ، آية : ٢ .

٩ (ابن هشام في معنى اللبيب ، ص : ١٢٧ .

وإذا كانت مناهج النظر هذه تتوزعها مصادر النحو وأصوله ، فقد توفر بعض النحاة على جمعها بين دفتي كتاب واحد يسجل أصول الخلافات وشواهدا ، ذلك هو كتاب " الإنصاف في مسائل الخلاف " لابن الأنباري . ونجد متفرقات كثيرة في كتب أعراب القرآن وتفسيره والمعجمات وسواها .

إن التأليف في التباين المنهجي لدى النحاة يشير إلى مرحلة متطورة من مراحل ضبط الظاهرة اللغوية واستقرار أحكام النظر فيها وطرائق تحليلها ، مما يدل على وعي عميق بالتباين ودوره في توجيه النظرية اللغوية العربية وتشكيلها ، وهذه هي الغاية الجلى التي يسعى الباحث إلى استقصائها والوقوف عليها .

النواميس اللغوية والتباين :

بالرغم مما تحصل لنا من حصر عوامل التباين التي تتفرد بها العربية ، إلا أننا نلاحظ عدم استفاد هذه العوامل لمصادر التباين ، ويظهر في الأفق عامل لا تتفرد به العربية ، وهو ضابط عام وقانون يجري على اللغات جميعها ، إذ إن في اللغة نواميس محددة وقوانين مستقرة تستعصي على الاجتناب أو المفارقة ، ذلك هو اللبس ^(١) .

" ومن الحق أن هذه النواميس وما يكتنفها من متغيرات وملابسات تتحرى اجتناب اللبس ، ولكنها ، فيما يكشف النظر في النظم اللغوية السائدة مضطرة إلى الوقوع فيه عند مواطن غير قليلة " ^(٢) وهذه بعض أمثلة على ذلك :

- في المستوى الصرفي :

يصاغ اسم الفاعل من مهموز الوسط على وزن فاعل ، فنقول :

ثأر : ثائر وزأر : زائر وسأر : سائر ورأب : رائب

١) برد اللبس في المدرسة البنية إلى غياب أدوات شكلية تحدد الوظائف النحوية لبعض عناصر التركيب ، أما التحولية فبرى تشومسكي رائداها أن الالتباس يقع حين احتمال أن تكون البنية السطحية متحولة عن أكثر من بنية عميقة واحدة . ويجعل الالتباس بارحاع البنية السطحية إلى إحدى البنيتين العميقتين ، لذلك لا بد من قيام النظرية اللغوية بالتمييز بين البنى العميقة والسطحية . للتفصيل انظر :

Chomsky . N . Aspects of the theory of syntax .

٢) محاد الموسى ، اللغة العربية وأبناؤها ، ص : ٣٥ .

ثم يعرض لنا اسم الفاعل من الثلاثي معتل الوسط دين تقلب واوه أو ياؤه همزة ، فنقول :

ثار : ثائر وزار : زائر وسار : سائر وراب : رائب

فيجتمع لنا صيغة واحدة ذات أصلين متباينين ، فلا يُفَضُّ اللبس بينهما إلا بعوامل السياق .
فقولك :

- (سأل سائل بعذاب واقع) يشي بأن الأصل هو سأل .

- الماء سائل وليس غازاً . يشي بأن الأصل هو سأل .

ومن هذا الباب أيضاً صياغة اسم الفاعل واسم المفعول الثلاثي المزيد الذي أصله مضعف . كما في : ردّ وشذّ وحلّ . فنقول :

- افتضّ : مُفْتَضٌّ ، للدلالة على اسم الفاعل واسم المفعول .

- احتلّ : مُحْتَلٌّ ، للدلالة على اسم الفاعل واسم المفعول .

ويبقى السياق حكماً في ميز البنية الصرفية التي جاءت عليها الكلمة . ولا شك أن ثمة فرقاً بين :

- العدو المحتلّ يصادر الأراضي .

- المسجد الأقصى محتلّ .

أما في المستوى التركيبي ، فتشكل علينا أمثلة مثل : سلّمت عليه واقفاً . فإن هذه الجملة - وفق مفاهيم المدرسة التحويلية - يمكن أن ترد إلى بنيّتين عميقتين :

- سلّمت عليه وهو واقف .

- سلّمت عليه وأنا واقف .

فموطن اللبس مائل في ميز صاحب الحال .

ومن ذلك قولك : غادر محمد الجامعة وعاد مريضاً ، إذ تحتل هذه الجملة معنيين :

- الأول : غادر محمد الجامعة وزار مريضاً ، فتكون كلمة " عاد " بمعنى زار ،

فأعملت النصب في " مريضاً " .

- الثاني : غادر محمد الجامعة فعاد وهو مريض . وعليه تكون " عاد " بمعنى " رجع " وهي مما لا يتعدى ، فانتصب " مريضاً " حالاً من الضمير المستتر في عاد .

وقد يلتبس علينا أيضاً : جلستُ على كرسي المدير الجديد . فإن " الجديد " تتأرجح بين أن تكون صفة للكرسي وللمدير . وكذلك قولك : هاتفتُ أمّاً تهتم بابنها . تحتل أن تكون هي تهتم بابنها ، أو أنت تهتم بابنها ، ومرد اللبس إلى أن صيغة المضارع للمفرد الغائب المؤنث (هي) وللمفرد المخاطب المذكر (أنت) واحدة .

ويحصل أن يكون الأداء النطقي مَرَّجاً للبس ، كما في العبارات التالية :

- قِ باب المسجد . وِقِباب المسجد .
- فِ الكأس ماءً . وفي الكأس ماءً .

وربما يكون الخط أو الإعراب في مثل هذه المثل كاشفاً للبس . وقد يكون النطق عَلماً على تحديد الوظائف النحوية كما في العبارة الآتية : الأبناء الأوفياء المخلصون لوطنهم . فإنسها تحتل وظائف نحوية تتعين بالنطق . هذه الوظائف هي :

| | | | |
|---------|----------|----------|----------------|
| الأبناء | الأوفياء | المخلصون | لوطنهم . |
| مبتداً | نعت | خبر | متعلق بالخبر . |
| الأبناء | الأوفياء | المخلصون | لوطنهم . |
| مبتداً | خبر | نعت | متعلق بالخبر |
| الأبناء | الأوفياء | المخلصون | لوطنهم |
| مبتداً | نعت أول | نعت ثانٍ | متعلق بالخبر |

- العوامل الاجتماعية وأثرها في التباين :

ساهمت طبيعة الحياة الاجتماعية في الجاهلية وصدر الإسلام - إلى حد ما - في رُفد التباين وتعزيزه ، فالنظر إلى سيرورة حياة القبائل العربية ، يكشف عن تفاعل حي بين القبيلة ومحيطها الاجتماعي . ثم إن هذه القبائل لم تكن منعزلة تماماً الانعزال ؛ فقد كانت الفرص متاحة للاتصال بطرائق كثيرة .

فالمواسم الثقافية والمساجلات الأدبية التي كانت تعقد على هامش الحركة التجارية ، كانت فرصة مناسبة لاكتساب الفصحى من اللغات ، وهذا كان شأن قريش في تهذيب لغتها وتقوية سلطانها .

والناظر في حياتهم يجد أنها كانت قائمة على الغزو والغارات لتحقيق السلطان وتقوية النفوذ ، ولا يخفى ما يعقب ذلك من أسر وسبي من النساء والصبيان الذين يُسَبِّقُونَ في القبيلة الأسرة ، وبالنظر إلى ما استحکم فيهم من نظام لغتهم الأصلية ، فإنهم سيكتسبون معطيات لغوية جديدة تتحصل بالاختلاط .

وكان من عادة العرب أن يسترضعوا أبناءهم في القبائل الفصيحة ؛ لينشأوا على الفصاحة واللمن ، ومثل هذا العرف كان مبعثاً على التباين ؛ إذ لو تخيلنا قبيلة واحدة تسترضع عشرة من أبنائها في قبيلة أخرى هي هي ، فلا شك أنهم سينشأون على لهجة الاسترضاع ، ثم يشبون على وضع لغوي آخر في موطنهم الأصلي ، فتتدافعهم لهجتان ، فماذا يحدث لو كان هؤلاء العشرة مسترضعين في عشر قبائل ١٤

ولم يكن الزواج في الجاهلية أو الإسلام محصوراً في أبناء القبيلة نفسها ؛ إذ قد يكون الأب من قبيلة والأم من أخرى ، وهكذا ينشأ الطفل نشأة فيها قدر من التباين ، ولا سيما إن كانت السمات اللهجية للأم والأب شديدة التباين ، كأن يكون الأب تميمياً والأم طائية .^(١)

ثم إنه كان من ضوابط النظام السياسي في الحياة الجاهلية نظام الخلع ، فكانت القبيلة تخلع فرداً أو أكثر تجنباً لجرائرهم ، فكان هذا الخلع ينصرف إلى مُنْعَزِل يسأوي إليه ، وقد

(١) في النساء غير القرشيات اللاتي تزوجن في قريش ، انظر : مختار الفوت : لغة قريش : ٢٩٨ ، جمعاً من مصادر متعددة .

يتصل بخُلْعاء من أمثاله من قبائل أخرى ، فيصطلحون على طريقة في التواصل يختصون بها ، تشبه أن تكون لهجات سرّية .

ولست أعول كثيراً جداً على هذا العامل ، ولكنه يبقى جديراً بالأخذ والاستئناس ، ولا سيما أنه أكثر مساساً بالدراسة اللسانية الاجتماعية .

وصفوة القول " أن التعدد في وجوه العربية يرتد إلى عوامل تاريخية خاصة ولغوية عامة . وتتخذ العوامل التاريخية الخاصة أبعاد ثلاثة : بُعداً مكانياً يتمثل في أن بناء العربية قد أُقيم على لهجات متعددة ، وبُعداً زمانياً يتبدى في أن النحويين اتسعوا في استقرار العربية على مدى ثلاثة قرون ونيف من حياتها ، وبُعداً منهجياً أقامه اختلاف طرائق النظر النحوي وغلبة الجزئية الموضوعية عليها . وينضاف إلى هذه العوامل عامل لغوي عام تقتضيه النواميس الذاتية والخارجية الفاعلة في صياغة البناء اللغوي بمستوياته المتكاملة : الصوتية والكتابية والصرفية والنحوية والدلالية ، وهي نواميس تفضي بالضرورة إلى مواضع ليس تعرض في نقاط معينة على كل مستوى ، حيث لا تملك نزعة التميز والتفرد في قواعد هذه المستويات تلافياً لذلك في الأمثلة اللامتناهية الممكن بناؤها " (١) . وينضاف إليها عامل لغوي نوعي يفاضل بين اللهجات التي أخذت عنها العربية ، فأنزلها منازل متفاوتة ، وعامل اجتماعي يتعلق بالبناء الاجتماعي للقبائل العربية وما استحکم فيها من أعراف وتقاليد .

الوظائف الاجتماعية للتبارك في العربية - قديماً -

لعل مزيداً من التدقيق والنظر في الحياة الاجتماعية العربية قديماً ، يظهر أن العرب قد أفرغوا الوسع كله في العناية بلغتهم ، فصرفوا جهودهم إليها يقيمون صرحها ويتفوقون بها ، وتَمَلَّكَهُمْ يقين بأن الشعر هو مادة هذه اللغة والمجال الأرحب للإبداع ، فجاء شعرهم أية في البلاغة والفصاحة ، ليكشف عن عظمة العربي وعظمة منجزاته ، فكان أن وسم الشعر الجاهلي - حتى أيامنا هذه - الشعر العربي بميسمه .

(١) لهاد المرسي ، اللغة العربية وأبنائها ، ص: ٤١-٤٢ .

لقد كان طبيعياً أن ينعكس التباين اللغوي للعربية في البيئة الاجتماعية وبنية المجتمع ، فلم يكن التباين عامل شغب في العربية ، بل كان أساساً في التواصل الاجتماعي . ويمكن أن نستشرف عدداً من الوظائف التي أداها التباين في العربية - قديماً .

أولاً : التواصل مع أكبر قدر ممكن من الناس ؛ لخدمة أغراض يسعى المتكلم لتحقيقها ، فيلجأ إلى محاكاة المستمعين بلهجاتهم أو ما يقاربها . وفق لهجاتهم وما استحکم فيهم من عادات ، وفي هذا يُروى الحديث المشهور " ليس من إمبر إمصيام في إمسفر " . على لهجة حمير .

ويتمثل هذا أيضاً على نحو صريح في انكاء الشاعر على ذلك القدر المشترك بين اللهجات العربية ؛ ليحقق أكبر قدر من التواصل خارج مجتمعه ، ليضمن لنفسه ولقبيلته الذبوع والشهرة . ولا سيما أن الشعر كان الوسيلة الإعلامية الأولى - إن لم تكن الوحيدة - آنذاك . وقد لقي هذا الاتجاه قبولاً عاماً لدى جمهرة الشعراء العرب ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومأثورة ، من ذلك قول ذي الرمة - وهو غير تميمي - :

أَعَن تَرَسْمَتُ مِنْ خَرَقَاءِ مَنْزَلَةٌ مَاءُ الصَّبَابَةِ مِنْ عَيْنِكَ مَسْجُومٌ (١)

ومن ذلك أن كلمة السوق مذكورة في لهجة تميم ونجد ، ومؤنثة في لهجة الحجاز ولكن عدي بن زيد العبادي يؤنث خلافاً للهجة قبيلته ، يقول :

ثُمَّ فَضُّ الْخَتَامِ عَنْ صَاحِبِ الدِّ نَ وَحَانَتْ مِنَ الْيَهُودِيِّ سَوْقٌ (٢)

ثانياً : الانتماء القبلي . كان الفرد العربي في المجتمعات العربية الأولى يذوب في الكل القبلي فلا قيمة له دون الانتماء إلى القبيلة ، فكان يُصرِّح بانتمائه صراحة في فنه الشعري . وكان مألوفاً أن ينظم الشعر في قبيلته بلهجته المحلية ، أو على الأقل بما يميزها من سواها من اللهجات . والأمثلة كثيرة متداولة . منها قول الشاعر هُوَ بَرِ الْحَارِثِيِّ :

تَزُودُ مِنَّا بَيْنَ أَذْنَاهُ طَعْنَةٌ دَعْنَةٌ إِلَى هَابِي التَّرَابِ عَقِيمٌ

١ (ابن فارس ، الصاحبي ، ص : ٢٩ .

٢ (هاشم الطعان ، الأدب الأهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة . ص : ١٩٣ .

فقد التزم الشاعر لهجة قبيلته (وهم بنو الحارث بن كعب وبطن من ربيعة) التي تلتزم المثى الألف رفعا ونصباً وجرّاً .^(١)

ثالثاً : الرقي الاجتماعي وتحليل المكانة وتلبية الطموح الاجتماعي . كانت الفصحى تمثل التنوع الراقي والنموذج الأنقى من إعرابية ، وكان مما يُمدح للعربي فصاحته وبلاغته ولسنه . وكانت الفصحى مرشحة من كان يمتلكها إراقي في السلم الاجتماعي ، وما يترتب عليه من فوائد مادية واجتماعية غير خاف على أحد . من ذلك أن صاحب البلاغة والفصاحة والبيان ، كسان أرحب فرصة لتبوء مناصب عليا في الدولة ولا سيما بعد استحداث الدواوين وتعريبها ، ولو نظرنا إلى حال كثير من الأعاجم لوجدنا أن امتلاكهم لزمam العربية يثمر لهم الارتقاء في السلم الاجتماعي أو الثقافي ، كابن المقفع والبرامكة وسواهم .

رابعاً : تجنب السخرية والهزاء . سرت تنوعات العربية للمتكلم أداء معنى واحد بأبنية متعددة ، يلجأ إليها حين الاضطرار ، لذلك نجد كثيراً من المتكلمين يتجنبون مفردة أو أسلوباً لا يحسنون إقامة أسنتهم به ؛ لعيب نظمي ، أو لأن الذاكرة لا تسعفهم لحظة التكلم في استدعاء المفردة التي يطلبونها ، فيكون الترادف منقذاً لهؤلاء من السخرية ولا سيما إن كان المتكلم على عيون الأشهاد ، من ذلك أننا نجد الجاحظ يورد أحاديث طويلة عن الفصحاء والبُلغاء ويساك بينهم واصل بن عطاء . وكان يلثغ بالراء^(٢) . فتستثير الجاحظ قدرته على استدعاء المفردات المرادفة لكل ما يطلبه من مفردات تتضمن حرف الراء ، وما يترتب على ذلك من تجنبه السخرية أو الهزاء . ولا سيما سخرية بشار بن بُرد .

خامساً : إبراز العلاقة بين المتخاطبين . يعكس الأسلوب المستخدم مدى رسمية العلاقة بين المتكلم والمستمع ، بما يعكس سلم الوظائف الاجتماعية . فالرسول كان يخاطب أصحابه بأسمائهم ، في حين كانوا يخاطبونه بما يشبه أن يكون وظيفة اجتماعية . فيخاطبونه بعبارات مفهومة مثل : يا رسول الله ، ويا نبي الله . وكذا القول في خطاب العامة لولاة أمورهم فإنهم لا

(١) ابن جنى ، سر صناعة الإعراب ، ٢ / ٧٠٥ . وهو من الشواهد المأثورة والمندولة . انظر : الصاحبي لابن فارس ، ص : ٢٦ . والجمل في النحو للخليل بن أحمد : ١٣٣ . وشرح ثنور الذهب : ٧٥ .

(٢) الجاحظ ، البيان و التبيين : ١٦ / ١٧ .

يكادون يتجاوزون عبارات رسمية مثل : مولاي ، وأبيها الوالي ، ويا خليفة رسول الله ، ويا أمير المؤمنين ، وأبيها القاضي .

وإذا نظرنا في خطاب التلميذ شيخه فإنه لا يعدو أن يقول يا شيخنا أو يا مولانا ، أو يا عالماً ، وهكذا يتدرج الحال على مستويات الخطاب الاجتماعي المتعددة .

بحث التباين في التراث العربي

١ - اللهجات الجغرافية :

وهذا النوع من اللهجات أكثر الأنواع دراسة واستقصاء ووروداً على النحاة ؛ إذ إن العامل الجغرافي - وهو الأساس في تقسيم اللهجات الجغرافية - كان أحد العوامل المؤسسة للتباين في العربية ، والنصوص التي تصرّح بذلك كثيرة ، " فكتاب المقدسي " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " الذي يحاول تمييز أقاليم العالم الإسلامي من الوجهة اللغوية قد انبنى على منهجية بحثية ميدانية لرصد جغرافية الكلمات وتوزيعها الاجتماعي داخل المنطقة الجغرافية الواحدة " (١) . يقول المقدسي - عن جزيرة العرب - : " أهل هذا الإقليم لغتهم العربية إلا بصُحار فإن نداهم وكلامهم بالفارسية . وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن اللغة عربية . وبطارف الحميري قبيلة من العرب لا يفهم كلامهم . وأهل عدن يقولون لـ " رجليه " رجليته ولـ " يديه " يديته وفس عليه ، ويجعلون الجيم كافاً فيقولون لرجب : ركب ، ولرجل : ركل ، وقد روي أن النبي أتى بروتة عند الاستجمار فالتقاها وقال هي ركب . وقد تعنى الفقهاء هذا فيجوز ما قالوه ويجوز أن يكون استعمل هذه اللغة . وجميع لغات العرب موجودة في هذه الجزيرة أصحابها * لغة هذيل ثم النجديين ثم بقية الحجاز إلا الأحقاف فإن لسانهم وحش " (٢) .

ويصدق مفهوم اللهجات الجغرافية على كتاب " لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم " لأبي عبيد القاسم بن سلام ؛ فهو يشبه أن يكون معجماً لهجياً للقبائل العربية ، يتناول فيه المفردة

(١) عشاري محمود ، مرجع سابق ، ص : ٣٢٠ .

* ربما يعني أصحابها وهذا أنسب وأصوب .

(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص : ٩٦ - ٩٧ . وانظر إشارة إلى الأقاليم الأخرى : ١٢٨ ، ١٤٦ ، ٢٠٣ ، ٢٤٣ .

بالشرح والتفسير ، ثم يردّها إلى القبيلة التي تستخدمها - وفي هذا تحديد جغرافي - مؤيداً مذهبه بأراء من سبقه من العلماء .

كذلك فإن ثمة فصولاً متناثرة في بطون الكتب تقوم على هذا التقسيم ولا سيما ما تعلق بالفاظ القرآن الكريم ، منها .

- السيوطي ، الإتيان في علوم القرآن ، باب : فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز .
- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، باب : معرفة ما وقع فيه من غير لغة أهل الحجاز .

أما الأوصاف التي كان اللغويون يطلقونها على الألفاظ من حيث مصدرها اللهجي ، فإنه لا يعدو أن يكون تحديداً جغرافياً لسيرورة اللفظة مكانياً ، ولا ضميراً من مثال أو اثنين .
- قال أبو علي القالي : " الوتر والوتر : الفتح لغة أهل الحجاز والكسر لغة تميم وأسد وقيس " (١) .

- وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : " المربدُ أيضاً مواضع التمر مثل الجرين والبيندر للحنطة . والمربد بلغة أهل الحجاز والجرين لهم أيضاً . والأندر لأهل الشام والبيندر لأهل العراق " (٢) .

٢ - اللهجات الاجتماعية :

قد يكون الجاحظ - وهو بلاغي وأديب - أكثر من عنى نفسه باستكشاف العلاقة بين البنية اللغوية والمستويات الاجتماعية للمتكلمين ، ويقوم استكشافه على وعي عميق بالوظيفة التي يؤديها كل فرد ، ويقين باندغام هذه الوظائف في الأداء اللغوي ، فنراه يمايز الناس طبقات اجتماعية ويميزهم طبقات لغوية . يقول : " وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً ، وساقطاً سوقياً ، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً ؛ إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً ؛ فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوق . وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات . فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقيح والسمج ، والخفيف والثقيل ، وكله عربي وكل قد تكلموا بكل وقد تهادحوا وتعابوا

١ / الأمل : ١٣ / ١ : وإصلاح المنطق ، ص : ٣٥ - ٣٦

٢ / غرب الحديث ، بتحقيق حسين محمد شرف : ١ / ٣٠٩ . والغريب المصنف : ٢ / ٤٩٠

ولأهل المدينة ألسن ذلقة ، وألفاظ حسنة ، وعبارة جيدة ، واللحن في عوامهم فاش ، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب" (١)

ومما اهتم به الجاحظ الربط بين المستوى الاجتماعي والمستوى اللغوي فأجاز لنفسه رواية الطرف والنوادر - وإن كان فيها لحن - على ما هي عليه في لغة قائلها ، مراعيًا حال المتكلم ومناسبة الكلام . يقول : "... وقد يُحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتنع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ ، والشريف الكريم من المعاني . كما أن النابذة الباردة جداً قد تكون أطيباً من النابذة الحارة جداً.....ومتى سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تُلحَن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المؤلدين والبُلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ومُلحة من مَلح الخشوة والطغام ، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سريعاً - فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، أو من الذي أريدت به ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها ." (٢)

٣ - اللهجات الحرفية (المهنية) :

قد يكون الجاحظ أكثر الأدباء والبلاغيين العرب عناية برصد لهجات الطوائف المهنية في التراث العربي مبيّناً الأساليب الغالبة عليهم ، وكيفية تعبيرهم عن مجريات الحياة الاجتماعية اليومية بمفردات خاصة بهم ، تشكل مُعجمهم الخاص . ففي رسالته المتعلقة بالقواد ، نراه يرصد تعبيرات قادة الجند لموقف عسكري واحد ، متأثرين بما استحكّم فيهم من طبائع لغوية مرتبطة بالمهن التي يمارسونها .

فراعي الخيل يستخدم مصطلحاته الخاصة : كالاسطبل والدابة والممرغة والرؤثة . (٣)

وبختيشوع الطبيب يستخدم مصطلحات طبية متعددة مثل : البيمارستان والمحقة والمبضع . (٤)

(١) الجاحظ ، البيان والنبين : ١٤٤/١ - ١٤٦

(٢) الجاحظ ، البيان والنبين ، ١٤٥/١ - ١٤٦ .

(٣) الجاحظ ، الرسائل ، رسالة في صناعة القواد ، ٣٨١/١ - ٣٨٢ .

(٤) الجاحظ ، المصدر نفسه ، ١ - ٣٨٣ .

وكذا الخياط يتناول الوصف بالفاظه الخاصة بمهنته مثل : الخلقان والذرز والإبرة والجربان والغزوة .^(١) وكذلك الزارع والخباز والمؤدب وصاحب الحمام والكناس والشرايبي والطباخ والفراش .^(٢)

ونخلص مما سبق إلى القول : إن اللغويين والبلاغيين العرب قد التمسوا كثيراً من الوقائع اللغوية التي يمكن تفسيرها وفق مرجعيات علم اللغة الاجتماعي ؛ إذ أدركوا وجه العلاقة بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية ، وأدركوا فعل المتغيرات الاجتماعية في البنية اللغوية . وكانت لهم أنظار ثاقبة في درس متغيرات الموقف الاجتماعي وانعكاسه أداءً لغوياً واقعياً . كما تحصلت لهم ملاحظ لطيفة في رصد تباين الأداء اللغوي وفقاً للعلاقة بين المتحدث والمستمع والضوابط الاجتماعية واللغوية التي تفرض سلوكاً لغوياً واجتماعياً ما .

١ (الملاحظ ، الرسائل ، رسالة في صناعة القواد : ٣٨٤-٣٨٥ .

٢ المصدر نفسه ، ٣٨٥/١ ، ٣٩٣ .

الفصل الثاني : التباين في البنية الصوتية

المبحث الأول : الإبدال الصوتي :

أولاً : الإبدال المُطَرَّد :

- ١ (اللغات المضمومة .
- ٢ (ما أبدل على سبيل المماثلة .
 - أ (وزن افْتَعَلَ .
 - ب (وزن تَفَعَّلَ .
 - ج (إبدال النون ميماً .
 - د (إبدال السين صاداً .
- ٣ (إبدال الهمزة هاءً أول الكلمة .
- ٤ (إبدال الواو همزة أول الكلمة .
- ٥ (إبدال الواو .

ثانياً : الإبدال غير المُطَرَّد .

- ١ (ما أبدل على سبيل المخالفة .
- ٢ (إبدال الأصوات (تبادل المواقع) .

المبحث الثاني : في الوقْف .

أولاً : الوقف على الاسم المنون غير المختوم بالتاء .

ثانياً : الوقف على الهاء (هـ)

المبحث الثالث : التخلص من النقاء الساكنين .

المبحث الرابع : في حركة الضمير المتصل .

المبحث الأول الإبدال الصوتي

الإبدال الصوتي أن تقيم صوتاً مقام آخر ، بما يُسلم إلى تشابه البنيتين إلا في هذا الصوت وما يترتب على هذا التباين الصوتي من تباين في الرسم الكتابي ، وضابط هذا الإبدال الاتفاق في المعنى ؛ فليس إبدالاً ما تشابهت فيه البنيتان إلا حرفاً واختلقتا دلالة ، كقولك : نام ودام ، فإنهما أصلاً لا بدلان .

ولم يكن الإبدال في العربية القُدمى حراً ، ولم يكن العربي ليقم صوتاً مقام آخر متى شاء ، ولم يكن يعني أن العرب كانوا يطلقون أيديهم في لغتهم ، ويتصرفون فيها وفق أهوائهم ، إنما هو مضبوط ؛ إذ " ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف ، وإنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة ، تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنى واحد ، حتى لا يختلجان إلا في حرف ، والدليل على ذلك أن قبيلة واحدة لا تتكلم بكلمة طوراً مهموزة وطوراً غير مهموزة ، ولا بالصاد مرة وبالسين أخرى ، كذلك إبدال لام التعريف ميماً والهمزة المصدرة عيناً ، كقولهم في نحو أن : عَن ، لا تشترك العرب في شيء من ذلك ، إنما يقول هذا قوم وذاك قوم آخرون " (١) .

وظاهر قول أبي الطيب هذا أن الإبدال إنما هو تباين لهجي إقليمي ؛ إذ تختص كل قبيلة بأداء لهجي يدل عليها . وهذا في مجمله صواب ، واكننا نحمل على وقائع أخرى أنه يمكن للقبيلة الواحدة أن تتداول صورتين إحداهما بدل من الأخرى ، قد تكون إحداهما أصلاً والأخرى حادثة في الزمن والاستعمال ، وقد تكون سقطت إلى السنة أفراد القبيلة من قبائل أخرى ، من ذلك ما يرويه ابن السكيت في إيداله : " حضرني أعرابي من بني كلاب ، فقال أحدهما (انفحة) والآخر (منفحة) ثم افترقا على أن يسألا أشياخ بني كلاب ، فاتفق جماعة منهم على قول ذا ، وجماعة على قول ذا " (٢) .

(١) هذا رأي أبي الطيب اللغوي في الزهر : ١ / ٤٦٠ . وأيضاً مقدمة تحقيق إيداله ، ورقة مبثورة ، ص : ٦٩ .

(٢) أبو الطيب اللغوي ، الإبدال ، مقدمة التحقيق ، ص : ١٣ .

والإبدال في اللغة ظاهرة شائعة ولافتة ؛ ذلك أن معظم التباين اللهجي صوتي ، وكان من شيوعه وانتشاره أن توفّر على التأليف فيه عدد من اللغويين والنحاة والصرفيين ، فوردنا على مؤلفات مخصوصة بالظاهرة كإبدال أبي الطيب وإبدال ابن السكيت . ينضاف إلى ذلك باب عريض في المصنفات النحوية والتصريفية وفقه اللغة والقراءات القرآنية .

وأما ضوابط هذا الإبدال - على المستوى النظري - ، فالأصل أن يقع في الأصوات المتقاربة مخرجاً ، يقول ابن جنّي : " إن أصل القلب في الحروف إنما هو فيما تقارب منها ، وذلك الدال والطاء والتاء والذال والظاء والتاء والهاء والهمزة والميم والنون وغير ذلك مما تدانت مخارجه " (١) .

وينسحب القول نفسه على ابن سيده حين يقول : " أما ما كان جارياً على مقاييس الإبدال التي اثبتُ فهو الذي يسمّى بدلاً ، وذلك كإبدال العين من الهمزة ، والهمزة من العين ، والهاء من الحاء ، والحاء من الهاء ... فأما ما لم يتقارب مخرجاه البتة فقل على حرفين غير متقاربين فلا يُسمّى بدلاً ، وذلك كإبدال حرف من حروف الفم من حرف من حروف الحلق " (٢) .

والتقارب المخرجي هو أقرب مسوغات الإبدال الصوتي ، ولكسّن أبا الطيب وابن السكيت - وهما أعرف من صنّف في الإبدال - لا يتخذان ذلك ضابطاً دقيقاً ، فيجيزان الإبدال فيما تباعد مخرجاهما واختلفا صفة وهيئة .

أما معرفة الإبدال ، فإنها تكون بكثرة التصرف والاستعمال والدوران على الألسنة ؛ فإذا وردت الكلمة على صورتين متحدتي البنية مُخْتَلِفَتَيْنِ في صوت (فونيم) واحد ، نظرنا في استعمالها وتصرفها فما كانت له الغلبة حُكِمَ له بالأصلية ، وما كان أقل فهو الحادث . فإن تساويا في الاستعمال والكثرة ، فلا مدفع للقول بحق كل منهما في الأصلية . وهذه الأحوال نراها عند ابن جنّي على التصريح ، حيث يقول : " ... العرب تقول في العطف : قام زيدٌ فَمُ عمرو . وكذلك قولك : جَدَفَ وجَدَثَ . والوجه أن تكون الفاء بدلاً من التاء لأنهم قد أجمعوا في الجمع على أجداث ولم يقولوا أجداف . أما قولهم " فناء الدار " و" فناءها " فأصلان ، فأما " فناءها " فمن فني يفتي ؛ لأنها هناك تفتي ؛ لأنك إذا تهايت إلى أقصى حدودها فتيت ، وأما

(١) ابن جنّي ، سر صناعة الإعراب : ١ / ١٩٧ .

(٢) ابن سيده الأندلسي ، المحصن : ٤ / ١٣ : ١٨٤ .

"ثاوما" فمن ثى يثى ؛ لأنها هناك أيضاً تنثى على الاتساق لمجسيء آخرها وانقضاء حدودها . فإن قلت : هلاً جعلت إجماعهم على أفنية بالفاء دلالة على أن الثاء في "ثاء" بدل من الفاء في "فناء" كما زعمت أن فاء "جذف" بدل ثاء "جذث" ؛ لإجماعهم على أحداث بالثاء ؟ فالفرق بينهما وجودنا لثاء في الاشتقاق ما وجدناه لفناء ، ألا ترى أن الفعل يتصرف منهما جميعاً ، ولسنا نَعَلِّمُ لـ (جذف) بالفاء بصرف "جذث" ؛ فلذلك قضينا بأن الفاء بدل من الثاء " (١) .

ومثله ينهج ابن مالك فيقول : " ... وما أمكن من ذلك أن يجعل من مادتين فهو أولى من ادعاء البدلية كـ (أمليت الكتاب وأمليته ، وتم الحديث ونمائه) ... فإن كلاً من هذه مسأله الأخرى في الاشتقاق والتصريف ، فلم يكن جعل أحدهما بأولى من العكس " (٢) . وقال أيضاً : " مذهبه بمعنى مدحه وفيه نظر ؛ لأن بعضهم فرق بين ذي الحاء وذي الهاء ، فجعل " المدح " في الغيبة و " المده " في الوجه ، والأصح كونهما بمعنى واحد إلا أن المدح هو الأصل ؛ لأنه فائق في الاستعمال وبكثرة التصاريف ، ولأن حروفه حروف الحمد مع تقاربهما في المعنى " (٣) .

ومنشأ الإبدال إما لغوي داخلي متعلق بالنظام الصوتي للعربية ، من حيث تجويزه لبعض الأبدال أو منعها اتكاء على قرب المخرج والاتحاد في الصفة ووفقاً لضوابط الانسجام الصوتي ممثلة في قانوني المماثلة والمخالفة . وإما خارجي كأخطاء الأطفال وأمراض الكلام والتصحيح (٤) .

وثمة أسباب مانعة للإبدال أهمها : تباعد المخارج واختلاف البيئة والقبيلة واختلاف المعنى (٥) . وهكذا تحصل للغويين العرب أن يضبطوا - على اختلاف - الإبدال الصوتي في العربية في ضوء دراسة كمية ثم تحليلية تعليلية لأسبابه وعمله .

(١) ابن جنى ، سر صناعة الإعراب : ١ / ٢٤٨ .

(٢) ابن مالك ، شرح الكافية الشافية : ٤ / ٢١٥٧ .

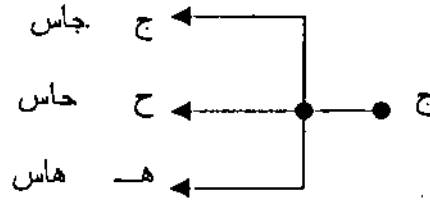
(٣) المصدر السابق : ٤ / ٢١٦٢ ، ومثاله أيضاً شرح الكافية لرضي الدين : ٣ / ١٩٧-١٩٨ .

(٤) انظر : مقدمة ابدال أبي الطيب اللغوي ، وأيضاً : أحمد الجندي ، اللهجات العربية في التراث : ١ / ٣٤٨-٣٥٩ .

(٥) انظر : المرجع السابق .

ويستقيم لنا هنا أن نقول : إن وعياً حاضراً كان لدى اللغويين العرب بمفهوم المتغير اللغوي عموماً ، والمتغير الصوتي تعيناً ؛ فإنهم باشتراكهم الاتفاق في المعنى والافتراق في جزء من البنية ، إنما يصدرون عن هذا الوعي . فتمثل المفهوم لديهم واضحاً جلياً على المستوى التنظيري وعلى المستوى التطبيقي ، وكانوا يعون تماماً - ولا سيما أبو الطيب اللغوي - أن هذه الأبدال وقائع لغوية متداولة تتأني للعرب تأتي السليقة والبديهة ، وهو تأت عفوي لا يشغلون أنفسهم به ، وإنما مناط تفسيره وتعليله اللغويون . إذ شأنهم أن يستبطنوا المعرفة اللاواعية للأداء الكلامي ، قصد الوصول إلى النظام الذهني الذي يتحكم فيه ، وهذه هي الغاية الجلى للسانيات ولا سيما التحويلية منها . وحتى لا يكون الكلام مُلقى على عواهنه ، أسوق مثلاً أو اثنين :

نقول : جاس وحاس وهاس ^(١) فإنها تشترك في معنى طلب الغارة والسير والتردد ، وكثرة دوران " جاس " مظنة أصوليتها . وعليه يكون للجيم ثلاثة متغيرات صوتية على النحو التالي :



ولا يخفى أن كل متغير من هذه المتغيرات كان يرتبط بمتغيرات أخرى غير لغوية . وضنت المصادر على ذكرها . ولكن كثرة شيوع (جاس) تشي بأنها للعرب جميعاً ، وأن (حاس) و (هاس) إنما هما تحققان إقليميان يقلان مرتبة عن (جاس) الفصحى ، ودليل ذلك تنزيل (حاس) منزلة أقل من (جاس) في القراءات ^(٢) .

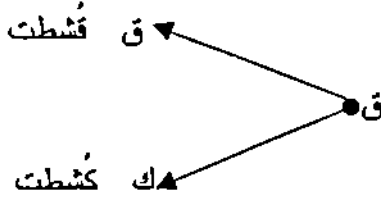
وربما يبدو ربط مثل هذه الأبدال بالبنية الاجتماعية صعباً ؛ ذلك أنها غير منسوبة ولكن الأبدال المنسوبة تيسر المسألة وتجعلها أضبط وأوعب . من ذلك : قُشِطَتْ وكُشِطَتْ ، فقد نسبت

١ (انظر لسان العرب : حاس ، حاس ، هاس . وابدال أبي الطيب : ٢٥٠/١ ، وابدال ابن السكيت : ٩٥ ، وأيضاً : سر الصناعة :

١٥ / ٢ .

٢ (القراء ، معاني القرآن : ١١٦ / ٢ .

بالقاف لقيس وتميم ، أما بالكاف فقد نسبت لقريش^(١) . وهكذا يكون للقاف (أو للكاف) متغيران منسوبان .



وبما أن هذين المتغيرين منسوبان فإنه من المنطقي القول : إنها بالقاف لهجة تميمية بدوية وهم ممن يميلون إلى تفخيم الحروف وإطباقها . أما بالكاف فهي لهجة قريش الحضرية المدنية التي تميل إلى الرقة أكثر من غيرها ؛ لما في طبيعة حياتها من السهولة واللين . وأمثلة ذلك كثيرة ضافية ليس محلها هنا .

وقد تهيأ لي أن أقسم الإبدال الصوتي إلى قسمين كبيرين هما :

- الإبدال المطرد .
- والإبدال غير المطرد .

(١) يرى الفراء أنهما ليستا من البدل لأحدهما لثان لأنهما مختلفين ، سر الصناعة : ٢٧٧ / ١ .

– الإبدال المطرد :

وهو ما كان جارياً على قانون من الاستبدال مطرد ، سواء أكان قانوناً لهجياً خاصاً بلهجة إقليمية ، أم قانوناً مطرداً في العربية ، وهو ينتظم الأبدال التالية :

أولاً : اللغات المذمومة :^(١)

أستلم الفرز النوعي الذي سلكه النحاة في تصنيف اللهجات إلى نوعين :

الأول : وهو اللهجات الفصيحة النقية ، والثاني : الفصيحة التي تنزل منزلة أدنى من الأولى ؛ لاشتمالها على سمة لغوية فارقة هي مستبحة ومذمومة لدى اللغويين . وتلك السمات إنما هي سمات صوتية خالصة ، ليس فيها من النحو والإعراب أو الدلالة شيء ؛^(٢) فهي عدول صوتي عن الهيئة الفضلى التي يؤدي عليها النظام الصوتي للعربية ، وليس هذا بمتخصص من فصاحتها شيئاً ؛ لأن هذه السمة لم تقف عائقاً في النقل عن أصحاب هذه اللهجة المستبحة ، فالعننة في تميم مستبحة ، ومع ذلك تُسلك تميم في أفصح العرب .

وإنما أدخلتها في هذا الباب المطرد لجملة أسباب ، يتصدرها الاستقامة على هيئة واحدة مطردة أو تكاد تكون ، فلا تخرج على هيئتها تلك في استعمالها اليومي الخالص قياساً وتصرفاً ومن ذلك أنها من أكثر السمات اللغوية ثبوتاً من حيث نسبتها - على التقريب - ، فلو نظرنا في كثير من المواضع اللهجية لوجدنا النحاة يقولون : أكثر العرب وبعض العرب وناس كثير . أما هذه اللهجات فمنسوبة على التعيين ، وإن اختلفت النسبة أحياناً .

أما العامل الأخرى في حملها على الاطراد فهو أنها تمثل وصفاً دقيقاً لظواهر من المسنوي المنطوق من اللغة ، الذي هو مادة التداول والتفاعل الاجتماعي اليومي ؛ إذ كانت تؤدي نوراً وظيفياً في التواصل اليومي ، - فهي وإن كانت مذمومة في نظر اللغويين - أداة التقاهم وكضاه الحاجات الأساسية في المستوى الإقليمي ، وبما أنها بلغت من الشهرة والذيع هذا الحد ، فإنها تتجاوز حدود المحلية إلى العالمية (العالم العربي آنذاك أي القبائل جميعاً) . وثمة روايات كثيرة تدعم هذا القول . ولما كانت هذه اللهجات (السمات) معينة على التواصل

(١) الصاحبي في فقه اللغة ، ص: ٢٩-٣٠ . وانظر أيضاً : السيوطي ، الزهر : ١ / ٢٢١-٢٢٥ .

(٢) هنا حمل على التميم ، فقد أورد السيوطي في الزهر ألفاظاً مستبحة ، ولكن قصدنا في هذا الباب الإبدال الصوتي حسب . انظر الزهر : ١ / ٢٢٣-٢٢٥ .

في محيطها فلا سبيل إلى مفاضلتها بغيرها من اللغات حسب اللسانيات الحديثة ، وحسب القراءات القرآنية .

ولم يكتف اللغويون العرب بإثبات هذه السمات ، بل حاولوا تحليلها وتفسيرها وفق قوانين الصوتيات العربية الحديثة (أنذاك) ، فأصابوا التوفيق كله وجانبوا الخطأ جلّه . ثم قفى المحدثون على آثارهم ، فحاولوا تفسير هذه السمات وفق الصوتيات الحديثة ، وهم في منهجهم ومستخلصاتهم لا يخرجون على ما توصل إليه المتقدمون إلا بزعمهم أن المنهج حديث وأن القدماء لم يكونوا على منهج سديد .

ومهما يكن الأمر ، إن وجدنا تفسيرات صوتية أو لم نجد ، فإن هذه السمات وقائع لغوية عفوية ، تتأدى للعربي في بيئته على نحو عفوي تلقائي ، دون وعي بملاسات قوانين الأصوات واعتمالاتها .

وقد أفرغ الأوائل وسعهم في استنباط تحديدات دقيقة لهذه السمات ، وفق ما توافر لهم من مادة حاضرة تحصلت لهم بالاستماع والمشاهدة ، فوصفوها وضبطوا أحكامها وقبوع حدوثها . وأحسب أن النص الذي أورده السيوطي نقلاً عن الفراء خير ما يعبر عنها ، ونحن نورده - على طوله - لأنه أَوْعِيها وأجمعها ، يقول في سياق تفضيل لغة قريش : " وخلصت لغتهم من مُستَبشع اللغات ومُستَبح الألفاظ ، من ذلك الكَشْكشة ؛ وهي في ربيعة ومُضَر ؛ يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيئاً ، فيقولون : رأيتكِش وبكش وعليكِش ، فمنهم من يثبثها حالة الوقف فقط ، وهو الأشهر ، ومنهم من يثبثها في الوصل أيضاً ، ومنهم من يجعلها مكان الكاف ويكسرهما في الوصل ويسكنهما في الوقف ؛ فيقول : مَنش وعلَيش . ومن ذلك : الكَسْكسة ؛ وهي في ربيعة ومُضَر ؛ يجعلون بعد الكاف أو مكانها في المذكر شيئاً على ما تقدم ، وقصدوا بذلك الفرق بينهما .

ومن ذلك : العنْنة ؛ وهي في كثير من العرب في لغة قيس وتميم ، تجعل الهمزة المدوِّء بها عيناً ، فيقولون في أنك : عَنك ، وفي أسلم : عَسلم ، وفي أذن : عُدن ومن ذلك : الفَتححة في لغة هذيل ، يجعلون الحاء عيناً .

ومن ذلك : الوكُم في لغة ربيعة ، وهم قوم من كَلْب ، يقولون : عليكم وبكم حيث كان قبل الكاف ياء أو كسرة .

ومن ذلك : الوَهْم في لغة كَلْب ؛ يقولون : منهم وعَنهم وبيَنهم ، وإن لم يكن قبل الهاء ياء ولا كسرة .

ومن ذلك : العَجَعَجَةُ في لغة قُضاعة ؛ يجعلون الياء المشددة جيماً ، يقولون في تميميّ : تميميّج . ومن ذلك الاستنطاء في لغة سَعْد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار ، تجعل العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء كأنطى في أعطى .

ومن ذلك : الوَثْم في لغة اليمن ؛ تجعل السين تاءً ، كالثَّات في الناس . ومن ذلك : الشَّنْثَلَة في لغة اليمن ؛ تجعل الكاف شيئاً مطلقاً كـ "لَيْثُ اللّهم لَيْثُ" أي لَيْثُك .

وذكر الثعالبي في فقه اللغة من ذلك : اللُّخْلُذَانِيَّة تُعْرَضُ فِي لُغَةِ أَعْرَابِ الشُّحْرُ وَعُمَان ؛ كقولهم : مشا الله كان ، أي ما شاء الله كان . والمُطْمَئِنِّيَّة تُعْرَضُ فِي لُغَةِ حَديْر ؛ كقولهم طاب امهواء : أي طاب الهواء " (١) .

وفيما يلي نتناول هذه السمات بمزيد تفصيل (٢) .

الكَشْحُ كَشْحَةً :

نصُّ على وجود هذه السمة كثير من اللغويين والنحاة والمعجميين (٣) ، وفي مقدمتهم سيبويه ، فقد حدَّها لغة ونسبة ، حيث يقول : " فأما ناس كثير من تميم وناس من أسد فإنهم يجعلون مكان الكاف للمؤنث الشين ؛ وذلك أنهم أرادوا البيان في الوقف ؛ لأنها ساكنة في الوقف فأرادوا أن يفصلوا بين المؤنث والمذكر والمؤنث ؛ وأرادوا التحقيق والتوكيد في الفصل ؛ لأنهم إذا فصلوا بين المؤنث والمؤنث بحرف كان أقوى من أن يفصلوا بحركة ، فأرادوا أن يفصلوا بين المؤنث والمؤنث بهذا الحرف . كما فصلوا بين المؤنث والنون حيث قالوا : ذهبوا وذَهَبْنِ وأنتم

(١) السيوطي ، الزهر : ٢٢١/١-٢٢٥ ، وثمة نصوص قريبة من هذا في الصاحي : ٢٨-٣٠ ، ومجالس نعلب : ٧٣/١ ، وابن حني ، الخصائص : ١١/٢ ، وأيضاً ، سر الصناعة : ٢٢٩/١-٢٣٠ .

(٢) قد استثبت من هذه اللهجات الوثم والوكم ؛ لأهما شتاينان لي ميحث خاص بحركة الضمير .

(٣) للتفصيل بشأها انظر : سر صناعة الإعراب : ٢٠٦-٢٠٧ و ٢٣٠ ، والخصائص : ١١/٢ ، وإبدال أبي الطيب ، ٢٣٠/٢ ، والساحي : ٢٩ ، ودقائق التصريف للمردب : ٣٨٨ ، وارتشاف الضرب لأبي حبان ، ولسان العرب (كشش) ، والقاموس المحيط :

وأنتن ، وجعلوا مكانها أقرب ما يشبهها من الحروف إليها لأنها مهموسة كما أن الكاف مهموسة ولم يجعلوا مكانها مهموساً من الحلق ؛ لأنها ليست من حروف الحلق ، وذلك قولك : إنش ذاهبة ومالش ذاهبة ، تريد إنك ومالك . " (١)

نستظهر من هذا الحد أنها سمة شائعة بكثرة في بني تميم ومتداولة على نحو أقل في أسد - في حين يعزوها الفراء إلى ربيعة ومضر - ، ومؤداها أن تستبدل الشين بكاف ضمير المخاطبة في بيئة صوتية محددة هي الوقف . والغرض من هذا الإبدال تحقيق فائدة تراصلية في المستوى المنطوق ؛ إذ إن إقامة الشين مقام الكاف تبدد اللبس الذي ينشأ من مظللة كون المخاطب مذكراً أو مؤنثاً ؛ وذلك أننا حال النطق بهما نقف عليهما بالتسكين ، فلا يبقى علم عليهما بزوال الكسرة والفتحة . فاجتلبت الشين لتكون علماً على التأنيث وفرقاً بينها وبين المذكر . وهذا التدبير جارٍ على القياس ، فالتفريق بين أنتن وذهبوا وذهبين إنما هو بالحرف لا بالحركة ؛ لذلك استقام لهم ذلك ، وأما اصطفاء الشين على التعيين ، فلكونها موافقة للكاف في الهمس .

ثم يضيف سيبويه : " وقوم يلحقون الشين لبيّنوا بها الكسرة في الوقف ، كما أبدلوا مكانها للبيان ، وذلك قولهم : أعطيتكش وأكرمكش فإذا وصلوا تركوها . " (٢)

وهذا وجه آخر للظاهرة مؤداه الإبقاء على كاف ضمير المؤنث المكسورة وإحاقها شيئاً ؛ لتحقيق الغاية نفسها ، أي إظهار الكسرة التي تدل على جنس المخاطب المؤنث . وهذا السلوك متحقق في الوقف حصراً ، فإذا ما تحقق الوصل تركت . ولكننا نجد الفراء يشير إلى صورتين لإضافة الشين هما : الإثبات في الوقف لدى جماعة والإثبات في الوصل أيضاً . " (٣)

١ (سيبويه ، الكتاب : ١٩٩/٤ .

٢ (سيبويه ، الكتاب : ١٩٩/٤ - ٢٠٠ .

٣ (السيوطي ، الزهر : ٢٢١/١ .

وشواهد هذه السمة اللهجية ضافية ومتنوعة بين نصوص أدبية وكلام منقول عن الأعراب الفصحاء في مواقف حية ، وقراءات قرآنية . من ذلك بيت المجنون في إحدى الروايات: ^(١)

فَعِينَاشِ عِينَاهَا وَجِيدَشِ جِيدَهَا وَلَوْتُشِ إِلَّا أَنهَا غَيْرِ عَاطِلِ

ومن كلامهم : إذا أعياش جاراشِ فأقبلي بيبش . أي إذا أعياك جارئك فأقبلي على ذي بيبك . ^(٢) ونادت أعرابية جارية : تعالي إلى مولاشِ يناديش . ^(٣)
وَرُوي الرَّجَزُ : ^(٤)

عَلِيٌّ فِيمَا أَبْتَغِي أَبْغِيَشِ
بِيضَاءَ تَرْتَضِينِي وَلَا تَرْتَضِيَشِ
وَتَطْبِي وَدُ بَنِي أَبِيَشِ
إِذَا دَنَوْتُ جَعَلْتُ تُنْذِرَشِ
وَإِنْ نَأَيْتُ جَعَلْتُ تُنْذِرَشِ
وَإِنْ تَكَلَّمْتُ حَثَّتْ فِي فَيْشِ
حَتَّى تَتَّقِي كَنْتَقِي الدَّرِيَشِ

والكاف في الشطر الأخير ليست كاف الضمير ، إنما هي من أصل الكلمة ، وأغلب الظن أنه جاء بها لتجري على صوت واحد . وربما يكون هذا الرجز أدل الروايات على اللهجة ؛ ذلك أنه بلغة بسيطة عذبة ، توحى بأنه يجري بعفوية في موقف طبيعي غير مصطنع وهو خير ما يمثل الأسلوب المنطوق .

١ (الصاحي ، ص : ٢٩ ، واندال أبي الطيب : ٢٣١/٢ ، وشرح المفصل : ٤٨/٩ - ٤٩ ، واللسان ، (ككش) .

٢ ابن يعيش ، شرح المفصل : ٤٨/٩ - ٤٩ .

٣ الفهريز أنادي ، القاموس المحيط ، مادة (ككش) ، ص : ٦٠٤ .

٤ أبو العباس نعلب ، المجالس : ١١٦/١ ، واللسان ، مادة (ككش) .

وقد تناول رمزي بلعبي الإبدال الحادث في الكشكشة والكسكسة من منظور السامويات المقارنة ، حيث يقول : " ولعل التفسير الأصح هو أن الشين أو السين ، ضمير قديم أو جزء من ضمير قديم احتفظت به العربية في هذا الموضع في لهجات بعينها ، وأسقطته في سائر المواضع . ويؤيد هذا أن الشين أو السين تقع في المؤنث لا في المذكر ، فهي لذلك حرف الصغير عنه الذي رجحنا وجوده في السامية الأم دالاً على التانيث في الضمائر المنفصلة والمتصلة معاً ، مقابل الهاء التي تدل على التذكير . وحرف الصغير هذا هو الذي يظهر في الأكدية في الضمائر المنفصلة الدالة على النصب أو الجر . وفي احتفاظ ربيعة وهوازن بهذا الضمير دليل على أن ما يصفه اللغويون العرب باللغة المذمومة وغير الفصيحة قد يكون أكثر محافظة على الأصل من اللهجات التي وسموها بالفصيحة ، أي أن يعكسوا استعمالاً قديماً تخلّصت منه اللهجات الأخرى ، فلا يصح إذاً القول إن هذا الاستعمال من باب اللحن أو العدول عن الفصاحة ."^(١)

- الكَسَنُ كَسَنَةً (٢) :

يقول سيبويه : " واعلم أن ناساً من العرب يلحقون السين ليبيّنوا كسرة التانيث ، وإنما ألحقوا السين ؛ لأنها قد تكون من حروف الزيادة في استفعال وذلك أعطيتكيس وأكرمكيس . فإذا وصلوا لم يجيئوا بها لأن الكسرة تبيّن ."^(٣)

ويظهر أن الكسكسة لا تفرق عن الكشكشة إلا في الحرف المبدل ، فهو شين في الكشكشة وسين في الكسكسة ، والهدف من هذا الإلحاق أيضاً تواصلتي ؛ إذ ينشد إزالة الفرق بين ضمير المذكر والمؤنث حال الوقف ، أما في الوصل فلا زيادة لأن الكسرة قادرة على إزالة الإبهام . وقد خصّها سيبويه بضمير المؤنث في حين يجعلها القراء في المذكر دون تمثيل ،

(١) نقة العربية المقارن : ٢١٧ .

(٢) مصادر اللهجة ، سيبويه : ١٩٩/٤ ، ومجالس نعلب : ٨١/١ ، والخصائص : ١١/٢ ، والصاحي : ٢٩ ، والمزهر : ٢٢١/١ ، وشرح شراهد الشافية للغدادي : ٤١٩/٢ ، وشرح المفصل : ٤٩/٩ ، ولسان العرب : (كس) والقاموس المحيط ، (كس) : ٥٧١ .

(٣) الكتاب ، ١٩٩/٤ .

يقول : "ومن ذلك الكسكسة وهي في ربيعة ومضر ؛ يجعلون بعد الكاف أو مكانها في المذكر
سيناً على ما تقدم ..."^(١)

ثم إن سيبويه لم يذكر حالة الإبدال وإنما ذكر الإلحاق حسب . وإذا كانت هذه اللهجة
غير منسوبة عند سيبويه ، فإن استطاق مصادر أخرى يدلنا على أن هذه اللهجة وردت
منسوبة ، فقد نسبها ثعلب^(٢) وابن جنبي^(٣) إلى هوازن ونسبها ابن فارس إلى ربيعة^(٤) ،
ونسبها ابن يعيش إلى بكر^(٥) ونسبها الفراء إلى ربيعة ومضر .^(٦)

وقد تراءى لإبراهيم أنيس أن الكشكشة و الكسكسة سمة واحدة ، غير أنهما نقلتا
مختلفتين على وجه التصحيف ، وأن إضافة السين أو الشين غير مقبولة صوتياً ، إنما المقبول
أن يبدلا ، وأن الصوت في هاتين الظاهرتين لا يعدو أن يكون (تش) .^(٧)

أما القول بالتصحيف فهو مرشح للقبول من جهة الرسم الإملائي ، ولكنه يُدفع من جهة
السمع والنطق ؛ ذلك أن هذه الظواهر سجلت تسجيلاً متزامناً حال النطق بها .

- العتقنة :

" وهي في كثير من العرب في لغة قيس وتميم ؛ تجعل الهمزة المبدوء بها
عيناً ، فيقولون في أنك : عنك ، وفي أسلم : عسلم ، وأذن : عذن " .^(٨)

ويظهر من هذا الحد أن إبدالها مشروط بموقعها في بنية الكلمة ؛ أي أن تقع الهمزة
حرفاً أول ، وأما ابن فارس فلم يحدد ذلك تصريحاً ، لكن الأمثلة التي ساقها تُسلم إلى

(١) الزهر ، ١ / ٢٢١ .

(٢) الخالص : ١ / ٨١ .

(٣) الخالص : ٢ / ١١ .

(٤) الصاحي : ٢٩ .

(٥) شرح المفصل : ٩ / ٤٩ .

(٦) الزهر : ١ / ٢٢٧ .

(٧) اللهجات العربية : ١٢٢ - ١٢٥ .

(٨) الزهر : ١ / ٢٢١ .

ذلك ، يقول : " سمعت عن فلان قال كذا ، يريدون : أن . وروي في حديث قتيلة : تحسب عني نائمة ، قال أبو عبيد : أرادت تحسب أنني " .^(١)

ثم إن النظر في الأمثلة التي أوردها اللغويون يظهر شرطاً آخر ، وهو أن تكون الهمزة مفتوحة ، ويؤيد ذلك نصوص صريحة وردت عن النحاة ، من ذلك ما روي عن الفراء : " إن بني تميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف (أن) إذا كانت مفتوحة عيناً ، فإذا كسروا رجعوا إلى الهمزة " .^(٢) وقال ابن يعيش : "...ولا يجوز مثل ذلك في المكسورة " .^(٣)

أما عن تسميتها بالنعنة فيقول أبو علي الفارسي : " وقولهم عننة مشتق من قولهم : " عن ، عن ، عن ، عن . في كثير من المواضع . ومجيء النون في العننة يدل على أن إبدالهم إياها إنما هو في همزة (أن) دون غيرها ، وقد اشتقت العرب أفعالاً ومصانير من الحروف " .^(٤)

وحصر أبي علي لها في (أن) غير مسوغ ، في ظل ورودها في ألفاظ أخرى . ثم إن حصر الفراء لها في أن تقع أول الكلمة فيه نظر ؛ إذ وردت أمثلة في وسط الكلمة وآخرها . من ذلك ما رواه الأصمعي " يقال : التمى لونه والتمع لونه " .^(٥) وقد جاءت على هذه الظاهرة شواهد كثيرة أبرزها^(٦) : ما روي عن ذي الرمة من قوله :

أعن ترسنت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم
ومن ذلك إحدى روايات بيت المجنون :
فعيناك عيناها وجيدك جيدها سوى عن عظم الساق منك دقيق
ومن ذلك قول جرير العود :
فما أبن حتى قلن يا ليت عنتنا تراب وعن الأرض بالناس تخسف

١ (الصاحي : ٢٩ .

٢ (اللسان ، مادة عن .

٣ (شرح المفصل : ١٤٩ / ٨ - ١٥٠ .

٤ (ابن جني ، سر صناعة الإعراب : ٢٣٣ / ١ .

٥ (ابن السكيت ، الإبدال : ٨٥ .

٦ (اللسان ، عن . وسر الصناعة : ٢٢٩ / ١ .

وقد فسّر ابن الأثير هذا الإبدال حيث يقول : " كأنهم يفعلونه لِيَجْحَ في أصواتهم والعرب تقول : لأنك ولعنتك تقول ذلك بمعنى لعلك " (١).

وإذا أخذنا هذا الإبدال من الناحية الصوتية ، فإنه مسوّغ ؛ ذلك أنهما يتنابحان مخرجاً ، فالعين حلقى والهمزة حنجري ، وقرب المخرج مسوّغ للإبدال . وقد علّق عبد الصبور شاهين على العننة قائلاً : " ونحن نرى أن ظاهرة العننة لم تحدث إلا في مواقع النبر لدى هذه القبائل ، فإن الكلمات التي سيقت شواهد عليها مكونة من مقطع واحد ، وينبع عليه وحده النبر ، فلما بولغ في الضغط تحولت الهمزة إلى عين أو شبه عين ؛ أي إلى صوت قريب من الهمزة ، يمتاز عنها بالجهر ويتقارب معها في المخرج " (٢).

ويحاول إبراهيم أنيس تفسيرها ، فيجعلها محاولة للجهر بالصوت والمبالغة في تحقيقه ، معزراً رأيه بما يشيع من لهجات معاصرة تقلب الهمزة عيناً ، وهو يدفع أن تكون الظاهرة محصورة في البدء أو كونها محصورة في حركة معينة (٣) وأحسب أن من موافاة الأصواب أن نحمل كل إبدال بين الهمزة والعين على العننة .

- الفحفة :

" وهي في هذيل ؛ يجعلون الحاء عيناً " (٤).

لم تلق هذه اللهجة (السمة) احتفالاً كبيراً من اللغويين ؛ فلم تحظ بكثير عناية ، فقد أهملتها أكثر المصادر تعريفاً أو إشارة ، في حين اكتفت أخرى بالإشارة إليها عرضاً في القراءات . فقد أشار إليها ابن جني قائلاً : " وقرئت : عتّى حين " (٥).

(١) اللسان : عين .

(٢) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، ص : ٣١-٣٢ .

(٣) اللهجات العربية : ١١٠-١١١ .

(٤) المرز : ١/ ٢٢٢ .

(٥) المنجب : ١/ ٨٨ . والبحر المحيط لأبي حيان : ٥/ ٣٧٠ و ١/ ٢٠٤ .

وقال الفراء مُعلِّقاً على الآية " إذا بعثر ما في القبور " : " سمعتُ بعض أعراب بني أسد قرأها بْحَثْرَ وِهما لغتان : بْحَثْرَ وِبُعْثِرَ " .^(١) وقال أبو الطيب : " دَحَمَه بِحجر يدحمه دَحْمًا ، ودَعَمَه يدعمه دعماً إذا رماه به " .^(٢) وقال أيضاً : " يقال : اصبر حتى أتيك وعتى أتيك " .^(٣)

ومما روي عن العرب قولهم : اللحم الأعرم أغسَنُ من اللحم الأبيض ، يقصدون اللحم الأحمر أحسن من اللحم الأبيض .

ومثل هذا الإبدال مسوَّغ ، فالحاء احتكاكي حلقى مجهور والعين احتكاكي حلقى مجهور ، فهما متشابهان مخرجاً .

- الاستنتطاء :

" و الاستنتطاء في لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار ، تجعل العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء ، كأنطى في أعطى " .^(٤) وهذا التعريف يفيد أن حدوث هذا الإبدال رهين شرطين هما : سكون العين ومجاورتها للطاء .

ورغم قلة الإشارات إلى هذه اللهجة ، فإنها تكاد تنحصر في الفعل (أعطى) وما تصرف منه ، وقد يكون هذا مسوَّغ تسميتها استنتطاء مصدرأ لـ (استنتطى) وقد رويت هذه اللهجة منسوبة إلى الرسول ﷺ في أكثر من واقعة . فقد روى عنه قوله : لا مانع لما أنطيت ولا منطى لما منعت ، وأيضاً : اليد المنطية خير من اليد السُفلى .^(٥) وقريء عليها : " إننا أنطيناك الكوثر " . قال ابن خالويه : " أعطى : فعل ماضٍ وفيه لغة أخرى : أنطيناك . وقد قرأ بذلك الرسول ﷺ . تقول العرب : أعطني وأنطني " .^(٦)

(١) مناهج القرآن : ٣ / ٢٨٦ ، وأيضاً : إبدال أن الطيب : ١ / ٢٩٢ - ٢٩٥ ، وإبدال ابن السكيت : ٨٦ .

(٢) الإبدال : ١ / ٢٩٤ .

(٣) المصدر السابق : ١ / ٢٩٦ .

(٤) الزهر : ١ / ٢٢١ .

(٥) اللسان ، مادة نطا .

(٦) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، ص : ٢٠٩ . وانظر : البحر المحرط : ٨ / ٥١٩ ، ٥٠٩ .

ذيرى إبراهيم أنيس أن هذه الظاهرة ليست محصورة في (أعطى) وتصرفاته بل يتعلق بنطق كل عين سواء ولَّيْهَا طاء أو صوت آخر . " ففعل من القبائل من كانوا ينطقون بهذا الصوت بصفة خاصة نطقاً أنفياً ، وذلك بأن يجعلوا مجرى النفس معه من الفم والأنف معاً ، فتسمع العين منتزجة بصوت الذون وليست في الحقيقة نوناً بل هي عين أنفية . فعلى هذا يمكن أن يقال : إن الرواة قد سمعوا هذه الصفة ممثلة في الفعل أعطى ، فأشكلت عليهم ، ولم يصفوها على حقيقتها " . (١)

وقد جهدت أن أف على صوت من هذا القبيل في كتب النحو والقراءات والتصريف فما وجدت ، وجهدت أن أنتج صوتاً حسب وصفه فما استطعت .

ثم حاول أحد المستشرقين درّس الظاهرة ، وتوصل إلى أزعومة مفادها : أن الاستتطاء لا شأن له بالفعل أعطى بل هو فعل سامي آخر معروف في العبرية هو (نطا) بمعنى مَدَّ يَدَهُ إلى ، وقد زيدت عليه الهمزة فصار على صورة (أفعل) . (٢)

العَجْجَجُ : العَجْجَجُ

" العَجْجَجُ في لغة كضاعة ؛ يجعلون الياء المشددة جيماً ، يقولون في تميمي : تميمج " (٣) وقال ابن فارس : " وكذلك الياء تجعل جيماً في النسب ، يقولون : غلامج أي غلامي ، وكذلك الياء المشددة تحول جيماً في النسب ، يقولون : بئرجج وكوفجج ، وقال الراجز :

خالسي عويـفـف وأبو عـلـجـج

المطعمـان اللـخـم بالـعـشـجـج

وبالغداة فـلـق البرنـجـج

يـكـسر بالمـرّ وبالـصـيـصـجـج

يريد : أبو علي وقلق البرني وبالصيصي . (٤)

(١) اللهجات العربية ، ص: ١٤٢ .

(٢) هو حاييم راين في كتابه : اللهجات العربية الغربية القديمة ، ترجمة عبد الرحمن أيوب ، ص : ٧١ .

(٣) الزهر : ١ / ٢٢٢ .

(٤) الصاحي ، ص: ٣٠ . انظر : إبدال أبن الطيب : ١ / ٢٥٧ - ٢٥٨ ، واللسان ، عجاج . والبصرة : ٢ / ٨٦٥ - ٨٦٧ .

وقد اختلف في نسبة هذه الظاهرة ، فقد نسبها الفراء إلى قضاة^(١) ونسبها ابن فارس إلى تميم ،^(٢) ونسبها سيبويه إلى ناس من بني سعد^(٣) ونسبها أبو عمرو بن العلاء إلى رجل من حنظلة^(٤) . ومثلما كان الاختلاف في نسبتها ، كان أيضاً في ضوابطها ومحدداتها . وأظهر ما يقال في حكمها : أنها تبدل من ياء المتكلم - أشار ابن فارس في النص المتقدم إليها بقوله : في النسب : الأولى - جيما ساكنة من غير تشديد ، وتبدل من ياء النسب مشددة جيماً مشددة .

ثم إن الرواة قد قيدوا عججة قضاة وحدها بأن تسبق الياء عين ، من ذلك : الراعي خرج موعج ، أي : الراعي خرج معي .

ويظهر أن حدوثها في ضمير المتكلم وياء النسب علم ضابط من ضوابطها ؛ ذلك أنهما يقعان في آخر الكلمة ، وقد تكون أصلية في الكلمة ، مثل الراعي .

وبالنظر إلى السمات الصوتية للياء والجيم ، نجد أن القول بالإبدال ممكن ، فالعين صوت احتكاكي حلقى مجهور ، وأما الياء فشبه حركة غاري مجهور ، فتقارب المخرجين والتماثل في هيئة النطق يسلاخ ذلك .

ولعل هذه الظاهرة من خصائص اللهجات البدوية التي حرصت على تخريم الياء فصارت جيماً^(٥) .

- الشُّنْشُنَّةُ :

وهي في لغة اليمن ، تجعل الكاف شيئاً مطلقاً كـ (لَيْشَ اللهم لَيْشَ) أي لَيْشِكَ^(١) . لم تلق هذه السمة (اللهجة) احتقالاتاً من اللغويين ؛ إذ تكتفي بعض المصادر بالإشارة إلى مثل واحد أو اثنين دون تقييد . والتعريف المسوق آنفاً - على إطلاقه - يظهر حرية واسعة للانتقال

(١) الزهر : ١ / ٢٢٢ .

(٢) الصاحي ، ص : ٣٠ .

(٣) الكتاب : ٢ / ٢٨٨ .

(٤) إبدال ابن السكيت : ٩٥ ، وفي إبدال أبي الطيب نسبها الفراء مرة إلى طوى ومرة إلى بني دبر من بني أسد عاصم : ١ / ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٥) إبراهيم أنيس ، اللهجات العربية : ١٢٦ .

(٦) الزهر : ١ / ٢٢٢ .

من الكاف إلى الشين ؛ أي أن كل (ك) كانت تقلبُ شيئاً في لهجة اليمن . ومثل هذا الإطلاق يفضى إلى نتيجة مفادها : خلو اللهجات اليمنية من صوت الكاف ، وهذا غير مُسَوِّغ وغير صحيح .

- الوتْم :

" الوتْم في لغة اليمن ، تجعل السين تاء كـ (النات) في الناس " .^(١)

وقد ضنت المصادر بذكر ضوابط هذا الإبدال ، فتركته مُرسلاً دون تقييد في وقف أو وصل ، ودون تحديد موقع هذا الإبدال ، في بداية الكلمة أو وسطها أو نهايتها .

وأشهر ما يروى على هذه الظاهرة ، ما أنشده الأصمعي عن علباء بن أرقم رجلاً :

يا قَبْـحَ الله بني السَعـلَاتِ

عَمـرُـو بن يربوع شرار النَّـتَاتِ

غيرَ أعفَاء ولا أكياسَاتِ

أراد شرار الناس ولا أكياس ، فأبدل من السين تاءً ، وبعضهم يقول : هي لغته . وزعموا أن بعض الأعراب كان يقرأ : " قُلْ أعوذ برب النات ، ملك النات " .^(٢)

وقد علل ابن عصفور هذا الإبدال فقال : " وإنما أبدلت من السين لموافقتها إياها في الهمس والزيادة وتجاوز المخرج " .^(٣) وعلله أبو عمرو قائلاً : " ولغة قضاة تجعل مكان السين تاءً ، تقول أعوذ برب النات ، ملك النات ؛ لأن مخرج السين والتاء واحد " .^(٤)

وعلله إبراهيم أنيس بقوله : " أما المبرر الصوتي لانقلاب السين تاءً ، فهو واضح لأنهما يكادان يكونان متماثلين في المخرج ، كما أن كلاً منهما صوت مهموس ، ولم يبق إلا أن

(١) المزهر ، ٢٢٢ / ١ .

(٢) أبو الطيب اللغوي ، الإبدال : ١١٦-١١٧ ، أيضاً : سر الصناعة : ١٥٥-١٥٦ . والمتع : ٢٥٧-٢٥٨ . والارتشاف لأبي حيان : ٢٢٢ / ١ .

(٣) المتع الكبير في الصرف : ٢٥٨ .

(٤) أبو حيان : ارتشاف الضرب : ٢٢٢ / ١ .

يلتقي طرف اللسان بأصول الثنايا العليا التقاءً مُحْكَمًا ، به ينحبس النفس حتى إذا انفصلا انفصالاً مفاجئاً سمع ذلك الصوت الانفجاري الذي نسميه التاء".^(١)

- الطُّمُطَانِيَّة :

" والطمطمانية تعرض في لغة حمير ، كقولهم : طاب امهواء ، أي طاب الهواء".^(٢)

وقد روي عن الرسول ﷺ حديث منقول عن النمر بن تولب نصه : " ليس من امير امصيام فسي امسفر".^(٣) وروي ثعلب عن الأخفش أنه سمع قائلاً يقول : قام امرجل ، يريد قام الرجل . قال ثعلب : هذه لغة للأزد مشهورة".^(٤)

وقال الشاعر الجاهلي بُجَيْر بن غنمة الطائي :

ذاك خَلِيلِي وَذُو يُوَاصِلِي يَرْمِي وَرَائِي بِأَمْسِهِمْ وَأَمْسِلِمَةَ

قال أبو عبيد القاسم بن سلام : يريد بالسهم والسِّلْمَةَ.^(٥)

ومفاد هذه الشواهد ، قلب لام (أل) التعريف ميماً ، سواء أكانت شمسية أم قمرية . وقد علق السيوطي على هذا الإبدال قائلاً : " ... وقد تخلفها أم في لغة عَزَيْتَ لَطِيئٍ وَحَمِير . قال ابن مالك : لما كانت اللام تدغم في أربعة عشر حرفاً ، فيصير المعرّف بها كأنه من المضاعف العين الذي فاوه همزة ، جعل أهل اليمن ومن داناها بدلها ميماً ؛ لأن الميم لا تدغم إلا في ميم . وقال بعضهم : إن هذه اللغة مختصة بالأسماء التي لا تدغم لام التعريف في أولها نحو غلام وكتاب ، بخلاف رجل وناس . وقال ابن هشام : ولعل ذلك لغة لبعضهم لا

(١) اللهجات العربية : ٧٦ .

(٢) بحال ثعلب : ٧٣ / ١ . والمزهر : ٢٢٣ / ١ . والخصائص : ٤١١ / ١ . وشرح المفصل : ٣٤ / ١٠ . والغريب المصنف لأن عبيد

٢ / ١٩٢ - ١٩٣ . ومغني اللبيب : ٧١ .

(٣) الخصائص : ٤١١ / ١ . وشرح المفصل : ٣٤ / ١٠ .

(٤) المحال : ٥٨ / ١ .

(٥) الغريب المصنف ، ٢ / ١٩٣ - ١٩٤ . ومغني اللبيب : ٧١ ، والسِّلْمَةَ : الحجر .

لجميعهم ؛ بدليل دخولها على النوعين في قوله ﷺ : " ليس امبر امصيام في امسفر " أخرجه أحمد .^(١)

ثانياً: ما أبدل على سبيل المماثلة الصوتية :^(٢)

اللغة في أصلها أصوات ، وهذه الأصوات يحكمها نظام متسق ومضبوط ، يحكم التحققات الصوتية للغة وفق قواعد داخلية تفضي إلى الإفادة والإفهام . وينبني النظام الصوتي لأي لغة على وحدات أساسية تتوزع بين الصوامت والصوائت ، التي قسمت وفق اعتبارات مانوسة ومتداولة لدى اللسانيين وعلماء الأصوات .

وقد أمكن للدراسات الصوتية قديمها وحديثها التوصل إلى ضوابط محددة ، تيسر تعرف الخصائص الأساسية والسمات الفارقة التي تميز كل وحدة صوتية من سواها على المستوى التجريدي ؛ عندما يكون الصوت منفرداً . ولكن سلوك أي وحدة صوتية يتغير إذا ما انسبكت مع غيرها من الوحدات في وحدة أكبر ، فتخضع للتأثر والتأثير والتغيير في بنيتها العميقة ، لتظهر على السطح بنية مختلفة جزئياً أو كلياً .

وقد توصل علماء الأصوات قديماً وحديثاً إلى استبطان القوانين الفاعلة في البنية الصوتية العميقة من الصوت المفرد إلى المقطع إلى الكلمة ثم إلى الجملة . ويعد قانون المماثلة الصوتية أهم هذه القوانين وأوعبها وأقدرها على تقديم توصيف للتحويلات الصوتية غير الواعية التي تحدث في البنية العميقة قبل أن تطفو على السطح على هيئة مباينة للأصل العميق . والمماثلة إنما هي " تغير صوتي في سمة مميزة أو أكثر ، أي تغير فسي المخرج و / أو في بعض الصفات ، بحيث يصبح الصوت المتغير مماثلاً لصوت مجاور في تلك السمة أو تلك السمات المميزة . " ^(٣)

(١) مع الهوامع . ٢٧٣ / ١ .

(٢) وهو النوع الثاني من الإبدال المطرد .

(٣) داود عبده ، دراسة في بعض أحكام التحويد ، ص: ١٦ .

إن الناطق بالعربية ، ينطق كلمة (سَبَّت) بعنوية وتلقائية دون أن يعي ما يحدث من تغيرات صوتية ، أما اللساني - والصوتي على نحو أدق - فمهمته أن يكشف عن التحول الذي سلب الباء صفة الجهر بتأثير مجاورتها للسين ، والمعول عليه في ذلك قانون المماثلة الصوتية . -

وليس القول بالمماثلة أمراً حادثاً ، أو مما يُسند إلى الغرب ، فهو ذو نسب عريق في الدراسات الصوتية العربية وعلم القراءات والتجويد ، وما تعلق بنظام قيود التتابع في العربية ؛ إذ نجد لدى كثير من علماء العربية طرداً كثير من الظواهر اتكاء على قانون " المشابهة أو المشاكلة أو مقارنة اللفظ " .

وينظم قانون المماثلة على تفسير كثير من وقائع الإبدال الصوتي في العربية . وأهم تلك الوقائع ما تعلق بوزن افتعل ووزن تفعّل . وفيما يلي تفصيل ذلك .

أولاً : المماثلة في وزن افتعل :

نال هذا الوزن من بين أوزان العربية حظاً من العناية والدراسة لدى الصرفيين في مباحث الإبدال والإعلال ولدى علماء القراءات والتجويد . وجلّ الاهتمام مصروف إلى التحولات التي تصيب تاء هذا الوزن في جميع تصرفاته ؛ لوقوعه في بيئات صوتية يصعب معها تحقيق التاء على هيئتها الأصلية وسماتها الخاصة . ولما كانت هذه التاء - في الغالب - أضعف من مجاوراتها ، كان عليها أن تستجيب لقانون البقاء للأكوى ، فتتحل في أصوات جديدة فرضتها البيئة الصوتية . وليست المماثلة في هذا الوزن على تحقق واحد ، وإنما على تحقيقات متعددة منها إبدالها طاءً وإبدالها دالاً وإدغامها وسوى ذلك . وفيما يلي بيان ذلك .

١ - إبدال التاء طاءً :

تبدل تاء افتعل طاءً في جميع تصرفاته إذا كان مصوغاً من فعل ثلاثي فاؤه صوت مطبق (مفخّم) ^(١). وأصوات الإطباق هي : ص ، ض ، ط ، ظ . وذلك كما في الأمثلة التالية:

| الفعل الثلاثي | وزن افتعل في البنية العميقة | قانون صوتي تحويلي (مماثلة) | افتعل في البنية السطحية |
|---------------|-----------------------------|----------------------------|-------------------------|
| صتبر | اصتبر | - مطبق ← + مطبق | اصطبر |
| ضرب | اضرب | - مطبق ← + مطبق | اضطرب |
| طرّد | اططرد | - مطبق ← + مطبق ثم إدغام | اطرد |
| ظلم | أظلم | - مطبق ← + مطبق | اظلم |

ويمكن صياغة القانون الذي عمل المماثلة في هذه التاء على النحو الآتي :

[- مطبق] ← [+ مطبق] / [+ مطبق] .

[ت] ← [ط] / [ص ، ض ، ط ، ظ] .

وما حدث إنما هو مماثلة بين التاء والأصوات المطبقة ، وقد سوّغ سريان هذا القانون على الأصوات الأربعة بدرجة واحدة أنها تشترك في أهم صفاتها وأكثرها وضوحاً ألا وهي الإطباق أو التخميم ، وهذه الصفة من القوة بما يمكنها من جذب التاء المهموسة غير المطبقة ناحيتها ، فاكسبت التاء صفة الإطباق فأصبحت طاءً ؛ وذلك لأن التاء تشبه الطاء في جميع صفاتها إلا في الإطباق ، فلما أطبقت صارت طاءً . وهذه المماثلة تقدمية أثر الصوت المتقدم في المتأخر ، وهي جزئية حسب لأن التاء لم تنقلب كلياً وإنما استفادت الإطباق حسب . وقد وصف مكّي بن أبي طالب هذه المماثلة فقال : " إن الطاء حرف قوي متمكن لجهره ولشدته وإطباقه واستعلائه ، والتاء حرف مهموس فيه ضعف ، والقوي من الحروف إذا تقدمه الضعيف مجاوراً له جذبته إلى نفسه إذا كان من مخرجه ، ليعمل اللسان عملاً واحداً في القوة " ^(٢).

١ (انظر : سر صناعة الإعراب : ٢١٨ / ١ . والمقتضب : ٢٠٢ - ٢٠٣ . وشرح الشافية : ٢٢٦ - ٢٢٧ . وشمس العلوم لشوان الحميري : ١٢ / ١ . والمخصص : ١٣ / ٤ . والبصرة للصبيري ، ٨٥٦ - ٨٥٥ / ٢ . وشرح ابن عقيل ، ٥٣٤ / ٢ . وشرح الكافية الشافية : ٢١٥٨ / ٤ . وأوضح المسالك : ٣٥٥ / ٤ . والخصائص : ١٤١ / ٢ . والرعاية لتحويد القراءة : ٢٠٦ و ١٩٨ .
٢ (الرعاية لتحويد القراءة : ٢٠٦ و ١٩٨ .

| البنية السطحية | البنية العميقة | التعل في البنية العميقة | البنية العميقة | البنية العميقة | البنية العميقة | البنية العميقة |
|---------------------|---------------------|----------------------------|-----------------|-----------------|-----------------|-----------------|
| اظلم ← ادغلم ← اظلم | اظلم ← ظ ← ط ← اظلم | اظلم ← ط ← ت ← اظلم | اظلم ← ط ← اظلم | اظلم ← ط ← اظلم | اظلم ← ط ← اظلم | اظلم ← ط ← اظلم |
| اظهر ← ادغلم ← اظهر | اظهر ← ظ ← ط ← اظهر | اظهر ← ط ← ت ← اظهر | اظهر ← ط ← اظهر | اظهر ← ط ← اظهر | اظهر ← ط ← اظهر | اظهر ← ط ← اظهر |

فهذه وجوه ثلاثة فيما كانت فاره صاداً أو طاء أو ظاء مصوغاً على وزن افتعل وتصرفاته . ولا شك أن الاستخدام قد أفرز هذه الوجوه الثلاثة ، بالرغم من سكوت المصادر عن نسبة أي وجه منها . ولكن أطراد الوجه الأول في النصوص والقراءات وكلام العرب ، ونص اللغويين على ذلك يؤكد أنه الأصل وأنه الأكثر استخداماً بين عامة العرب .

وفصل القول في المفاضلة بين هذه الوجوه يأتي على لسان أبي عثمان ، حيث يقول :
" والصحيح الأول ؛ لأن المطرد إذا أريد الإدغام قلب الحرف الأول إلى لفظ الثاني ؛ فإذ ذلك ضعف الوجه الثاني لأن فيه قلب الثاني إلى لفظ الأول ، فإذا الوجه الثالث أقيس من الوجه الثاني وإن كان الثاني أكثر منه . " (١)

وصفة ما يورده ابن يعيش وجمهرة اللغويين في هذا الباب ، أن الإبدال في هذا الباب مطرد في العربية ، متحقق على ثلاثة أوجه تتفاوت منازلها قياساً وسماعاً . والثابت أنه لم يكن من العرب - في مرحلة ما - من ألزم هذه الصيغة أصلها فقال : اصتبروا واضترب . ولو وردت أمثلة من هذا الباب لكان الواجب رفضها رفضاً قاطعاً ؛ ذلك أنها لو وردت على هيئتها في البنية العميقة : اصتبر لنطقت بسلب الصاد أهم صفاتها ، وهي الإطباق ، ثم يستتبع ذلك أن تكون سيناً (وهي النظير غير المطبق للصاد) ، بما يسلمها إلى بنية صوتية ودلالية أخرى مفارقة لـ (اصتبر) . كذلك يسلم مثل هذا الزعم إلى مغالطة صوتية ، مفادها أن الصوت الأضعف أكثر على التأثير في الصوت الأقوى ، وبذلك تستطيع التاء سلب الصاد صفة التقسيم ، وهذا غير صحيح وفيه مجانبة للصواب كبيرة .

قد انقضى القول في وزن افتعل مما كانت فاؤه حرف إطباق ، ونحن بصدد حالة أجرى قوم فيها تاء ضمير المتكلم مجرى تاء افتعل ، فأبدلوا قياساً على إبدال تاء افتعل . " فقد شبه بعض العرب ممن تُرضى عربيته هذه الحروف الأربعة الصاد والضاد والطاء والظاء هي فعَلتُ بهن في افتعل ؛ لأنه يبني الفعل على التاء ، ويغير الفعل فتسكن اللام كما أسكن الفاء في افتعل ، ولم تترك الفعل على حاله في الإظهار ، فصار عن عندهم افتعل ، وذلك قولهم : فَحَصَّطُ برجلي وحصَّطُ عنه وخبطُه وحفظُه ، يريد حصت عنه وخبطته وحفظته ، وأعرب اللغتين أن لا تقلبها طاء ، لأن هذه التاء علامة إضمار وإنما تجيء لمعنى . " (١)

نستظهر من هذا النص أن سيبويه لم ينسب هذا الإبدال إلى قبيلة بعينها وإنما قرر أنها فصيحة لصدورها من عرب فصحاء . لكنه ينسبها في موضع آخر لبني تميم . (٢) وممن نسبها ابن يعيش . (٣) في حين وردت غير منسوبة في كثير من المصنفات . (٤)

" وإنما قل ذلك لأن تاء الضمير كلمة تامة ، فلا تغير وأيضاً هو كلمة برأسها فكان القياس أن لا تؤثر حروف الإطباق فيها ، ومن قلبه فلكونه على حرف واحد كالجزء مما قبله بدليل تسكين ما قبله ، فهو مثل تاء افتعل " . (٥)

وما ساقه الرضي في هذا النص إلماع إلى أن ثمة وجهين لنطق الضمير المتصل للمتكلم هما :

- تحقيق التاء دون إبدال ، فحصت .

- إبدال التاء قياساً على تاء افتعل : فحصط .

وهذان الوجهان وقائع متداولة حسب السماع والنقل . ويبدو أن النظام الصوتي للعربية أقبلي، للثاني من الأول ؛ ذلك أن الضمائر و (أل) التعريف وضمير المتكلم (الياء) وما أشبهها كلمات مستقلة بذاتها وتؤدي وظائف نحوية على التعيين ، ولكنها في سياق السلسلة الصوتية ، لا تُعامل هذه المعاملة ، وإنما تعامل بوصفها جزءاً من الكلمة . من ذلك أننا في كلمة (كتابي) وأمثالها ، يفرض علينا أن نتخلى عن الضمة أو الفتحة لمناسبة الياء ، ونحن بذلك لم نعدنا

(١) سيبويه ، ٤ / ٤٧١ .

(٢) المصدر نفسه ، ٤ / ٢٤٠ .

(٣) شرح المفصل ، ١٠ / ٤٧ .

(٤) سر صناعة الإعراب ، ١ / ٢٢٦ . والمتع : ٢٣٨ - ٢٣٩ . وشرح الشافية : ٣ / ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٥) شرح الشافية ، ٣ / ٢٢٦ - ٢٢٧ .

جزءاً منفصلاً من الكلمة ؛ وعليه فإن قياس بني تميم صحيح ولا يخرج على قانون المماثلة الجاري على وزن افتعل .

ثم إننا لو حاولنا استبطان الهيئة التي تنطق عليها التاء محققة دون إبدال ، فكيف تكون سماتها الصوتية ؟ هل هي التاء المهموسة نفسها ، وهل الصاد هي نفسها ؟ أم ماذا يحدث ؟

أحسب أن هذه المسألة تمكن معالجتها على النحو الآتي : لا يمكن نطق هذه التاء مع الطاء والضاد على هيئتها غير المطبقة أبداً ؛ لأنهما متشابهتان في هيئة النطق والصفة والمخرج ، سوى أن الطاء تنفرد بالإطباق ، ولقوة هذه الصفة تنطق التاء طاءً ، وأحسب أنه لا يمكن نطق التاء على ما هي عليه في هذه البيئة ، إلا بقلقلة الطاء . وقد يؤيد هذا أننا في العامية نميل إلى كسر الطاء والأصوات المطبقة الأخرى لتبين التاء ؛ فنقول : رَبَطْتُ ورفضت وقرطيت . ومع ما يصيب هذه التاء من تغيير في النطق ، تحتفظ برسمها تاءً ، للإبانة عن معناها النحوي .

أما في الصاد ، فإنها لا تبدل طاءً كاملة ، وإنما قريبة من الصوت فهي (STOP) ولا يمكن تحقيها تاءً إلا بزيادة صغير الصاد ، وذلك : فحص...ت .

٢- إبدال التاء دالاً^(١)

ويحدث هذا الإبدال فيما كانت فاؤه زايًا أو دالاً أو ذالاً . قال ابن يعيش : " متى كانت فاء افتعل زاءً قلبت التاء دالاً ، وذلك نحو ازدجر وازدهى وازدان ، والأصل : ازتجر وازتان وازتلف ، لأنه افتعل من الزجر والزهو والزينة والزلف ، فلما كانت الزاي مجهورة والتاء مهموسة ، وكانت الدال أخت التاء في المخرج وأخت الزاي في الجهر ، قرّبوا صوت أحدهما من الآخر وأبدلوا التاء أشبه الحروف من موضعها بالزاء وهي الدال ، فقالوا : ازدجر وازدان " (١)

فالتاء صوت مهموس ، والزاء صوت مجهور ، فلزمت المماثلة والمقاربة ، فانقلبت التاء دالاً لتشبه الزاي في الجهر . وذلك كما يلي :

(١) انظر في هذا الإبدال : سر صناعة الإعراب : ١ / ١٨٥ - ١٨٦ ، والخصائص : ٢ / ١٤٢ ، والتصريف للمركبي : ٣١ ، والمتنضب : ١ / ٢٠٣ ، ودقائق التصريف : ١٦٦ - ١٦٩ . وشمس العلوم : ١ / ١٥ ، وشرح الشافية : ٣ / ٢٢٧ ، وأوضح المسالك : ٤ / ٣٥٦ ، وشرح الكافية الشافية : ٤ / ٢١٥٩ ، وشرح ابن عقيل : ٢ / ٥٣٤ ، والنصرة : ٢ / ٨٥٣ - ٨٥٤ . وشرح المفصل : ١٠ / ٤٨ .

(٢) شرح المفصل : ١٠ / ٤٨ .

| فعل | افتعل في البنية العميقة | قانون المماثلة التحويلي | افتعل في البنية السطحية |
|----------|-------------------------|-----------------------------|-------------------------|
| زَجَرَ ← | ازتجر ← | ← مجهور ← + مجهور / + مجهور | ازدجر |
| زَهَرَ ← | ازتهر ← | ← مجهور ← + مجهور / + مجهور | ازدهر |
| زان ← | ازتان ← | ← مجهور ← + مجهور / + مجهور | ازدان |
| زها ← | ازتهى ← | ← مجهور ← + مجهور / + مجهور | ازدهى |

وهذا هو الوجه الشائع والمتداول ، لكننا نرد على وجه آخر للمماثلة في بيئة افتعل ، حيث تقلب تاء الافتعال دالاً إذا كانت فاء الفعل جيماً . قال ابن يعيش : " وقد قلبت تاء الفعل دالاً مع الجيم في بعض اللغات ، قالوا : اجدمعوا في اجتمعوا واجدز في اجتز " (١) .

وذلك أن التاء لثوية مهموسة والجيم لثوية غارية مجهورة ، اختلفتا في الصفة واقتربتسا مخرباً ، فاكتسبت التاء صفة الجهر فصارت دالاً .

وهذه الصورة من افتعل " نقتنا على تحقين : الأول منهما مطرد قياساً وسماعاً لدى عامة العرب ، أما الثاني فقليل يُحْمَلُ على النثرة ، وقد تكون هذه لهجة محلية ضيقة تقوم متباعدين في الدار ، وقد تكون معلماً للهِجَة دارسة لم يبق منها سوى شواهد قليلة . وعليه يمكن القول : إن هذا التشكيل من " افتعل " يخلو من التباين ويسير على نسق واحد لا يخرج عليه إلا نادراً ، ولما كان القياس على الأكثر والأقرب ، عُدَّ الأول أصلاً فصيحاً والثاني تفرعاً عليه حسب .

ويجري مجرى ذلك ، ما كانت فاهه دالاً أو ذالاً ؛ إذ تبدل التاء في افتعل دالاً ، وذلك كما يلي :

الفعـل البنية العميقة قاعدة المماثلة التحويلية افتعل في البنية
السطحية

| | | | | | |
|-----|--------|----------|-------------------|---------|--------|
| دعا | ← ادعى | ← -مجهور | ← +مجهور / +مجهور | ← ادغام | ← ادعى |
| دفع | ← ادفع | ← -مجهور | ← +مجهور / +مجهور | ← ادغام | ← ادفع |
| ذبح | ← اذبح | ← -مجهور | ← +مجهور / +مجهور | ← ادغام | ← اذبح |

فالتاء صوت مهموس والذال مجهور ، فانقلبت التاء دالاً أو ذالاً حتى تماثلها في الجهر .
وقد نتف على حالة خاصة بـ (ذكر) ، فإنها عندما تصاغ على (افتعل) تكون على وجهين :
أذكر ، وأذكر . ففي الوجه الأول تنقلب تاء الافتعال ذالاً ثم تدغم في الذال ، وذلك على النحو
الآتي :

ذكر ← اذكر ← اذكر ← أذكر .

أما في الوجه الثاني فتدغم الدال في الذال ، أي يدغم الآخر في الأول ، خلافاً للأصل
في الإدغام ، وذلك على النحو الآتي :

اذكر ← اذكر ← أذكر

وقد جاء ذلك منصوباً عليه لدى سيبويه " ذلك قولك مذكر ، كقولك مُظلم ومن قال
مُظمن ، قال : مذكر . وقد سمعناهم يقولون ذلك ، والأخرى في القرآن في قوله : (فهل من
مذكر) " (١) .

والأول هو الأصح في الإدغام ولكن الثاني مقبول ومنصوص عليه ، وقد عرضنا له
حين تحدثنا عن إبدال تاء الافتعال صاداً أو ضاداً أو طاءً أو ظاءً حسب الحرف الذي يسبقها ثم
إدغامها على غير قياس . وهذا جارٍ مطرد في قياسهم وفي لغتهم ، وبما أنه جاء على قياس لغة
- ولو لم تكن بزعم اللغويين فصحي - فإنه حجة .

ثالثاً : إبدال فاء الافتعال تاء ثم إدغامها في التاء (١):

وهو جارٍ على كل فعل مثال واوي ؛ إذ تبدل الواو تاء ثم تدغم في تاء افتعل . قال ابن يعيش : " فأما إبدالها من الواو ، فإنه ورد على ضربين مقيس وغير مقيس ، فالمقيس افتعل وما يتصرف منه إذا بنيته مما فاؤه واو نحو : اتعد واتزن ويتعد ويتزن ومتعد ومُتَزَن ، والأصل اوتعد وهو مُوتعد ؛ فقلبوا الواو تاءً وأدغموها في تاء افتعل ، ومثله اتلج ، ولو بنيت من وجل يؤجل ووضو يؤضو افتعل لقلت : اتجل واتضاً " (٢)

وذلك على النحو الآتي :

| فعل | افتعل لي | افتعل لي | افتعل لي |
|-----|----------|----------|----------------------------|
| وزن | اوتزن ← | واتزن ← | افتعل لي البنية العميقة |
| وعد | اوتعد ← | واتعد ← | افتعل لي البنية العميقة |
| وصل | اوتصل ← | واتصل ← | افتعل لي البنية العميقة |
| | | | افتعل في البنية السطحية |
| | | | إدغام ← اتزن |
| | | | إدغام ← اتعد |
| | | | إدغام ← اتصل |

" وإنما فعلوا ذلك ؛ لأنهم لو لم يقلبوها تاء هنا لزمهم قلبها ياء ، إذا انكسر ما قبلها نحو : ايتعد وايتزن وايتلج ، وفي الأمر ايتعد وايتلج وايتزن ، وإذا انفتح ما قبلها ألفاً نحو ياتعد وياتلج ، وذلك على لغة من يقول في يؤجل : ياجل ، ثم ردها إلى التاء لأنها حرف جند قوي لا يتغير بتغير أحوال ما قبله ، وهو قريب المخرج من الواو وفيه هُمنس مناسبٌ لبِنِن الواو ، وليوافق لفظه لفظ ما بعده ، فدغم فيها ويقع النطق بهما دفعة واحدة . " (٣)

ويظهر هنا أن قانون الاقتصاد اللغوي قد ضبط عملية الإبدال ؛ فحرف اللين "الواو" عرضة للتغيير على أحوال ثلاثة وفق حركة ما يسبقه ، أما التاء فنقف على حال واحدة ولا

(١) انظر هذا الإبدال في : النصف لامين جني : ١٩٤ و ٢٠٩ ، والكامل للمبرد : ١ / ٢٣٩ ، والمخصر : ٤ : ١٣ / ١٨١ ، وشرح الكافية الشافية : ٤ / ٢١٥٤ ، وأوضح المسالك : ٤ / ٣٥٢ - ٣٥٤ ، وشرح ابن عقيل : ٢ / ٥٣٣ ، والبصرة ٢ / ٨٤٩ - ٨٥٠ ، وشرح المفصل : ١٠ / ٣٦ .

(٢) شرح المفصل : ١٠ / ٣٦ .

(٣) الكتاب ، ٤ / ٤٦٩ .

تتغير بتغير الحركة المتقدمة عليها ، واختيرت التاء على التعيين لأنها صوت مهموس قريب من الواو مخرجاً وصفة ، وهو مشابه لما بعده ، بما ييسر إدغامهما ونطقهما دفعة واحدة .

وهذا الإبدال السابق هو المطرد والمقيس عليه في الفصحى ، ولكننا نجبه بوجه آخر لهذا التشكيل الصوتي وتشكيلات افتعل ؛ إذ نجد أن " من العرب من أهل الحجاز من يجزي ذلك على الأصل من غير إبدال ، ويحتمل من التغيير ما يجتنبه الآخرون ، فيقول : ابتعد وايتزن فهو موبعد وموتزن . والأول أكثر ، وكثرته كان مقيساً " (١) وذلك حسب ما يلي :

| الفعل | الفعل في البنية العميقة | الفعل في البنية السطحية |
|--------|-------------------------|-------------------------|
| وَعَدَ | ← اوتعد | ← ي ابتعد |
| وَمَلَ | ← اوتصل | ← ي ايتصل |

وهذا الاستخدام الحجازي جارٍ على قياس لغتهم ، يقبلون الواو ألفاً بعد فتحة ، وواواً بعد ضمة ، وياءً بعد كسرة ، يقيسون على : وجل ياغل .

ينجلي لنا هذا الاستعراض عن وجهين لهذا التشكيل : أما الأول ففصيح مقيس عليه لكثرته وأطراده ، ومفاده إبدال الواو تاء ثم إدغامها في تاء افتعل ، وهذا الوجه - فيما يظهر من نسبة الوجه الثاني - لهجة تميمية . وأما الثاني فمطرد مقيس في لهجته ، لهجة أهل الحجاز ، ومفاده الإبقاء على الأصل واواً وتغييرها حسب حركة ما قبلها . وعليه فليس لنا أن ندفع أحد الوجهين بالآخر ؛ لأنه جارٍ على قياس لغته ، لكن الفصحى اصطفت الأول ورفعتَه وجعلته مَقْماً .

وتكمن قيمة هذا التباين في كونه منسوباً في أحد شقيه ، ودلالة ثبوت هذه النسبة في لهجة ما قد يصلح دليلاً على نفيها عن الآخر ، وعليه يمكن القول : إن اللهجات البدوية التميمية كانت أكثر انسجاماً واقتصاداً في تعاملها مع هذا التشكيل الصوتي ، فانتقت التخلص من الواو

واختارت أقرب الأصوات مخرجاً وصفة ، فتحقق لها بذلك الاتساق والانسجام والاطراد على قياسها والاقتصاد . ويؤيد هذا ما عرف عن قبائل تميم وطبيء وأسد وبكر أنها كانت تدغم المثليين ، فيقولون في : يحلل ، يحلّ وأمثالها كثيرة .

ويظهر أن اللهجة الحجازية كانت تميل إلى استخدام المتماثلين أو المتقاربين دون إدغام ، فيقولون : يمسس واغضض وبحلل وسواها ، وهذا قياس في لغتهم مطرد . وتأسيساً على ما سبق يمكن القول : إن التباين هنا مرده إلى اختلاف اللهجات واختلاف اللهجات مرده إلى الاختلاف في مناطق السكنى ، وما يتبع ذلك من اختلاف في طباع الناس وسجاياهم .

ثانياً : وزن تفعّل (١)

ويعرض لهذا الوزن ما يعرض لوزن " افتعل " الواوي من الإبدال بالمماثلة ، وذلك أن هذا الوزن (تفعّل) إذا كان مصوغاً من فعل فاؤه أحد الأصوات التالية : (ت ، ز ، ذ ، د ، ص ، ض ، ط ، ظ ، س) قلبت تاؤه في المضارع صوتاً مماثلاً لما بعده ، ثم أدغم فيه ، وقاسوه في الماضي فجعلوه بالهمزة . وذلك على النحو الآتي :

| الفاعل | يتفعّل | المضارع في البنية العميقة | البنية السطحية | الماضي |
|---------|----------|---------------------------|------------------|---------------|
| ذَكَرَ | ← يتذكّر | ت ابدال ذ ← يذكر | ← إدغام ← يتذكّر | تذكّر / اذكر |
| ذَبَرَ | ← يتدبّر | ت ← د ← يدبّر | ← إدغام ← يتدبّر | تدبّر / اذبر |
| سَمِعَ | ← يسمّع | ت ← س ← يسمع | ← إدغام ← يسمّع | تسمّع / اسمع |
| زَيَّنَ | ← يتزيّن | ت ← ز ← يزين | ← إدغام ← يتزيّن | تزيّن / ازين |
| طَيَّرَ | ← يتطيّر | ت ← ط ← يطير | ← إدغام ← يتطيّر | تطيّر / اطيّر |
| صَدَّقَ | ← يتصدّق | ت ← ص ← يصدق | ← إدغام ← يتصدّق | تصدّق / اصنق |

- وقد وردت على هذه الحال مثل كثيرة في القرآن الكريم ، منها :
- ﴿ وما يذَّكر إلا أولو الألباب ﴾ البقرة : ٢٩٦ .
 - ﴿ وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتتفعه الذكرى ﴾ عبس : ٣-٤ .
 - ﴿ لا يسمعون إلى الملائ الأعلى ... ﴾ الصافات : ٨
 - ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ... ﴾ يونس : ٢٤ .
 - ﴿ أفلم يدبِّروا القول أم جاءهم ما لم يات آباؤهم الأولين ﴾ المؤمنون : ٦٨ .
 - ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ محمد : ٢٤ .
 - ﴿ فيقول رب لولا أخرجتني إلى أجل قريب فاصدق وأكن من الصالحين ﴾ المنافقون : ١٠ .

ومما سبق يتضح أن تاء الوزن (تفعل) تأثرت بفاء الفعل ، فانقلبت مشابهة لها ، ثم أدغمت فيها جرياً على قاعدة الإدغام . والمماثلة هنا كلية تتخلى فيها التاء عن كل صفاتها فتتقلب إلى الحرف المجاور . وهذه الحالة تشبه ما يقال في وزن (افتعل) عند مَنْ قال في اصطبر : اصبر ، واصلح في اصطلاح ، وقد يكون هذا مرجحاً لنسبة هذه اللغة إلى أولئك القوم ، لاطرادها في قياسهم ، مع غياب نسبتها إلى قوم على التعيين .

وقد وردت أمثلة لهذه الصيغة في صورتها المتباينتين في القرآن الكريم بما يفضي إلى القول : إن هذه الصيغة كانت تتداول في الوقائع اللغوية اليومية على هئتين : الأصلية قبل الإبدال والثانية بعد الإبدال.

ويعزو رمضان عبد التواب تواردهاتين الصيغتين إلى التطور اللغوي ؛ أي أن إحداها حادثة عن الأخرى ، ثم تزامنت هاتان الصيغتان وتجاورتا ، ودليل ذلك ورودهما في القرآن الكريم ، حتى إننا نجد الصيغتين في آية واحدة .^(١) " ليذَّبِروا آياته وليتذكر أولو الألباب " .

(١) التطور اللغوي : ٢٩ .

ثالثاً : إبدال النون ميماً : (١)

ومما أبدل على سبيل المماثلة ، إبدال النون ميماً إذا وقعت ساكنة متلوة بالباء ، وهذا إبدال مطرد في جميع اللهجات . قال ابن يعيش ، في سياق الحديث عن إبدال الميم : " وأما إبدالها من النون ، فقد أبدلت إبدالاً مطرداً في كل نون ساكنة وقعت بعدها باء فإنها تقلب ميماً نحو : عمير وشمباء وعم بكر ، وذلك من قبل أن النون حرف ضعيف رخو يمتدُّ إلى الخيشوم بغنة والباء حرف شديد مجهور مخرجه من الشفة ، وإذا جئت بالنون الساكنة قبل الباء خرجت من حرف ضعيف إلى حرف يضاده وينافيه ، وذلك مما يتقل ، فجاءوا بالميم مكان النون ؛ لأنها تشاركها في الغنة وتوافق الباء في المخرج لكونها من الشفة ، فيتجانس الصوت بهما ولا يختلف " (٢)

وما حدث أن النون تنازلت عن مخرجها (اللثة) وانتقلت إلى مخرج آخر لتساكل الباء في الشفوية تسهياً للنطق ، وذلك وفق المعادلة التالية :

[- شفوي] ← [+ شفوي] - / [+ شفوي]

[ن] ← [م] - / [ب]

وهي موقوفة في ذلك على التسكين وسبقها بالباء ، وذلك سواء أكان في كلمة واحدة أم كلمتين . (٣) كما يلي :

| الكتابية | قانون المماثلة | النطق |
|-----------|-----------------|-----------|
| عَمِير | - شفوي ← + شفوي | عَمِير |
| شَمْبَاء | ← | شَمْبَاء |
| مَمِير | ← | مَمِير |
| قُمْب | ← | قُمْب |
| قُمْبَاء | ← | قُمْبَاء |
| مَم بَعْد | ← | مَم بَعْد |

(١) انظر : سر صناعة الإعراب / ٤٢٢ / ١ ، والمقتضب / ٢٠٢ / ١ ، والخصص : ٤ / ١٣ - ١٨٢ - ١٨٣ ، والنصرة / ٢ / ٨٦٠ ، وشمس

العلوم / ١ / ١٣٠ ، وأوضح المسالك / ٤ / ٣٥٦ ، وشرح الفصل / ١٠ / ٣٤ .

(٢) شرح الفصل / ١٠ / ٣٤ .

(٣) ابن هشام ، أوضح المسالك ، ٤ / ٣٥٦ .

سميغ بصير ← سميغ بصير
 عن بكر ← عم بكر

وهذا الإبدال في المستوى الصوتي ، ولا يحدث في مستوى الرسم الإملائي . ومثل هذه المماثلة معروفة في علم التجويد بالإقلاب ، ويعبر عنها في الرسم القرآني بكتابة ميم صغيرة على الباء التالية للتوين . والنظر في كتب النحو واللغة والتصريف ، يقفنا على أطراد هذا الإبدال الصوتي ، ولا يشير إطلاقاً إلى وجود صورة أخرى مبيّنة ، وعليه فإن التباين هنا منفي بإطلاق .

رابعاً : إبدال السين صاداً : (١)

تبدل السين صاداً على سبيل المماثلة إذا وليها واحد من الأصوات التالية : [غ ، خ ، ق ، ط] ، وإنما ساغ قلب السين صاداً إذا وقعت قبل هذه الأصوات ، من قبل أن هذه الحروف مجهورة مستعلية والسين مستقل ، فكهوا الخروج منه إلى المستعلي لأن ذلك مما يتقل ، فأبدلوا من السين صاداً ، لأن الصاد توافق السين في الهمس والصفير وتوافق هذه الحروف في الاستعلاء ، فيتجانس الصوت ولا يختلف ، وهذا العمل شبيه بالإمالة في تقريب الصوت بعضه من بعض من غير إيجاب ؛ فإن تأخرت السين عن هذه الحروف لم يسغ فيها من الإبدال ما ساغ فيها متقدمة ؛ لأنها إذا كانت متأخرة كان المتكلم منحدرًا بالصوت من عال ولا يثقل التصعيد من منخفض فلذلك لا تقول في قسنت : قسنت ، ولا في يخسر المتاع : يخسر . (٢)

ويحدث ذلك الإبدال على النحو الآتي :

سالم ← صالح . سبقت ← صبقت .
 أسبغ ← أصبغ . سويق ← صويق .

(١) للتفصيل في هذا الإبدال ، انظر : الخصائص ٢/ ١٤٢-١٤٣ ، وسر الصناعة ١/ ٢١٢ ، والتصريف اللوحي : ٦٦ ، والمنصب ١/ ٢٦٠-٢٦١ ، ومعان القرآن للأخفش ١/ ١٦ ، والمحصص ٤: ١٣/ ١٨٢ ، والبيان في غريب القرآن ١/ ٣٨ ، والغريب المصنف ٢/ ٦٦٦ ، والفرق بين الحروف الخمسة للبطبوسي ٤٩٠-٤٩٦ ، وشرح المنصل ١٠/ ٥٢ ، والبحر المحيط ١/ ٢٥ .
 (٢) شرح المنصل ١٠/ ٥٢ .

| | |
|-----------------|---------------------|
| صمّلق ← صمّلق . | صخّر ← صخّر . |
| صراط ← صراط . | مصّ صقر ← مصّ صقر . |
| صاطع ← صاطع . | مصاقون ← مصاقون . |
| | مصيطر ← مصيطر . |

ويظهر أنه لا بد من التوقف عند نص ابن يعيش قليلاً ؛ ذلك أننا نجد اختلافاً في التوصيف الذي قدمه للغين والخاء والقاف والطاء ، فقد جعلها جميعاً مجهورة ، وهذا الوصف مفارق لما هي عليه حسب الصوتيات العربية الحديثة ، فالخاء والقاف والطاء غير مجهورة ، فما الذي أفضى إلى هذا الاختلاف ؟ ثمة احتمالات :

أولها : أن القدماء لم يتحصل لهم ضبط صفات هذه الأصوات ضبطاً دقيقاً .

ثانيها : أن نطق الأصوات لدينا قد اختلف عن النطق القديم .

ثالثها : أنه كان للخاء والقاف والطاء صور أخرى قريبة منها ، ف فيما يتعلق بالطاء " لعلمهم كانوا يصفون صوتاً يشبه صوت الطاء الذي نسمعه في بعض لهجات الصعيد وفي نطق السودانيين الآن ، وهو صوت طاء مشربة بالتهميز ، أي أننا نشعر عند نطقها بوجود عنصر الهمز فيها " (١) ويتم نطق هذه الطاء بالطريقة التي نتطق بها طاوننا الحالية بإضافة عنصر جديد ، هو إقفال الأوتار الصوتية حال النطق بها ، وقد يكون الصوت شبيهاً بصوت / t / في (top) .

ويدخل في هذه الاحتمالات احتمال رابع ، أنهم وصفوا هذه الأصوات حسب أدائها الفصيح آنذاك ، مع وجود هيئات نطقية أخرى ، ولكنها تنزل عنها في الفصاحة وأصواتها غير المجهورة (خ ، ق ، ط) إنما هي امتداد لتلك اللهجات ، إذ نجد أن من العرب المعاصرين (في الأردن) من ينطق الخاء مفخمة مطبقة ، كما في نطق أهل السلط لكلمة خالد وأمثالها ، في حين أننا نجد من ينطقها دون تفخيم ، وهذا بدوره ينعكس على السين إذا تقدمت على الخاء .

(١) كمال بشر ، علم اللغة (الأصوات) : ١٠٢ .

ومثل هذا التباين (الإبدال) عند إبراهيم أنيس محمول على اختلاف النطق لاختلاف البيئة ؛ فالبيئات البدوية تميل إلى التخفيف ، أما البيئات الحضرية فتميل إلى التثقيب ، فتعاصر النطقان في مراحل متعددة أفضت إلى تدوين اللغويين لهاتين الصورتين ، مرة بالسين وأخرى بالصاد . (١)

خامساً : إبدال الهمزة هاءً أول الكلمة : (٢)

ويجري هذا الإبدال باطراد ، فتقلب الهمزة أول الكلمة هاءً ؛ " أما إبدالها من الهمزة ، فقد أبدلوا منها إبدالاً صالحاً على سبيل التخفيف ؛ إذ الهمزة حرف شديد مُسْتَقْبَل ، والهاء حرف مهموس خفيف ، ومخرجاها متقاربان إلا أن الهمزة أدخل منها في الحلق ، قالوا : أهرقت الماء أي أرقته ، فأبدلوا الهاء من الهمزة الزائدة ، وقالوا : هرحت الدابة أي : أرحتها ، وهنرت الثوب أي : أنرته وهو أفلت من النير ، وقالوا : هردت الشيء ، أي : أردته ، حكى ذلك أجمع ابن السكيت . وقد أبدلوا منها وهي أصل ، قالوا : هياك في إياك ، وقد قرئ : هياك نعبد وهياك نستعين ... وقالوا : هما والله لقد كان كذا ، يريدون : أما والله وهن فعلت وهي لغة طائفة " (٣) .

نستدل من هذا الإسهاب لابن يعيش على أن الهمزة تبدل باطراد في وزن " أفعلت " هاءً ، وهي همزة زائدة مفتوحة . ويجري القول نفسه على الهمزة الأصلية المكسورة أو المفتوحة وفي " إن " الشرطية . وهذا الإبدال منسوب إلى طيئ بجامع ، ولم يرد منسوباً إلى سواها .

ومع اطراد هذا الإبدال ، نجد اللغويين يرفضون القياس عليه ، يقول ابن يعيش : " وهذا الإبدال - وإن كثر عنهم على ما ذكرت - فإنه نزر يسير بالنسبة إلى ما لم يُبَدَل ، فلا يجوز القياس

(١) اللهجات العربية ، ١٢٨-١٢٩ .

(٢) للتفصيل في هذه الظاهرة ، انظر : سر الصناعة ٢ / ٥٥١-٥٥٢ ، والتصريف اللوحي : ٢٨ ، وغريب الحديث لأن عبيد ١ / ٢٣٠-١٣١ ، وليس في كلام العرب لابن خالويه : ٤٦ ، ١٨٨ ، ١٨٤ ، والمخصص ٤ : ١٣ / ١٨٤ ، وشرح الكافية الشافية ٤ / ٢١٦١ ، وشرح الشافية ٣ / ٢٢٢-٢٢٣ ، وإبدال أبي الطيب ٢ / ٥٦٩-٥٧١ ، ودقائق التصريف : ٣٦٥ ، والنصرة ٢ / ٨٥٧ ، وشرح المفصل ٤٣-٢٤ / ١٠ .

(٣) شرح المفصل : ٤٢ / ١٠ - ٤٣ .

عليه ، فلا تقول في أحمد : هَحمد ، ولا في إبراهيم : هَبراهيم ، ولا في أترجة : هَترجة ، بل تتبع ما قالوا وتقف حيث انتهوا " (١) .

وإذا كان هذا القياس غير مقبول في الفصحى ، فإنه مقبول وسائغ في اللهجة الطائفة ، وجارٍ على سنن قياسهم الخاص ، فلا نستبعد أنهم قالوا : هَحمد وهَترجة . وبصرف النظر عن قياسات النحويين ؛ فإنها لغة شائعة ومداولة ولها قياسها الخاص ، وتجري على السنة أصحابها باطراد ، وعليه يمكن أن نرد كل ما ورد مبدل الهمزة هاء - على التقريب - إلى اللهجة الطائفة ، وهنا لا يعوزنا تفسير صوتي ؛ لأنها وقائع لغوية ثابتة ، وإنما يكون التفسير على سبيل الاستئناس والرغبة في كشف سيرورة اللغات وقوانينها .

إبدال الواو همزة في أول الكلمة (٢)

تُبدل الواو همزة في أول الكلام (٣) ، وذلك على ثلاثة وجوه تتفاوت قياساً واستعمالاً واطراداً ، وهذه الوجوه هي :

الوجه الأول : إذا كانت الواو مضمومة ، لك فيها وجهان : إبقاؤها واواً أو قلبها همزة ، وذلك كقولك : وُلِدَ وألِدَ ، ووُجوه وأجوه . " وإنما كرهوا الواو حيث صارت فيها ضمة كما يكرهون الواوين فيهمزون نحو : قُؤول ومؤونة ، وأما الذين لا يهمزون فإنهم تركوا الحرف على أصله كما يقولون : قوول فلا يهمزون ، ومعنى ذلك أن هذه الواو ضعيفة تحذف وتبدل ، فأرادوا أن يعضفوا مكانها حرفاً أجلاً ، فصار الإبدال فيه معترداً حين كان البدل يدخل فيما هو أخف منه " (٤) .

(١) شرح المفصل : ٤٣/١٠ .

(٢) انظر : سيويه : ٢٣١/٤ ، وأمل القائل : ١٨٧/٢ ، وأدب الكاتب : ٤٧٤ ، ٥٧٠ ، والجمل في النحو للعليل : ٢٤٢ ، وإبدال ابن السكيت : ١٣٨ ، وسر الصناعة : ٩٢/١ ، والتصريف اللوحي : ٢٤ ، والمصنف : ٢١٠-٢١١ ، وإصلاح المنطق : ١٧٩-١٨٠ ، وشرح الكافية الشافية : ٢٠٩٠-٢٠٩١/٤ ، والمنع : ٢٢١-٢٢٢ ، ودقائق التصريف : ٢٤٢ ، وشرح المفصل : ١٤/١٠ .

(٣) لا يقيد ابن عيش هذا الإبدال في أول الكلمة ، ويجعله جارياً في الثاني ، شرح المفصل : ١٤/١٠ .

(٤) سيويه : ٣٣١/٤ .

الوجه الثاني : إذا كانت الواو مفتوحة ، فإنها تبدل على غير أطراد عند سيويه وأبي عثمان وابن جني وجمهرة اللغويين ، قال سيويه : " وليس ذلك مطرداً في المفتوحة " (١) . وقال أبو عثمان : " فإذا كانت الواو أولاً وكانت مفتوحة فليس فيها إبدال ، إلا أن يشذ شيء فيجيء على غير القياس ، قالوا : امرأة أناة ، وهي وناة من الوئي . وقالوا : أخذ في وخذ ، وهذا شاذ نادر وليس مما يتخذ أصلاً وإنما يحفظ نادراً " (٢) .

الوجه الثالث : إذا كانت الواو مكسورة ، فإنها تبدل همزة إجراء لها مجرى المضمومة ، يقول سيويه : " ولكن ناساً كثيراً يجرون الواو إذا كانت مكسورة مجرى المضمومة ، فيهمزون الواو المكسورة إذا كانت أولاً ، كرهوا الكسرة فيها ، كما استثقل في يجل وسيد وأشباه ذلك ، فمن ذلك قولهم : إساءة وإعاء " (٣) . وإذا كانت عبارة سيويه لا تنص على الاطراد ؛ إلا أن مضمونها يكشف عن ذلك ؛ ذلك أن تشبيهها بالمضمومة يعني أنها مطردة ، وقد أشار إلى ذلك شارح الكافية (٤) والمؤدب (٥) وأبو عثمان (٦) .

وقد سكت كثير من المصادر عن نسبة هذا الإبدال ، فإذا أنعمنا النظر وجدناه منسوباً إلى قبيلة تميم ، قال المؤدب : " فأما الإرث والإساءة والإكاف وأشباؤها ، فإنه يقال : إن الألف هي الواو ولكنها لما كسرت همزت ، وهي لفة لتميم ، يهمزون كل واو مكسورة أو مضمومة تجيء في نحو هذا البناء فأصل الإرث : الورث بالواو ، والإساءة : وسادة ... " (٧) .

ويظهر من ذلك أن الإبدال في قبيلة تميم مطرد فيما كان على فعال أو فعالة أو ما كان مضموم الواو منها ، وعليه نقول : في حالة الضم يكون الإبدال لتميم والإبقاء لغيرها ، وفي حالة الكسر الإبدال لتميم والإبقاء لغيرها . أما الفتح فليس منسوباً ولا دلائل عليه ، ولكن ثبوت

(١) المصدر السابق : ٣ / ٣٣١ .

(٢) المصنف : ٢١٠ - ٢١١ ، ودقائق التصريف : ٢٤٢ ، وشرح المفصل : ١٠ / ١٤ .

(٣) الكتاب ، ٤ / ٣٣١ .

(٤) ٤ / ٦٠٩١ .

(٥) دقائق التصريف : ٢٤٢ .

(٦) شرح المفصل ١٠ / ١٤ .

(٧) دقائق التصريف : ٢٤٢ .

الإبدال لتميم ينفيه عن الحجاز وقد بُنِيَتْ ضده لهم ، أي عدم الإبدال ، وهذا صحيح بالنظر إلى تحقيق تميم الهمز في مقابل التسهيل لدى الحجاز .

والتباين ظاهر في هذه الحالة ، والأمثلة المروية كثيرة بين أسماء وأفعال ولم يكن الاستعمال قاصراً على صورة واحدة ، وإنما تجاور الاستعمالان في البيئات العربية واشتهرا ، وليس أحدهما بأحق من صاحبه ، يقول ابن جني : " كل واحدة من هذه وغيرها يجري في البديل مجراها تستعمل مكان صاحبها " .^(١)

سابعاً : إبدال الواو تاءً :^(٢)

تبدل الواو تاءً في أول الكلمة على غير اطراد أو قياس حسب القدماء ، وإنما سلكتها في باب المطرد ؛ لأنها جميعاً تنضوي تحت قانون صوتي واحد ، وأما القدماء فلم يطرده لأنه موقوف على أمثلة معدودة سمعت ولا يقاس عليها . وهذا الإبدال كما يلي :^(٣)

| | | |
|--------------------------|---|----------|
| وجاه | ← | تُجاه |
| ويَقُور | ← | تَيَقُور |
| وَكِلان | ← | تُكِلان |
| وُخْمة | ← | تُخْمة |
| وُهْمة | ← | تُهْمة |
| وترى | ← | تتري |
| وَوِراة | ← | تَوِراة |
| وَوَلج | ← | تَوَلج |
| وَوِراث | ← | تَوِراث |
| وَوِلاذ | ← | تَوِلاذ |
| فُعال من الوجه . | | |
| فَيَعول من الوقار . | | |
| فُعِلان من وكلت . | | |
| فُعَلْة من وخم . | | |
| فُعَلْة من وهم . | | |
| فَعَلَى من المواترة . | | |
| فَوَعَلْة من وري الزند . | | |
| فَوَعَل من ولج . | | |
| فُعال من الوراثة . | | |
| فُعال من الولادة . | | |

(١) سر الصناعة ١/ ٩٢ ، والتصريف اللوحي : ٢٤ .

(٢) انظر : الجمل للخليل : ٢٨٣ ، وسر الصناعة ١/ ١٤٥ ، والتصريف اللوحي : ٢٧ ، وأمال القالي ٢/ ١٦٧ ، ودقائق التصريف :

٢٤١ ، وشرح المفصل ١٠/ ٣٦ ، وإبدال أبي الطيب ١/ ١٤٩-١٥٠ .

(٣) شرح المفصل ١٠/ ٣٨-٣٩ ، وسر الصناعة ١/ ١٤٥ ، والتصريف اللوحي : ٢٧ .

" وإنما كان إبدالها تاءً ؛ لأنهم لو لم يبدلوها تاءً للزمهم إبدالها همزة لاجتماع الواوین فی أول الكلمة " . (١)

وأكثر النصوص والروايات على الوجه بعد الإبدال ، وربما لم يرد استخدام لهذه الألفاظ على أصولها قبل الإبدال ، لكننا نجد من العرب من اتخذ من هذه الأسماء أفعالاً مخالفة للأصل ، يتصرفون فيها كما يتصرفون فيها قبل الإبدال ، يقول المؤدب : " ولكنها قد استعملت فقيل فيها : أتخلمي هذا الطعام واتهمت فلاناً ويقال : تخم يتخم وتهم يتهم ، فمن قال هذا القول ، جعل التاء من أصل الكلام بمنزلة الغاء ، فتكون التخمة من الفعل بإثبات التاء (فُعلة) وكذلك التهمة والتراث (فُعال) والتكلان (فُعلان) " . (٢)

ومثل هذا القول يُسَلِّمُ إلى احتمال استخدام هؤلاء بقية الكلمات على نحو مماثل في تَوَلَّج من تَلَجَّ ، وفي تلاد من تَلَدَ . وليس لدينا في ضوء ذلك إلا أن نقبل ما رواه المؤدب في التخمة والتهمة والتراث والتكلان ، نلزمها ولا نعدوها أو نقيس عليها . وإن كانت وجهاً متقبلاً في لهجة ضعيفة .

ثم يورد المؤدب إضافة جديدة تتعلق بالتغيرات التي طرأت على بنية هذه الكلمات ؛ فالذي أوردناه قبلاً فيه إشارة صريحة إلى قلب الواو تاءً ؛ إذ يروى أن التاء مزبدة مع وجود الواو ، ثم تحذف الواو اكتفاء بالضمة دليلاً عليها ، فقد قال بعض العرب : للتكلان في الأصل : توكلان والتراث توراث والتخمة والتهمة : توخمة وتوهمة ، غير أنهم حذفوا الواو واقتصرُوا على الضمة التي قبلها ، قال الكسائي : والقول الأول أحبُّ إليَّ " . (٣)

(١) سر الصناعة ١ / ١٤٥ ، والتصريف الملوكي : ٢٧ .

(٢) دقائق التصريف : ٢٤١ .

(٣) دقائق التصريف ، ص : ٢٤١ .

- الإبدال غير المطَّرد :

أولاً : ما أبدل على سبيل المخالفة :

والمخالفة قانون صوتي يتغير بموجبه أحد الصوتين المتماثلين في الكلمة إلى صوت آخر . وذلك من أجل تجنب الصعوبة الناجمة عن تكرار النطق بالصوت الواحد . وينطبق هذا القانون على الصوامت والحركات ، فالمخالفة إنما هي تعديل يطرأ على الصوت الموجود في سلسلة الكلام بواسطة صوت مجاور ، بيد أن هذا التعديل عكسي يسهم في زيادة مدى الخلاف بين الصوتين المتجاورين . (١)

وينسجم قانون المخالفة مع قانون المماثلة في القصد العام ، وهو الاقتصاد في الجهد العضلي والتنفسي المبذول لإنتاج الصوت ، ولكنهما تفترقان في كون المماثلة تقريباً أما المخالفة فمباعدة ، فالذي يحدث هنا وجود صوتين متجانسين ومتطابقين في المخرج والصفة ، ولكن اجتماعهما معاً في بيئة صوتية واحدة فيه مشقة وصعوبة ؛ لذلك يلجأ النظام الصوتي إلى الاقتصاد ، فيبدل الثاني منهما صوتاً آخر " يغلب أن يكون إحدى الحركات الطويلة أو أحد الأصوات المائعة أو الرنانة وهي اللام والراء والميم والنون " . (٢)

ولا يكاد كتاب من الكتب النحوية والتصريفية أو القراءات يخلو من هذه الظاهرة عرضاً ومناقشة ، وإن كان أكثر تركيزاً على إبدال المضعف ياءً . وتفاوت النحاة في طرد هذه الظاهرة ، فبعضهم جعلها قياساً جارياً في العربية وبعضهم جعلها شذوذاً لا يقاس عليه وبعضهم بين بين .

قال الخليل : " وكذلك تفعل العرب ، إذا اجتمع حرفان من جنس واحد جعلوا مكانه حرفاً من غير ذلك الجنس . من ذلك قول الله تعالى : " وقد خاب من دساها " ، معناه دسها ، ومثله قوله - عز وجل - " ثم ذهب إلى أهله يتمطى " أي يتمطط ، فحولت السين والطاء ياءً " . (٣)

(١) محمد النوري ، علم أصوات العربية ، ص : ٣٠٨ .

(٢) محمد النوري ، علم أصوات العربية ، ص : ٣٠٩ .

(٣) الجمل في النحو ، ص : ٢٨٠-٢٨١ .

أما سيبويه فقد جعله شاذاً ، قال في باب (ما شذ فإبدل مكان اللام الياء لكرهية التضعيف وليس بمطرد) : " ذلك قولك : تسرَّيتُ وتظنَّيتُ وتقصَّيتُ من القصة وأملت ... وكل هذا ، التضعيف فيه عربي كثير جيد " . (١)

ونستظهر من نص سيبويه أن في هذه الألفاظ وأمثالها وجهين : الأول ويجري فيه إبدال المضعف الثاني ياء والثاني الإثبات .

وأكثر الأمثلة دوراناً هي :

| | |
|------------|------------|
| كصصت ← | قصَّيتُ . |
| تسرَّرتُ ← | تسرَّيتُ . |
| تظنَّنتُ ← | تظنَّيتُ . |
| ديوان ← | ديوان . |
| قِرَاط ← | قيراط . |
| تسنن ← | تسنى . |
| تقضض ← | تقضت . |
| تصدَّدة ← | تصدية . |
| دباج ← | ديباج . |
| شراز ← | شيراز . |

ومنها أملت وأملت ، وقد حظي هذا الفعل - دون سواء - باهتمام زائد ، واختلف في أصله وإبداله . وقد وردت في القرآن على الصورتين ، قال تعالى : " فهي تملئ عليه بكرة وأصيلاً " والأصل أملت . وقال تعالى : " وليمل الذي عليه الحق " . و الوجه أنهما لغتان ؛ لأن تصرفهما واحد ، تقول : أملئ الكتاب يملئه إملاءً وأملئ يملئه إملاً فلا يس جعل أحدهما أصلاً والآخر فرعاً بأولى من العكس " . (٢)

وقد ذهب الرضي في شرح الشافية إلى أن الإبدال في أمثال : ديوان وقيراط ، قياس متَّبِع . قال : " وأبدلوا أيضاً من أول حرفي التضعيف في وزن فَعَال إذا كان اسماً لا مصدراً ياءً ، نحو : ديماس وديباج وقيراط وشيراز . فيمن قال : دماميس ودبابيج ودنانير وقيراريط وشرازيز ، وهذا الإبدال قياس ، إذ لا يجيء فَعَال غير المصدر إلاً وأول حرفي تضعيفه أبدل ياءً ؛ فرقاً بين الاسم والمصدر " . (٣)

(١) الكتاب ، ٤ / ٤٢٤ .

(٢) شرح المفصل : ٢٤ / ١٠ .

(٣) ٣ / ١٩٧ - ١٩٨ .

وقد فسر ابن يعيش كثرة حدوث هذه الظاهرة وما يشبهها من الياء بقوله : " إنما كثر إبدال ياء لأنه حرف مجهور ومخرجه من وسط اللسان ، فلما توسط مخرجه الفم وكان فيه من الخفة ما يس في غيره كثر إبداله كثرة ليست لغيره " .^(١) وفسر على أنه هروب من التضعيف واجتماع الأمثال .

ومع كل ما قيس من تفسير أو تعليل لهذه الظاهرة ، يبقى السؤال قائماً : هل كانت هذه الأناظ متداولة في الواقع اليومي علة صورتين ؟

يظهر أن الإجابة عن السؤال ستكون بالإيجاب ، بدليل تنصيب سيبويه المتقدم ، ثم إن الأمثلة المنقولة ، إنما نقلت على هينتين : الهيئة الأصلية التي ينبغي أن تكون عليها المفردة والهيئة المتداولة التي حدثت فيها المخالفة . وهذا يعني وجود الصورتين معاً .

ومع انتفاء نسبة إحدى الصورتين إلى قبيلة ما ، فإنه يغلب أن تكون الصورتان متداولتين معروفتين بمستوى متقارب ، ويعاضد ذلك أن القرآن استخدم صيغتين للفعل (أملى ، يمل) ، وما كان الله ليخاطب العرب بما لا يعرفون أو يألون .

ثانياً : إبدال الأصوات (تبادل الفونيمات مواقعها)

تعتمد الصوتيات الحديثة منهجاً دقيقاً في مئز الوحدات الصوتية الأساسية وتحققاتها المختلفة ؛ فالفونيم هو الوحدة الأساسية والصورة التجريدية للأصوات المفردة ، ولكن هذا الفونيم ينطوي على تحققات متباينة جراء اختلاف السلسلة الصوتية التي يقع فيها ، وهذه التحققات ذات التوزيع التكاملي هي (ألوفونات) ذلك الفونيم .

ويُعتمد الفونيم وحدة أساسية تمييزية لضبط الأصوات الأساسية في كل لغة ، باعتماد قيمه الموقعية والدلالية ؛ ذلك أن اختلاف الدلالة إذا كان ناشئاً عن اختلاف صوتي ، فإنه يفسر

باختلاف الفونيمين ، من ذلك : قام ودام وعام وهام ، فإن (ق ، د ، ع ، هـ) فونيمات متباينة ؛ لأنها تسلم إلى تباين في المعنى .

وهذا منهج شائع في الصوتيات الحديثة . ولكن الاعتماد عليه في دراسة الإبدال في العربية تدبير غير سديد ولا رشيد ؛ ذلك أننا نقف على مثل تشتت في بنيتها الدلالية ، ولكنها تفرق في فونيم واحد وعلى هذا قد يصلح أن يعد الصوت الناشئ من الإبدال فونيماً أو تفرعاً على الأساس . ولكن هذا ملبس ؛ إذ يفضي إلى أن يكون الصوت الواحد مجرداً فونيميين وهذا لا سابق له ولا يجوز . وعليه فإن اعتباره متغيراً لغوياً تدبير سديد ورشيد .

وأساس هذا الإبدال أن يحل صوت محل صوت آخر ، يشبهه في الصفة ويقاربه في المخرج ، والمعول عليه المخرج ، وإن كان اللغويون لا يتقيدون بهذا دائماً .

ولو أنعمنا النظر في واحد من كتب الإبدال ، كتاب أبي الطيب اللغوي ، لوجدنا أنه يتضمن مائة حالة وعشراً على التقريب ، تتراوح قوة وضعفاً ، شهرة وندرة ، استخداماً وقياساً ، نسبة وإغماضاً ، والنظر في هذا الكتاب يفضي حتماً إلى تقليص هذه الأبواب إلى النصف أو ربما أقل ، وهذا مما ييسر ضبط الإبدال وحصر أمثله وتجريد قواعده - إن كان ثمة - ، وبذلك نقف على الاستثناءات التالية التي تخرج عن هذا الإبدال :

أولاً : ما أبدل على سبيل اللهجات المنسوبة ، وهي اللهجات المذمومة وهي : الكسكسية والكشكشة والعججة والاستطاء والششنة والفحفة والطمطانية والوتم .

ثانياً : ما أبدل على سبيل المخالفة ، وهي أبدال الياء ، وهي :

ل ← ي ، و ← ص ← ي (قَصِيَّتْ) ، و ← ن ← ي (ظَنِيَّتْ) ، و ← ض ← ي (تَقْضِي) ، و ← ب ← ي (رَيِّيَّتْ) .

ثالثاً : ما أبدل على سبيل المماثلة ، وهي : ن ← م ، و ← ط ، و ← د

ر ← س ← ص .

رابعاً : ما كان إبداله صرفياً ، مثل : إبدال الواو ياءً والألف ياءً .
خامساً : ما كان إبداله جارياً على الإطراد ، مثل : و - هـ (تراث)
و : - أ (وشاح) ، و أ - هـ (فرخت) و ك - هـ في إحدى اللهجات
الألف - أنت) .

سادساً : الإبدال المنسوب .

ونقف في إبدال أبي الطيّب على ملاحظ هامة ، تسهم في تأسيس قاعدة لضبط
الإبدال ، هذه الملاحظ هي :

أولاً : أن ثمة أنواعاً من الإبدال نادرة وقد تكون شاذة ، لأنه لم يرد في بابها سوى لفظة
واحدة أو اثنتين ، وهذه الأبواب عند أبي الطيب هي :

ب - ب - ذ مثالان حسب هما : عَنَهَأْتُ الرجلَ وعَذَهَلْتُه أي تركته ، والبري
والذري .^(١)

ب - ز مثال واحد : غُلامٌ بُلْبُلٌ وغُلامٌ زَلْزَلٌ ، وهو الخفيف الظريف .^(٢)

ب - س مثالان هما : البِلَاطِجُ والسُّلَاطِجُ ، الأرض الواسعة . رجل مُعْبُوبٌ
ومُعْسُوسٌ : قصير دميم .^(٣)

ب - خ مثال واحد : مَنَّ الرجلُ امرأته مَنَّاً ومَنَّها مَنَّاً إذا جامعها .^(٤)

ت - ر مثال واحد : صَنَعَهُ يَصْنَعُهُ وصَرَغَهُ يَصْرَغُهُ بمعنى واحد .^(٥)

ت - ع مثالان هما : نابت الرجل وناعٌ : تمايل من الضعف . الخَفَاتُ والخَفَاعُ :
الضعف من جوع أو مرض .^(٦)

(١) الإبدال : ١/١ - ٢ .

(٢) نفسه : ١/٧ .

(٣) نفسه : ١/٨ - ٩ .

(٤) نفسه : ١/٩٨ .

(٥) نفسه : ١/١١٣ .

(٦) نفسه : ١/١٣٥ .

- ت ← ق مثالان : سَبَّهَ سَبَّأً وَسَبَّهَ سَبَّأً بِمَعْنَى وَاحِدٍ . وَالتَّثَلُّةُ وَالْفَقْلَةُ : الْحَرَكَةُ (١) .
ث ← م مثال واحد : تَغَنَّغَ تَغَنَّغًا وَمَغَنَّغَ مَغَنَّغًا ، إِذَا لَمْ يَبِينْ كَلَامَهُ وَلَمْ يُفْصِحْ بِهِ . (٢)

* ثانياً : أن بعض هذه الأبدال قد ذُيِّلَ بعبارات صريحة تشير إلى ندرتها أو قلتها أو رفض العلماء لها ، أو إشارات دلالية مائزة . وهي :

- ج ← ع (هزيج وهزيع) وهو بالجيم قليل . (٣)
ح ← ش : فحيج الأفعى وفشيشها وهو صوتها . وقال أبو نصر : فحيجا صوتها من فيها ، وفشيشها صوت جلدتها . (٤)
ذ ← ز : ذبر وزبر . الأصمعي : كأنه من الأضداد . (٥)
د ← ذ : مجذاف و مجذاف ، وأبى الأصمعي إلا بالبدال غير المعجمة . (٦)
ت ← د : هدئ وهتئ ، ولم تُسَمَّعْ بالبدال .

• ثالثاً : ثمة أبدال كثيرة للفظ الواحد ، منها :

- غَلامٌ بَلْبَلٌ وَزَلْزَلٌ وَشَلْشَلٌ .
- ضربة لازب ولازم ولاتب .
- ابْتَقِعَ لَوْنَهُ وَأَمْتَقِعَ وَأَنْتَقِعَ وَأَهْتَمَعَ وَالتَمَعَ .
- مَدَّ وَمَدَّ وَمَطَّ .
- جاس وحاس وهاس .

(١) نفسه : ١ / ١٣٧ .

(٢) نفسه : ١ / ٢٠٣ .

(٣) نفسه : ١ / ٢٣٦ .

(٤) نفسه : ١ / ٢٨٩ .

(٥) نفسه : ٢ / ٦-٧ .

(٦) نفسه : ١ / ٣٥٩ .

الإبدال المنسوب :

أوردت المصادر اللغوية عدداً من المفردات التي جرى عليها الإبدال منسوبة إلى قبائل على التعيين ، وهذه الأبدال - على قلتها - ذات دلالة في تحديد الانتماء اللهجي للإبدال . وأهم ما ورد من الأبدال المنسوبة :

أ - ← ع : أهل الحجاز يقولون : استأديت السلطان على فلان : أي استعديته .^(١)

ج - ← ش : أجاه وأشاء . أشاء لتميم .^(٢)

ض - ← ظ : فاضت لكل العرب ، وفاضت لبني ضبة^(٣) وضمين لقريش ، وبعض قضاة : ظنين . وقرنت (ما هو على الغيب بظنين) وسمعت بعض قضاة يقول : ... الظنون .

هـ - ← ف : عامة العرب هودج . وبنو سعد بن زيد بن مناة بن تميم فودج .^(٤)

ع - ← ح : علق الفراء على الآية " إذا بُعِثَ ما في القبور " قائلاً : " سمعت بعض أعراب بني أسد قرأها بْحِثَر " .^(٥)

ك - ← ق : كُشِطَت لقريش وكُشِطَت لقيس وتميم ، وهما عند الفراء ليسا من الإبدال ، لأنهما لغتان لأقوام مختلفين .^(٦) وبعض بني غنم بن دوران من بني أسد يقول : فلا تَكْهَر .^(٧)

د - ← ت : التَّفْتَر لبني أسد .^(٨)

(١) أبو عبيد ، الغريب المصنف ، ٣ / ٩٨٩ . وعن بعض بني نهران من طيء : دان وثؤالة : دعني وثعالة . شرح شواهد الشافية ٤٣٤ .
(٢) الفراء ، معان القرآن ٢ / ١٦٤ .
(٣) البطليوسي ، الفرق بين الحروف الخمسة ٢ / ١٨٦ ، وأيضاً الكامل للمبرد ١ / ٣٣٠ . ومعان القرآن للفراء ٣ / ٢٤٢-٢٤٣ .
(٤) الكامل للمبرد : ١ / ٣٥٢ .
(٥) الفراء ، معان القرآن : ٣ / ٢٨٦ .
(٦) سر صناعة الإعراب : ١ / ٢٧٧ .
(٧) ابن السكيت ، الإبدال : ١١٤ .
(٨) أبو الطيب الإبدال ، ١ / ١٠٨ .

- ف ← ث : وتميم تسمى الأثافي الأثافي (١) ، وتميم تقول : تَثَمَّتْ على الفم وغيرهم : تَثَمَّتْ (٢) وقال الفراء : وسمعت كثيراً من بني أسد المغافير : المغائير (٣) وقال ابن جنى : الجذث هو القبر بلغة أهل الحجاز ، والجذف بالفاء لبني تميم (٤) .
- ل ← ن : وبنو سعد وكلب وباهلة يقولون : بَن (٥) .
- ف ← ق : زحلوقة لغة أهل الحجاز وزحلوقة لغة تميم (٦) .
- ط ← ت : غَلَّتْ يَغَلُّ لطيئ ، وغيرها غَلَطَ (٧) .
- ه ← ن : تَنَكَّهُ بمعنى تَنَدَّمَ لأهل الحجاز ، وتميم تَفَكَّنَ (٨) .
- ك ← خ : وبنو قشير يقولون : سَخَّينَ للسكَّين (٩) .
- ز ← ت : من طين لازب ، وقيس تقول : لاتب . والعرب تقول : ليس هذا بضربة لازب ولازم (١٠) .
- س ← ز : وكلب تقلب السنين مع القاف خاصة زايًا ، فيقولون زَقَرُ في سَقَر (١١) .

وهذه الأبدال المنسوبة - على قلتها - قد تشير إلى دلائل على هذا التبادل بين الصوتين ؛ إذ يظهر أن العرب عامة كانوا يستخدمون الصوت على هيئته الأصلية ، في حين اختصت قبيلة ما بإبدال هذا الصوت ، فيكون علماً عليها ودليلاً هادياً إليها . ومما يعزز ذلك ، أننا نجد أكثر من لفظة تقع ضمن الإبدال نفسه ، فهو يكاد يكون مطرداً أحياناً . من ذلك أن الرواة واللغويين أوردوا عدداً من الأمثلة المنسجمة للإبدال الواحد ، كإبدال التاء فاءً ، فقد نسب إلى تميم "الأثافي"

١ (أبو الطيب ، الإبدال : ١ / ١٩٠ .

٢ (أبو عبيد ، الغريب المصنف : ١ / ١٥٥ .

٣ (معان القرآن : ١ / ٤١ .

٤ (المحجب : ٢ / ٦٦ .

٥ (اللسان ، بلا وبن .

٦ (أبو عبيد الغريب المصنف ، ١ / ٢٦٢ .

٧ (أبو مسحل الأعرابي ، النوادر ، ١ / ٢٩٥ .

٨ (المصدر السابق : ٢ / ٤٥١ .

٩ (الأحفش ، معان القرآن : ١ / ١٨٠ .

١٠ (معان القرآن للفراء ، ٢ / ٣٨٤ .

١١ (سر الصنعة : ١ / ١٩٦ .

و" تَلَمَّت " وكذلك نسبت " جَدْتُ " إلى تميم^(١) ، واختلف في (ثوم وفوم) . ونسبت المغائير إلى أسد .

وهذه الأمثلة على قلتها . تهين لنا مادة جاضرة يمكن منها أن تصدر رأياً بأن هذا الإبدال (ف ← ث) إنما يحدث في تميم غالباً وفي بعض أسد ، أما بقية العرب فإنهم يلتزمون الأصل اللغوي دون إبدال .

ونجد نصوصاً صريحة تعاضد هذا الرأي ؛ من ذلك أن العرب تقول : ضربة لازم ؛ فتبدل من الباء ميماً ، ولكن قياساً تقول : لا تيب^(٢) . ثم إن من الإشارات ما يشير إلى اللغتين الكبيرين لغة الحجاز ولغة تميم . مثل : زحلوقة للحجازيين وزحلوقة للتميمين .

وبعد كل ما جرى من الاستثناء ، تبقى أبواب قليلة من الإبدال ، بعضها قد يسوغ وفق مقولات علم الأصوات وبعضها قد لا يقبل التسويغ لتباعد المخارج واختلاف الصفات .

وقد كان البحث في الحرف الأصل والصوت المبدل قضية شائكة ومشكلة ، ذلك أن النظر في المعجمات القديمة يشير إلى كل صورة صوتية في بابها ، ثم ينص على أن فيها لغات أخرى . ومما يعزز القول بالبديل أنها تستقيم على بنية واحدة ، فالأفعال تستوي فيها صورتان في الماضي والمضارع من ذلك : غَلَبْتُ يَغْلِبُ ، نجد صورتها الأخرى : غَلَبْتُ يَغْلِبُ ، ثم نجدهما على معنى عام واحد تشتركان فيه ، مما يزيد الأمر إلباساً في البحث عن الأصل ، أو وضوحاً في الدلالة على الإبدال . وقد تحريت ما يزيد عن عشرين إبدالاً ، فوجدتها في المعجمات تستقيم على معنى واحد أو معانٍ قريبة ومتماصة^(٣) .

١ (المحب : ٦٦ / ٢ .

٢ (الفراء ، معاني القرآن : ١ / ١٨٠ .

٣ من هذه الكلمات : غَمَشٌ وَغَمَشٌ ، وَنَهَضٌ وَنَهَضٌ ، وَالشَّعْرُ وَالشُّعْرُ ، وَقَمَشٌ وَقَطَشٌ ، وَسَدٌ وَسَدٌ ، وَحَسٌ وَهَسٌ وَحَسٌ . وَفَأُ وَفَضٌ . وَغَيْرَهَا .

وتفاوتت آراء اللغويين في ذلك الإبدال ، بين رد الكلمتين إلى أصل واحد يُغلب إحدى الصورتين ، أو يردهما إلى أصلين مختلفين . ولعل ابن جني يكون أكثر من قلب الأمر على وجوهه ، وحاول استبطان سيرورة اللغة في هذه المادة الحاضرة بين يديه .

يسير ابن جني في تناوله مسألة الإبدال الصوتي في محورين ؛ الأول : يرد فيه التباين إلى الإبدال . والثاني يرد فيه التباين إلى اختلاف اللغات ولو احتمالاً . وأساس حكمه في ذلك ، الاستعمال والشيوع والكثرة . فإذا كانت إحدى صورتَي البدل جارية في الاستعمال والتصرف والشيوع كثيراً ، حكم بأنها أصل والأخرى بدل ، وذلك في اللغة الواحدة أو عند العرب جميعاً . قال ابن جني : " رجل خامل وخامن ، النون فيه بدل من اللام ، ألا ترى أنه أكثر ، وأن الفعل عليه تصرف ، وذلك قولهم : خمل بخمل خمولاً . وكذلك قولهم : قام زيد فُم عمرو ، والفاء بدل من الثاء في ثم ، ألا ترى أنه أكثر استعمالاً " (١) .

فإذا تساوت اللهجتان في التصرف والاستعمال ، عُدَّ كل منهما أصلاً قائماً برأسه ، ويصح معه أن تتسب كل صورة إلى لهجة محلية . يقول : " هتلت السماء وهتت هما أصلان ، ألا تراهما متساويين في التصرف ، يقولون : هتت السماء تهتن تهتاناً وهتلت تهتل تهلتاناً وهي سحائب هتن وهتل " (٢) .

ثم يقول : " فأما قولهم إناء قُرَيان وكُرَيان ، إذا دنا أن يمتلئ فينبغي أن يكونا أصليين ؛ لأنك نجد لكل واحدة منهما متصرفاً ، أي : قارب أن يمتلئ وكُرَب أن يمتلئ " (٣) .

ولكنه يتسّمح قليلاً في معيار كثرة الاستعمال والتصرف ، يقول : " فأما قولهم ما قام زيد بل عمرو وبين عمرو ؛ فالنون بدل من اللام ، ألا ترى إلى كثرة استعمال " بل " وقلّة استعمال بِن والحكم على الأكثر لا على الأقل . هذا هو الظاهر من أمره ولست مع هذا أدفع أن يكون (بِن) لغة قائمة برأسها " (٤) .

١ (المصانص : ٨٤ / ٢) .

٢ (المصدر نفسه ، والصفحة .

٣ نفسه : ٨٦ / ٢) .

٤ نفسه : ٨٤ / ٢) .

ونجد مثل هذا الرأي عند الفراء ، يقول ؛ " قريش تقول : كُشِطت ، وقيس وتميم تقول قُشِطت . وليست القاف بدلاً من الكاف ؛ لأنها لغتان لأقوام مختلفين " (١)

ويمضي ابن جنى قُدماً في محاولة تفسير هذا الإبدال الصوتي (أو التبادل) وفق مقولات علم الدلالة ، رابطاً بين اختلاف الأصوات والاختلاف الدلالي ضمن إطار حقل دلالي واحد . فالكلمة لها دلالة مركزية وحقل دلالي هام ، ثم تبدأ الأصوات بتبديل مواقعها للدلالة على معانٍ تقترب من المركز أو تبتعد عنه . ويستهدي أيضاً بالدلالة الصوتية لكل صوت في توضيح ذلك . ومن أمثلته في ذلك :

- قوله - سبحانه وتعالى - : " ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً " أي تزعجهم وتقلقهم ، فهذا في معنى تهزهم هزاً ، والهمزة أخت الهاء ، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين . وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء ، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز ؛ لأنك قد تهز ما لا بال له كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك " (٢).

- " ومنه العسف والأسف ، والعين أخت الهمزة ، كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها ، والهمزة أقوى من العين ، كما أن أسف النفس أغلظ من التردد بالعسف ، فقد ترى تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين " (٣) .

- " ومن ذلك قولهم : النضج للماء ونحوه ، والنضج أقوى من النضح ؛ قال الله - سبحانه - " فيهما عينان نضاختان فجعلوا الحاء - لرقتها - للماء الضعيف ، والحاء - لغلظها - لما هو أقوى منه " (٤) .

- " ومن ذلك القُدُّ طولاً والقَطُّ عرضاً ؛ وذلك أن الطاء أَحَصَرُ للصوت وأسرع قطعاً من الدال . فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرض ، لتقريبه وسرعته والدال المماثلة لما طال من الأثر ، وهو قطعه طولاً " (٥) .

(١) سر الصناعة : ١ / ٢٧٧ .

(٢) الانصاف : ٢ / ١٤٦ .

(٣) نفسه ، الجزء والصفحة .

(٤) نفسه : ٢ / ١٥٦ .

(٥) نفسه : ٢ / ١٥٨ .

المبحث الثاني

في الوقف

ينتظم العربية نظامً صوتيً مطرد مضبوط كسائر اللغات ، وهذا النظام قائم على أسس ركيحة تنظم سير الوحدات اللغوية وسلوكها ، على مستوى الكلمة أو على مستوى الجملة . من ذلك أن النظام المقطعي يفرض ألا ينتهي المقطع بصامتين إلا حصرًا في الوقف ، فلا يتتابع صامتان في مقطع واحد خارج الوقف . ومن ذلك أيضاً استحالة بدء المقطع الصوتي بصامتتين إطلاقاً .

وإذا ما عرض للغة ما يخرج على هذه القواعد والضوابط ، نجدها تتحايل عليه بطرق تجنبها المحظورات ؛ فالتقاء الساكنين تتحايل العربية عليه بالحذف أو التحريك . وأسلمت جهود الأوائل والأواخر إلى أن الوقف في العربية الفصحى لا يكون على صوت متحرك وإنما يكون على ساكن . وفيما يلي نتناول صورتين للوقف ، مما يعرض فيه التباين .

الوقف على المنون غير المختوم بالتاء (١) :

والوقف إنما هو قطع الكلام والتوقف عن إجراء النفس ، والتتوين إنما هو ضمة ونون أو فتحة ونون أو كسرة ونون ، وذلك في الوجوه الإعرابية الثلاث . وقد كشفت المصادر عن وجوه ثلاثة لاستخدام العرب هذا الموقف عليه ، وهي وجوه تمثل ثلاث لهجات محلية هي على التعيين :

الأولى : وهي لغة ربيعة ، يقفون عليه بحذف التتوين وسكون الآخر مطلقاً ، وذلك

أن تقول :

هذا زَيْدٌ ← هذا زَيْد .

(١) لرصد هذه الظاهرة ، انظر : سر الصناعة : ٢ / ٤٧٧ - ٥٨٢ / ٥١٨ ، وأسرار العربية لابن الأنباري : ٢٠٥ ، وشرح شواهد الشافية للغدادي : ٢ / ١٩١ ، وشرح الكافية الشافية : ٤ / ١٩٨٠ - ١٩٨١ ، وشرح ابن عقيل : ٢ / ٤٦٧ ، وأوضاع المسالك : ٤ / ٣٠٧ ، وارتشاف الضرب : ٢ / ٧٩٩ - ٨٠٠ ، وشرح المفصل : ٩ / ٦٩ - ٧٠ ، وحاشية الصَّيَّان ٤ / ٢٨٦ وما معاه ، والنسبيل : ٣٢٨ - ٣٣١ .

مررت بزید ← مررت بزید .

رأيتُ زیداً ← رأيتُ زید .

وأبرز شواهدا قول الشاعر :

ألا حبذا غنمٌ وحسنٌ حديثها

لقد تركت قلبي لها هائماً ديفاً

فسكن (سنف) على لغة قومه (١) .

ومفاد هذه اللغة اطراد التسكين في الرفع والنصب والجر ، جرياً على النظام الصوتي العربية ، فهو يمنع التقاء الساكنين ويحظر أنواعاً معينة من المقاطع ، ولكنه يجيزها في الوقف ، فكلمة (زِيدُ) : تشكل مقطعاً واحداً هو [ص ح ص ص] وهذا المقطع جائز في الوقف ، فلا تعارض بين النظام الصوتي للعربية وبين هذا التسكين . أما من حيث الدلالة التركيب ؛ فإنه ظاهر لا لبس فيه ولا غموض .

الثانية : وهي لغة الأزد ، ومفادها أن يوقف على التتوين بإبداله حركة طويلة من جنسه ، فيبدلونه ألفاً بعد الفتحة ، وواواً بعد الضمة ، وياءً بعد الكسرة (٢) ، فيقولون :

رأيتُ زیداً ← رأيتُ زيدا .

هذا زِيدُ ← هذا زيدو .

مررت بزید ← مررت بزیدی .

وهم بذلك إنما يجرون الحركة على الإشباع ؛ فينشأ من إشباع الحركة حروف المد ؛ فالفتحة ألف قصيرة والضمة واو قصيرة والياء كسرة قصيرة أو هي أبعاض تلك الحروف ، وهذا الإبدال مطرد في لغتهم قياساً واستعمالاً فإذا كانت هذه الظاهرة في التتوين محصورة في الأزد ، فإن إشباع الحركات معروف في العربية وجرار على ألسنة العرب كثيراً .

(١) شرح الكافية الشافية : ٤ / ١٩٨٠ .

(٢) شرح الكافية الشافية : ٤ / ١٩٨١ .

الثالثة : وهي لغة سائر العرب ، وفيها يوقف على المنصوب والمفتوح بإبدال التتوين ألفاً ، وعلى غيرهما بالسكون وحذف التتوين بلا إبدال . والمراد بالمنصوب ما فتحته فتحه إعراب ، نحو : رأيت زيدا ، والمراد بالمفتوح ما فتحته لغير إعراب نحو (أيها) و (واهأ) .

وهذه اللغة في تعاملها مع المنون ، إنما تتشعب قبل أن تبلغ صورتها الماثلة ؛ إذ عليها أن تتخلص من التتوين ثم بعد ذلك تسكن ما كان آخرها في الكلمة . ووفقاً لها يتحصل لنا شكلان لهذه اللغة : الأول متعلق بالنصب والثاني متعلق بالجر والرفع ، وذلك على النحو الآتي :

قرأت كتاباً ← قرأت كتابا .

هذا كتاب ← هذا كتاب .

غلاف كتاب ← غلاف كتاب .

" وهذه القاعدة الفصحى ذات ركنين - كما هو ظاهر - فهي قائمة على التعدد ، وهي إلى ذلك غير منطقية إذا احتكنا إلى النظر الشكلي المجرد ؛ ذلك أنها تجمع المجرور والمرفوع في حكم واحد متطابق ، وتفرق المنصوب في حكم ثانٍ مغاير ، وإذا كان للقول بالفرق بين المنصوب والمجرور ، والفرق بين المنصوب والمرفوع مركب تأويل فليس إلى القول بالتطابق بين المرفوع والمجرور سبيل " (١) .

ولو أننا نظرنا بميزان المقارنة إلى الوجوه الثلاثة ، لوجدنا أن الوجهين الأول والثاني يسوزان على نسق مطرد ؛ فالأول يوحد الوقف في الحالات الثلاث ويجمعها في حيز واحد هو السكون . والثاني يقيس باطراد قيمَ الحرف (الصوت) وإذا كان يفضي إلى تعدد الوجوه بتعدد الوجوه النحوية ، إلا أنه ينسجم مع نظام العربية في الميز بين الوظائف النحوية بحركات الإعراب ، ولا سيما الأسماء التي تعرب بالحروف .

ولكن بناء العربية ، واستخدام أبنائها جرى على تفضيل الصورة الأكل انسجاماً ، فركبت إلى مستوى اللغة الفضلى ، مع فسح المجال للتعدد في نطاق اللهجات وفي مناهج النظر ؛ فكان أن أجزت القراءة بلغة الأزد ولغة ربيعة ، ولا سيما لمن يرده انتماؤه إلى إحدى هاتين القبيلتين .

وأما التفريع على الوجه الثاني ، فرود الوقوف على ما كان مسبوقاً بحركة بالتاء . قال ابن يعيش : " على أن من العرب من يجري الوقف مجرى الوصل فيقول : هذا طلحت . وهي لغة فاشية حكاها أبو الخطاب . ومنه قولهم : وعليه السلام والرحمت " (١) .

ولما كان الرسم الإملائي تعبيراً دقيقاً عن النطق أو يكاد يكون ، فقد صبر عن هذا الوقف بإثبات التاء المبسوطة . وأظهر ما يكون ذلك في القرآن الكريم ؛ ذلك أن الرسم القرآني يعتبر في كثير من جوانبه عن القراءات والأداء الصوتي ، ولذلك نجد كثيراً من هذه الكلمات مرسومة بالتاء المبسوطة في القرآن الكريم . من ذلك :

- (إن شجرت الزقوم طعام الأثيم) الدخان : ٤٣ .

- (... جنت نعيم) الواقعة : ٨٩ .

- (إن رحمت الله قريب من المحسنين) الأعراف : ٥٦ .

وعلى ذلك حمل قول أبي النجم :

والله أنجأك بكفي مسلمات

من يبعثما وبعثما بعثمت

كانت نفوس القوم عند الغلصمت

وكادت الخزة أن تدعى أمت

فجاءت مسلمة وغلصمة وأمة موقفاً عليها بالتاء ، واستعين بالرسم الإملائي للتدليل

على ذلك (٢) .

وأما التفريع على الوجه الثالث ، فإنه يجوز الإبدال في تاء التأنيث في جمع التصحيح

على قلة ، كقول بعض العرب : دُفن البناء من المكرماه " يريد دفن البنات من المكرمات (٣) .

وقد روى ابن يعيش هذه اللغة عن قطرب منسوبة إلى طيبء ، قال : " وحكى قطرب

عن طيبء أنهم يقولون : كيف البنون والبناء ؟ وكيف الإخوة والأخوات ؛ فأبدلوا من تاء الجمع

هاء في الوقف كما يبدلون في تاء التأنيث الخالصة ، وذلك شاذ ، وقد قالوا : التابوه في التلبوت

وهي لغة ... والتابوه لغة الأنصار والتابوت لغة قريش ، وقال ابن معن : لم يختلف الأنصار

(١) شرح المفصل : ٨١ / ٩ ، والبحر المحيط : ٦ / ٤٦٠ .

(٢) أوضح المسالك : ٤ / ٣١٢ .

(٣) أوضح المسالك : ٤ / ٤٧٣ ، وشرح الكافية : ٤ / ١٩٩٥ .

وقريش في شيء من القرآن إلا في التابوت . وبعضهم وقف على (اللآت) بالهاء ، فقال :
اللاء (١) .

ويرأى مما سبق أن لكل وجه صورتين : إحداهما الفصحى ، وهي مقيسة بكثرة الاستعمال والشيوع ، أما الثانية فاستعملت على قلة ، وبها قرأ بعض القراء ورسمت في المصاحف معبرة عن هينات الوقف المتباينة .

ورجع النظر فيها يكشف عن ثلاث سمات منسوبة ، الأولى وهي سمة متكاملة في لهجة على التعيين ، وهي إبدال تاء جمع المؤنث السالم هاء ، وهي طائفة ، وقد وصفت بالشذوذ . ومهما يكن الأمر بالنظر إلى معايير الفصحى ، فإنها تبقى صورة ترسم ملامح الاستخدام الوظيفي للغة في تلك البقعة الجغرافية ، ولدى تلك الفئة من الناس ، بما يستلم إلى تعرف من ينطق بهذه اللهجة ؛ لأنها معروفة لدى العرب على أنها طائفة ، وبذلك تكون قد أنت وظيفة اجتماعية في التواصل الإقليمي ووظيفة في تحديد الانتماء الجغرافي لأصحاب هذا الأداء ، مما يؤدي إلى رفع الإصر عنهم عند مخاطبة من يخالفهم في هذه السمة .

ثم إننا نجد تبايناً في كلمة واحدة ، رويت على هيتين متباينتين وهي كلمة (التابوت) ، فقد رويت بالهاء منسوبة إلى الأنصار ورويت بالتاء منسوبة إلى قريش ، وقد يسلم هذا إلى تساؤل مشروع : هل يمكن أن نعم هذا الفارق فنقول : إن الأنصار يقلبون التاء الأصلية هاءً بإطلاق ؛ أو : إن الأنصار يقلبون تاء ما كان على هذا الوزن هاءً خلافاً لقريش ؟ وفي ضوء ما يتحصل لدينا من أدلة نقلية ، لا يمكن القول بهذا ؛ ذلك أن روايات القراء واللغويين تشير إلى أن هذه الكلمة وحيدة في روايتها ، ففي القرآن كلمات كثيرة على هذا الوزن منها : طاغوت ، لم تقرأ " طاغوه " . وعليه فإن هذا التباين لا يرقى إلى مرتبة الظاهرة وفق ما لدينا من أدلة فهو تباين في كلمة حسب .

المبحث الثالث

التخلص من التقاء الساكنين (١)

لا يسمح النظام الصوتي للعربية بتتابع ساكنين ، إلا أن يكون أحدهما في مقطع والآخر في مقطع ثانٍ ، ولكنه يتسمَح بقبول ذلك التشكيل الصوتي عند الوقف . وليس هذا الحكم محصوراً في الكلمة الواحدة ، لكنه يتعداها إلى الجملة والنسيج الصوتي المتواتر . فإذا اضطرت اللغة ، ووقعت في هذا المحذور الصوتي ، احتالت عليه بما أتيح لها من الوسائل التي تتبثق من طبيعة سيرورتها ونظامها الداخلي ، لتعود إلى اتساقها من جديد .

والعربية تحال على التقاء الساكنين بوسيلتين هامتين ، تتحرى في انتقائهما الدقة والاتساق وأمن اللبس وتأدية الغرض والاقتصاد النطقي . هاتان الوسيلتان هما : الحذف والتحرك .

الحذف : (التقصير) :

ويكون ذلك بحذف حرف (صوت) العلة غالباً ، والاستعاضة عنه بما يشعر به ويشير إليه قبل الحذف . من ذلك أننا نقول : علي في بيت صديقه : فإذا عرضت لنا كلمة (البيت) في سياق آخر : في البيت الجديد ، فُصِّرَت العلة في (في) فصارت : فَبَيْت .

ثم إنك إذا جزمت فعلاً معتل الوسط ، وجب أن يلتقي ساكنان ، حرف العلة ولام الفعل الساكن بعامل الجزم ، فتحذف العلة (أو تُقَصَّر) دفْعاً لالتقاء هذين الساكنين ، وذلك :

ينام ← لم ينام ← تقصير العلة ← لم يَنَمْ
 يبيع ← لم يبيع ← تقصير العلة ← لم يَبِعْ
 يقول ← لم يقول ← تقصير العلة ← لم يَقُلْ

(١) النفعيل ، انظر : المحاسب لابن حني : ٢٨٣ / ١ ، والبيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري : ١ / ٣٥ و ١ / ٥٨ - ٥٩ ، وشرح الكافية : ٤ / ٢٠٠٩ - ٢٠١١ . وشرح الشافية : ٢ / ٢٣٨ - ٢٤٠ ، وشرح المفصل : ٩ / ١٢٤ ، وارتشاف الضرب : ٢ / ٧١٧ - ٧٢٨ . والتسهيل : ٢٥٩ - ٢٦٠ .

ومثل الحذف ضافية ، لسنا نقصد إلى استقصائها ، وإنما نستأنس بها .

التَّحْرِيك :

والتحريك بالكسر أصلُ الباب ، أي العدول عن الساكنين باستدعاء الكسرة دفعاً لمحظور . وأكثر ما يكون هذا في تاء التانيث الساكنة متلوّة بالاسم المُعْرَف (أ ل) ، نقول :

قَالَتِ البِنْتُ ← قَالَتِ البِنْتُ .

أزهرت الشجرة ← أزهرت الشجرة .

ويكون كثيراً في الفعل المضارع صحيح الآخر مجزوماً متلوّاً بمعرّف بـ (أ ل) :

لم تَدْرُسِ البِنْتُ ← لم تَدْرُسِ البِنْتُ .

لَتَكْتُبِ الدَّرْسَ ← لَتَكْتُبِ الدَّرْسَ .

ولكن احتراز اللغة من محظور صوتي ، قد يوقعها في مزلق نحوي أو دلالي ، فتلتجئ إلى احتيالي آخر . فكان أن التجأت إلى التخلص من التقاء الساكنين بالفتح أحياناً وبالضم أحياناً أخرى ، بما أسلم إلى التباين في الظاهرة الواحدة . من ذلك إسناد فعل الأمر الصحيح إلى مخاطب مذكر ، فقد كان ينبغي أن يكون بالتسكين وفق قاعدة البناء على السكون ، فإذا وقع بعده مفعول به معرفاً بـ (أ ل) اضطررنا إلى الهروب من التقاء الساكنين ، فإذا هربنا إلى الكسر ، ونعنا في مظنة اللبس بأن يكون الكلام للمخاطبة ، وإذا فررنا إلى الضم أيضاً خشينا اللبس في الاشتباه بجماعة المخاطبين ، وذلك :

شُدَّ الحَبْلُ ، تشبه الأداء الصوتي لـ : شُدِّي الحَبْلَ .

شُدَّ الحَبْلُ ، تشبه الأداء الصوتي لـ : شُدُّوا الحَبْلَ .

ففررنا إلى الفتح .

ومما حرك بالضم ، ميم جمع المذكر المتصلة بالضمير المضموم (هَمْ وَ كُمْ) من ذلك أنك ترد تحية من حياك بالقول : وعليكُم السلام .

وأصل الباب - كما سبق - أن يتخلص من الساكنين بالكسر ، لكننا نشهد انتقالاً من كسر إلى فتح وضم . ثم إنه وردت عنهم وجوه مختلفة في الباب الواحد ، فتخلصوا من الساكنين في الحرف الواحد بحركتين ، تارة ضمة وأخرى فتحة .

فقد حركوا حرف الجر (من) بالفتح إذا وليه معرف بـ (أل) ، جرياً على كثرة الاستعمال وهروباً من توالي الأمثال ، فعدلوا إلى الفتح طلباً للخفة كما فعلوا في : أين وكيف ، " والذي يدل على صحة ما قلنا في أن الفتح إنما كان مجموع ثقل توالي الكسرتين مع كثرة الاستعمال . أنهم قالوا : انصرفت عن الرجل ؛ فكسروا النون إذ لم يكن قبلها مكسور . وقالوا : إن الله أمكنني فعلت ، فكسروا نون (إن) وإن كانت على صورة (من) في انكسار الأول ، ولم يبالوا الثقل ؛ لقلّة ذلك في الاستعمال " (١) .

وإذا كان الاستعمال وطلب الخفة داعياً إلى الانتقال من الكسر - وهو أصل الباب - إلا أن من العرب من يجيء بـ (من) مكسورة على أصل الباب ، فيقول فيها (من الله) فيكسر مجزياً على القياس (٢) . وهي لغة نجرانية (٣) .

ومما جرى فيه التباين هنا (من) وبيان ذلك على وجهين :

الأول : إجراؤه مجرى (من) وذلك بالفتح بدلاً من الكسر ، فيقولون : من ابنك ؟ قياساً على (من الله) : " قال أبو حيان : " وقد فتح قوم من الفصحاء فقالوا : من ابنك ؟ والكسر عند سيبويه أكثر ؛ لأن ألف الوصل في غير لام التعريف لم يكثر ، فإذا فتح في : من الرجل ، شاذ في القياس دون الاستعمال ، وهو في (من ابنك) و (من امرئ) شاذ في الاستعمال والقياس جميعاً " (٤) .

١ (ابن بعش ، شرح المفصل : ٩ / ١٢٤ ، والأنباري : البيان في غربت إعراب القرآن : ١ / ٥٣ .

٢ (ابن بعش ، السابق : ٩ / ١٢٤ .

٣ (ارتشاف الضرب : ٢ / ٧٢٣ .

٤ (المصدر نفسه ، والصفحة .

" أما (عَن) ، فقد كُبرِتْ نونها على القياس ، وبعض العرب بضمها قبل (أل) وهي لغة رديئة " (١)

أما واو الجماعة المفتوح ما قبلها فالاختيار ضمها ويجوز الفتح والكسر ، وإن كانت لغير الجمع فالاختيار كسرها ويجوز ضمها (٢) . قال ابن يعيش : فأما الواو المفتوح ما قبلها فإنها إذا كانت اسماً ولقيها ساكن بعدها فإنها تحرك بالضم نحو : ولا تتسوا الفضل بينكم واخشوا الله ورموا ابنك ، وما كان من ذلك حرفاً من نفس الكلمة فإنه يحرك بالكسر نحو : لو استطعنا ، وأن لو استقاموا ، وذلك للفرق بينهما ، هذا نص الخليل وقد كسر قوم الواو إذا كانت اسماً فقالوا : ولا تتسوا الفضل ، حكماً على الحرف الأصلي . وضم قوم الحرف فقالوا : أن لو استقاموا وذلك قليل " (٣) .

وقال أبو الفتح بن جني : " قرأ يحيى بن يعمر وابن أبي اسحق : اشتروا الضلالة ، وحكى أبو الحسن فيها الفتح ورواه قُطْرُب . والضم أفشى ثم الكسر ثم الفتح " (٤) .

(١) شرح الكافية : ٤ / ٢٠١٠ .

(٢) السابق : ٤ / ٢٠١٠ ، والأنباري : البيان في غرب إعراب القرآن : ١ / ٥٨ - ٥٩ .

(٣) شرح المفصل ، ٩ / ١٢٥ .

(٤) شرح الكافية : ٤ / ٢٠١٠ - ٢٠١١ .

المبحث الرابع

في حركة الضمير المتصل^(١)

تتخذ الضمائر في العربية سمّاً محدداً ، يضبط سلوكها على المستوى التجريدي ، ثم إن هذا السمّ مرّن ، يستجيب لمتطلبات النظام الصوتي للعربية ، فيتخلّى عن صورته التجريدية طلباً للانسجام والاتساق ؛ فتتغير حركته لمناسبة الأصوات التي تسبقه أو تلحقه . وتتخذ تشكيلات صوتية متباينة في مستويات الأداء النطقي الإقليمي ، ويعنينا هنا ضمير الغائب المفرد وما يجري مجراه .

يتحقق هذا الضمير (هـ) على الوجوه التالية :

الوجه الأول : تكون الهاء مضمومة ، فإذا تقدمتها كسرة أو ياء ساكنة ، كسرت طلباً للانسجام ، على ألا تتصل بضمير نحو : يعطيهموه . وهذا الوجه لأهل نجد من تميم وقيس وأسد^(٢) . وعليه تكون لدينا التحققات التالية^(٣) :

- تتطوق بعد الفتحة ضمة مشبعة : نصحت له (لهو) كثيراً .
- تتطوق بعد الضمة ضمة مشبعة : رأبه (رأهوه) شديد .
- تتطوق بعد السكون ضمة مختلطة دون إشباع : دافعت عنه إنصافاً .
- تتطوق بعد الكسرة كسرة مشبعة : ألم به (بهي) مرض .
- تتطوق بعد الياء الساكنة كسرة مختلطة : ليس عليه بأس .

وهذا هو اختيار الفصحى .

الوجه الثاني : وهو لغة الحجاز ، ومفادها إلحاق الضمير ضمة مشبعة بإطلاق ،

فيقولون : نصحت له (لهو) .

(١) للتفصيل ، انظر : معاني القرآن للقرآء : ١ / ٥ - ٦ ، ومعاني القرآن للأخفش ١ / ٢٦ ، مع المعجم : ١ / ٢٠٢ ، والمعجم لابن

جنى : ١ / ٣٠١ ، وارتشاف الضرب : ٢ / ٩١٧ - ٩٢٢ .

(٢) ارتشاف الضرب : ٢ / ٩١٧ ، والبحر المحيط : ٢ / ٤٩٩ و ٥ / ٢٢٦ .

(٣) لمعاد الموسى ، في الظاهرة النحوية بين الفصحى ولهجاتها ، مجلة كلية الآداب بالجامعة الأردنية : ٤م / العددان ١ - ٢ ، ١٩٧٣ .

- حمدت فعلة (فعلهو) .
 - ليس موقفه (موقفهو) مشرفاً .
 - دافعت عنه (عنهو) .
 - ألم به (بهو) مَرَضٌ شديداً .
 - ليس عَليته (عليهو) حرج .
- وقرؤوا عليه : " فحسبنا بهو وبار هو الأرض ^(١) ، وقرئت (عليهم) في فاتحة الكتاب (عليهمو) ^(٢) وهي قراءة أهل المدينة .

الوجه الثالث : وهو لقريش وجمهرة من فصحاء اليمن ، يضمون الهاء إذا كانت مسبوقة بياء ساكنة أو كسرة ، إضافة إلى إجرائها على الأصل ، فيقولون : نزل عليه الذكر ، وعليهم وعليهن ولا ريب فيه ^(٣) .

الوجه الرابع : وهو إسكان الهاء ، ولكنه لغة قليلة قرئ بها : (إن الإنسان لرببة لكنود) ^(٤) .

الوجه الخامس : وهو منسوب إلى بني تغلب ، يقولون : منهم ، وقال أبو حيان : " وما أدري هل يطردون ذلك في نحو مينة ومنهما ومنهن . وقال الفراء : هي لغة منمومة " ^(٥) .

وقد اختارت العربية الفصحى من هذه الوجوه أوسطها ، وهو ما يجري على لهجة أهل نجد من بني تميم وكيس وأسد ، وذلك بإلزامها الضم ما لم تسبق بكسرة أو ياء ساكنة . وواضح أن انتقاء هذا الوجه ، إنما هو مراعاة للانسجام الصوتي وتيسير النطق ؛ ذلك أن الانتقال من

(١) سيرته : ٢٩٣ - ٢٩٤ ، والمقضب : ٣٦ - ٣٧ ، ومعان القرآن للفراء : ١ / ٥ - ٦ . ومعان القرآن للأخفش : ٢٦ / ١ .

(٢) ابن خالويه ، المحجة في القراءات السبع : ٢٦ .

(٣) ارتشاف الضرب : ٢ / ٩١٧ .

(٤) مع اصراع : ١ / ٢٠٢ .

(٥) ارتشاف الضرب : ٢ / ٩١٧ - ٩١٨ .

فتح إلى ضم أيسر وأسهل ، والانتقال من ضم إلى ضم غاية الانسجام والتوافق ، إذ لا تتكلف أعضاء النطق جهداً في الانتقال من حيز إلى حيز . وإذا كان الانسجام الصوتي حليف الفصحى فإن الاطراد على هيئة واحدة حليف اللهجة الحجازية ؛ فهي تُجرى الضمير على سمت واحد دون أن يتأثر بما قبله من الأصوات .

ويتصل بالضمير المفرد (هـ) بسبب وثيق ضمير الجمع (هُم) ، والأصل فيه أن يجري مجرى المفرد ، فتضم الهاء ما لم تسبق بكسرة أو ياء ساكنة فنقول : سَيَقَهُمْ وَيَبِيئُهُمْ وَعَلَيْهِمْ وَبِهِمْ وَعَنْهُمْ . ولكننا نرد على ظاهرة منسوبة ومأنوسة تخرج على هذا التحقيق الفصيح ، وهذا التحقيق معروف بالوهم .

ومفاده كسر الهاء مطلقاً ، والوهم في ربيعة على التعيين ، قال سيبويه : " واعلم أن قوماً من ربيعة يقولون : مِنْهُمْ ، أتبعوها الكسرة ولم يكن المسكن حافظاً حصيناً عندهم ، وهذه لغة رديئة ، إذا فصلت بين الهاء وكسرة ، فالزم الأصل ؛ لأنك قد تجري على الأصل ولا حاجز بينهما ، فإذا تراخت وكان بينهما حاجز لم تلتق المشابهة " (١) .
وقد نسبها السيوطي عن الفراء إلى كُتُب (٢) .

أما الضمير (كَمْ) فإنه يلتزم في الفصحى وجهاً واحداً حَسْب ، هو ضم الكاف بصرف النظر عما يسبقه من حركة ، غير أنه ورد عن العرب كسرها إذا سبقت بياء ساكنة أو كسرة ، وهذه الظاهرة تعرف بالوكْم وهي في بكر بن وائل . قال سيبويه : " وقال ناس من بكر بن وائل : من أحلامكم ، وبكم ، شبهها بالهاء ؛ لأنها على إضمار ، وقد وقعت بعد الكسرة ، فأتبع الكسرة الكسرة حيث كانت حرف إضمار ، وكان أخف عليهم من أن يضم بعد أن يكسر وهي رديئة جداً " (٣) .

(١) الكتاب : ٤ / ١٩٦ .

(٢) الزهر : ١ / ٢٢٢ .

(٣) الكتاب : ٤ / ١٩٧ . والمقضب : ١ / ٤٠٤ - ٤٠٥ . والزهر : ١ / ٢٢٢ .

وبالرغم مما وُصِفَتْ به هذه اللهجة وسابقتها من القبح والذم ، فهي تبقى لهجة مُفضية إلى الإيصال والتفاهم ، وهي جارية على قياس لهجة بعينها ، لا تفارقه ، وهي مقيسة على الضمير (هُم) فأجروها مجراه وهم بذلك يلتمسون للهجتهم الانتظام والاتساق على رفض الفصحى لها .

وهذا التباين في حركات الضمائر ، واضح لأسباب جليها ، فهو نتاج الاختلافات اللهجية المستعملة وتصرف كل لهجة منها على قياس خاص بها . ولكن تبقى عوامل لغوية أو غير لغوية تصطفي صورة أو قياساً ما ، فتقويه على ما سواه وتحفظ له المكانة الراقية . قد يكون من ذلك كثرة الاستعمال وجريان الأسنة على النطق بذاك الوجه .

الفصل الثالث

التباين في البنية الصرْفِيَّة

- المَبْحَثُ الأوَّلُ : في أبنية الأفعال :

- فَعَلْتُ و أَفَعَلْتُ

- فَعَلَ لازماً ومتعدياً

- فَعَلَ و فَعَّلَ

- ما كان بالواو والياء من المعتل

- المبحث الثاني : في أبنية الأسماء :

- أبنية متفرقة .

- اسم المفعول من الثلاثي معتل العين .

- بناء (فَعْلَةٌ) جَمَعَ مؤنث سالماً .

- أبنية مصدر الثلاثي .

- المبحث الثالث : في الفصائل النحوية :

- فصيلة الجنس .

- فصيلة العدد (المَفْرَدُ والمُتَنَّى والمَجْمُوع)

المبحث الأول في أبنية الأفعال

سعى اللغويون العرب ، منذ قرروا تعويد اللغة وضبط ظواهرها ورصد أمثلتها إلى ضبط أبنية الكلام ضبطاً كلياً ، تتحصّل به معرفة أبنية الأسماء من الأفعال ، وما يتفرّد به كل منهما من الآخر ، وما يشتركان فيه على قلته .

فكان أن أرسوا بناء الثلاثي المجرد في العربية على ثلاثة أوزان لا يخرج عليها ولا تتجاوزها ، هي : فَعَلَ وَفَعِلَ وَفَعُلَ ، وميّزوا بين لازم الصيغتين الأوليين ومتعديهما . ثم رصدوا صيغ المضارع من هذه الأفعال فوجدوها :

- فَعَلَ يَفْعِلُ وَفَعَلَ يَفْعُلُ وَفَعَلَ يَفْعَلُ .
- فَعِلَ يَفْعَلُ وَفَعِلَ يَفْعُلُ .
- فَعُلَ يَفْعَلُ .

تتفاوت هذه الأبنية قوة في القياس ، وكثرة في السماع .

ثم تجاوزوا هذه المرحلة ، فسعوا إلى توصيف الزيادات التي تُدَاخِلُ الأبنية ، وما تُحدثه من حالات حادثة تقتضيها الزيادة ، فوقفوا على الهزمة فوجدوها تدل على التعدية والسلب والاستحاق وغير ذلك ، ثم نظروا في التضعيف فوجدوا فيه تكثيراً ومبالغة وإزالة وتعدية ، ونظروا في الألف والسين والتاء فوجدوها تشي بالطلب حقيقة أو مجازاً ، وكذا بقيّة حروف الزيادة .

وإذا كان قد استقام للغويين العرب أن الزيادة في البنية الصرفية للفعل تنقله من معنى دلالي إلى آخر ، ومن وظيفة نحوية إلى وظيفة أخرى . فإنهم قد وردوا على كثير من حالات تعدد المبنى على توحد المعنى ؛ فحاولوا رصد هذا التباين ، واستبطنوه لمعرفة علله وأسبابه . وهذا المبحث محاولة لرصد بعض وجوه التباين في أبنية الأفعال معنى ووظيفة ، وفيه أربع ظواهر ، هي :

- فَعَلْتُ وَأَفْعَلْتُ عَلَى تَوْحُّدِ الْمَعْنَى وَالْوِظْفِيَّةِ النَّحْوِيَّةِ .

- فَعَلَ لازماً ومتعدياً (فَعَلَ الشَّيْءَ وَفَعَلَ غَيْرَهُ) .
- فَعَلَ وَفَعَّلَ على معنى واحد .
- ما كان بالواو والياء من المعتل .

• أولاً : فَعَّلْتُ وَأَفَعَّلْتُ :

ميّزت العربية بين الأفعال من حيث أثر خصائصها الصرفية في التركيب الجُملي الذي تنتظم فيه ، فحددت حدود عملها وضوابطه ، من حيث اقتضاؤها عناصر تركيبية أخرى ، لا تستقيم لها وظيفتها دونها . من ذلك أن الفعل اللازم يتوقف اقتضاؤه عند حدود الفاعل ، فلا يتجاوزها ولا يتعداه إلى غيره من عناصر التركيب الأساسية (نسئلي الفضلات) . فإذا تَعَدَّى للفعل اتسعت دائرة اختصاصه ، وتعددت مقتضياته ، فاحتاج إلى مفعول به أو أكثر حسب ما يقتضيه .

وقد استعانت العربية بأدوات شكلية لنقل الأفعال من حالة اللزوم إلى حالة التعدّي ، وأضافت إلى أبنيتها عناصر جديدة أضفت على هذه الأفعال شرعية التعدّي إلى مفعول أو أكثر ، من هذه الأدوات حرف الهمزة والتضعيف وغيرهما .

وسياق مقالنا هنا مختص بنقل وزن (فَعَلَ) من اللزوم إلى التعدّي ، أو من التعدّي إلى مفعول إلى التعدّي إلى مفعولين ، فمن سنن العربية إضافة الهمزة لوزن (فَعَلَ) لتعديته ، كما في المثالين :

- هَلَكَ الزَّرْعُ ← أَهْلَكَتِ الرِّيحُ الزَّرْعَ .

فعل فاعل ← فعل فاعل مفعول به

- خَرَجَ سَعِيدٌ ← أَخْرَجَ أَحْمَدُ سَعِيداً .

فعل فاعل ← فعل فاعل مفعول به

وهذا ناموس اللغة ، وأصل القاعدة والقياس ، أن تَعْمَلَ الهمزة في الفعل التعدّي . غير أننا نرد على ظاهرة في الصرف العربي لافتة ؛ وإنما سمتها بالظاهرة لأنها ترقى إلى مرتبتها شيوعاً واستعمالاً . ومفادها أن العرب استخدمت صيغتين للدلالة على هيئة من الفعل واحدة

الفصل الثالث

التباين في البنية الصَّرْفِيَّة

- المَبْحَثُ الأول : في أبنية الأفعال :

- فَعَلْتُ و أَفَعَلْتُ

- فَعَلَ لارماً ومتعدياً

- فَعَلَ و فَعَّلَ

- ما كان بالواو والياء من المعتل

- المبحث الثاني : في أبنية الأسماء :

- أبنية متفرقة .

- اسم المفعول من الثلاثي معتل العين .

- بناء (فَعَلَةٌ) جَمَعَ مؤنث سالماً .

- أبنية مصدر الثلاثي .

- المبحث الثالث : في الفصائل النحوية :

- فصيلة الجنس .

- فصيلة العدد (المُفْرَد و المُتَنَّى و المَجْمُوع)

فاستخدموا صيغتي (فَعَلَ و أَفْعَلَ) للدلالة على اللزوم ، فلا يُعملون الهمزة في التعدية ، وكان من شيوع هذه الظاهرة أن توفّر على التأليف فيها جلة من العلماء منهم : قُطْرِبُ والقراء وأبو حاتم السُّجستاني^(١) ، إضافة إلى فصول موزعة في مظان متعددة .

وقد انتهى إلى مسامع اللغويين كثير من هذه الأفعال على صورتين بنائيتين مع اشتراكهما في اللزوم أو التعددي . فرصدها ودونها وعلقوا على ما يجوز منها وما لا يجوز ، فكان مما أورده ، المثل التالية^(٢) :

| أَفْعَلَ | فَعَلَ |
|-------------------------------|----------------------------|
| أَجَدُّ لهُوَ جَادٌ وَمُجَدُّ | جَذَّ فُلَانٌ لِي أَمْرَهُ |
| أَضَاءَ | ضَاءَ الْقَمَرُ |
| أَوْحَى | وَحَى |
| أَوْمَأَ | وَمَأَ |
| أَطْلَعْتُ | طَلَعْتُ عَلَى الْقَوْمِ |
| أَخْلَقَ | خَلَقَ |
| أَعْصَفَتِ | عَصَفَتِ الرِّيحُ |
| أَسْرَى | سَرَى |
| أَقْتَرَّ | قَتَرَ الرَّجُلُ |
| أَقْبَلَ | قَبَلَ |
| أَنْبَرَ | نَبَرَ |
| أَصَلَّ | صَلَّ اللَّحْمُ |

^(١) مقدمة (فعلت وأفعلت) للسحان ، بتحقيق : خليل العتية ، ص : ٧١ .

^(٢) وردت هذه الأمثلة مجتمعة أو مشرقة في : أدب الكاتب : ٤٣٣ - ٤٤٢ . وفعلت وأفعلت للسحان . وسيوره : ٦٠ / ٤ . وتراثر
 أو مسجل الأعراب : ١٠ - ١١ و ٦٣ - ٦٩ و ٨٤ . ومعاني القرآن للأخفش : ٤٢٢ / ٢ . والغريب المصنف : ٥٦٧ - ٥٨٦ .
 والفرق بين الحروف الخمسة : ٣٨٩ ، ٤١٨ ، ٥١٤ ، ٥٥٦ ، ٥٤٩ . وأما في القالي : ٣٥٧ / ١ و ٥٨٦ / ٢ و ٨٣٤ . و٤٣٥
 نعلب / ٢ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٦٨ . ومعاني القرآن للقراء : ١٥٣ / ١ ، ٣٩٢ ، ٧٨ / ٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ . والمجرد / ١ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٨٨ ،
 ٩٠ . والمحصص : ٤ : ١٥ / ٣٣٩ - ٣٥٥ . والزهر / ١ : ٣٨٤ - ٣٨٦ .

| | |
|------------------------|--------------------------|
| بَكَرَ | أَبْكَرَ |
| غَثَّ | أَغَثَّ |
| جَنَّ اللَّيْلَ | أَجَنَّ اللَّيْلَ |
| غَمَّقَ | أَغَمَّقَ |
| هَضَا | أَهَضَى |
| عَطَشَ | أَعَطَشَ |
| تَرَى الرَّجُلَ | أَثْرَى الرَّجُلَ |
| سَلَكْتَهُ | أَسَلَكْتَهُ |
| فَرَزْتُ الشَّيْءَ | أَفَرَزْتَهُ |
| صَنَنْتُ الرَّجُلَ | أَصَدَدْتَهُ |
| بَدَأَ اللهُ الْخَلْقَ | أَبْدَأَ اللهُ الْخَلْقَ |
| هَلَكْتُ الشَّيْءَ | أَهْلَأْتَهُ |
| عَمَدْتُ السَّيْفَ | أَعَمَدْتَهُ |
| صَوَّرَ أَذْيَهُ | أَصَوَّرَ أَذْيَهُ |

وكان ينبغي أن تكتسب هذه الأبنية عناصر تركيبية جديدة ، تستدعيها الهمزة الداخلة على بنية الفعل ، وذلك على النحو الآتي :

دَخَلَ مُحَمَّدٌ ← أَدْخَلَ عَلِيٌّ مُحَمَّدًا
فعل فاعل ← فعل فاعل مفعول به

قَرَأَ عَلِيٌّ الدَّرْسَ ← أَقْرَأَ خَالِدٌ عَلِيًّا الدَّرْسَ
فعل فاعل مفعول به ← فعل فاعل م. به أول م. به ثان

ولكنها جاءت مزيدة على معنى المجرد ، فقالوا :

خَلَقَ الثَّوْبُ ← خَلَقَ الثَّوْبُ
 فعل فاعل ← فعل فاعل

وهذا مؤرد يستحق التبصُّر ورجع النظر ؛ بحثاً عن رصده وتبيين أسبابه . ولكن شيوع هذه الظاهرة يبعث على الاطمئنان ؛ لما في تعرفها من سهولة وانتظام ، وذلك أن كثيراً من أسئلتها الحاضرة قد وردت منسوبة إلى قبائل على التعيين ، ومن هذه الألفاظ المنسوبة ، الأمثلة التالية :

- روى السجستاني عن الأصمعي : يقول أكثر العرب : كَنَنْتُ الدُّرَّةَ والجارية وكل شيء : صَنَنْتَهُ وأكَنَنْتُ الحديث في نفسي إذا أَخْفَيْتَهُ . وفي القرآن : « كأنهم لؤلؤ يعلنون » ^(١) من كَنَنْتُ ، وقال - جلَّ ثناؤه - : « وربك يعلم ما تُكِنُّ صدورهم وما يعلنون » ^(٢) . وسمعت أبا زيد يقول : أهل نجد يقولون : أَكَنَنْتُ اللؤلؤةَ والجاريةَ فهي مُكَنَّةٌ ، وكَنَنْتُ الحديث وكلَّ صواب " ^(٣) .

- قال الأصمعي : فَتَنَّتُ الرجل وأنا أَفْتِنُهُ وأنا فَاتِنٌ وهو مَفْتُونٌ ، ولا يقال أَفْتَنْتُهُ وقال أبو زيد : أَفْتَنْتَهُ لغة تميم ^(٤) . وفي معاني القرآن : فَتَنَ للحجاز وَأَفْتَنَ لتميم وربيعه وأهل نجد ^(٥) .

- يقال : نَزَقَتِ العَبْرَةُ وَأَنْزَقَتْها لغتان معروفتان . وتميم تقول : أَنْزَقْتُ العَبْرَةَ وهي مُنْزَقَةٌ . وقيس تقول نَزَقْتُ العَبْرَةَ ونَزَفْتُ ماء البئر وهو مَنْزُوفٌ ^(٦) .

- جَنَّبْتُ الشيءَ أَجْنَبُهُ جُنُوباً . وتميم تقول : أَجْنَبْتُهُ إِجْنَاباً ، أي نَحَيْتُهُ عن الشيء ^(٧) .

(١) سورة الطور ، آية : ٥٢ .

(٢) سورة القصص ، آية : ٦٩ .

(٣) أبو حاتم السجستاني ، فعلت وأفعلت : ٨٨ ، ومعاني القرآن للأخفش : ٢ / ٢٨٠ .

(٤) المصدر السابق : ٩٩ . واللسان (قن) .

(٥) الفراء : ٢ / ٣٩٤ ، والبيان : ٣ / ٣٠٨ .

(٦) السجستاني : ١٠٣ - ١٠٤ .

(٧) معاني القرآن للفراء : ٢ / ٧٨ . والمخضب : ١ / ٣٦٥ . واللسان : حجب .

- أراب بمعنى راب وهي لغة هذيل . قال خالد بن زهير الهذلي :
 كأنما أربته بريب (١) .
- سرى ليلاً وأسرى بمعنى واحد ، وبالألف لغة الحجاز (٢) .
- جُنَّ عليه اللَّيْلُ ، وجُنَّه وأجُنَّه ، وكل ذلك مسموع . فلفه أسد جُنَّه اللَّيْلُ ، ولغة تميم
 أجُنَّ (٣) .
- لغة أهل الحجاز حَرَمَ الرجل فهو حرام ، إذا صار مُحَرَمًا ، وقوم حُرْمٌ ، وتميم
 وأسد يقولون : أحرَمَ فهو مُحَرَمٌ (٤) .
- سَحَتَ يَسْحَتُ ، لغة أهل الحجاز ، ولغة تميم ونجد أسْحَتَ يَسْحَتُ إسْحَاتًا (٥) .
 وبها قرأ الكوفيون : « فَيَسْحَتُكُمْ بِعَذَابٍ » ومنه قول الفرزدق (٦) :
 وعضُ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ
 مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مَجْلَفًا
- تميم تقول : خلا فلان على اللبن وعلى اللحم ؛ إذا لم يأكل معه شيئاً ولا
 خلطه ، وكنانة وقيس يقولون : أخلَى فلان على اللبن واللحم (٧) .
- تميم تقول : هَلَكَةُ يَهْلِكُهُ هَلَكًا ، بمعنى أهْلَكُهُ (٨) .
- العرب تقول : مَضَّنِي الأمر وتميم تقول : أَمْضَّنِي (٩) .
- مَرَجٌ ، وأمرج لغة نجدية (١٠) .

وهذه مثل قصد بها التمثيل لا الحصر ؛ لأن ما ورد من هذا الباب كثير ، وربما كانت
 كثرتة عامل ضبط في رصد أسبابه .

-
- ١ (اللسان والصاحح : ريب .
 ٢ (إعراب ثلاثين سورة من القرآن : ٧٤ . واللسان : سرى . والكامل للمبرد : ١٣٧ / ١ . ومعان القرآن للقراء : ٢٢٢-٢٢٣ .
 ٣ (البيان : ١٨١ / ٤ .
 ٤ (المصدر نفسه : ٤٢٣ / ٣ .
 ٥ (البحر المحيط : ٢٤٤ / ٦ .
 ٦ (الشُّرْ : ٣٢٠ / ٢ . والألصاف : ٤٧٨ / ٢ .
 ٧ (اللسان : حلا .
 ٨ (اللسان : هلك .
 ٩ (اللسان : مضض .
 ١٠ (البحر المحيط : ٤٧٨ / ٦ .

ولا يقف الأمر عند حدود النسبة الصريحة ؛ بل يتعدى ذلك إلى إطلاق تعميم مفاده السكوت عن هذه النسبة ؛ لأن هذا معروف ومشهور . ولو نظرنا في كتاب السجستاني لوجدناه يورد صورتين مُذْثَلًا ذلك بحكم إطلاقي يدل على شهرتهما وانتشارهما . ومما أورده السجستاني عن الأصمعي :

- يَنْعَتُ الْفَاكِهِةَ فِيهِ يَانَعَةٌ ، وَأَيْنَعَتْ لَهَا مَوْنَعَةٌ . يُقَالَانِ جَمِيعًا وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ (١) .
- أَعْصَفَتِ الرِّيحُ وَعَصَفَتْ لَفْتَانِ مَعْرُوفَتَانِ ، وَرِيحٌ عَاصِفٌ وَمُعْصِفٌ (٢) .
- مَرَّتْ بِالْقَوْمِ وَأَسْرِيَتْ ، لَفْتَانِ مَعْرُوفَتَانِ (٣) .
- سَحَتَهُ اللهُ وَأَسْحَتَهُ اللهُ ، إِذَا اسْتَأْصَلَهُ ، لَفْتَانِ مَعْرُوفَتَانِ جَيِّدَتَانِ (٤) .

ويبدو أن نسبة إحدى الصورتين عامل مساعد في رد هذا التباين إلى أصوله ، وأن ما ورد غير منسوب ، ولكنه مذئَلٌ بعبارات تدل على الشبوع عُلِّمَ على شهرة الوجهين ودورانتهما في المستوى اللغوي المنطوق الذي اعتمد عليه الرواة واللغويون في تدوين اللغة ورصدها ظواهرها وضبط قواعدها .

ومعلوم أن التباين في هذه البنية الصرفية كبير ، حتى رقي إلى مرتبة الظاهرة اللغوية التي تخرج على قياس اللغة وقوانينها ، وما تعرف عليه بين أبنائها ، وهي ظاهرة جديدة بالاهتمام ؛ لأنها وقائع لغوية واقعية ، رويت على هيئتها المنطوقة شعراً ونثراً وقراءةً وأحاديث يومية . وكانت حقيقةً بإثارة موجة من التساؤلات القائمة في بحثها عن إجابة ، فكان مألوفاً أن يفضي التباين في الأداء إلى تباين في التفسير والتعليل ، وهذا ما كان .

وقد تراوحت طروحات اللغويين وأراؤهم بين التشدُّد والتساهل فمنهم من قبل ذلك ، ومنهم من رفضه .

(١) نعت وأُنعت : ٩٠ .

(٢) نعت : ٩٥ .

(٣) نعت : ١٠١ .

(٤) نعت : ١٣٢ .

فقد روي عن " ثعلب " قوله : " أجمعوا على أن أكثر الناس كلهم رواية وأوسعهم علماً الكسائي ، وكان يقول : قلماً سمعت في شيء فَعَلْتُ إلا وقد سمعت فيه أَفَعَلْتُ " (١) .

والكسائي يعبر عن رأي الكوفيين ، وورد عن البصريين أنهم ردوا كثيراً مما ورد من الصيغتين (٢) . وهذا موقف فيه تساهل وتجاوز كبيران في قبول الصيغة المجردة والمزيدة ، وهو مُسَوِّغ بالاستعمال والسماع من العرب .

وعلى النقيض من ذلك ، يقف ابن خالويه ، فقد أنكر أن يتفق (فَعَلَ و أَفَعَلَ) في المعنى ؛ " لأن جميع كلام العرب أن يقال : فَعَلَ الشيءُ وأَفَعَلَهُ غيرهُ ، مثل : جلس زيد وأجَلَسَهُ غيرهُ " (٣) . وهذا الرأي قائم على قياس الفصحى ، وليس على المسموع . وجميع الأمثلة التي أوردوها مسموعة عن العرب ، غير مقبولة .

وبالرغم من هذا التباين على مستوى النظر والتعليل ، تبقى هذه المثل واقعا لغوياً ملموساً ، فكيف يمكن التعامل معه وصفيًا ؟ وما وجه القول في أسباب هذا التباين ؟

الراجع عندي أن هذا التباين محمول على التباين اللهجي ، إذ تستخدم لهجة (مجموعة لهجية) صيغة (فَعَلَ) متعدية ولازمة على هيئة من البناء واحدة ، فتكون البنية الواحدة مسرة متعدية وأخرى لازمة . وتستخدم مجموعة لهجية أخرى ، وزن (أفعل) مرة على التعددي ومرة على اللزوم . فاختلفت المجموعتان ، وسقطت إلى أسنة هؤلاء وهؤلاء ، فتركبت الصورة الفصحى ، التي اصطلقت من إحدى المجموعتين اللزوم ، ومن الأخرى التعددي ، فاستوت على هيئتها المعروفة .

وهذا الرأي قائم على تصور مُعَيَّن ، وإجالة النظر في المصادر اللغوية تقفنا على آراء صريحة في هذا الباب . فقد روي عن الخليل قوله : " وقد يجيء فَعَلْتُ وأفَعَلْتُ المعنى فيهما

(١) الزهر : ٤٠٧/٢ .

(٢) في تفصيل هذا ، انظر : مقدمة (فَعَلَ وأفَعَلَ) للسحستان .

(٣) ليس في كلام العرب ، ص : ٢٥ .

واحد ، إلا أن اللغتين اختلفتا ؛ فيجيء به قوم على فَعَلْتُ ، ويلحق قوم فيه الألف ، فيبنونه على أفعلت^(١) .

وقال ابن درُستويه : " لا يكون فعل والعمل بمعنى واحد كما لم يكونا على بناء واحد ؛ إلا أن يجيء ذلك في لغتين مُختلفتين ، فأما من لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمبنى واحد كما يظن كثير من اللغويين والنحويين ، وإنما سمعوا العرب تتكلم على طباعها وما في نفوسها من معانيها وعلى ما جرت به عاداتها وتعارفها ولم يعرف السامعون العلة والفرق ، فظنوا أنهما بمعنى واحد ، وتأولوا على العرب هذا التأويل من ذات أنفسهم ... وليس يجيء شيء من هذا إلا على لغتين متباينتين كما بينا ، أو يكون على معنيين مختلفين " (٢) .

وقال ابن سيده : " وقد يكون فَعَلْتُ وَأَفَعَلْتُ بمعنى واحد ، كأن كل واحد منهما لغة لقوم ، فتستعمل اللغتان كقولك : قَلْتَه اليسع وأقلته ، وشَقَلَه وأشَقَلَه ، وصَرَ أذنيه وأصر إذا أقامهما " (٣) .

وعلى ذلك فإنه لا مناص من القول بالعامل اللهجي في هذا التباين ؛ إذ ليس مقبولاً القول بقياس قوم لغتهم على قياسين مختلفين ، وإنما لكل قياسه ، ثم اختلط القياسان بالسمع ، فتركبت منهما الصورة الفصحى التي تناهت إلينا على هيئتها المستقرة في الميز بين فَعَلٌ وأفعل.

ومما داخل هذا الباب القول بالحن والخطأ ؛ ذلك أن كثيراً من كتب التصحيح اللغوي قد أوردت باباً أخطأ فيه قوم فاستعملوا " أفعل " مكان " فَعَل " مما لم يسمع عن العرب أو يرد عليه سند . أو أحدثوا العكس فنطقوا (أفعل) منقوصاً همزة . ويأتي في مقدمة هؤلاء " ابن السكيت " الذي رصد طائفة من المثل مما يتكلم فيه فعلت مما تغلط فيه العامة فيتكلمون بأفعلت ، ومما يتكلم فيه بأفعلت مما يتكلم فيه العامة فيتكلمون بفعلت (٤) .

(١) سيوه : ٦٠ / ٤ .

(٢) الزهر : ٣٨٤ / ١ .

(٣) المحصص : ٤ : ٤ / ٣٠٥ .

(٤) إصلاح المنطق : ٢٥٢ - ٢٥٤ .

ومن ذلك ما ذكره ابن مكي الصنقلبي مما غيرته العامة من الأفعال بالزيادة كقولهم :
أنحسه الله والصواب نحسه الله بغير ألف . ومما غيروه من الأفعال بالنقص ، كقولهم : عقت
الدابة والصواب أعقت (١) .

وذكر السيوطي ما فيه لغة واحدة إلا أن المؤلدين غيروا ؛ فصارت أسنتهم بالخطأ
جارية نحو قولهم : أصزف الله عنك كذا ، والصواب صزف (٢) .

• ثانياً : فعل لازماً ومتعدياً (فعل الشيءُ وفعلهُ غيره) :

ونرد من باب (فعل) على ما كان على هيئته دون زيادة ، فيكون لازماً ومتعدياً ، من
ذلك (٣) :

| المتعدي | اللازم |
|---------------------|--------------------|
| هَجَمْتُ عليهم زيدا | هَجَمْتُ على القوم |
| دَلَع الرجلُ لسانه | دَلَع لسان الرجل |
| فَغَرَ الرجلُ فمه | فَغَرَ فم الرجل |
| جَبَر الرجلُ يده | جَبَرَتِ اليدُ |
| هَذَرْتُ دم الرجل | هَذَرَ دم الرجل |
| رَجَعْتُ الشيءَ | رَجَعَ الشيءُ |
| مَدَّهُ نهرٌ آخر | مَدَّ النهر |
| سَرَحْتُ الماشيةَ | سَرَحَتِ الماشيةُ |
| هَجَتِ الماشيةَ | هاجَتِ الماشيةُ |
| وَقَرْتُ المالَ | وَقَرَ المالُ |
| خَسَفْتُ المكانَ | خَسَفَ المكانُ |

(١) تنقيح اللسان : ١٥٢ - ١٥٤ .

(٢) الزهر : ١ / ٢٦٠ .

(٣) وردت هذه الأمثلة مجموعة أو متفرقة في مصادر كثيرة منها : سيويه : ٥ / ٥٨ . وأدب الكاتب : ٤٥٤ . والغريب المصنف :

٥٩٣ / ٢ . والزهر : ٢ / ٢٣٦ . والمخصص : ٤ : ١٤ / ٣٩٠ - ٣٩١ . والبيان : ١ / ١٨٢ .

| | |
|-------------|-------------|
| زادت الشيء | زاد الشيء |
| خسأت الكلب | خسأ الكلب |
| أضأت النار | أضاءت النار |
| ركضت الدابة | ركضت الدابة |
| غضت الماء | غاض الماء |
| نقصت الدرهم | نقص الدرهم |
| نزحت الركبة | نزحت الركبة |
| رفعت البعير | رفع البعير |

ومنه ما كان على (أفعل) لازماً ومتعدياً^(١) أو متعدياً إلى مفعول ومفعولين :

| | |
|------------------|-----------------------------------|
| <u>متعد</u> | <u>لازم / متعد إلى مفعول واحد</u> |
| أضأت النار البيت | أضاءت النار |
| أفدت زيدا مالا | أفدت مالا |

• ثالثاً : فَعَّلَ و فَعَّلَ :

ومنه أيضاً ما جاء على فَعَّلْتُ و فَعَّلْتُ بمعنى واحد^(٢) :

| | |
|------------------|------------------|
| <u>فَعَّلْتُ</u> | <u>فَعَّلْتُ</u> |
| سَطَّرْتُ الكتاب | سَطَّرْتُ الكتاب |
| نَمَّطْتُ الكلام | نَمَّطْتُ الكلام |
| نَقَّشْتُ الجدار | نَقَّشْتُ الجدار |
| رَقَّشْتُ | رَقَّشْتُ |

(١) أدب الكاتب : ٤٥٣ .

(٢) أبو محل الأعراب ، النوادر : ٨٥ / ١ .

وليس هذا التباين من باب التعدي واللزوم ، إنما هو من باب الدلالة ، ذلك أن التضعيف يزيد المعنى ويضاعفه ، فيكون أكثر مما هو في الأصل غير مضاعف . وهذه الأمثلة استوت فيها الدلالة ، فلا مفاضلة ولا زيادة في المعنى . ولا أحسب أن هذا الباب يخرج عن تداخل اللغات وتركيبها ، قوم يستخدمون الصيغة المجردة ، وقوم يستخدمون المزيدة بالتضعيف ثم التقت اللغتان على معنى واحد ، فانتهدت إلى الرواة واللغويين على هيئتها المتداخلة ، فدونها وأثبتوها دون نسبة أو تعيين .

* رابعاً : ما كان بالواو والياء من المعتل :

وأساس هذا الباب أن يختلف الفعلان في حرف العلة عيناً كان أو لاماً ، فمصره يكون بالواو وثانية يكون بالياء . ولا يقف عند هذا الحد بل يتعداه إلى الاشتقاقات الأخرى ، فنجد المصدر ، اسم المفعول بالياء وبالواو إذا كانت اللام حرف علة . وفيما يلي مُثَلٌّ لذلك ^(١) :

| الواوي | اليائي |
|------------------|------------------|
| توهت الرجل | تَيْهت الرجل |
| طوحت | طِيحت |
| ساغ - يسوغ | ساغ - يسيغ |
| فاح المسك - يفوح | فاح المسك - يفيح |
| قُوت - قُوتاً | قُوت - قُوتاً |
| حكوت عنه الكلام | حكيت عنه |
| قلوت رأسه بالسيف | قليت رأسه بالسيف |
| قلوت البئر | قليت |
| عزوته إلى أبيه | عزيتُه |
| محوت - أمحو | محييت - أمحي |
| طغوت | طغيت |

(١) هذه المثل بمجموعة أو مفردة في : إصلاح المنطق : ١٥٣ - ١٥٨ . والنريب المصنف : ٥٢٥ / ٢ و ٦١٩ - ٦٢١ .
وعجالي نعلب : ٥٧٩ / ٢ . وأمال القالي : ٢٠٨ / ٢ . وأدب الكاتب : ٤٧٢ - ٤٧٤ . والنصف : ٥٩١ .
وشرح الشافية : ١٢٧ / ١ - ١٢٨ .

| | |
|-----------|------------------|
| هَذَبْتُ | هَذَبْتُ |
| طَهَيْتُ | طَهَيْتُ |
| عَلَيْتُ | عَلَيْتُ |
| نَقَيْتُ | نَقَيْتُ العظمَ |
| صَغَيْتُ | صَغَيْتُ |
| شَأَيْتُ | شَأَيْتُ القومَ |
| هَيَّرْتُ | هَيَّرْتُ الشيءَ |
| سَلَيْتُ | سَلَيْتُ عنكَ |
| جَبَيْتُ | جَبَيْتُ الخراجَ |
| قَنَيْتُ | قَنَيْتُ الغنمَ |

ومن الأسماء وزن فِعْلَةٌ ، ومنه :

| | |
|-------------------------------------|--------------|
| <u>البياء</u> | <u>الواو</u> |
| حَمِيَّة / لما حميت من طعام أو شراب | حَمْوَةٌ |
| حَفِيَّة | حَفْوَةٌ |
| حَبِيَّة | حَبْوَةٌ |
| وَقْنِيَّة | قَنْوَةٌ |

وهذه المثلُ مجتزأة ، وليست كل ما ورد على هذه الشاكلة ، ومرد هذا التباين إلى الاختلاف في عين المضارع ، فإن من جعل المضارع بالواو جعله من باب (يفعل) ومن جعل المضارع بالياء ، جعله من باب (يفعل) ومثل هذا التباين مردود إلى الاستخدامات المتباينة للمضارع من الثلاثي المجرد . ويغلب أن يكون سببه تَرَكُّبُ اللغات ، ويقوّي ذلك غياب الأبنية المنسوبة . لكننا نقف على مثال أو اثنين مما ورد منسوباً على التعيين .

فقد روي عن الفراء : " ضارّه يضيره . وزعم الكسائي أنه سمع بعض أهل العالفة يقول : لا ینفعلی ذلك ولا یضورنی " (١) . وحكي : " ما أعیج من كلامه بشيء ؛ أي ما أعبأ . وبنو أسد يقولون : ما أعوجُ بكلامه ، أي لا التفت إليه " (٢) . وأهل الحجاز يقولون : الصوّاغ والصّباغ (٣) .

وكان هذا التّارجح بين الواو والياء مظنة لبس ، مما أفضى إلى اللحن ، فجعله بعض الناس قياساً متبعاً ، فأجروا عليه ما كان من الواو بالواو والياء ، فقالوا (٤) :

جَفَيْتَ وَهَكَيْتَ وَغَزَيْتَ وَعَتَيْتَ ، وَهِي بِالْوَاوِ : جَفَوْتُ وَهَجَوْتُ وَغَزَوْتُ وَعَتَوْتُ ، لا تقال بالياء .

١ (إصلاح المنطق : ١٥٣ .

٢ (نفسه : ١٥٤ .

٣ (نفسه : ١٥٥ . وقال ابن جني في شرح التصريف : وأهل الحجاز يقولون للصّباغ الصّباغ : ٣٠١ . وقال الفراء في الآية " وكان عند ربه مرضياً " : ولو أنت مرضوا لكان صواباً وهي لغة أهل الحجاز ، معاني القرآن : ٢ / ١٦٩ - ١٧٠ .

٤ (المصدر السابق : ٢٠٨ - ٢١٠ .

المبحث الثاني في أبنية الأسماء

ثم استقام للغويين العرب معيارهم المجرد في ضبط أبنية الكلم ، فاستعانوا بالميزان الصرفي ، ليكون الضابط في تعرف الأبنية التي تأتي عليها الأفعال والأسماء في العربية ؛ ليكون الميزان الصرفي السبيل إلى معرفة أصولية الكلمة أو عدمها ، فيتعرف بذلك المعرب والدخيل من الألفاظ .

ومع ما بذله اللغويون من طاقة وجهد في ضبط الأبنية ودلالاتها الصرفية ، فإنهم وردوا على كثير من الألفاظ التي وردت على وجوه متعددة ، محمولة على القياس والسماع ، حتى إنهم ألفوا في ذلك كتباً ككتاب " المثلث " للبطلوني .

وسيدرس هذا المبحث الموضوعات التالية :

- أبنية متفرقة .
- اسم المفعول من الثلاثي معتل العين .
- بناء (فعلة) جمع مؤنث سالماً .
- أبنية مصدر الثلاثي .

أولاً : أبنية متفرقة :

يُتَّزُ النظر الفاحص في كتب اللغة والتصريف والمعجمات العربية تبايناً كبيراً في أبنية الأسماء العربية ، إلى حد يصح معه أن نسميه ظاهرة ؛ إذ قلما نجد اسماً جاء على بناء واحد ، بل قد يندر أن يجيء على بنائين . وليس يقصد بهذا التباين ما كان على أبنية مختلفة لدلالات مختلفة وإنما لدلالات متوحدة .

ومما جاء على بنائين متنازحاً بين حركتيهما ، مثل كثيرة أوردتها كتب اللغة والمعجمات والنوادر والأماشي والغريب (١) ، منها (٢) :

- فَعْلَةٌ وَفَعْلَةٌ :

| <u>فَعْلَةٌ</u> | <u>فَعْلَةٌ</u> |
|-----------------|-----------------|
| كُنُوءَةٌ | كِنُوءَةٌ |
| رُشُوءَةٌ | رِشُوءَةٌ |
| نُصُوءَةٌ | نِصُوءَةٌ |
| مُرِيَّةٌ | مِرِيَّةٌ |
| مُنِيَّةٌ | مِرِيَّةٌ |
| نُرُوءَةٌ | نِرُوءَةٌ |

- فَعْلَةٌ وَفَعْلَةٌ :

| <u>فَعْلَةٌ</u> | <u>فَعْلَةٌ</u> |
|-----------------|-----------------|
| خُطُوءَةٌ | خَطُوءَةٌ |
| جُرُوعَةٌ | جَرُوعَةٌ |

١ (أدب الكاتب وإصلاح المنطق والغريب المصنف ونوادر أبي مسهل وغريب الحديث لأبي عبيد وشمس العلوم وتنقيف اللسان والفرق بين الحروف الخمسة ، والمثلث ومواضع كثيرة من اللسان والمحصص والقاموس المحيط وفقه اللغة للنعماني وغيرها كثير .
٢ (هذه الأبنية منتقاة عشوائياً ، لا تعيناً .

| | |
|--------------------|--------------------|
| غُرْقَةٌ | غُرْقَةٌ |
| لُخْمَةُ الثَّوْبِ | لُخْمَةُ الثَّوْبِ |

- فَعْمَالٌ وَفَعْمَالٌ :

| | |
|---------------------------|-------------------|
| <u>فَعْمَالٌ</u> | <u>فَعْمَالٌ</u> |
| صِدَاقٌ | صِدَاقٌ |
| مِخَاضٌ | مِخَاضٌ |
| الرِّضَاعُ ^(١) | الرِّضَاعُ |
| الْقَطَافُ | الْقَطَافُ |
| مِلَاكُ الْأَمْرِ | مِلَاكُ الْأَمْرِ |

- فَعْمَالٌ وَفَعْمَالٌ :

| | |
|------------------|------------------|
| <u>فَعْمَالٌ</u> | <u>فَعْمَالٌ</u> |
| سُورٌ | سُورٌ |
| شُورٌ | شُورٌ |
| الْهِيَامُ | الْهِيَامُ |
| الْجَوَارُ | الْجَوَارُ |
| شُجَاعٌ | شُجَاعٌ |

- مَفْعَالَةٌ وَ مَفْعَالَةٌ :

| | |
|--------------------|--------------------|
| <u>مَفْعَالَةٌ</u> | <u>مَفْعَالَةٌ</u> |
| مَأْكَلَةٌ | مَأْكَلَةٌ |
| مَحْرَمَةٌ | مَحْرَمَةٌ |

١ (وهذه اللفظة من التوارد التي وردت منسوبة ، فقد وردت مؤنثة منسوبة إلى ميم بالكسر . انظر معان القرآن للأخفش : ١ / ١٧٦ .

| | |
|--------|--------|
| مقبّرة | مقبّرة |
| مأثّرة | مأثّرة |
| مزرّعة | مزرّعة |

ومما جاء على ثلاثة أبنية ، تختلف حركة الفاء حسب :
 - فَعْلَانَةٌ بثلاث لغات :

| <u>فَعْلَانَةٌ</u> | <u>فَعْلَانِيَّة</u> | <u>فَعْلَانَةٌ</u> |
|--------------------|----------------------|--------------------|
| حُضْرَةٌ | حِضْرَةٌ | حَضْرَةٌ |
| رُعْوَةٌ | رِغْوَةٌ | رَغْوَةٌ |
| صِفْوَةٌ | صِيفْوَةٌ | صَفْوَةٌ |
| عُشْوَةٌ | عِشْوَةٌ | عَشْوَةٌ |
| رُبْوَةٌ | رِبْوَةٌ | رَبْوَةٌ |
| وَجْنَةٌ | وِجْنَةٌ | وَجْنَةٌ |

- فَعْلَالٌ بثلاث لغات :

| <u>فَعْلَالٌ</u> | <u>فِعْلَالٌ</u> | <u>فَعْلَالٌ</u> |
|------------------|------------------|------------------|
| زُجَالٌ | زِجَالٌ | زَجَالٌ |
| صُؤَالٌ | صِؤَالٌ | صَوَالٌ |
| وُشَالٌ | وِشَالٌ | وَشَالٌ |
| بُرَاءٌ | بِرَاءٌ | بَرَاءٌ |

ومما جاء على أربع لغات :

- العَفْرُ والعَفْرُ والعَفْرُ والعَفْرُ . ولد الحمار .
- عَضْدٌ وعَضْدٌ وعَضْدٌ وعَضْدٌ .
- عَجْزٌ وعَجْزٌ وعَجْزٌ وعَجْزٌ .

- شَغَلَ وشَغَلَ وشَغَلَ .

- رَجِمَ ورَجِمَ ورَجِمَ .

ومما جاء فيه خمس لغات من حروف مختلفة الأبنية :

- الشَّمَال والشَّمَال والشَّمَال والشَّمَال والشَّمَال .

- أْفِرَّة الحرِّ وأْفِرَّة وأْفِرَّة وأْفِرَّة وأْفِرَّة .

ومما جاء فيه سُبِسْتُ لغات :

| | | | | | |
|------------|----------|----------|----------|----------|----------|
| - فُسَطَاط | فُسَطَاط | فُسَطَاط | فُسَطَاط | فُسَطَاط | فُسَطَاط |
| - رَغْوَةٌ | رَغْوَةٌ | رَغْوَةٌ | رَغْوَةٌ | رَغْوَةٌ | رَغْوَةٌ |
| - أَرْزٌ | أَرْزٌ | أَرْزٌ | أَرْزٌ | أَرْزٌ | أَرْزٌ |

وما أكثر ما يأتي البناء الصرفي (للمعنى الصرفي) الواحد على هينات متباينة ، فيأتي على بنائين أو ثلاثة ، وقد تروى في الحرف الواحد (الكلمة) عشر صور أو أكثر . ومن ذلك أن مصدر (لقي) جاء على عشرة أبنية هي : لِقَاء ، لِقَاءة ، وَلَقَى ، وَلِقْيَانة ، وَلَقِيَاء ، وَلَقِيَاء ، وَلَقِيَاءة ، وَلَقِيَاءة ، وَلَقِيَاءة (١) . وكذا القول فيما يتعلق بكلمة أصبغ ، فإنها جاءت على تسع لغات (٢) .

ومما يزيد تعقيد المهمة في البحث عن تأسيس فرق لهجي بين هذه الأبنية ، أننا لا نجد أبنية منسوبة على التعيين بمقدار كافٍ يبسّر لنا استنباط خصائص مائزة ، وأحكام عامة محددة . ولا بد من الإشارة إلى شيء مما ورد منسوباً للنظر فيه ؛ أجل محاولة استنباط حكم ما عن هذه الأبنية .

- يقال للغرفة : المَشْرَبَةُ في لغة الحجاز ، والمَشْرَبَةُ لتميم (٣) .

(١) ليس في كلام العرب : ١٧ .

(٢) الطلبيوسي ، الفرقي : ٥٠٠ .

(٣) أبو محل ، النوادر : ٣٠٧/١ .

- الحَصَاد بالفتح لتميم ، وأهل الحجاز يكسرون (١) .
- رضوان بالكسر لأهل الحجاز ، وغيرهم يضم (٢) .
- يقال : رجل غيور من قوم غير ، وهي لتميم . وقيس يقولون : من قوم غير (٣) .
- الإم : لغة في الأم ، حكاها مسيبويه وقرا حمزة والكسائي : (فلإمه الثلث) ، وكذلك (في إم الكتاب) . قال الكسائي : هي لغة كثير من هوازن وهذيل (٤) .
- يقال : إجانة ... ولغة طيئ إجانة (٥) .
- الوتر والوتر : الفتح لغة أهل الحجاز ، والكسر لغة تميم وأسد وقيس . وقال يونس : أهل العالية يقولون : الوتر في العدد والوتر في الذخل ، وتميم تقول : الوتر في العدد وفي الذخل سواء (٦) .
- الرضاعة ، وهي في كل شيء مفتوحة . وبعض بني تميم تكسرها إذا كانت في الارضاع ، يقولون الرضاعة (٧) .
- مغزل ومغزل ومغزل : تميم تكسر الميم وقيس تضمها ونقل عن ابن الأثير : بالكسر الآلة وبالفتح موضع الغزل وبالضم ما يجعل فيه الغزل (٨) .
- مُصنَح ومُصنَح : الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين ، والكسر والفتح لغة ، قال أبو عبيد : تميم تكسرها وقيس تضمها (٩) .
- أبو زيد : الصرَع لغة قيس والصرَع لغة تميم ، كلاهما مصدر صرعت (١٠) .

١ (النشر : ٢ / ٢٦٦ . والإتلاف : ٢ / ٣٦ .

٢ (البحر المحيط : ٢ / ٣٩٨ . والمزهر : ٢ / ٢٧٦ .

٣ (السابق : ٢ / ٤٥٠ .

٤ (شمس العلوم : ١ / ٥٣ .

٥ (تكواع النمل ، المبرد : ١ / ٦٤ .

٦ (أمالي القالي : ١ / ١٣ و ٢٣٥ .

٧ (الألفاظ ، معاني القرآن : ١ / ١٧٦ . وإصلاح المنطق : ٣٥ - ٣٦ .

٨ (اللسان (غزل) والغريب المصنّف : ٢ / ٥٦٣ . وإصلاح المنطق : ١٣٦ . والمخصص : ٤ : ١٣ / ٣٢٦ .

٩ (اللسان (صحف) وإصلاح المنطق : ١٣٦ ، والمخصص : ٤ : ١٤ / ٣٢٦ .

١٠ (الغريب المصنّف : ٢ / ٥٢٨ . وإصلاح المنطق : ٣٦ .

- أبو زيد : هي الدَّعوة في النسب والدَّعوة في الطعام . هذا أكثر كلام العرب ، إلا عدي الرباب ؛ فإنهم ينصبونها في النَّسَب ويكسرونها في الطعام ^(١) .
- عن بعض بني أسد : يوم الأربعاء بالفتح ، واللغة المعروفة بالكسر ^(٢) .
- أبو غنيدة : تميم من أهل نجد يقولون : نَهَى للغدير ، وغيرهم يقولون : نَهَى ^(٣) .
- الرُّفَع والرُّفَع ، لأصول الفخذين . الفتح لتميم والضم لأهل العالية ^(٤) .
- قال أبو زيد : بنو تميم يقولون : قَمَع وضِلَع . وأهل الحجاز يقولون : قَمَع وضِلَع ^(٥) .
- من العرب من يقول : قَطَعَتْ نِخَاعَهُ ونَخَاعَهُ . وناس من أهل الحجاز يقولون : هو مقطوع النُّخَاع ، للخيط الأبيض في جوف الفقار ^(٦) .
- أهل الحجاز يقولون : سَكَارَى وكُسَالَى وغِيَارَى بالضم ، وبنو تميم يفتحون ^(٧) .

وهذه الأمثلة - على تعددها - تبقى ضئيلة جداً ، ولا يمكن الاعتماد عليها في إطلاق حكم يكون مقبولاً ، بل إن محاولة الاعتماد عليها في استبطان الظاهرة ومحاولة تفسير التباين وفقاً لها يبدو ضرباً من العبث .

ومهما يكن الأمر ، فإنه لا خلاف في أن هذا الباب من التباين هو الأشيع والأكثر ، حتى إنه يغلب التباين الصوتي كثرة وتشعباً وقلة ضبط . ولكن التمعُّن في هذه المثل لن يخرجنا عن تصور عام مفاده التدخل المباشر للعوامل التي أفضت إلى التباين في العربية ، فقد أتاح

(١) الغرب المصنَّف : ٦٦٦ / ٣ .

(٢) السابق : ٣٧ / ١ .

(٣) إصلاح المنطق : ٣٥ .

(٤) السابق : ١٠٣ .

(٥) السابق : ١١١ .

(٦) نفسه : ١٢١ .

(٧) نفسه : ١٤٥ .

الاستعمال الجاري للعربية في امتدادها الزماني والمكاني أن تستقطب أكثر من صورة مستعملة للبنية واحدة ، مع الاحتفاظ بالدلالة .

ولا تكتفي المصادر بإيراد هذه الوجوه التي أفضى إليها التشعب ، وإنما تشير إلى وجه مَندَم قِياساً ، مما يسمح له بالذبوع على حساب الوجوه الأخرى ، ولكن هذا ليس محسوماً ، إذ تبقى الوجوه الأخرى حية في الاستعمال ولو على نطاق ضيق ، وتبقى مادة صالحة لمن يشغلهم قلق البحث في الأصول والفروع من منطلق تاريخي تطوري يسعى لرصد حركة التطور والتغير اللغويين .

وأما منشأ هذا التشعب في الأبنية الصرفية ، فإنه محمول على واحد من الأسباب الآتية :

- تركيب اللغات : وذلك أن لهجة كانت على استعمال بناء ما ، ولهجة أخرى على بناء آخر ، ثم اختلط البناءان بدواعي التجارة والترحل والزواج ، فدرج كلا البنائين في الاستعمال ، وسقطت الأبنية إلى قبائل ولهجات لم تكن على إلف بها ، ولكن دواعي الاتصال بالقبائل الأخرى ألزمتها استخدام هذه الأبنية ولو استخداماً مرهوناً بظروف لغوية محددة . ولما جمع اللغويون مادتهم من الأعراب والبدو لم يميزوا بناء أصيلاً أو حادثاً في لهجاتهم ، فدوّنوه على أنه تباين وتووع جرى به الاستعمال موافقاً للقياس مرة ومفارقاً له أخرى . وهذا هو السبب الراجح والأكثر تأثيراً عندي .

- التطور اللغوي : ومفاده أن بناءً واحداً هو الأساس ، والأبنية الأخرى حادثة بفعل الزمن ، فلما جمعت اللغة سقطت إلى مسامع اللغويين أبنية نادرة أو قليلة فأثبتوها ولم يشيروا إلى ندرتها في الاستعمال أو ضعفها في القياس . ولا يبدو أن هذا العامل مقبول كثيراً ؛ لأنه لا يخضع في غالبه للقوانين التي يصدق عليها التطور اللغوي .

- اللحن : وقد يصح أن عامل الزمن قد حمل اللغة وجوهاً من الأبنية ملحونة ، جرت على السنة قبيلة ما ثم انتقلت هذه اللحنون إلى السنة الأخرى بالتواصل والترحل فسقطت إلى قبائل أخرى ، ولنتشرت الصورة الملحونة إلى جوار الصحيحة ، فورد عليهما اللغويون وأثبتوها .

- ناموس اللغة العربية: وهذا عامل مستبعد بإطلاق؛ لأن العربية تميز الأبنية من بعض، وذلك بتخصيص دلالة محددة لكل بناء - غالباً - ولا يقبل أن تعبر عن معنى واحد بسنة أبنية أو أقل أو أكثر، وإذا صدق هذا العامل، فإنه لا يعدو أمثلة محددة حسب.

ثانياً: اسم المفعول من الثلاثي معتل العين (١):

جرت العربية على صياغة اسم المفعول من الثلاثي على وزن مفعول، بزيادة ميم مفتوحة أولاً وواو بعد عين الفعل، متقطعة إلى التغيرات التي تعقب دخول هذه العناصر الجديدة. وعليه نقول:

| <u>اسم المفعول</u> | <u>الفعل</u> |
|--------------------|--------------|
| مكتوب | كَتَبَ |
| مفهوم | فهِمَ |
| مُوعود | وَعَدَ |
| مَسْرُوق | سَرَقَ |
| مَخْزُون | خَزَنَ |

ثم إننا نرد على أفعال ثلاثية جوفاء، بُني منها اسم المفعول على نحو مُفَارِق - في ظاهره - لما جرى عليه الصحيح، فنقول في اليائي:

| <u>اسم المفعول</u> | <u>الفعل</u> |
|--------------------|--------------|
| مَزِيد | زاد |
| مَبِيع | باع |
| مَدِين | دان |
| مَخْطِيط | خاط |

(١) للفتيل، انظر: سبويه: ٤ / ٣٤٨ - ٣٤٩، وليس في كلام العرب: ٤٨، وشرح الكافية: ٤ / ٢١٤٤. والمتع في التصريف: ٣٠٠ - ٣٠١، وشرح ابن عقيل: ٢ / ٥٢٩، والبحر المحيط: ٨ / ٣٦٤، وارتشاف الضرب: ١ / ٣٠٧ - ٣٠٨، ونزاد: ١ / ٣٦٩، والنصف: ٢٤٦ - ٢٤٩.

ونقول في الواوي :

| اسم المفعول | الفاعل |
|-------------|--------|
| مزور | زار |
| مقول | قال |
| معود | عاد |
| مصون | صان |

وهذا البناء في أصله العميق إنما هو مفعول ؛ لكنّه أوقعنا في محظورات النظام الصوتي للعربية ، أي التقاء الساكنين ، فكان لابد من العدول عن هذا القياس ؛ بحثاً عن الاتساق والاتسجام الصوتي ، فحذفت الواو تحقيقاً لذلك ، فالمثل السابقة إنما هي :

- مزيود ومبيوع ومذيون ومخيوط ومضيود .

- مزور ومقول ومعود ومصون .

ولكن قانون منع التقاء الساكنين أعمل الحذف ؛ ذلك أن حركة الياء وحركة الواو قد نقلتا إلى الحرف الذي قبلهما ، فأورثهما التسكين ، فاجتمع ساكنان : الياء الأصلية وواو مفعول في اليائي ، والواو الأصلية وواو المفعول ، فكان لابد من إزاحة أحدهما ، فأزحج الثاني لأنه زائد وليس أصلاً . وعليه نرصد التحول في البنية الصوتية على النحو الآتي :

باع ← مبيوع ← نقل الحركة ← مبيوع ← حذف الواو ← تغيير الضمة إلى كسرة ← مبيع
قال ← مقول ← نقل الحركة ← مقول ← حذف الواو ← مقول

وهذا التوصيف هو اختيار الفصحى واصطفاؤها ، وهو الوجه ذو الشبوع والكثرة والقياس الأفضح . ولكن يشغب على هذا الاصطفاء وجه سائغ متقبل ، ورد منسوباً إلى قبائل فصيحة ، مفاده الإتمام على أصل الباب دون حذف ، فلا يفرقون بين " كتب وقال " في البناء . وهؤلاء القوم هم بنو تميم . فقد أثر عنهم قولهم :

- مِسْكٌ مَدْوُوفٌ وَثُوبٌ مَضُوءٌ وَبُرٌّ مَكْبُولٌ وَثُوبٌ مَبْيُوعٌ وَبُسْرَةٌ مَطْيُوبَةٌ (١) .
- يقال : مَهَيْلٌ وَمَهْيُولٌ وَمَكْبِيلٌ وَمَكْبُولٌ وَمَدِينٌ وَمَدْيُونٌ ، الإِتِمَامُ فِي ذَوَاتِ الْبَاءِ لُغَةٌ تَمِيمٌ وَالْحَذْفُ لِأَكْثَرِ الْعَرَبِ (٢) .

ثم إنهم اختلفوا في الإِتِمَامِ ، هل يكون في الواوي واليائي على السواء ؟ أم هو مختص بأحدهما دون الآخر ؟ يقول ابن عصفور : " يجوز الإِتِمَامُ فِي مَفْعُولٍ مِنْ ذَوَاتِ الْبَاءِ ، وَهِيَ لُغَةٌ بَنِي سُلَيْمٍ . قَالَ : وَكَأَنَّهَا تَفَاحَةٌ مَطْيُوبَةٌ ، وَقَالَ عُلْقَمَةُ :

حَتَّى تَذَكَّرَ بَيْنَاتٍ وَهَيْجَةً يَوْمَ رَذَاذٍ عَلَيْهِ الرِّيحُ مَغِيومٌ

والإِعْلَالُ أَفْصَحُ .

ولا يجوز الإِتِمَامُ فِي ذَوَاتِ الْوَاوِ إِلَّا فِيمَا سَمِعَ . وَالَّذِي سَمِعَ مِنْ ذَلِكَ : مَسْكٌ مَدْوُوفٌ ، وَالْأَشْهُرُ مَدْوُوفٌ . وَقَالُوا : رَجُلٌ مَعْوُودٌ وَفَرَسٌ مَقْوُودٌ وَثُوبٌ مَضُوءٌ وَقَوْلٌ مَقْوُولٌ ؛ وَإِنَّمَا لَمْ يُجْزِ الإِتِمَامُ فِي مَفْعُولٍ مِنْ ذَوَاتِ الْوَاوِ - إِلَّا فِيمَا شَدَّ - لِأَنَّ الْوَاوِ أَثْقَلُ مِنَ الْبَاءِ . وَخَالَفَ الْمَبْرَدُ كَافَّةَ النَّحْوِيِّينَ ، فَأَجَازَ الإِتِمَامَ فِي ذَوَاتِ الْوَاوِ قِيَاساً عَلَى مَا وَرَدَ مِنْهُ " (٣) .

وقال سيبويه : " ولا نعلمهم أتموا في الواوات ؛ لأن الواو أثقل عليهن من الباءات ، ومنها يفرّون إلى الباء ، فكرهوا اجتماعهما مع الضمة " (٤) .

ثم أعقب هذا التباين في الاستخدام الوظيفي ، تباين في مستوى النظر المنهجي ، والتعديد لهذا السلوك اللغوي ، فاختلف البصريون والكوفيون في تأسيس قواعده ، وفق منهجهم في درس الظواهر اللغوية قياساً وسماعاً . قال أبو حيان : " والإِتِمَامُ فِي ذَوَاتِ الْوَاوِ يُحْفَظُ عَنِ الْبَصْرِيِّينَ وَعَنِ الْكِسَائِيِّ أَنْ بَنِي يَرْبُوعَ وَبَنِي عَقِيلَ يَقُولُونَ : خَلِي مَضُوءٌ وَعَنْبِرٌ مَدْوُوفٌ

١ (ليس في كلام العرب : ٤٨ .

٢ (البحر المحيط : ٣٦٤ / ٨ . وانظر : شرح شواهد الشافية للبغدادي : ٣٨٧ / ٢ - ٣٨٨ .

٣ (المنع : ٣٠٠ ، وشرح الكافية : ٢١٤٣ / ٤ ، وارتشاف الضرب : ٣٠٧ / ١ - ٣٠٨ .

٤ (الكتاب : ٣٤٨ / ٤ - ٣٤٩ . وانظر : شرح الكافية : ٢١٤٤ / ٤ ، وشرح ابن عقيل : ٥٢٩ / ٢ .

وثوب مصوون و فرس مقوود وقول مقوول ، فالظاهر أنها لغة لهؤلاء ، وقاس عليه الكسائي والمبرد في نقل أبي الفتح عنه . وقال المبرد في تصريفه : البصريون لا يقيسون إتمام ذوات الواو في الضرورة ، ويجوز ذلك عندي في الضرورة . وحكى الجوهري أن بعض النحويين يقيسه ، وأن ذلك لغة لبعض العرب . وأما الإدغام في ذوات الياء ونص الجوهري على أنها لغة لبعض العرب مقيسة . وزعم المبرد أنهم إنما ردوه إلى الأصل في الضرورة ولم يجعله قياساً " (١) .

وصفوة ما يقال في هذا التباين أنه مردود إلى اللهجات المتباينة ، ولو نظرنا بمقياس الموازنة بين الهيئة الفصحى لقواعد اسم المفعول واستخدام تميم للباب نفسه ، لوجدنا أن الفصحى تتطوي على حكيمين : الأول خاص بالصحيح والثاني خاص بالمعتل . في حين تضم اللهجة التميمية الصحيح والمعتل في قياس واحد لا تفارقه ، فتوفر لها بذلك الانسجام والتوحد والاطراد أكثر مما كان للفصحى . ولكن قوانين الاستعمال والحمل على الأكثر رفعت الصورة الفصحى - على تشعبها - وأزلت الصورة التميمية منزلة أدنى مع الاعتراف بوجودها وسيرورتها لغة محلية مستخدمة .

ثالثاً : بناء (فَعَلَّة) جمع مؤنث سالماً :

يقتضي الوجه الفصيح في العربية أن يُجَمَّع كل اسم مؤنث ثلاثي ساكن العين سالمها ، على فَعَلَات ، بفتح العين اتباعاً للفاء . قال المبرد : " اعلم أنه ما كان من ذلك اسماً ، فإنك إذا جمعته بالألف والتاء حركت أوسطه ؛ لتكون الحركة عوضاً من الهاء المحذوفة ، وتكون فرقاً بين الاسم والنعته ، وذلك قولك : جَفَنَة : جَفَنَات . صَخَفَة : صَخَفَات ، وكذلك جميع هذا الباب " (٢) . وعليه ، نقول :

| المفرد | الجمع |
|---------|----------|
| جَفَنَة | جَفَنَات |
| جَمْرَة | جَمَرَات |
| عَبْرَة | عَبْرَات |

١ (ارتشاف الضرب : ١ / ٣٠٧ - ٣٠٨ . وقرب من هذا : إصلاح المنطق : ٢٤٨ .

٢ (المقضب : ١٨٦ / ٢ .

| | |
|----------|---------|
| صَفَحَات | صَفْحَة |
| حَسْرَات | حَسْرَة |

فإذا اختلف شرط السلامة (سلامة العين) ، وجب تسكين العين من غير اتباع : فنقول (١) :

| <u>المفرد</u> | <u>الجمع</u> |
|---------------|--------------|
| بيضة | بيضات |
| جوزة | جوزات |
| لوزة | لوزات |
| روضة | روضات |
| عوزة | عوزات |

وهذا ما اصطفته الفصحى ، فجعلت المعتل فرعاً على الصحيح ، فسكنت بعد أن كانت تفتح . ولكننا نرد على صورة أخرى لما كان معتل العين ؛ فقد أثر عن هذيل أنهم يجرونها مجرى الصحيح ؛ فيحركون . قال المبرد : " فاما ما كانت الياء والواو منه موضع العين ، فإن فيه اختلافاً : أما الأكييس والأكثر في لغات جميع العرب ، فإن تقول فسي بيضة : بيضات وفي جوزة : جوزات وفي لوزة : لوزات . أما هذيل بن مذكاة خاصة فيقولون : جوزات وبيضات ولوزات على منهاج غير المعتل " (٢) . ونسب إلى الأنباري قوله : " بنو تميم يقولون : روضات وجوزات وعوزات . وسائر العرب بالإسكان " (٣) . وعلى ذلك يستقيم في هذه اللهجة قولهم :

| <u>المفرد</u> | <u>الجمع</u> |
|---------------|--------------|
| جفنة | جفئات |
| جمرة | جمرات |

(١) المقضب : ١٨٦ / ٢ ، وارتشاف الضرب : ٥٩٢ / ٢ ، وشرح المفصل : ٣٠ / ٥ .

(٢) المقضب : ١٩١ / ٢ ، وارتشاف الضرب : ٥٩٢ / ٢ ، وأسرار العربية الأنباري : ١٨٠ .

(٣) ارتشاف الضرب : ٥٩٢ / ٢ ، والبحر المحيط : ٤٤٩ / ٦ و ٤٧٢ .

| | |
|-----------|----------|
| عَبْرَات | عَبْرَة |
| جَوَزَات | جَوْزَة |
| عَوْرَات | عَوْرَة |
| بَيَّضَات | بَيَّضَة |

وثمة شواهد كثيرة توثق هذه اللهجة . فقد قرئ بها : (ثلاث عَوْرَات لَكُمْ) بفتح الواو (١) . وأنشد على هذا :

أخو بَيَّضَاتِ رَائِحَ مَتَأَوْبُ رَفِيقَ بِمَسْحِ الْمَنَكِبِينَ سَبُوحُ (٢)

ثم إننا ننتقل إلى استثناء يعرض للوجه الفصحى ، مفاده التمييز بين الاسم والنعمت في البناء ، ولا سيما في الصحيح ؛ فإن هذه النعوت لا تكون إلا ساكنة فرقاً بين الاسم والمصدر . وذلك قولك : ضَخْمَةٌ وَضَخْمَاتٌ ، وَعَبْلَةٌ وَعَبْلَاتٌ وَخَذَلَةٌ وَخَذَلَاتٌ (٣) . وذلك في جميع لغات العرب ، هُذَيْلٌ وَغَيْرُهُمْ ، خِلَافاً لِقَطْرَبٍ ، فإنه أجاز النتح في جمع فَعَلَةٌ نحو : صَنَعَاتٌ ، قِيَاساً على ما سُمِعَ مِنْ كَهَلَةٍ وَكَهَلَاتٍ بِالْفَتْحِ وَكَهَلَاتٍ بِالسُّكُونِ أَشْهُرَ (٤) .

إن النظر بعين المقارنة بين الفصحى والهذلية ، يسلّم إلى القول بتشعب الفصحى فرقاً بين الصحيح والمعتل ، وبين الاسم والصفة في إطار الصحيح ، أما الهذلية فإنها تستقيم على هيئة من الأداء واحدة ، تتسجم وتطرّد في إطار التوحد ، جزئياً على قياس الأصل دون الفرع . وهذا أخصر وأنفع على المستوى النظري وعلى المستوى التطبيقي الوظيفي . لكن اللغة سلطة ، وللاستخدام تحكم يرفع ما يشاء ويحطّ ما يشاء ؛ فكانت الغلبة لاصطفاء الفصحى لغلبتها في الاستعمال وموافاتها للقياس . ولما كانت الهذلية تجري على قياسها الخاص فإنها متبولة للاستئناس والمُدَارَسَة ، وللتنظر في البعد التاريخي للظاهرة اللهجية .

١ (الآية ٥٨ من سورة النور . انظر : الأنباري ، أسرار العربية : ١٨٠ ، والبحر المحيط : ٦ / ٤٤٩ .

٢ (شرح شواهد الشافية للبغدادى : ١٣٢ / ٢ . وأوضح المسالك : ٤ / ٢٧٥ . وشرح المنصل : ٥ / ٣٠ .

٣ (المتضبط : ٢ / ١٨٨ .

٤ (ارتشاف الضرب : ٢ / ٥٩٣ . وأوضح المسالك : ٤ / ٢٧٤ . وشرح المنصل : ٥ / ٣١ - ٣٣ .

ومنشأ التباين في هذا الباب مردود إلى العامل الجغرافي وما أفضى إليه من تباين في مستوى الأداء النطقي ، فلا يعدو أن يكون تعبيراً عن سلائق وطباع لغوية لأقوام اختلفت مساكنهم وبيئاتهم ومعطيات حياتهم اليومية ، فاختلفت هينات الأداء النطقي ، انسجاماً مع بيئتهم وملاءمة لطبيعتهم ، ويظهر أن هذا السلوك اللغوي الهنلي ينسجم مع التأدي الطبيعي للغة على لسان البدو ، فهم لا يكتفون كثيراً بتحسين الأداء ، وإنما تتأتى اللغة لهم سليقة وطبعاً ، يهمزون ، ويدعمون المتجاورين ، ويختصرون الكلام بالاجتزاء والسرعة . أما الحضر فإنهم ، بحكم ما استحكم فيهم من عادات وكلف بالحياة ومعطياتها ، يتأنقون في كلامهم ويتحررون التدقيق كثيراً ، قاصدين المبالغة في التحقيق ، فلا يهمزون ، ويرققون ، وسوى ذلك من مظاهر التكلف في النطق .

رابعاً : أبينية مصدر الثلاثي (١) :

استقامت الأفعال الماضية في العربية على هينات من البناء مخصوصة ، لا تفارقها ولا تخرج عليها ، وهذه الأبينية هي :

- ١- فَعَلٌ : ويكون لازماً ومتعدياً ؛ فاما اللازم فنحو : جَلَسَ وَخَرَجَ وَذَهَبَ وَثَبَتَ وَنَامَ وَوَقَفَ . واما المتعدي فنحو : أَكَلَ ، وَفَتَحَ ، وَسَرَقَ .
- ٢- فَعِلٌ : ويكون لازماً ومتعدياً ؛ فاما اللازم فنحو : يَثِسُ وَيَبِسُ وَأَسْفَ وَنَدِمَ . واما المتعدي فنحو : عَلِمَ وَفَهِمَ وَشَرِبَ .
- ٣- فَعَلٌ : ولا يكون إلا لازماً ، نحو : حَسُنَ وَعَدَبَ وَقَبِحَ وَبَطَّلَ .

وهذه الأبينية الثلاث ، هي المعول عليها عند اشتقاق الاسم الدال على الحدث (المصدر) ، فينتاس المصدر باعتبار البناء . ثم إنهم وجدوا البناء لا ينهض معياراً قوياً وكافياً لتأسيس قواعد مضبوطة لأبينية مصدر الثلاثي بناءً مقيساً على التعيين ، فبحثوا عن معايير أخرى تيسر لهم الضبط والاطراد ؛ فتكون سهلة التعلم للشداة من طلبة العلم .

(١) هذا باب أنوس في حل كيب النحو والتصريف ، منها : سيوه : ٤/٦ - ٥٣ ، والمقنضب : ٢/١٢٢-١٢٦ ، وأدب الكاتب : ٣٣٣ - ٣٤٠ ، والمحصص : ٤/١٤ - ٢٧٩ - ٢٩١ ، ودقائق التصريف : ٤٥ - ١٣٥ ، وشمس العلوم : ١/٣٦ - ٣٩ ، وشرح الشافية : ١/١٥١ - ١٧٣ . وشرح الكافية : ٤/٢٢٢ - ٢٢٢٤ . والنهول : ٢٠٤ ، والغريب المصنف : ٣/٦٨١ - ٦٨٩ ، وأوضح المالك : ٣/٢١٠ - ٢١٣ .

وقد استقام لهم أن تَعَدِّي الفعل أو لزومه معيار نافع في التفريق بين مصدر المتعدي ومصدر اللازم . ولكنه كان يشغب عليهم أيضاً أنهم وجدوا أمثلة من اللازم تدخل في المتعدي ، وأمثلة من المتعدي تدخل في اللازم ، فحاروا في أمرهم ، وسَعَوْا إلى استئناس يخرجهم من الحيرة ، فوجدوا ضالتهم في عامل نافع يحاول ضبط ما تفلت من القيد السابقين . فكانت الدلالة . وقد حاول اللغويون الاستئناس بدلالة الفعل العامة ، للوصول إلى هيئة بناء مصدره ، فاستقام لهم نجاح كبير ، وأخرجهم من حيرة منهجية كبيرة .

فهذه ضوابط ثلاثة تقريبية ، ينضبط بناء مصدر الثلاثي وفقاً لها ولكنها لم تكن لتشكل ضوابط صارمة لأبنية مصدر الثلاثي ، فإننا نجد مصادر مسموعة على غير القياس ، وقد نجد مصادر خارجة على قياس الفصحى ولكنها مقيسة على لغتها الخاصة .

وفيما يلي تفصيل لأحوال أبنية المصدر الثلاثي :

- وَزَنَ فَعَلَ :

أما ما كان متعدياً منه ؛ فقياس مصدره على (فَعَلَ) :

| <u>المصدر</u> | <u>الفعل</u> |
|---------------|--------------|
| أَكَل | أَكَلَ |
| ضَرَبَ | ضَرَبَ |
| رَدَّ | رَدَّ |
| ذَمَّ | ذَمَّ |

وأما ما كان لازماً ، فإن قياس مصدره (فَعُول) :

| <u>المصدر</u> | <u>الفعل</u> |
|---------------|--------------|
| جَلَسَ | جَلَسَ |
| رُكِعَ | رُكِعَ |
| وُصِلَ | وُصِلَ |

دُخُول

دَخَلَ

هُجُوم

هَجَمَ

ومزيد نظر في بناء (فُعلول) يكشف عن قصوره عن استيعاب كثير من الأمثلة ، وأنه لا يستنفد كل ما كان على (فَعَلَ) لازماً ، فكيف السبيل إلى ذلك ؟
 فزع اللغويون إلى الدلالة لتكون علماً على المصدر ، فضمّوا القاعدة الخاصة بهذه الصورة من (فَعَلَ) اللزوم استثناءات تنطوي على معانٍ دلالية ، تؤدي دوراً هاماً في تحديد صيغة المصدر . هذه القواعد الاستثنائية هي :

١ - ما دل على امتناع ، فقياس مصدره على فعال :

| <u>المصدر</u> | <u>الفعل</u> |
|---------------|--------------|
| إيَاء | أبَى |
| نِفَار | نَفَرَ |
| جِمَاح | جَمَحَ |
| إِيَاق | أَبَقَ |

٢ - ما دل على تقلب (حركة واضطراب) حقيقي أو يشبهه ، قياس مصدره فَعْلَان :

| <u>المصدر</u> | <u>الفعل</u> |
|---------------|--------------|
| جَوْلَان | جَال |
| عَلْيَان | عَلَى |
| لَمْعَان | لَمَعَ |
| جَيْشَان | جَاشَ |
| دَوْرَان | دَارَ |

وَحَسَبَ سَيِّوِيَه ، جَاءَ مِنْهُ (فَعِيل) :

| <u>المَصْدَر</u> | <u>الفِعْل</u> |
|------------------|------------------|
| وَجِيب | وَجَّبَا |
| وَجِيف | وَجَّفَا |
| رَسِيم | رَسَمَ البَعِيرُ |

٣ - مَا دَلَّ عَلَى دَاءِ قِيَاسِهِ (فُعَال) :

| <u>المَصْدَر</u> | <u>الفِعْل</u> |
|------------------|----------------|
| مُشَاء | مَشَى بَطْنُهُ |
| سُكَات | سَكَّتْ |
| عُطَام | عَطَسَ |
| سُهَام | سَهَمَ |
| نُحَاز | نَحَزَ |

٤ - مَا دَلَّ عَلَى سَيْرِ قِيَاسِهِ (فَعِيل) :

| <u>المَصْدَر</u> | <u>الفِعْل</u> |
|------------------|----------------|
| رَحِيل | رَحَلَ |
| نَمِيل | نَمَلَ |

٥ - مَا دَلَّ عَلَى صَوْتِ قِيَاسِهِ (فُعَال أَوْ فَعِيل) وَقَدْ يَشْتَرِكَان :

| <u>المَصْدَر</u> | <u>الفِعْل</u> |
|------------------|----------------|
| صُرَاخ وَصَرِيخ | صَرَخَ |

| | |
|--------------------|---------|
| عَوَاء | عوى |
| لُهَاقٌ وَلَهَيْقٌ | نَهَقَ |
| صَهِيلٌ | صَهَلٌ |
| زَنْبِيرٌ | زَارٌ |
| فَحِيحٌ | فَحَّحَ |
| ضَجِيجٌ | ضَجَّحَ |
| هَدِيرٌ | هَدَّرَ |

٦ - ما دلّ على حرفة أو القيام بشيء، فقياسه (فِعالَة) :

| <u>المصدر</u> | <u>الفعل</u> |
|---------------|--------------|
| تِجَارَةٌ | تَجَرَّعَ |
| زِرَاعَةٌ | زَرَعَ |
| خِيَاطَةٌ | خَاطَ |
| سِفَارَةٌ | سَفَرَ |
| وَكَالَةٌ | وَكَّلَ |
| وِزَارَةٌ | وَزَرَ |
| خِلَافَةٌ | خَالَفَ |
| سَعَابَةٌ | سَعَى |
| وِشَايَةٌ | وَشَى |
| عِرَافَةٌ | عَرَفَ |

وزن فَعِلَ :

فأما ما كان منه متعدياً ، فقياس مصدره (فَعَل) ، يشترك في ذلك منع (فَعَل)

المتعدي ، نقول :

| <u>المَصْنَد</u> | <u>الفِعْل</u> |
|------------------|----------------|
| فَهَم | فَهِم |
| أَثَم | أَثِم |
| أَمِن | أَمِن |
| بَرِق | بَرِق |

وأما اللازم فقياس مصدره (فَعَل) ، نقول :

| <u>المَصْنَد</u> | <u>الفِعْل</u> |
|------------------|----------------|
| فَرَح | فَرِح |
| عَمِل | عَمِل |
| وَجَل | وَجَل |
| شَلَل | شَلَّ |
| أَشْر | أَشِر |
| بَطَر | بَطَر |

وخصّ سيبويه بالدلالة ، ما كان من الأنداء ، فيجيء على (فَعَل) :

| <u>المَصْنَد</u> | <u>الفِعْل</u> |
|------------------|----------------|
| حَبَط | حَبَط |
| مَرَض | مَرَض |
| سَقَم | سَقَم |

٥٢٨٢٢٢

ردى

ردى

لوى

لوى

وما كان من الألوان ، فقياسه فَعَلَةٌ (١) :

المصدرالفعل

أدمة

أدم

شُهبة

شهب

كُهبة

كهب

وما كان منه لترك الشيء فيكون قياسه : فَعَلٌ وفَعَالَةٌ (١) :

المصدرالفعل

بأس وباسة

بئس

سأم وسامة

سئم

زهد وزهادة

زهذ

وزن فَعُولٌ :

ولا يكون هذا الوزن إلا لازماً . فيكون قياس مصدره على (فَعُولَةٌ) أو (فَعَالَةٌ) ، نقول :

المصدرالفعل

صُعوبة

صُعِبَ

سُهولة

سُهِّلَ

قُبوحه

قُبِحَ

(١) سيوه : ٤ / ٢٥ .

(٢) نفسه : ٤ / ١٧ .

| | |
|-------|---------|
| ملوحة | مُلِحَ |
| بلاغة | بُلِّغَ |
| فصاحة | فَصِّحَ |
| صراحة | صَرَّحَ |

وما كان حُسْنًا أو قُبْحًا يكون مصدره : فَعَالٌ أو فَعَالَةٌ أو فُعِلَ (١) :

| <u>المصدر</u> | <u>الفعل</u> |
|----------------------|--------------|
| وَسَامًا و وَسَامَةٌ | وَسَمَ |
| جَمَالًا | جَمَلَ |
| طُهْرًا | طَهَّرَ |
| حُسْنًا | حَسَّنَ |
| قُبْحًا | قَبَّحَ |

واختلف في وزن (فَعِلَ) ، فذهب الزجاجي وابن عصفور إلى أن (فَعِلَ) قياس في مصدر (فَعِلَ) ، خلافاً لسيبويه (٢) .

وما كان من الصَّغَرِ و الكِبَرِ ، فإنه يكون على (فَعَالَةٌ) ، وقد يجيء على (فَعِلَ) ، نقول :

| <u>المصدر</u> | <u>الفعل</u> |
|--------------------|--------------|
| عِظَامَةٌ و عِظْمٌ | عَظَّمَ |
| صِغَارَةٌ و صِغَرٌ | صَغَّرَ |

(١) سيبويه : ٢٨/٤ .

(٢) أوضح المسالك : ٢١٣/٣ .

تقدّامة و تقدّم

غَلَطَ

كَبِرَ

تقدّم

غَلَطَ

كَبِرَ

وهذه الأقيسة هي أضبط ما بلغه النحاة واللغويون ، في محاولتهم ضبط تفلّات الأبتية الصرفية للمصدر . ومع كل الجهد الذي حصلوه ، ظل كثير منها عصبية على الضبط ، فخرجت على الأقيسة السابقة ، وجاءت مسموعة على غير قياس . فكانت المثل التالية :

- من ذلك ما جاء من (فَعَلَ) المتعدي على (فَعُول) ، وهذا القياس قياس اللازم . فقالوا : جحده جحوداً ، وشكره سُكوراً وشُكراناً ، وقالوا : جحد جَحْداً على القياس وهكذا استوى لـ (جَحَدَ) وجهان أحدهما مقيس والثاني مسموع ، ولا يدفع أحد منهما صاحبه .

| | | |
|---------|---------|-------------------------------|
| مَوْت | مات | وقالوا في (فَعَلَ) اللازم : |
| فَوْز | فاز | |
| شِيخوخة | شاخ | |
| نميمة | نمّ | |
| نباهة | نَبَّهَ | |
| نضارة | نَضَرَ | |

| | | |
|---------|-------|-------------------------------|
| رُغوية | رغِبَ | وقالوا في (فَعَلَ) اللازم : |
| رضى | رضي | |
| بُخْلًا | بخِلَ | |
| سُخْطًا | سخطَ | |
| رَشْدًا | رشِدَ | |

لعب لعب
كذب كذب

وقالوا في رغب وبخل وسخط : البخل والسخط والرغب على القياس ^(١) ، وبذلك يتدافع هذه الثلاثة وجهان : مقيس ومسموع ، وليس أحدهما بأولى من صاحبه .

ثم إننا نجد كثيراً من المصادر قد وردت على هيتين أو أكثر ؛ إحداهما مقيسة ، والأخرى عن العرب مسموعة ، نذكر للتمثيل لا للحصر ، منها :

من باب فَعَلَ :

| | |
|----------------------------------|---------|
| ثَبُوتٌ وَثَبَاتٌ | ثَبِتَ |
| ذُهوبٌ وَ ذَهَابٌ ^(٢) | ذَهَبَ |
| مُكوثٌ وَ مَكثٌ | مَكَثَ |
| هُدوءٌ وَ هَذءٌ | هَذَا |
| وُثوبٌ وَ وَثَبٌ | وَثَبَ |
| عَلَيانٌ وَ عَلَيٌ | عَلَى |
| جَوْلانٌ وَ جَوْلٌ | جَالَ |
| وَقُودٌ وَ وَقُودٌ | وَقَدَّ |

من باب فَعِلَ :

| | |
|---------------------|--------|
| يَأْسٌ وَ يَاسَةٌ | يَئَسَ |
| تَعَسٌ وَ تَعَاسَةٌ | تَعَسَ |
| سَامٌ وَ سَامَةٌ | سَتِمَ |
| زَهْدٌ وَ زَهَادَةٌ | زَهَدَ |

(١) أوضح المسالك : ٢١٣ / ٣ .

(٢) ملقٌ سببه على (الذهب والثبات) قالاً : لنبوه على فعال كما نبوه على فَعول ، والفعل فيه أكثر : ٩ / ٤ .

| | |
|---------|-----------------------|
| أدْمٌ | أدْمَةٌ وَأَدْمَةٌ |
| سَبَطٌ | سَبَاطَةٌ وَسَبُوطَةٌ |
| نَقِيهٌ | نَقَاهَةٌ وَنَقَاهَةٌ |
| قَبِيلٌ | قَبُولٌ وَقَبُولٌ |

من باب فَعَّلَ :

| | |
|---------|--------------------------------|
| حَمَقَ | حَمَقَةٌ وَحَمَاقَةٌ |
| لُؤْمٌ | لُؤْمٌ وَلَأْمَةٌ |
| طَهَّرَ | طَهْرٌ وَطَهَارَةٌ |
| نَبَّلَ | نَبْلٌ وَنَبَالَةٌ |
| قُبِّحَ | قُبْحٌ وَقُبَاحَةٌ وَقُبُوحَةٌ |
| قَدَّمَ | قَدَامَةٌ وَقَدَمٌ |
| ضَخَّمَ | ضَخَامَةٌ وَضِخْمٌ |

- وليسَت هذه الأمثلة غاية التباين في أبنية مصدر الثلاثي ؛ فقد وردت أبنية ثلاثة أو أربعة للفعل الواحد ، فقد ذكر اللغويون من ذلك :
- شَرِبَ : شَرَبٌ ، وَشَرَبٌ ، وَشَرِبٌ (١) .
 - سَخَّنَ : سَخُونَةٌ ، وَسَخَانَةٌ وَسَخْنَةٌ (٢) .
 - سَقَبَ : سَقَبًا ، وَسَقُوبَةٌ وَسَقْبَةٌ (٣) .
 - سَكَرَ : سَكَرًا ، وَسَكَرًا (٤) .

(١) الملثك للبطرسى : ٤٣٧/٢ .

(٢) الفرق بين الحروف الخمسة : ٥٥٨ .

(٣) المصدر السابق : ٥٦٣ .

(٤) نفسه : ٦٦٥ .

- وَمَضَى : وَمَضَاً ، ووميضاً ، وومظاناً (١) .
- زَعَمَ : زُعِمَ ، وزَعِمَ ، ومَزَعِمَ (٢) .
- طَمِعَ : طَمِعاً ، وطماعية ، ومطمعاً (٣) .
- جَدَّ : جَدَّاداً ، وجَدَّاداً ، وجَدَّاداً (٤) .

وقد يركب التباين إلى عدد مبالغ فيه من الوجوه ، وإن كانت مسموعة عن العرب . فقد ذكر ابن خالويه أن للفعل (لقي) عشرة مصادر (٥) .

لقد ظهر لنا ، فيما سبق ، أن التباين في أبنية مصدر ثلاثي مردّها إلى المراوحة بين القياس والسماع . ومزيد نظر يظهر أن اللغة قد جعلت الفرق في أبنية مصدر الثلاثي من الفعل نفسه ضرورة لغوية تحكمها قوانين ميّز الدلالات المتحصلة من الألفاظ ، فلما احتمل البناء الواحد للفعل معاني متعددة ، كان لا بد من المجيء بأبنية للمصدر متباينة ، يكون كل واحد منها علماً على دلالة واحدة .

وقد توفّر ابن قتيبة على عدد من هذه المثل (٦) ، أذكر منها :

- وَجَدْتُ فِي الْغَضَبِ مَوْجِدَةً ، وَوَجِدْتُ فِي الْحَزْنِ وَجْدًا ، وَوَجِدْتُ الشَّيْءَ وَجْدَانًا وَوَجُودًا .
- وَجَبَ الْقَلْبُ وَجِبِيًّا ، وَوَجِبَتِ الشَّمْسُ وَوَجُوبًا ، وَوَجِبَ الْبَيْعُ وَجِبَةً .
- كَلَّ بَصْرَهُ كِلَّةً وَكَلُولًا وَكَذَلِكَ اللِّسَانَ . وَكَلَّ السَّيْفُ كِلَّةً إِذَا لَمْ يَقْطَعْ ، وَكَلَّ مِنَ الْإِعْيَاءِ يَكُلُّ كِلَالًا .

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزولي : ١ / ١٥٠ .

(٢) المصدر نفسه : ١ / ٢٠٥ .

(٣) المصدر نفسه : ١ / ٢٠٥ .

(٤) المحاسب : ١ / ٦٤ .

(٥) ليس في كلام العرب : ١٧ .

(٦) انظر : أدب الكاتب ، باب المصادر المختلفة عن المصدر الواحد : ٣٣٣ - ٣٤٠ .

- عَثْرٌ فِي ثَوْبِهِ يَعْثُرُ عَثَارًا ، وَعَثَرَ عَلَيْهِمْ يَعْثُرُ عَثْرًا وَعَثُورًا .
- تَلَوْتُ الْقُرْآنَ فَأَنَا أَتْلُوهُ تِلَاوَةً ، وَتَلَوْتُ الرَّجُلَ : تَبِعْتَهُ ، فَأَنَا أَتْلُوهُ تَلْوًا .
- خَطَبْتُ الْمَرْأَةَ خُطْبَةً حَسَنَةً ، وَخَطَبْتُ عَلَى الْمَنبَرِ خُطْبَةً .
- حَلَّ بِالْمَكَانِ يَحُلُّ حُلُولًا . وَحَلَّ لَكَ الشَّيْءُ يَحُلُّ حِلًّا وَحَلَّ الْعَقْدُ يَحُلُّ حِلًّا .
- هَدَاهُ اللَّهُ فِي الدِّينِ هُدًى . وَهَدَاهُ الطَّرِيقَ هِدَايَةً ، وَهَدَى الْعُرُوسَ إِلَى زَوْجِهَا هِدَاءً .
- هَبَّتِ الرِّيحُ تَهْبُ هَبُّوْبًا وَهَبِيْبًا ، وَهَبَّ مِنْ نَوْمِهِ يَهْبُ هَبًّا وَهَبُوْبًا ، وَهَبَّ التَّيْسُ هَبِيْبًا وَهَيَابًا .
- بَطَّلَ الْأَجِيرَ يَبْطُلُ بَطَالَةً . وَيَبْطُلُ الشَّيْءُ يَبْطُلُ بَطْلًا وَيُطْلَانًا .

وهذا الباب من اللغة يدخل في المشترك ، بنية واحدة في أصل الفعل تنسق على وجوه متعددة في المصدر ؛ ميزاً للدلالات المتحققة . وهذا مما أفرزه الاستعمال فأنتجته اللفظة واستأنست به .

ومثلما كان الحديث عن أبنية مصدر الثلاثي مظنة لبس وغموض ؛ فإن البحث في دواعي هذا التباين جدير بالإلباس ؛ ذلك أن ما ورد من المصادر قياساً أو سماعاً كان غير منسوب على التعيين ، وهذا يضيق دائرة العامل اللهجي ، ويجعلنا نستشرف عوامل أخرى أبرزت مثل هذا التباين .

ويقتضينا الإنصاف أن نشير إلى نص صريح يتصل بالعامل اللهجي بنسب وثيق ، وربما كان النص الوحيد - حسب استطلاعي - الذي يُرْجَع التباين في أبنية المصدر إلى اللهجات ؛ ذلك هو نص الفراء ، الذي تداولته كتب النحو والتصريف المتعاقبة ، يقول : " إذا جاءك فَعَلٌ مِمَّا لَمْ يُسْمَعْ مَصْدَرُهُ فَاجْعَلْهُ فَعْلًا لِلْحِجَازِ وَفُعُولًا لِنَجْدٍ " (١) . وعلق الشارح رضي الدين الإستراباذي قائلاً : " يعني قياس أهل نجد أن يقولوا في مصدر لم يسمع مصدره من (فَعَلٌ) مفتوح العين : فَعُولٌ ، متعدياً كان أو لازماً ، وقياس الحجازيين فيه (فَعِيلٌ) متعدياً كان أو لا . هذا قوله . والمشهور ما قدمنا ، وهو أن مصدر المتعدي فَعَلٌ مطلقاً ، إذا لم

(١) شرح الشافية : ١ / ١٥٢ ، ودقائق التصريف : ٤٥ ، وشمس العلوم : ١ / ٣٦ .

يسمع ، وأما مصدر اللّازم ففُعول من " فَعَلَ " المفتوح العين ، وفَعَلَ من فعل المكسور وفَعَالَة من فَعَلَ ؛ لأنه الأغلب في السماع ، فيرد غير المسموع إلى الغالب " (١) .

ويقف الفراء منفرداً بهذا الرأي ، لا يناصره ولا يعاضده أحد . وغالب الظن ، ألا يكون دقيقاً ؛ لمخالفته مجمل الروايات ، لانتفاء المثل المنسوبة على ذلك .

ونقاً لهذا يستقيم لنا أن نستبعد العامل اللهجي المتعلق بالنسبة إلى أهل نجد والحجاز . غير أن هذا لا ينفي العامل اللهجي بإطلاق ؛ فإنه يغلب أن جماعة سقط إليهم المصدر في صورة مسموعة متداولة فيهم ، فجزوا عليها ، وجماعة أخرى - قد تكون في معزل - استقرت على هيئة أخرى للمصدر فتجاوزت الصورتان أو الثلاث ، وتناقلتها التجار والرعاة والمدافرون ، فجرت على ألسنة العرب ، فاستحكمت فيهم هذا المسموع ، إضافة إلى المقيس المستحكمت فيهم طبعاً وسليقة ، فتجاوزت المقيسات والمسموعات ، فأسلمت إلى هذه الصور من التباينات . ثم كان الميز بين الدلالات مطلباً لغريباً لإزالة اللبس ، فأوجد الناطقون باللغة أبنية متعددة للدلالة على معانٍ مخصوصة ، مما أفضى إلى مزيد تباين . فتحصلت لدينا صور متعددة لمصدر الفعل الواحد . وهكذا استقام للغويين العرب مفهوم المتغير اللغوي من جديد ، فدلوا عليه وميزوه .

وصفة ما يقال في هذا الباب أن منشاء كان متباين المنابع فكان التباين في التحققات الفعلية طبيعياً ، وهذه المنابع هي : القياس على اللغة المتداولة وهو قياس مستحكمت فيهم استحكام الطبع والسليقة ، والسماع ممن يوثق بعربيته ، وتحققت فيه قيود الانتقاء المقررة سالفاً ، ثم سمت اللغوي الذي تسير عليه اللغة .

المبحث الثالث

في الفصائل النحوية

- فصيلة الجنس :

لا يعدو التصنيف الطبيعي الحيوي (البيولوجي) للإنسان أن يكون واحداً من اثنين : الذكر والأنثى . وهما يتقاسمان مجمل النشاط الإنساني ، ويشتركان في إرساء دعائم الحياة الإنسانية ؛ ضماناً للاستمرارية والبقاء . ولا يستقيم لأي مجتمع النمو والاستقرار إذا ما غاب أحد هذين الجنسين ؛ فهي سنة الله التي أجراها في خلقه ، وهي باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولما كان هذان الجنسان يعيشان في مجتمع واحد ، يتخذ اللغة وسيلة تواصل وتفاهم ، ووسيلة قضاء الحاجات والأغراض الإنسانية ، كان على هذا الإنسان أن يصطنع في لنته علامات فارقة تميز خطابه للمذكر من خطابه للمؤنث ، وأن يستدعي قدرات لغته وطاقاتها للتعبير عن هذا التباين الطبيعي ، ولما كانت اللغة وبنيتها منبثقة من معطيات الواقع الاجتماعي اندي تجري فيه ، كان طبيعياً أن تصطنع أدوات شكلية ومعنوية من اللغة ذاتها للتمييز بين الجنسين ، فكانت فصيلة الجنس .

وفصيلة الجنس مقتضى طبيعي ومقتضى لغوي ، لا تخلو منه أي لغة بشرية ، وإن تفاوتت اللغات في أسس تقسيمها ، وعدد هذه التقسيمات . وكان جل اعتماد اللغات في التصنيف اللغوي قائماً على الجنس الطبيعي ، ولكن هذا التقسيم لم يكن كافياً للدلالة على الجمادات والنباتات وسواها ، فاصطلحت اللغات على تقسيم اعتباري لا يدرك كنهه لغير الناس وما يجري مجراه في التقسيم الجنسي ، أي الدور الحيوي (الوظيفي) الذي يؤديه .

وقد يكون للعامل الثقافي أثر كبير في هيئة تنظيم فصيلة الجنس ؛ ذلك أن علم الثقافات ، واللغويات الأنثروبولوجية تستطيع أن تكشف - إلى حد مقبول - عن طبيعة العلاقة بين اللغة والمعتقدات وأنماط التفكير ، وعليه يمكن الربط بين المعتقدات القديمة والفصائل

النحوية في تلك اللغات . ويظهر هذا لدى كثير من المستشرقين الذين درسوا فصيلة الجنس في الساميات ومنها العربية . يقول المستشرق (Wensinck) : " إن اللغات السامية حين خلعت على بعض الأسماء فكرة التانيث ، قد تأثرت بعوامل دينية ، وأخرى مرجعها التقاليد والمعتقدات العامة التي جعلت الساميين في قديم الزمان يرون في المرأة غموضاً وسحراً ، وينسبون لها من القوى الخارقة ما لم يحظر ببال من جامعو بعدهم ، ثم ضموا إلى المرأة كل الظواهر الطبيعية التي خفي عليهم تفسيرها ، ودق على أذهانهم فهمها ، يجسامع الغموض والسحر في كل . وأدت تلك المعتقدات الخرافية إلى اعتبار بعض الأسماء مؤنثة ؛ لأنها تعبر عن ظواهر غامضة ليس من السهل عليه تفسيرها ، وأشبهت لهذا في أذهانهم ما أحاطوا به المرأة من سحر وخرافة . ومن تلك الكلمات كل ما عبر عن الأرض وأجزائها كالطريق والبئر والجهات الأربع ، ومعظم ظواهر الطبيعة من ربح وسحاب ومطر . والأسماء التي تدل على الممالك والمدن وأجزاء الجسم والأسلحة والحجارة وبعض الحيوان " (١) .

" ومن ذلك أن بعض الأنثروبولوجيين قد استوحوا نظرياتهم من تكلم بعض الجماعات الأمريكية والأسترالية بلغتين مختلفتين ، واحدة للرجل وأخرى للأنثى ، وقد اتخذوا من ذلك أساساً للقول بأن الكلمات التي تعد مذكرة كانت تلك هي التي كان يستخدمها الرجال فقط ، والتي تعد مؤنثة كانت هي تلك التي يستخدمها النساء فقط . وقد كشف سايبير عن واحدة من هذه اللغات ، وقام بدراستها وتحليلها ، وهي لغة يانا " (٢) .

وتبقى هذه الاستنتاجات وأمثالها توقعات وتصورات حسب ؛ إذ إنه من الصعب الوصول إلى تحديد حاسم للعوامل التي أفضت إلى تذكير كلمات وتانيث أخرى ، وهذا متصل بنشأة اللغة وتطورها ، وهي قضية باتت مطرحة من حقل اللسانيات الحديثة .

والاختلاف في التذكير أو التانيث ، إنما يكون فيما كان خارجاً عن الجنس الطبيعي ؛ فلا أظن أن لغة ما توث الرجل أو تذكر المرأة ، والاختلاف مرجوح في المؤنثات غير الحقيقية ، وفق اعتبارات ثقافية واجتماعية ولغوية خاصة . ومما يعزز القول بذلك ، أنك ترد على كلمة واحدة فتجدها مذكرة في لغة ، ومؤنثة في ثانية ، ومتنازعة في ثالثة .

(١) أحمد مختار عمر ، اللغة واختلاف الجنس ، ص : ٤٩-٥٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص : ٤٩ .

وتتفاوت اللغات في تصنيفها للجنس اللغوي ، بين تصنيف ثنائي إلى عشريني وأهم تلك التصنيفات (١) :

١ - اللغات ذات التصنيف الثنائي :

وهي تقوم على فصيلتين حسب الجنس الطبيعي ، التذكير والتأنيث وتضم هذه المجموعة : الساميات ومنها العربية ، وبعض اللغات الرومانسية مثل الفرنسية التي لا تفرد صنفاً للجملادات والأشياء ، وإنما تلحقها بأحد الجنسين ، فيذكرون السكّين ويؤنثون الشؤكة . وتضم أيضاً بعض اللغات الإفريقية والهندية الأمريكية التي تتبنى تصنيفاً ثنائياً على نحو مفاير ، فتصنف حسب الحياة إلى جنس حي وجنس غير حي .

٢ - اللغات ذات التصنيف الثلاثي :

وينضوي تحتها اللغات الهندوأوروبية كالألمانية والإنجليزية واللاتينية والإغريقية والسنسكريتية ، وهي تملك ثلاث فصائل : المذكر والمؤنث والمحايد الذي يضم الجمادات والمعاني التي لا صلة لها بالجنس الحقيقي .

٣ - لغات ذات نظام يزيد على ثلاث فصائل :

ومنها مجموعة البانتو (في جنوب إفريقيا) ، يصل الجنس النحوي فيها إلى عشرين صنفاً مستقلاً على أساس من الجنس الطبيعي ونواحي الحجم والشكل والطبقة الاجتماعية

- فصيلة الجنس في العربية :

يقوم نظام الجنس في العربية على فصيلتين كُبريين هما : المذكر والمؤنث ، وهما فصيلتان تكادان تطابقان الجنس الطبيعي عموماً ، ذلك أنهم جعلوا " ما كان له فرج الذكر منكرأ كالرجل والجمل ، وما كان له فرج الأنثى مؤنثاً كالمراة والناقة " (٢) . وأما ما خرج على ذلك ، فذكر وأنث لاعتبارات أخرى .

وقد اعتمدت العربية في نسبة الاسم إلى التذكير أو التأنيث على مقياسين هامين ، أولهما : الجنس الطبيعي ، وثانيهما : ما تُعورف على تذكيره أو تأنيثه معنى أو لفظاً ، أي وفقاً لنظام التواضع والاصطلاح .

١ (أحمد مختار عمر ، اللغة واختلاف الجنسين : ٥٠ - ٥١ .

٢ (أوضح المسالك : ٤ / ٢٥٧ .

وقد جعلت العربية التذكير أصلاً والتأنيث فرعاً عليه ؛ ذلك أن المذكر غير ذي علامة (غير مُعَلَّم) أما المؤنث فإنه مُعَلَّم بعلامات فارقة تميزه من المذكر . وبما أن اللغة أقامت مثل هذا التقسيم ، كان لزاماً عليها أن تبحث عن أدوات شكلية – إضافة إلى المعنوية – للميز بين الجنسين ، فاستقرت على علامات ثلاث هي : تاء التأنيث التي تلحق الاسم فرقاً بينه وبين المذكر . والألف الممدودة كما في (حمراء) . والألف المقصورة كما في (خُبلى) (١) . ينضاف إلى ذلك علامات مخصوصة بالأفعال والضمائر . ليس هنا محل تفصيلها .

أما تقسيمات الجنس في العربية ، فعلى النحو الآتي :

١ – المذكر الحقيقي : وهو ما دل على ذكر وفق تصنيفات الجنس الطبيعي ، وهو على ضربين :

الأول : لفظي (ومعنوي بالضرورة) وعلامته خُلُوهُ من علامة التأنيث ، ودلالته الاجتماعية على مذكر : كقولنا : رجل ، ولد ، طالب ، أسد .

الثاني : المعنوي . وهو مذكر تذكيراً طبيعياً ، وموضوع للدلالة على المذكر ولكنه يتضمن علامة تأنيث كـ : معاوية ، وعلامة ، وراوية .

٢ – المؤنث الحقيقي : وهو المقابل للأنثى في الجنس الطبيعي ، وهو ضربان :

الأول : المؤنث اللفظي (ومعنوي بالضرورة) ، وهو ما كان مُعَلَّمًا بعلامة تأنيث لفظاً ورسمًا ، وجرى العرف الاجتماعي على استخدامه لمؤنث كـ : فاطمة ، طالبة .

الثاني : المؤنث المعنوي ، وهو ما كان علماً على مؤنث بغياب علامة التأنيث لفظاً ورسمًا ؛ إذ جرى العرف على استخدامه للمؤنث ، وذلك قولك : سعاد ، وزينب وطالق ، وطامث وعجوز .

ويتفرع على هذين القسمين الكبيرين تفرعات مجازية ، لا تنطبق عليها شروط التذكير أو التأنيث الحقيقي . لكن الاستخدام جرى على عدّها مذكرةً أو مؤنثةً ، وهما قسمان .

٣ - المذكر المجازي : وهو كل اسم خلا من دلالة تانيث لفظية أو معنوية ، وأجراه الاستعمال مجرى المذكر ، كقولك : قلم ، ودفتري وصندوق ، وبيت ، وقمر وخيز .

٤ - المؤنث المجازي : وهو فرعان :

الأول : ما كان مُعلماً بعلامة تانيث لفظاً ومعنى كقولك : مسطرة ، وشجرة وسيارة ، وسفينة .

الثاني : ما كان غير معلم بعلامة تانيث لفظية ، ولكن دلالاته الاجتماعية دلالة على مؤنث . كقولك : عين ، شمس ، بئر ، كأس .

ومع ما بذلته اللغة العربية من طاقة الوصول إلى فصل حاسم بين الجنسين ، وقعت في عدد من الوجوه التي تبقى متنازعة بين التذكير والتانيث ، أو جاءت على غير ما رُسم لها من ملامح تبين عنها .

من ذلك أن الأنثى تتفرد بخصائص على التعيين ، لا تكون إلا لها ، فعبرت اللغة عن ذلك بالفاظ تخلو من علامة تانيث ، فجعلت المعرفة الضمنية لأفراد المجتمع بدلالات هذه المفردات علماً على تانيثها ، فقالوا : طامث وطالق وناشز وناهد وفارك ، دون علامة .

ومن ذلك أننا نجد من الصفات المحمولة على التذكير ، ما لحقته علامة تانيث للمبالغة ولتأكيد المبالغة ، فقالوا : راوية وعلامة ونسابة وفهامة .

وإذا كان هذان النوعان يتحددان بدلالات معينة ، فإننا نقف على أبنية صرفية يشترك فيها المذكر والمؤنث ، لا يميز بينهما إلا سياق جملي ، وهذه الأوزان هي ^(١) :

- فَعول بمعنى فاعل ، وذلك كقولك : رجل صبور وامرأة صبور ، ولو كان فَعول بمعنى مفعول لحقته التاء .

- فَعِيل بمعنى مفعول ، كقولك : رجل جريح وامرأة جريح .

- مِفْعَال : منحار ، للرجل والمرأة .

(١) أوضح المسالك : ٤ / ٢٥٨ - ٢٥٩ ، والمزهر : ٢ / ٢٠٦ - ٢٠٧ ، والتسهيل : ٢٥٤ .

- مفعيل : مغطير ، للرجل والمرأة .

- مفعّل : مغطّم ، للرجل والمرأة .

ثم إننا نرد على مفردات مشتركة ، نستبين جنسها بالنظر إلى دلالاتها ، فهي تحتمل دلالات متعددة ، ولكل دلالة جنسها المميز من الدلالات الأخرى ، من ذلك :

- الأرض^(١) :

- التي نحن عليها ، مؤنثة . قال أمية بن أبي الصلت :

والأرض مَعْقِلُنَا وكانت أُمَّنَا فيها مقابِرُنَا وفيها نُؤَادُ

- الزُكْمَة ، مؤنثة . يقال بفلان أرض شديدة من الزكام .

- مصدر الماروض ، مذكر . أرض الشيء يارض أرضاً ، إذا أكلته الأرضة .

- الشمس^(٢) :

- الشمس الطالعة ، مؤنثة .

- ضرب من الحلي ، مذكر .

- العصر^(٣) :

- مصدر عصرت الثوب عَصْرًا ، مذكر .

- الذَّهْر ، مذكر .

- صلاة العصر ، مؤنثة ، يقال : العصر فاتتني ، على معنى الصلاة .

(١) ابن الأثيري ، المذكر والمؤنث : ١ / ٢١٣ - ٢١٧ .

(٢) السابق : ١ / ٢١٩ - ٢٢٠ ، والبلغة : ٦٤ .

(٣) السابق : ١ / ٢٣٦ - ٢٣٧ .

- النَّابُ (١) :

- من الأسنان ، مُذَكَّر .
- المُسِنَّة من الإبل ، مؤنثة ، وجمع الناب نيب ، والناب من الأسنان : أنياب .

- القَدَمُ (٢) :

- الشُّجَاع ، مذكر . قال أبو زيد : يقال : رجل قَدَمٌ إذا كان شجاعاً .
- التَّقَدُّمُ ، مذكر .
- قَدَمُ الإنسان ، مؤنثة .
- السَّابِقَةُ والعمل الصَّالِح ، مؤنثة . قال الله تعالى : (أَنْ لَّهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) .

- اللُّسَانُ (٣) :

- الرسالة أو القصيدة من الشعر ، مؤنثة .
- في الكلام ، يذكر ويؤنث . يقال : إن لسان الناس عليه لِحْسَنَةٌ وَحَسَنٌ ، أي : تناوهم .

- الدَّلْوُ (٤) :

- التي يُسْتَقَى بها على البئر ، مؤنثة وقد تذكر .
- مصدر دلّوت الدلو ، إذا أخرجتها ، مذكر .
- ضَرْبٌ مِنَ السَّيْرِ ، مذكر .

١ (ابن الأثيري ، المذكر والمؤنث : ١ / ٣٣٤ - ٣٣٥ .

٢ (السابق : ١ / ٢٢٨ - ٢٢٩ .

٣ (نفسه : ١ / ٣٨٧ ، والمبرد : ١١٤ ، وكراع النمل : المخذ في اللغة : ٣٦ - ٣٧ .

٤ (نله : ١ / ٦٠١ .

وفصيولة الجنس من أهم الفصائل النحوية في العربية ؛ ذلك أنه يترتب عليها كثير من الأحكام النحوية والدلالية ، فهي تتحكم في الضمائر العائدة وأسماء الإشارة والاسم الموصول والتصغير والنعت والحال والخبر ... الخ . وفيما يلي أمثلة :

| الياب | في التذكير | في التانيث |
|---------------|--------------------------|-----------------------------|
| الفعل والفاعل | جاء وليد | جاءت فاطمة . |
| الخبر | سعيد مجتهد | سعاد مجتهدة . |
| الضمير العائد | عاد المهندس إلى بيته | عادت المهندسة إلى بيتها . |
| | عاد المهندسون إلى بيوتهم | عادت المهندسات إلى بيوتهن . |
| اسم الإشارة | هذا كتاب | الطالبات نجحن . |
| الحال | دخلت الصف نظيفاً | هذه طاولة . |
| التصغير | كاتب كويتب | دخلت الجامعة نظيفة . |
| | صالح صُوِّلِح | كأس كؤيسة . |
| العدد | خمسة قصص | بئر بؤيرة . |
| | أحد عشر طالباً | خمسة كتب . |
| | ثلاثة عشر يوماً | إحدى عشرة طالبة . |
| | | ثلاث عشرة ليلة . |

وجهود اللغويين العرب - على استيعابها وأهميتها وضبطها - لم تستند الأسماء العربية جبراً في تصنيفها ونسبتها إلى التذكير أو التانيث ، فوردنا على كثير من الأمثلة التي ذكر فيها الوجهان ، وظلت متنازعة بين التذكير والتانيث ، فطالها كُتُب اللغويين التي صنفت لضبط هذه الظاهرة ورصد أمثلتها ، ومن أهم ما ورد على الوجهين :

١ - كلمات مفردة (متنوعة) :

- الخَمْر : تذكر وتؤنث ، والتانيث أغلب عليها . وقال الفراء : هي أنثى وربما ذكُرت (١) .

(١) ابن الأنباري ، المذكر والمؤنث : ١ / ٤٥٢ . والأنباري ، البلغة : ٦٩ .

- السُّكَيْن . قال السُّجِسْتَانِي : هو مذكَّر ... وأخبرنا أبو العباس عن سَلْمَةَ عن الفراء أنه قال : السكين ذَكَرٌ وقد أَنْثُ (١) .
- السُّوقُ : تذكَّر وتؤنث . وقال الفراء ويعقوب : السوق أنثى وربما ذُكِّرت ، والتأنيث أغلب ؛ لأنهم يُحَقِّرُونَهَا سُوْبَقَةً (٢) .
- السَّلْمُ والسَّلْمُ : يذكَّران ويؤنثان (٣) .
- هو الطَّرِيقُ ، وهي الطَّرِيقُ (٤) .

٢ - أعضاء جسم الإنسان :

- اللِّفَا : يذكَّر ويؤنث (٥) . وأنكر الأصمعي التذكير (٦) .
 - الكَفَّ : مؤنثة ، لم يعرف تذكيرها أحد من العلماء الموثوق بعلمهم ، وزعم قوم لا يوثق بعلمهم أنه يذكَّر ويؤنث . وبنوا ذلك على بَيِّنَتِ الأَعْشَى :
- أرى رجلاً منهم أسيفاً كأنما
يَضُمُّ إلى كسحيه كفاً مخضباً (٧)
- الإبط : مذكَّر وقد يؤنث (٨) .
 - العاتق : مذكَّر وقد يؤنث (٩) .

٣ - من الحيوانات :

- الهر يقع على المذكر والمؤنث ، وقد يُدْخَلُونَ الهاء في المؤنث ، ويقال للهر القط ، والقط يقع على المذكر والمؤنث (١٠) .

(١) ابن الأثيري ، نفسه : ٤١٥ / ١ - ٤١٧ . وإصلاح المنطق : ٣٩٧ . والبلغة : ٨٣ .

(٢) ابن الأثيري ، نفسه : ٤٧٨ / ١ . والبلغة : ٨٣ .

(٣) الغريب المصنف : ٦٦٠ / ٣ . وإصلاح المنطق : ٣٩٨ . والبلغة : ٨٣ . وبحال تلعب : ٣٥٣ / ٢ .

(٤) أبو العباس المبرد ، المذكر والمؤنث : ١١٤ . وإصلاح المنطق : ٣٩٩ . والبلغة : ٨٣ .

(٥) ابن الأثيري ، نفسه : ٢٩٣ / ١ . وإصلاح المنطق : ٣٩٩ .

(٦) البلغة : ٧٢ .

(٧) ابن الأثيري ، نفسه : ٣٦١ / ١ - ٣٦٢ .

(٨) البلغة : ٧٢ . وإصلاح المنطق : ٣٩٩ .

(٩) البلغة : ٧١ . وإصلاح المنطق : ٣٩٩ . والمخند : ٤٤ .

(١٠) ابن الأثيري : ٧٦ / ١ .

- الحمامة : تُذَكَّرُ وتُؤنَّثُ (١) .

- الشاة : تذكر وتؤنث (٢) .

- الحية والجرادة : تذكر وتؤنث (٣) .

٤ - اسم الجنس الذي يُفَرِّقُ بين جمعه ومفرده بالتاء :

كل اسم جمع من أسماء الأجناس التي تدخل التاء في واحده ، فرقاً بينه وبين الجمع ، نحو : نخل ونخلة ، تمر وتمرة ، وشجر وشجرة ، وثمر وثمره ، وبقر وبقرة ، وبُرّ وبرّة ، وشعير وشعيرة ، فإنه يجوز فيه التذكير والتأنيث (٤) .

ثم نرد على أمثلة كثيرة قد وردت منسوبة إلى قبائل محددة ، أو إلى مجموعات لهجية كبرى ، نذكر منها للتدليل :

- العُنُقُ : قال الفراء : هي مؤنثة في قول أهل الحجاز . وغيرهم يقولون هذا عُنُقٌ (٥) .

- العَضُدُ : قال أبو زيد : بنو تميم يقولون : العَضُدُ والعَضُدُ ، ويؤنثونها وغير تميم يقولون : العَضُدُ ويذكرونها . وقال اللحياني : العَضُدُ مؤنثة لا غير (٦) .

- الإبهام : قال الفراء : العرب على تأنيثها إلا بني أسد أو بعضهم ، فإنهم يقولون هذا إبهام . وقال : والتأنيث أجود وأحب إلينا (٧) .

- الحال ، حال الإنسان أنثى ، وأهل الحجاز يذكرونها ، وربما قالوا : حاله بالهاء . والحال من كل شيء مذكر (٨) .

(١) ابن الأنباري : ١ / ٦٠٢ .

(٢) نفسه : ١ / ٦٠٢ .

(٣) نفسه : ١ / ٦٠٣ .

(٤) البلغة : ٨٣ . وشرح الكافية : ٤ / ١٧٢٧ . والبحر المحيط : ١ / ٣٢٣ و ٣ / ٢٨٠ . ومعاني القرآن للأخفش : ١ / ١٠٥ .

(٥) ابن الأنباري : ١ / ٣٨٢ .

(٦) ابن الأنباري : ١ / ٣٨٤ .

(٧) نفسه : ١ / ٤٠٠ .

(٨) البلغة : ٨٣ . ومجالس نعل : ٢ / ٣٥٣ . وأدب الكاتب : ٢٨٨ .

- القَدْر : أنثى . قال الفراء : وبعض الهيس ينكّرُها (١) .
- الهدى : يُذكَرُ ويؤنث . قال الفراء : بنو أسد يؤنثونه ؛ فيقولون : هذه هدى حسنة (٢) .
- الطريق : قال الفراء : يؤنثه أهل الحجاز وينكّره أهل نجد . والتذكير فيه أكثر من التأنيث وأجود ، وبذلك نزل القرآن الكريم ، قال تعالى : « يهدي إلى الحق وطريق مستقيم » فذكَرُ (٣) .
- الزوج : يذكَرُ ويؤنث ، يقال : فلان زوج فلانة وفلانة زوج فلان . قال الفراء : هذا قول أهل الحجاز . وأهل نجد يقولون : فلانة زوجة فلان ، وهو أكثر من زوج ، والأول أفصح ، فمن قال : زوجة قال في الجمع : زوجات . ومن قال : زوج ، قال في الجمع : أزواج (٤) .
- التَّمْرَ والبُرَّ والبُسْرَ : تميم تقول : هو التمر والبسر والبُرُّ فتذكَرُ ، وأهل الحجاز يقولون : هي التمر والبسر والبُرُّ فيؤنثون (٥) .
- السبيل : الطريق ، مذكر في لغة تميم ، مؤنث في لغة أهل الحجاز ، وقرأ ابن مسعود قوله تعالى : « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي » « قُلْ هَذَا سَبِيلِي » على التذكير مخالفاً للاتجاه العام . وابن مسعود من هذيل (٦) .
- وأهل الحجاز يؤنثون " الصرّاط " كما يؤنثون : الطريق والسبيل والزقاق والسوق والكلأ ، وبنو تميم يذكرون هذا كله ، وبنو أسد يؤنثون الهدى (٧) .
- وقال ابن مالك : " ثم نَبّهتُ على أن لغة الحجازيين تأنيث نحو (شَجَر) و (نَخْل) من الأجناس التي تميز أحادها بلحاق التاء ، ولغة أهل نجد وبنو تميم التذكير (٨) .

(١) ابن الأثيري ، المذکر والمؤنث : ١ / ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٢) نفسه : ١ / ٤٣٠ . والأخفش ، معاني القرآن : ١ / ١٧ .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الأحقاف ، نفسه : ١ / ٣٤٧ . والمبرد : ١١٥ . والبلغة : ٨٣ . وأدب الكاتب : ٢٨٨ .

(٤) ابن الأثيري : ١ / ٥٠٣ - ٥٠٥ . والبحر المحيط : ١ / ١٠٩ .

(٥) الزهر : ٢ / ٢٧٧ .

(٦) الآية ١٠٨ من سورة يوسف ، الزهر : ٢ / ٢٥٢ ، والبحر المحيط : ٥ / ٣٥٣ . وفتح اللغة : ٤٠٢ .

(٧) الأخفش ، معاني القرآن : ١ / ١٧٠ . والبحر المحيط : ١ / ٢٥ .

(٨) شرح الكافية : ٤ / ١٧٣٧ ، والبحر المحيط : ١ / ٣٣ و ٣ / ٣٨٠ . ومعاني القرآن للأخفش : ١ / ١٠٥ ، والنسبيل : ٢٥٤ .

وارتشاف الضرب : ١ / ٣٧٦ و ٤٠٣ .

قد يمكن القول : إن ظاهرة التذكير والتأنيث في العربية ، مضافة إلى الجموع والمصدر الثلاثي ، من أكثر الظواهر اللغوية العربية تَفَلُّتًا من قواعد القياس ، واتكاءً على السماع . فلمَّا ورد اللغويون على المؤنثات السماعية دونوا أكثرها دون صرف عناية إلى تحليل إشارات لغوية قد تكون علمًا ضابطاً للظاهرة ، فوردت مثلها شذرات من هنا ، وآخر من هناك ، على غير ضبط واتساق .

وكانت عمدة اللغويين في جهودهم لضبط الظاهرة ، قائمةً على إيجاد علاقة تطابق بين الجنس الطبيعي والجنس النحوي ، فاستقام لهم هذا معياراً نافعاً وجيداً لرصد مجموعة بلئية من مفردات اللغة . ثم اعتمدوا على البنية الشكلية للكلمات المؤنثة سماعياً (مجازياً) فضبطوها بوجود التاء في الرُّسْم أو النُطْق .

وبقيت مثل كثيرة خارج الأطر التي رسمت لضبط الظاهرة ، فاستعانوا بالدلالات الاجتماعية للمفردات ، فجعلوها مؤنثة إن تووضع على تأنيثها وجعلوها مذكرة إن تواضع المجتمع اللغوي على تذكيرها . ثم كانت الدلالة المعجمية عاملاً حاسماً في ميز الجنس النحوي في الألفاظ المشتركة في بنائها المختلفة في معناها ؛ فما كان معناه مؤولاً بمذكر جعلوه مذكراً ، وما كان معناه مؤولاً بمؤنث جعلوه مؤنثاً .

ومع أن اللغويين بذلوا الطاقة كلها والوسع كله ، ومع ما بذلته اللغة لتأسيس فروق شكلية ودلالية بين الجنسين النحويين فيها ، إلا أن نواميسها قد أوقعت في الاشتراك ، فجاءت الأوزان الخمسة متنازعة بين التذكير والتأنيث ، وجاءت بعض الأبنية المختصة بالمذكر متصلة بتاء تشبه تاء التأنيث شكلاً .

ولو انتقلنا إلى اعتبار عامل الزمن وأثره في هذه الظاهرة ، لوجدنا كثيراً صن الأعلام المستعملة في أيامنا هذه متنازعة بين التذكير والتأنيث ، وذلك كقولك : جهاد ونضال وكفاح ، فهي مصادر مذكرة لا تؤنث ، ثم نقلت إلى العلمية ، فدللت على مذكر ، وانتقلت في مرحلة لاحقة إلى التارجح بين التذكير والتأنيث ، وقد يستقر حالها على التأنيث أو تسترجع مكانتها في التذكير فتعود إلى حالها .

أما منشأ التباين ، فلا يعدو أن يكون لهجياً ؛ لما يتوافر بين أيدينا من أدلة صريحة على التباين اللهجي ، أي الأدلة المنسوبة تعييناً . وإذا كان توافر مادة منسوبة ليس جديداً في هذا البحث ، إلا أنها هنا تتميز من الأدلة الأخرى بكثرتها ووفرته ، ثم إنها تكاد تستقيم على هيئة مطردة من الرواية ، لا اختلاف في نسبتها ، مما يعزز وثوقيتها وصدقها . ويمكن القول : إن هذا الباب أصدق الأبواب في توثيق العامل اللهجي وتأثيره في تشكيل التباين ظاهرة ، ثم نظرية .

ويكفينا شاهد واحد للتدليل على أطراد التمييز اللهجي ، قال ابن مالك شارح الكافية :
 " ثم نبّهت على أن لغة الحجازيين تانيث نحو (سَجَر) و (نَخْل) والأجناس التي تتميز أحادها بلحاق التاء . ولغة أهل نجد وبني تميم التذكير " (١) .

وهذه قاعدة مُطَرَّدة ، محددة المعالم ، ومضبوطة على هيئة مخصوصة نستطيع بالاعتماد عليها إصدار حُكْم - ونحن مطمئنون إلى صحته - بأن كل ما جاء مؤنثاً على هذه الشاكلة فهو للحجاز ، وكل ما جاء مذكراً فهو لتميم ونجد . وعليه يمكن القول : هذه النحل للحجاز ، وهذا النحل لتميم وأهل نجد ، وأمثلة كثيرة من هذا القبيل .

وقد يبدو لفعل الزمن تأثير قليل في الالتباس بين التذكير والتانيث ، ذلك أننا نرد على أمثلة نادرة ، فرّق فيها بين المذكر والمؤنث ، مع أن الأكثر على المساواة بينهما ، من ذلك : أن كلمة (فرس) للمذكر والمؤنث ، ولكن ثمة استخدامات أخرى ، فقد قيل : فرس ذكر وفرس أنثى ، وقيل : فرس وفرسة (٢) . ويمكن أن نتصور فعل الزمن في مراحل ثلاث :

| | |
|--------------------|----------------|
| - الأولى : فرس ذكر | وفرس أنثى . |
| - الثانية : فرس | فرسة . |
| - الثالثة : فرس | فرس . |
| ومنه : رجل مسكين | امرأة مسكينة . |
| رجل مسكين | امرأة مسكين . |

(١) شرح الكافية : ٤ / ١٧٣٧ . والبحر المحيط : ١ / ٣٣ و ٣ / ٣٨٠ .

(٢) ابن الأثيري : ١ / ٧٩ .

فقد كانت اللغة تفرق بينهما بالعلامة ، ولكن عامل التطور قد أفضى إلى سقوط التاء ، فباتت متنازعة بين التذكير والتأنيث . وقد يكون حثت العكس ، إذ قد يكون تأنيث المُشترك بالتاء في مثل " عدوة إرهاباً بالاتجاه إلى طرد التأنيث بالتاء .

- فصيلة العدد :

تتكى العربية على نظام ثلاثي العدد ؛ إذ تميّز بين ثلاثة أنواع دالة على العدد ، يتميّز كل واحد منها من الآخرين معنىً ومبنىً ، وهذه الأنواع هي :

- المفرد : وهو كل اسم دلّ على واحد من جنسه ونوعه حسب ، وذلك قولك : طالب وقلم وبيت وصلاة .

- المثنى : وهو كل اسم دلّ على اثنين من جنسه ونوعه ، بإضافة لواحق شكلية معيّنة في آخره ؛ وذلك كقولك : طالبان وقلمان وسيارتان ومدرستان .

- الجمع : وهو كل اسم دلّ على ثلاثة فأكثر من جنسه ونوعه ، بتغييرات بنائية أو لواحق شكلية تلحق آخره ، وذلك كقولك : طلاب وأقلام ومؤمنون وكتب ومهندسات ، ومدارس ، وصلوات .

وتتعين فصيلة العدد في العربية (غالباً) بأدوات شكلية ، وعلامات تلحق الاسم ؛ فتكون علماً على عدده ؛ وبيان ذلك أن المفرد هو الأصل ؛ لأنه غير معلّم ، فينتقل إلى التثنية معنىً ومبنىً بزيادة تلحقه في آخره ، وهي زيادة رهينة بالحالة الإعرابية والموقع النحوي الذي تحتله الكلمة الدالة على التثنية . فإذا كان المثنى في حالة رفع لزمته الألف والنون على غير إضافة ، فإن أضيف سقطت النون . وتتقاسم الياء والنون حالتى النصب والجر في غير الإضافة ، فإن أضيف سقطت النون .

أما المجموع (الجمع) ، فإنه يتعين بأدلة لفظية ومعنوية تعتمد اعتماداً كبيراً على الجنس ، وكذلك يعتمد على أصل البناء صحيحاً ثابتاً أم متغيراً عند الجمع . وذلك أن كل اسم سلّم مفرد من التغيير - سوى الزيادة المخصوصة - عند الجمع عُذُ جمعاً سالماً ، وأما ما تغير بناء مفرد بالزيادة أو الحذف أو تغيير الشكل ، عُذُ جمعاً مكسوراً (تكسير) .

ثم نظروا في البناء السالم ، فوجدوه - بدلالة الجنس - على نوعين :

الأول : جمع المذكر السالم . ودلالة التسمية شافية كافية ، فهو مجموعٌ عدداً ، مذكر جنساً ، سالم بناءً ، ويتعين باللواحق التي تلحق آخره ، وهي لواحق محمولة على المعنى والوظيفة ؛ إذ تلحقه الواو والنون ، لتدل على الجمع وعلى حالة الرفع ، وتلحقه الياء والنون ، لتدل على الجمع والنصب أو الجر . وذلك كقولك :

- اتفق المجتَمعون على صيغة نهائية للمشروع .

- النهضة الفكرية تعتمد على المثقفين .

- تصطفى الجامعة الطلبة المتميزين لتمثيلها خارج البلاد .

الثاني : جمع المؤنث السالم . وهو بناء مختص بالمؤنثات من الأسماء ، ويتعين بزيادة ألف وتاء في آخره ، وتنترق هذه الزيادة عن الزيادة في جمع المذكر السالم والمشى بأنها وقفٌ على دلالة الجمع حسب ، وليس لها أي وظيفة نحوية ؛ إذ إن علامات الإعراب تتحصل على التاء آخرها ، وليست الألف و التاء علامة الإعراب ، وذلك كقولك :

طالبة ← طالبات .

مهندسة ← مهندسات .

طبيبة ← طبيبات .

أما النوع الثاني من الجمع ، فهو ما لم يسلم مفرده عند الجمع ، فتغير بناؤه بالزيادة أو النقص أو تغيير الشكل ، وهو يُعرف بأبنية مخصوصة ، مسموعة ومقيسة ، يبلغ عددها سبعة وعشرين بناءً^(١) . ثم إن اللغويين ميزوا نوعين من هذا الجمع اعتماداً على العدد ، فجعلوه جمع قلة وجمع كثرة .

وجمع القلة موضوع للعدد القليل ، من الثلاثة إلى العشرة ، ويكون على أربعة أوزان

هي : أفعال كأكثب ، وأفعال كأخمال ، وأفعلة كأخمرة ، وفِعْلة كصينية^(٢) .

(١) أوضح المسالك : ٢٧٩ / ٤ .

(٢) نفة ، والصفحة .

أما جمع الكثرة ، فهو ما دلَّ على ما تجاوز العشرة ، ويكون على ثلاثة وعشرين وزناً^(١) .

وهذه الأنواع الثلاثة (مفرد ، مثنى ، مجموع) هي جملة النظام العددي في دلالاته على الأسماء في العربية . ولكنه نظام لا يستفد مفهوم العدد كلياً ، ودلالة ولفظاً ؛ إذ يبقى كثير من الألفاظ أو الأبنية الصرفية متأرجحة ومتنازعة بين هذه الأنواع الثلاثة ؛ ومن ذلك أن تُدَلُّ اللفظة على أكثر من فصيلة عددية واحدة ، فتكون مفردة ومثناة ومجموعة .

ومما أوردته المصادر العربية على وجوه متعددة ، ما يلي :

١- ما جاء مشتركاً بين الثلاثة (مفرداً ومثنى ومجموعاً) :

- الرسول : ويكون مفرداً ومثنى ومجموعاً ، ومذكراً ومؤنثاً ، وهذا يعني أنها تستقيم على ستة أوجه ، هي :

| العدد | مذكر | مؤنث |
|-------|---------------|----------------|
| مفرد | محمد رسولك | هند رسولك |
| مثنى | الرجلان رسولك | المرأتان رسولك |
| مجموع | الرجال رسولك | النساء رسولك |

قال الفراء : " الرسول يكون للواحد والاثنين والجميع ، والمؤنث بلفظ واحد . ويجوز أن يثنى ويجمع ويؤنث ، فيقال : رسولان ورُسُل ورسولة^(٢) . قال تعالى (إنا رسولا ربك)^(٣) فتثنى . وقال في موضع آخر : (إنا رسول رب العالمين)^(٤) فوحد على ما مضى في التفسير .

- الضئيف : يكون للذكر والأنثى والجمع بلفظ واحد^(٥) ، يقال :

(١) أوضح المسالك : ٤ / ٢٧٦ - ٢٩٢ .

(٢) ابن الأثيري ، المذكر والمؤنث : ١ / ٢٩٠ .

(٣) سورة طه : ٤٧ .

(٤) سورة الشعراء : ١٦ .

(٥) ابن الأثيري ، المذكر والمؤنث : ١ / ٢٩٣ . وفقه تعالى : ٤١٣ . ومعان القرآن للأخفش : ٢ / ٣٥٧ . والبيان : ٢ / ٢٥ .

| العدد | مذكر | مؤنث |
|-------|--------------------------|-----------------------|
| مفرد | ضَيْفُكَ مُحَمَّدٌ | ضَيْفُكَ هِنْدٌ |
| مثنى | ضَيْفُكَ الْمُحَمَّدَانِ | ضَيْفُكَ الْهِنْدَانِ |
| مجموع | ضَيْفُكَ الْمُحَمَّدُونَ | ضَيْفُكَ الْهِنْدَاتِ |

وقال الله تعالى : ﴿ هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ﴾ ^(١) ، وقال أيضاً : ﴿ هل أتاك حديثُ ضيفِ إبراهيمَ المكرمين ﴾ ^(٢) . وقال الشاعر في التوحيد في موضع الجمع :
 فمن للضيف إذ جاعوا طروقاً وُعُغِّتِ الأبوابُ فلا هِشاماً ^(٣)

- هجان : ويكون مفرداً ومثنى ومجموعاً ، منكرأ ومؤنثاً ، بلفظ واحد ^(٤) . يقال : هذا هجان ومذان هجان وهؤلاء هجان . ويجوز التنثية فتقول : هذان هجانان .

- الطفل : ويكون منكرأ ومؤنثاً وجمعاً ^(٥) . قال تعالى : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عوزات النساء ﴾ ^(٦) . وقال أيضاً : ﴿ ثم بخرجكم طفلاً ﴾ ^(٧) . ويجوز أن تنثيه وتجمعه وتؤنثه ، فتقول : طفلان وطفلة وأطفال .

- الإنسان : يكون للواحد والاثنين والجمع ، والمؤنث بلفظ واحد ^(٨) . قال تعالى : ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ ^(٩) فالمعنى : أن الناس ؛ لأنه استثنى منه جمعاً ، فقال : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

(١) سورة الحجر : ٦٨ .

(٢) سورة النازعات : ٢٤ .

(٣) ابن الأنباري ، المذكر والمؤنث : ٢٩٣ / ١ .

(٤) شرح الشافعي : ١٣٥ - ١٣٦ . وأسرار العربية : ٥٤ . وسر الصناعة : ٦١٢ / ٢ .

(٥) ابن الأنباري ، المذكر والمؤنث : ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٦) سورة النور : ٣١ .

(٧) سورة غافر : ٦٧ .

(٨) ابن الأنباري ، نفسه : ٣٣٢ / ١ .

(٩) سورة العصر : ٢ .

٢- ما كان مُشترِكاً بين الإفراد والجمع :

- جُنُب : (١) ويكون مفرداً وجمعاً ومؤنثاً ، نقول :

- رجل جُنُب .

- امرأة جُنُب .

- رجال جُنُب .

- نساء جُنُب .

قال تعالى (وإن كنتم جنباً فاطهروا) (٢) فَوَحَّدَ في موضع الجمع .

- الصديق : يكون مذكراً ومؤنثاً وجمعاً باتفاق من لفظه ومعناه ، وذلك أنه لا يخرج

عن معنى الصداقة (٣) ، نقول :

- صديقك قام .

- صديقك قامت .

- صديقك قاموا .

- عبد الله صديقك .

- هند صديقك .

وأنشد الفراء :

فلو أنك في يوم الرخاء سألتني فإراقك لم أبخل وأنت صديق

وقال الفراء : إنما وحد الشاعر " الصديق " ؛ لأنه أراد : وأنت من الصديق . على معنى : إن

قومك أصدقاء ، فوحد الصديق (٤) . ويجوز أن تؤنث الصديق وتثنيه وتجمعه ، فنقول :

صديقة وصديقان وأصدقاء وصديقون وأصدق (٥) .

(١) ابن الأثيري ، المذكر والمؤنث : ٣١٨ / ١ . والأخفش ، معاني القرآن : ٣٥٧ / ٢ .

(٢) سورة المائدة : ٦ .

(٣) ابن الأثيري ، نفسه : ٢٨٦ / ١ - ٢٨٨ .

(٤) ابن الأثيري ، نفسه : ٢٨٦ / ١ - ٢٨٧ .

(٥) السابق : ٢٨٨ / ١ .

- الفلّك^(١) : وتكون للواحد والمجموع . فأما كونه للمجموع ، فنحو قوله تعالى : (في الفلّك المشحون)^(٢) . فأراد به للواحد ، ولو أراد به الجمع لقال : مشحونة . وأما كونه جمعاً ، فنحو قوله تعالى : (حتى إذا كنتم في الفلّك وجرتين بهم يريح طيبة)^(٣) . فأراد به الجمع لقوله : جريّن .

- الطّاغوت^(٤) : وهي مُتَنَازَعَةٌ بين الإفراد والجمع ، " قوم يقولون : هو واحد مؤنث وقوم يقولون : هو اسم جماعة . قال تعالى في التنكير : (يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت وقد أمروا أن يكفروا به)^(٥) فذكر على معنى أن يتحاكموا إلى الشيطان . وقال تعالى في التأنيث (والذين اجتنبوا الطّاغوت أن يعبدوها)^(٦) على معنى : اجتنبوا الألهة . وقال في الجمع : (والذين كفروا أولياؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات)^(٧) فجمع على معنى : أولياؤهم الأصنام .

- السَّمْع : ويكون مفرداً ومجموعاً^(٨) . فقد علّق الأَخْفَشُ على الآية (ولو شاء الله لذهب بسَمْعِهِمْ)^(٩) قائلاً : وجعل السَّمْعُ في اللفظ واحداً وهو جماعة ؛ لأن السَّمْعُ قد يكون جماعة ، وقد يكون مفرداً .

- عَدُوٌّ : ويكون للمفرد والجمع والمذكر . نقول : هؤلاء عدوّ ، وهذا عدوّ^(١٠) . وفي القرآن : (فإنهم عدوّ لي)^(١١) .

-
- (١) ابن الأبياري : ٢٧٨ - ٢٨١ . وأسرار العربية : ٥٤ . والأخفش ، معاني القرآن : ٣٤٢ / ٢ . وفتح اللغة : ٤٠٣ . وسر الصناعة : ٦١٢ / ٢ .
- (٢) سورة يس : ٤١ .
- (٣) سورة بونس : ٢٢ .
- (٤) ابن الأبياري ، المذكر والمؤنث : ٢٨١ - ٢٨٣ .
- (٥) سورة النساء .
- (٦) سورة الزمر : ١٧ .
- (٧) سورة البقرة : ٢٥٧ .
- (٨) الأخفش ، معاني القرآن : ٥١ / ١ .
- (٩) سورة البقرة : ٢٠ .
- (١٠) الأخفش معاني القرآن : ٣٥٧ / ٢ . وشرح ديوان الحماسة : ٤٣٧ / ١ .
- (١١) شرح ديوان الحماسة : ٤٣٧ / ١ .

- دِلاص : وتكون للواحد والمجموع . نقول : دِرْع دِلاص ودروع دِلاص (١) .

- باب فعولنة :

قال أبو عبيد : " الأكلة من الغنم ، التي تعزل للأكل ، والحلوبة التي يحتلبون ، والركوبة التي يركبون ، والعلوفة ما يعلقون ، والجلوبة ما يجلبون . والواحد والجمع في هذا كله سواء " (٢) .

٣ - ما كان مشتركاً بين المثني والمجموع :

وما وقفت من هذا الباب إلا على كلمة واحدة ، هي : البراء . قال الفراء : الاثنان والثلاثة والمؤنث في البراء موحد ، تقول : نحن البراء منك ، والنساء يقلن أيضاً : نحن البراء منك ، ممدود " (٣) .

وبالنظر إلى هذه الألفاظ وأمثلتها ، نجد أن المرجح فيها أن استعمال العرب لها جار على وجوه متباينة في العربية الفصحى ؛ إذ لم ترد أي إشارة تدل على العامل اللهجي أو ما يشبهه في تحديد مصدر مثل هذا التباين . ومما يعزز ذلك أن القرآن اشتمل على كثير من هذه المفردات ، مما يرجح أنها كانت معروفة ومتداولة لدى العرب على وجوهها .

(١) شرح ديوان الحماسة : ٩٤ / ١ . وأسرار العربية : ٥٤ . وسم الصناعة : ٦١٢ / ٢ .

(٢) الغريب المصنف . ٥١٦ / ٢ .

(٣) المقصور والملود : ٢٦ .

الفصل الرابع

التباين في البنية النحوية

المبحث الأول : في المطابقة :

- المطابقة بين الفعل والفاعل جنساً وعدداً .
- كلا وكلتا .

المبحث الثاني : في الوظائف النحوية :

- ما الحجازية وما التميمية .
- في علامة إعراب المثني .
- في الاستثناء المنقطع .
- في خبر لا النافية للجنس .

المبحث الثالث : الاشتراك في الأدوات :

- التباين في وجوه حتى .
- التباين في وجوه لن .

المبحث الأول في المطابقة

- المطابقة بين الفعل والفاعل جنساً :

تُميزُ العربيةُ جنسين نحويين ، هما المذكر والمؤنث ، وعلى هذين الجنسين يعتمد البناء الشكلي للجملة العربية ، من حيث مقتضيات المطابقة في الجنس والعدد والحالة الإعرابية . وتتعين خصيصة التذكير أو التأنيث ، وأثرها في بناء الجملة ، بدلالات مخصوصة ، قد تكون شتلية ظاهرة في النطق والرسم ؛ إذ تظهر على هيئة لواحق دالة على التأنيث ، وقد تتعين بدلالات عُرفية يتواضع عليها أبناء المجتمع الكلامي الواحد .

ولما كانت العربية على إقامة فرق بين المذكر والمؤنث ، وجَب أن يولَِي هذا التفريق علامات تلحق الفعل ؛ لتكون علماً على إسناده إلى مذكر أو مؤنث ، فكانت ناء التأنيث الساكنة مميزةً للمسند إليه المؤنث من المذكر ، وذلك جارٍ على قياسها على ناء التأنيث اللاحقة للاسم . وهكذا يستقيم لنا القول في التذكير :

- اشترى زيدٌ كتاباً .

- نَزَلَ المطر .

- فرغ محمد من الامتحانات .

- ارتفع ثمن النفط الخام .

- كُسِرَ القلْبُ .

- سَمِعَ دويُّ الرصاص .

- نَفَّذَ القرارُ .

وفي التأنيث :

- اشترت رُباً كتاباً .

- اشكتت الريحُ .

- فرغت فاطمة من الامتحانات .

- زُرِعَتْ أشجار كثيرة .
- أَسْدَلَت الستارة .
- أُلغِيَتْ مناقشة قانون الموازنة .

وهذا الوجه من المطابقة لا اختلاف فيه ولا تباين ، وعليه تبنى الأحكام الأخرى . ومع أنه استقر للفعل المسند إلى مؤنث أن تلزمه التاء ، إلا أننا نقف على مفترق طرق في النظر إلى هذا المؤنث ، فاختلف حكم اتصال هذه التاء بالفعل بين وجوب وجواز ، وذلك على النحو الآتي :

أولاً : واجب التانيث . ويكون في مسألتين ^(١) :

الأولى : أن يكون الفاعل متصلًا ، لا يفصل بينه وفعله فاصل ، وذلك قولك : هند قامت والشمس طلعت ، ولا يجوز إلقاء التاء إلا في الشعر ، إن كان التانيث مجازياً . فإن انفصل الفاعل جاز ترك التاء ، كقولك : ما قام إلا هي .

الثانية : أن يكون الفاعل متصلًا ظاهراً حقيقياً التانيث ، وجاء عليه قول الله تعالى : (إذ قالت امرأة عمران) ولا يجوز هنا التذكير مطلقاً . ونقل سيبويه قول بعض العرب : قال فلانة ، وعلق عليه قائلاً : " وكلما طال الكلام فهو أحسن ، نحو : قولك : حَضَرَ القاضي امرأة ؛ لأنه إذا طال الكلام كان الحذف أجمل . وكأنه شيء يصير بدلاً من شيء " ^(٢) وقال ابن هشام في قول سيبويه : قال فلانة ، وهو رديء لا ينقاس ^(٣) .

ثانياً : جاز التانيث :

وهو ما احتمل الوجهين ؛ لحاق التاء أو تركها . وذلك في مسألتين ^(٤) :

- الأولى : أن يكون الفاعل منفصلاً ، وذلك قولك :

(١) أوضح المسالك : ٩٧/٢ - ١٠٠ . وشرح ابن عقيل : ٤٣٢ - ٤٣٣ . وسيبويه : ٣٨/٢ - ٤٠ .

(٢) الكتاب : ٣٨/٢ - ٤٠ .

(٣) أوضح المسالك : ١٠٠/٢ .

(٤) أوضح المسالك : ١٠١ - ١٠٣ . وابن عقيل : ٤٣٣ - ٤٣٥ . وسيبويه : ٣٨/٢ - ٤٠ . وشرح الفصل : ٩٢ - ٩٣ .

ونائج الفكر : ١٦٩ .

- حضر القاضي اليوم امرأة .
- حَضَرَتِ القاضي اليوم امرأة .
- قام اليوم هنّد .
- قامت اليوم هنّد .

والتأنيث أكثر .

ويفترع على هذا الوجه ، أن يكون الفاصل (إلّا) ، فإن كانت فالتذكير حَمَثب . ولا يكون التأنيث إلّا في الشعر ، نص عليه الأخفش وجوّزه ابن مالك في النثر ^(١) . وعليه قرئ : (إن كانت إلّا صيحةً) ^(٢) و (فأصبحوا لا ترى إلّا مساكنهم) ^(٣) .

-الثانية : أن يكون الفاعل مجازي التأنيث ، كقولك :

طلع الشمسُ و طلعت الشمسُ .

وينضوي تحت هذا الباب كل اسم جلس واسم جمع ، وذلك لأنهن في معنى الجماعة ، والجماعة مؤنث مجازي ، ولذلك جاز التأنيث في :

- (كذبت قبلهم قومُ نوح) ^(٤) .

- (قالت الأعرابُ أمنا) ^(٥) .

- أورقت الشجرُ و أورقَ الشجرُ .

- (كذب به قومك) ^(٦) .

- (قال نسوةٌ) ^(٧) .

وإذا أسند الفعل إلى المجموع كان على ضربين :

(١) أوضح المسالك : ١٠١ / ٢ . انظر رأي ابن مالك في شرح ابن عقيل : ٤٣٥ / ١ . ورأي الأخفش : ارتشاف الضرب : ٧٣٤ / ٣ .
 (٢) سورة يس : ٢٩ .
 (٣) سورة الأحقاف : ٣٥ .
 (٤) سورة الشعراء : ١٠٥ .
 (٥) سورة الحجرات : ١٤ .
 (٦) سورة الأنعام : ٦٦ .
 (٧) سورة يوسف : ٣٠ .

- واجب التذكير : وذلك إذا كان الفاعل جمع سلامة لمذكر ، نقول :

قام الزيدون ولا يجوز قامت الزيدون .

- جائز التذكير والتأنيث : وذلك إذا كان جمع تكسير لمذكر كالرجال ، أو لمؤنث

كالهنود ، أو جمع سلامة لمؤنث كالهندات ، نقول :

قام الرجال و قامت الرجال .

قام الهنود و قامت الهنود .

قام الهندات و قامت الهندات .

ويكون إثبات التاء لتأوله بالجماعة ، وحذفها لتأوله بالجمع^(١) ، كأنك تقول :

قام جَمْعُ الرجال و قامت جماعةُ الرجال .

قام جمعُ الهنود و قامت جماعةُ الهنود .

قام جَمْعُ الهندات و قامت جماعةُ الهندات .

وأكثر ما يكون انعكاس هذا التباين في المطابقة ، في القراءات القرآنية التي جاءت مشخصة للوقائع اللغوية المتداولة آنذاك ، ومما أوردته كتب القراءات والتفسير ، المثل التالية :

(وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةً)^(٢)

قري : تقبل بالياء والتاء ، فمن قرأ بالتاء فلأن الشفاعة مؤنثة . ومن قرأ بالياء فلأن تأنيثها غير حقيقي ، ولأنه فصل بين (يقبل) وبين (شفاعة) . وإذا وجد الفصل بين الفعل والفاعل ، قوي التذكير^(٣) .

- (زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)^(٤)

(١) سيوسه : ٣٨ / ٢ - ٤٠ . وأوضح المسالك : ١٠٤ - ١٠٦ . ومعاني القرآن للأخفش : ٩٠ - ٩١ . وشرح ابن عقيل :

٤٣٨ / ١ . وارتشاف الضرب : ٧٣٤ - ٧٣٨ . وشرح المفصل : ١٠٣ - ١٠٦ . والسهلي ، نتائج الفكر في النحو :

١٦٧ - ١٦٨ .

(٢) سورة البقرة : ٤٨ .

(٣) البيان : ٨١ / ١ . ومعاني القرآن للأخفش : ٢٦ / ١ .

(٤) سورة البقرة : ٢١٢ .

إنما قال : زَيْنَ ولم يقل زَيْنَت - وإن كانت الحياة مؤنثة - لوجود الفاصل الواقع بينهما ، على أنه يجوز فيه ترك علامة التأنيث مع عدم الفاصل ؛ لأن تأنيث الحياة ليس بحقيقي . والفعل يجوز فيه ترك علامة التأنيث إذا كان التأنيث غير حقيقي نحو : حَسَنَ الدَّارُ ، واضطرم النارُ ، إلا أن وجود الفاصل يزيد ترك العلامة حُسناً^(١) نحو :

حَسَنَ اليَوْمَ الدَّارُ .

و اضطرم اليَوْمَ النارُ .

- (فمن جاءه موعظة من ربه)^(٢)

إنما ذكر (جاء) لثلاثة أوجه^(٣) :

الأول : إنما ذكره حملاً على المعنى ؛ لأن موعظة بمعنى (وعظ) والحمل على المعنى كثير في كلامهم .

الثاني : إنما ذكر ؛ لأن تأنيث موعظة ليس بحقيقي .

الثالث : إنما ذكر ؛ لوجود الفاصل بالهاء .

- (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي)^(٤)

وقرى : فناداه ، بالتذكير ، أراد جمع الملائكة ، وكذلك في فعل جماعة التذكير والتأنيث سواء كانت الجماعة لمذكر أو لمؤنث ، نحو : قال الرجال وقالت الرجال ، وقال النساء وقالت النساء ؛ فالتذكير بالحمل على معنى الجمع ، والتأنيث بالحمل على معنى الجماعة.^(٥)

- (وأخذ الذين ظلموا الصبحة)^(٦)

إنما قال : أخذ ؛ بحذف التاء لثلاثة أوجه^(٧) :

(١) البيان : ١ / ١٤٩ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٥ .

(٣) البيان : ١ / ١٨٠ .

(٤) سورة آل عمران : ٣٩ .

(٥) البيان : ١ / ٢٠٢ .

(٦) سورة هود : ٦٧ .

(٧) البيان : ٢ / ٢٠ .

- الأول : أنه فصل بين الفعل والفاعل بالمفعول وهو (الذين ظلموا) .
 الثاني : لأن تأنيث الصيغة غير حقيقي ؛ ألا ترى أنه يجوز أن تقول :
 حَسُنَ دُلُوكَ واضطرم نارُك .
 الثالث : أنه محمول على المعنى ؛ لأن الصيغة في معنى الصياح .

- (إن رحمة الله قريب) (١) :

إنما قال : قريب بالتذكير ؛ لثلاثة أوجه : (٢)

- الأول : أنه نكّره حملاً على المعنى ؛ لأن الرحمة بمعنى الرحم وهو منكر .
 الثاني : أنه نكّره لأن المراد بالرحمة المطر وهو منكر .
 الثالث : أنه نكّره على النسب ، أي ذات قريب ، كقولهم : امرأة طالق وطسامت
 وحائض ، أي : ذات طلاق وطمئت وحيض .

وقد تُحمَل كلمة (قريب) في هذه الآية على التطور وتورة الزمن ، إذ كانت صيغة
 " فعيل " بمعنى " فاعل " من الصيغ المشتركة بين المنكر والمؤنث ، ثم صارت إلى التطور ،
 حتى غلبت فيها التاء علامة فارقة دالة على التأنيث . " وهكذا فالوجه أن (قريب) هي
 وصف مشترك ، وأنه خبر عن (رحمة) المؤنث ، ولا لئس ، وأن هذا الاستعمال يمثل
 طوراً قديماً في استعمال هذه الصيغة " (٣)

- (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) (٤)

وقرى : توفاه رسلنا بالتذكير ، فمن قرأ : توفته بالتأنيث ، فالتأنيث على تقدير : جماعة
 رسلنا ، والتذكير على تقدير : جمع رسلنا ، كقولك : قامت الرجال وقام الرجال ، وكذلك لك

١ (سورة الأعراف : ٥٦ .

٢ (البيان : ١ / ٣٦٥ . ونسمة تعليق ضاف في بحث لهاد الموسى / في التطور النحوي وموقف النحويين منه ، مجلة كلية الآداب بالجامعة
 الأردنية : ٣ م ، العدد الثاني / ١٩٧٢ .

٣ (لهاد الموسى ، في التطور النحوي وموقف النحويين منه ، مجلة كلية الآداب بالجامعة الأردنية ، ٣ م ، العدد الثاني / ١٩٧٢ .

٤ (سورة الأنعام : ٦١ .

في كل جماعة تذكير فعلها وتأنيبه ؛ فالتركيب على معنى الجمع والتأنيث على معنى الجماعة (١) .

- (ولو كان بهم خصاصة) (٢) .

لنكر الفعل حين فرق بينه وبين الاسم (٣) .

- المطابقة بين الفعل والفاعل عدداً :

يستقيم بناء الجملة الفعلية في العربية على نظام من الترتيب محدد لفظاً ورتبة ، وهذا الترتيب هو : فعل ثم فاعل ، وقد يمتد إلى مفعول أو أكثر ، وفقاً لمقتضى لزوم الفعل أو تعديه .

وقد ينشعب هذا الشكل الأساسي إلى أشكال أخرى ، تقتضيها قواعد بلاغية ودلالية ، إذ يقدّم الأهم - حسب سيبويه (٤) ، أو قد يفرض نظام العربية أن يتقدم عنصر على آخر ، كان يتقدم المفعول المضمر وجوباً على الفاعل الظاهر ، ومع ما يحدث من تقديم وتأخير وحذف ، تحتفظ عناصر التركيب برتبتها ، فيبقى الفاعل متقدماً رتبة على المفعول به ، وإن تأخر عنه لفظاً في أحوال مخصوصة .

والأصل أن يتقدم الفعل على الفاعل ، فإن تقدم الفاعل صار مبتدأ على الوجه الراجح . والنظر في مثل حاضرة من العربية ، يقفنا على هيئة واحدة للفعل لا يخرج عليها ، وهي حالة الإفراد ، بصرف النظر عن عدد فاعله (٥) ، فنقول :

- انقشع الضباب .

- سافرَ الوفدان .

- صادقَ المجتمعون على القرار .

- صفتَ السماء .

(١) البيان : ٣٦٥ / ١ .

(٢) سورة الحشر : ٩ .

(٣) الألفاظ ، معاني القرآن : ٩ / ١ .

(٤) انظر : سر صناعة : ٣١٨ / ١ . وأوضح المسالك : ٨٨ / ٢ ، وشرح شذور الذهب : ٢٣٢ - ٢٣٣ . وشرح قطر الندى :

٢٠٥ - ٢٠٦ . ومع المراجع : ٢ / ٢٥٧ . وفتح اللغة : ٢٩٥ . وارتشاف الضرب : ٢ / ٧٤٠ . وشرح ابن عقيل :

٤٢٥ / ١ - ٤٢٦ .

- وقّعت الجامعاتان اتفاقية تعاون ثقافي .
- فتحت المكتبات أبوابها للزائرين .

فإذا تقدم الفاعل (المعنوي) على الفعل صار مبتدأ ، ولزم الفعل أن يتصل بضمير موافق للاسم المتقدم عدداً وجنساً ، نقول :

- الطالب درس .
- الطالبة درست .
- الطالبان درسا .
- الطالبتان درستتا .
- الطلاب درسوا .
- الطالبات درسن .

وهذا هو الأصل المقيس والمسموع بكثرة عن العرب ، أن يفرد الفعل بصرف النظر عن عدد فاعله . ولكننا نرد على لهجة مسموعة ومقيسة ، جاءت على غير (الفصحى) ، إذ ووقف اللغويون على صور للفعل المتقدم على فاعله جاءت مفردة ، وإنما اتصلت بها علامات دالة على عدد الفاعل ، أجروه مجرى الفاعل إذا تقدم على الفعل ، وهذه الأمثلة ليست شاذة أو نادرة وإنما هي لهجة محلية قائمة بذاتها ، ومعروفة بمصطلح خصت به ، فهي لغة " أكلوني البراغيث " أو لغة " يتعاقبون فيكم ملائكة " (١) .

وقد نص سيبويه على هذه اللغة دون نسبة ، فقال : " اعلم أن من العرب من يقول : ضربوني قومك ، وضرباني أخواك ، فشبهوا هذا بالتاء التي يظهرونها في قالت فلانة ؛

(١) اشتهرت هذه اللغة بأكلون البراغيث في حل المصادر ، وسماها ابن مالك لغة " يتعاقبون فيكم ملائكة " . انظر : شرح ابن عقيل :

٤٢٩ / ١ . ومع الفواعل : ٢ / ٢٥٧ . والسهلي ، نتائج الفكر : ١٦٦ .

وكانهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة كما جعلوا للمؤنث ، وهي قليلة ^(١) . ونسبها مصانير
أخرى إلى طيئ ^(٢) وأزد شنوءة ^(٣) وبنو الحارث بن كعب ^(٤) .

ومما أوردوا من أمثلة قولهم :

ضربولي قومك .

ضربنني لسوتك .

ضرباني أخواك .

وقال الشاعر :

لِ أَهْلِ فَكُلُّهُمْ أَوْمٌ ^(٥)

يلومونني في اشتراء النخب

وقال عبّيد الله بن قيس الرقيّات :

وقد أسلّمناه مُبَعَّدَ وَحْمِيمٍ ^(٦)

تولّى قتالَ المارقين بنفسه

وجاء في القرآن الكريم : (فعموا وصدّوا كثيرٌ منهم) ^(٧) .

(وأسرُّوا النجوى الذين ظلموا) ^(٨) .

ثم كان وجود هذه الظاهرة مثار جدل ونقاش ؛ فبعد أن أقرروا بوجودها ظاهرة لهجوية قائمة ، تجري على قياس سليم في لهجة عربية ، بدأوا يجتريحون تفسيرات وتعليقات ووجوه إعراب لها ، فكان الخلاف حول دلالة هذه الحروف الزوائد ، ووظائفها النحوية . ومجمل هذه الآراء ، فيما يلي :

١ (الكتاب : ٢ / ٤٠ .

٢ (أوضح المسالك : ٢ / ٨٨ ، وارتشاف الضرب : ٢ / ٧٤٠ .

٣ (أوضح المسالك : ٢ / ٨٨ ، وارتشاف الضرب : ٢ / ٧٤٠ .

٤ (شرح ابن عقيل : ١ / ٤٢٥ .

٥ (أوضح المسالك : ٢ / ٩٠ . ومعنى اللب : ٤٧٨ . وشرح ابن عقيل : ١ / ٤٢٧ .

٦ (معنى اللب : ٤٨٠ . وأوضح المسالك : ٢ / ٩٤ - ٩٥ . وشرح ابن عقيل : ١ / ٤٢٦ .

٧ (سورة المائدة : ٧١ .

٨ (سورة الأنبياء : ٣ .

الرأي الأول : ومفاده : أن هذه الحروف (الألف والواو والنون) في : قام الزيدان ، وقاموا الزيدون ، وقُمن الهندات ، إنما هي حروف مُطابَقة في العدد ، جاءت لتدل على عدد الفاعل تثنية وجمعاً . وهم في ذلك يقيسونها على التاء في (قامت هند) التي تدل على التأنيث عند جميع العرب ، وهي بذلك لا تؤدي وظيفة نحوية ، فيرتفع الاسم الظاهر بعدها على الفاعلية ، كما ترتفع (هند) بـ (قامت)^(١) .

الرأي الثاني : ومفاده : أن هذه الحروف ذات دلالة معنوية ، وذات وظيفة نحوية ، فتكون ضمائر مرفوعة بالفعل ، والاسم الظاهر بعدها بدل منها^(٢) .

الرأي الثالث : ومفاده : أن هذه الحروف جاءت للدلالة على العدد ، وللقيام بوظيفة الفاعلية ، وما بعدها يكون مرفوعاً بالابتداء ، والجملة الفعلية المتقدمة في محل رفع خبر مقدم^(٣) .

وقد ظهرت هذه الوجوه في توجيه ابن الأنباري للآية (فعموا وسموا كثير منهم) . قال^(٤) : كثير مرفوع لثلاثة أوجه :

- الأول : لأنه مرفوع على البديل من الواو في (عموا وسموا) .
- الثاني : أنه مرفوع لأنه خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : العُمى والصم كثير منهم .
- الثالث : أنه مرفوع ؛ لأنه فاعل (عموا وسموا) . وتجعل الواو للجمعية لا للفاعل على لغة من قال : أكلوني البراغيث ، وهذا ضعيف لأنها لغة غير فصيحة .

١ (انظر سيويه : ٤٠ / ٢ . ودقائق التصريف : ١٤٥ - ١٤٦ . ومع الموامع : ٢٥٧ / ٢ . وشرح ابن عقيل : ٤٢٦ / ١ .
وارتشاف الضرب : ٧٤٠ / ٢ . وأوضح المسالك : ٩٤ / ٢ - ٩٥ . وسر الصناعة : ٣١٨ / ١ .

٢ (أوضح المسالك : ٩٤ / ٢ - ٩٥ . وشرح ابن عقيل : ٢٢٥ / ١ . وسر الصناعة : ٣١٨ / ١ .

٣ (أوضح المسالك : ٩٥ / ٢ . وشرح ابن عقيل : ٤٢٥ / ١ . ومعني اللب : ٤٧٨ - ٤٨٠ . ومع الموامع : ٢٥٧ / ٢ .
وسر الصناعة : ٣١٨ / ١ .

٤ (البيان في غريب إعراب القرآن : ٣٠١ / ١ - ٣٠٢ . وانظر : معني اللب : ٤٧٩ .

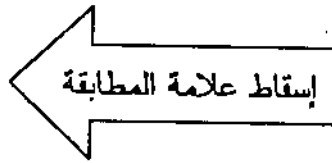
وبمزيد نظر ، يتحقق لنا أن هذه اللهجة تقيم الفعل على هيئة واحدة ، سواء أتقدم الفعل على فاعله أم تأخر ، وفي هذا انتصار لرأي الكوفيين في عد الفاعل إذا تقدم على الفعل اعلأ ، وأن هذه الأحرف لا تعدوا أن تكون للمطابقة في العدد حسب ، فهم يقولون :

| | |
|---------------|---------------|
| الرجل عاد | عاد الرجل |
| البنات عادت | عادت البنات |
| الرجلان عادا | عادا الرجلان |
| البناتن عادتا | عادتا البناتن |
| الرجال عادوا | عادوا الرجال |
| البنات عنن | عنن البنات |

وقد يكون لعامل الزمن أثر في هذا التباين الذي ورد عليه اللغويين ، إذ قد يحتمل أن لهذه اللهجة الطائفة تمثل طوراً متقادماً من أطوار العربية ، كانت فيه تطابق بين الفعل والفاعل جنساً وعدداً ، ثم بدأت هذه اللهجة تتحل شيئاً فشيئاً ، إلى أن استقرت على نحو تنفرد فيه صيغة الفعل مع تثنية الفاعل أو جمعه (١) ، وذلك على النحو التالي :

الطور الثاني / أفراد الفعل

ضربني أخواك
ضربتني أختاك
ضربني إخوتك
ضربتني أخواتك



الطور الأول / المطابقة

ضرباني أخواك
ضربتاني أختاك
ضربوني إخوتك
ضربنني أخواتك

(١) يرى د. إسماعيل حمادة أن لغة "أكلون البراغيث" ذات أصل قدم تشترك فيه العربية مع اللغات السامية . وأن "أكلتي البراغيث" التي أصبحت المعيار والقاعدة - تطور لاحق . انظر : المنشورون والمناهج اللغوية ، ص : ٣٢ .

المطابقة بين كلا وكلتا ومتعلقها

- من حيث الدلالة العددية :

كانت اللفظتان (كلا وكلتا) مثار جدل ونقاش بين البصريين والكوفيين ، ومدار النقاش

دلالة هاتين الكلمتين العددية ، هل تدلان على مفرد أم مثني ؟

وقد خصص الأتباري مسألة كاملة لما يعرض من خلاف في دلالة هاتين الكلمتين العددية بين البصريين والكوفيين ، وهي المسألة الثانية والستون . ومفادُ هذا الخلاف أن الكوفيين يرون أنهما مثني من ناحية اللفظ والمعنى . أما البصريون فيرون أن فيهما إفراداً لفظياً وتنثية معنوية ، واستدلال البصريين قائم على أن الضمير يرد إليهما مفرداً حملاً على اللفظ ، وتارة يرد إليهما مثني حملاً على المعنى (١) .

وعلى ذلك تلزم هاتان اللفظتان حالاً واحدة عند الكوفيين من حيث الدلالة ، وحالين عند البصريين ، وهذه الأحوال تتعكس في بنية التركيب الجملي المتعلق بهما ، وذلك أن السياق يستدعي المطابقة بينهما وبين ما يتبعهما من فعل أو اسم ، وذلك كما يلي :

- حَسَبَ الكوفيين ، نقول :

كلا الطالبين مجتهدان .

كلا الطالبين عادا .

كلتا المدينتين نظيفتان .

كلتا القصيدتين دُرستا .

- أما حَسَبَ البصريين ، فإن فيها وجهين :

الأول : الحمل على اللفظ ، فنقول :

كلا الطالبين مجتهد .

كلا الطالبين عاد .

كلتا المدينتين نظيفة .

كلتا القصيدتين دُرِست .

الثاني : الحمل على المعنى (التنثية) ، نقول :

كلا الطالبين مجتهدان .

كلا الطالبين عادا .

(١) إضافة إلى الإنصاف ، المسألة : ٦٢ . انظر : نتائج الفكر في النحو للسهلي : ٢٨١ - ٢٨٥ .

كلتا المدينتين نظيفتان .

كلتا القصيدتين درمتا .

ونقل عن البصريين إجازتهم : كلاهما ينطلق وكلاهما ينطلقان ^(١) . ومما ورد محمولاً على اللفظ ، قوله تعالى : « كلتا الجنتين أتت أكلفها » ^(٢) فقال : أتت حملاً على اللفظ ، ولو كان معنى لفظاً ومعنى لكان يقول : أتتا ، كما تقول : الزيدان ذهباً ^(٣) .

ومما روي على وجهين ، قول الفرزدق :

كلاهما حين جدّ الجري بيدهما
أقلعا وكلا أنفيهما رابي

فقال : أقلعا حملاً على المعنى . وقال : رابي ، حملاً على اللفظ ^(٤) .

- كلا وكلتا من حيث الوظيفة النحوية :

هما من الألفاظ الملازمة للإضافة ، ولا يضافان إلا لما استكمل ثلاثة شروط هي ^(٥) :

- ١- التعريف ؛ فلا يجوز : كلا رجلين وكلتا امرأتين ، خلافاً للكوفيين .
- ٢- الدلالة على اثنين ؛ إما بالنص نحو (كلاهما) و (كلتا الجنتين) أو بالاشتراك نحو قوله : كلانا غني عن أخيه حياته ؛ فإن كلمة (نا) مشتركة بين الاثنين والجماعة .
- ٣- أن يكون كلمة واحدة ؛ فلا يجوز : كلا زيد وعمرو .

وهما لا تعدوان في الإضافة أن تكونا على واحدة من هيتين ، تتحكما في الوظيفة النحوية لهما . وهما :

الأولى : إذا أضيفتا إلى اسم ظاهر ، عوملتا معاملة الاسم المقصور من حيث علامة الإعراب ، وقامتا بوظيفة نحوية محكومة بالسياق ، فتعرب بحركات مقدره على الألف ، كما هو الحال في " عصا ورحى " . وعليه الآية : « كلتا الجنتين » ؛ فقد جاءت (كلتا) مرفوعة على الابتداء بعلامة مقدره على الألف وهي مضافة ، والجنتين مضاف إليه .

(١) ارتشاف الضرب : ٤ / ١٩٤٩ .

(٢) سورة الكهف : ٣٣ .

(٣) الألف ، معاني القرآن : ٢ / ٢٩٦ . والإنصاف : ١ / ٤٤٢ . ونتائج الفكر : ٢٨٢ .

(٤) الإنصاف : ٢ / ٤٤٦ - ٤٤٧ . وأسرار العربية : ١٥٣ .

(٥) أوضح المسالك : ٣ / ١٢٣ - ١٢٥ . وشرح شذور اللعاب : ٨٣ - ٨٤ . وشرح قطر الندى : ٦٨ - ٦٩ .

الثانية : إذا لضيفتا إلى اسم مضمّر (ضمير) ألحقنا بالمتنى ، وأعربتنا بالحركات ، الألف رفعاً والياء نصباً وجرأً ، ولزمتا وظيفة نحوية واحدة هي التوكيد .

ثم إننا نرد على تراكيب فارقت القياس السابق ؛ إذ ورد عن بعض العرب أنهم يلزمون (كلا وكنتا) الألف ، ولا يقبلونها لا مع ظاهر ولا مع مضمّر ^(١) . وعلى ذلك يقولون :

جاء الرجلان كلاهما .

زرت الرجلين كلاهما .

سلمت على الرجلين كلاهما .

أكلت التفاحتين كلتاهما .

جاء كلا الرجلين .

مررت بكلا الرجلين .

أكلت كلتا التفاحتين .

سلمت على كلا الرجلين .

" وأجاز الفراء : مررت بالرجلين كلاهما بالألف ، وللكسائي والفراء لجريا (كلا) مع المنظر مجراها مع المضمّر ، ومنع ذلك البصريون في المسألتين " ^(٢) .

وبعيداً عن مقاييس الفصاحة أو الشنوذ ، فإن هذه اللهجة مسموعة وموثوقة ، وأصعب أنها تسيّر على قياس واحد مطّرد ، فهي تعامل الكلمتين باعتبار واحد ، حال الإضافة إلى ضمير أو اسم ظاهر ، فلا تعد الموقع علماً على تغيير الحركة أو ثبوتها ، وهذا اتصاف لا مدافع له ، وهو قانون اقتصادي جرى عليه قياس هذه اللغة غير المنسوبة .

وقد تكون هذه اللهجة على علاقة بإحدى اللهجات العربية ، وهي لهجة " بلحارث بن كعب " التي تلزم المتنى الألف رفعاً ونصباً وجرأً ، وتعربه بحركات مقدرّة على تلك الألف .

ومنشأ هذا التباين في الأساس ، الاستخدام اللغوي ؛ إذ ورد اللغويون على استعمالات متعددة لهاتين اللفظتين ، فتأولوا لها وقعدوها بالنظر إلى المعنى وبالنظر إلى المبنى ، وهكذا

(١) شرح المفصل : ٤ / ٣ . وارتشاف الضرب : ٤ / ٤٩٩ .

(٢) ارتشاف الضرب : ٤ / ١٩٩٩ .

يكون عامل (المعنى والمبنى) ركناً أساساً في ضبط هذا التباين واستكشاف أصوله ، كما ظهر ضابطاً في وجوه تباين أخرى .

المبحث الثاني

في الوظائف النحوية

(ما) الحجازية و (ما) التميمية :

لعل هذا الباب أعرف أبواب التباين في العربية ، ولعله أدلها على دور العامل اللسهي في نشأة التباين وسيورته في ظواهر العربية الأخرى . وأصل هذا التباين رهين بالوظيفة النحوية التي تقوم بها (ما) ، وما تحدثه هذه الوظيفة من تغيرات في الوظائف النحوية لعناصر التركيب الذي تتنظم فيه .

وبيان ذلك ، أنها متأرجحة بين الإهمال والإعمال وفق شروط مخصوصة . فقد أهملتها بنو تميم ، وجعلوا دخولها كخروجها ، فقالوا : ما زيد قائم ، رفعوا زيدا على الابتداء ، وقائم خبره ، و (ما) لا تعدو أن تكون نافية في المعنى ، غير عاملة في بنية التركيب شيئا . وإنما أهملوها لأنها حرف غير مختص ، يدخل على الفعل وعلى الاسم ، تقول : ما زيد قائم ، وما يقوم زيد ، وغير المختص حقه ألا يعمل قياساً (١) .

أما أهل الحجاز ، فأعملوها عمل " ليس " وإنما كان إجراؤهم إياها هذا المجرى لشبهها " ليس " في النفي (٢) . وعلى الإعمال جاء القرآن الكريم في مواضع متعددة قال تعالى : « ما هذا بشراً » (٣) . وقال أيضاً : « ما هن أمهاتهم » (٤) .

ثم إنهم وضعوا لإعمالها شروطاً أربعة (٥) :

الأول : أن لا يقترن اسمها بان الزائدة ، كقوله :

- (١) سيبره : ٥٧ / ١ . والإنصاف : ١٦٥ / ١ . وشرح ابن عقيل : ٢٧٩ / ١ . وشرح شذور الذهب : ٢٥٩ . وشرح المفصل : ١٠٨ / ١ . ومجالس نعلب : ٣٥٤ / ٢ . والفراء ، معاني القرآن : ٤٢ / ٢ و ١٣٩ / ٣ .
- (٢) سيبره : ٥٧ / ١ . والإنصاف : ١٦٥ / ١ . وأوضح المسالك : ٢٤٦ - ٢٥٤ . وشرح ابن عقيل : ٢٧٩ / ١ . وشرح المفصل : ١٠٨ / ١ . وشرح شذور الذهب : ٢٥٠ . وارتشاف الضرب : ١٩٩٧ - ١٢٠١ . والتسهيل : ٥٦ - ٥٨ .
- (٣) سورة يوسف : ٣١ . انظر البحر المحيط : ٣٠٤ / ٥ .
- (٤) سورة المجادلة : ٢ .
- (٥) أوضح المسالك : ٢٤٦ / ١ . وشرح شذور الذهب : ٢٥٥ . وشرح المفصل : ١٠٨ / ١ .

بني عُدانة ما إن أنتم ذهب .

الثاني : أن لا ينتقض نفي خبرها بإلّا . فلذلك وجب الرفع في : (وما محمد إلا رسول) (١) .

الثالث : أن لا يتقدم الخبر ، كقولهم : ما مسيء من أعتب .

الرابع : أن لا يتقدم معمول خبرها على اسمها ، كقول مزاجم العقبلي :

وما كل من وإلى منى أنا عارف

وأضاف ابن عقيل شرطين (٢) :

الأول : ألا تتكرر ما ، فإن تكررت بطل عملها نحو : ما ما زيد قائم . فلا يجوز نصب (قائم) .

الثاني : ألا يُبدل من خبرها موجب ، فإن أبدل بطل عملها نحو : ما زيد بشيء إلا شيء لا يعبا به ، فبشيء في موضع رفع خبر عن المبتدأ الذي هو زيد ، ولا يجوز أن تكون في موضع نصب خبر عن (ما) وأجازه قوم .

وقد لخص ابن يعيش القول في الوجهين بقوله : " فاللغة الأولى أقيس ، والثانية أفصح ، وبها ورد الكتاب العزيز " (٣) .

ثم كان مما اختلفوا فيه ، دخول الباء الزائدة على الخبر ، قال ابن عقيل : " ولا تختص زيادة الباء بعد (ما) بكونها حجازية ، خلافاً لقوم ، بل تزداد بعدها وبعد التميمية ، وقد نقل سيبويه والفراء -- رحمهما الله تعالى -- زيادة الباء بعد (ما) عن بني تميم . فلا التفات لمن منع ذلك ، وهو موجود في أشعارهم . وقد اضطرب رأي الفارسي في ذلك ، فمرة قال : لا تزداد الباء إلا بعد الحجازية ، ومرة قال : تزداد في الخبر المنفي " (٤) .

(١) سورة آل عمران : ١٤٤ .

(٢) شرح ابن عقيل : ٢٨٣ / ١ .

(٣) شرح المفصل : ١٠٨ / ١ . وارتشاف الضرب : ١١٩٧ / ٣ - ١٢٠٣ .

(٤) شرح ابن عقيل : ١٨٥ / ١ . انظر رأي الفراء في معاني القرآن : ٤٢ / ٢ .

كذلك اختلفوا في عامل النصب في خبر (ما) ، فجعله البصريون منصوباً بـ (ما) ،
 وذهب الكوفيون إلى أن الاسم غير منتصب بما ، وإنما هو منتصب بإسقاط الخافض وهو الباء ،
 كان أصله : ما زيدٌ بقائم ، فلما سقطت الباء انتصب الاسم ^(١) ، وهذا غير مرضي - حسب ابن
 يعيـش ^(٢) .

وهكذا يستقيم لنا في (ما) هذه وجهان من التركيب ، تميمي وحجازي ، وبيان ذلك ما
 يلي :

نقول : ما زيدٌ قائمٌ .

ما : حرف نفى مبني على السكون . وليس له سوى دلالة النفي حسب .

زيد : مبتدأ مرفوع . احتفظت الكلمة بوظيفتها قبل دخول (ما) .

قائم : خبر مرفوع . احتفظت الكلمة بوظيفتها قبل دخول (ما) .

وهذا هو الوجه التميمي .

أما الوجه الحجازي ، فنقول فيه :

- ما زيدٌ قائماً .

ما : حرف نفى ، بمعنى ليس ، ينفي معنى ويعمل الرفع في المبتدأ والنصب في الخبر
 وينقلهما إلى مسميات جديدة ، اسم (ما) وخبرها .

زيدٌ : اسم (ما) مرفوع .

قائماً : خبر (ما) منصوب .

ومنشأ هذا التباين هو الاستخدام اللغوي الخالص ، وهو استخدام - على تباينه - جارٍ
 على القياس ؛ فأهل الحجاز يقيسون (ما) على " ليس " لشبه معنوي ، فالدلالة الواحدة عندهم
 مرجحة للتشابه في الأعمال والوظيفة النحوية . أما قياس التميميين فهو جارٍ على
 الفصحى ، التي لا تُعمل الحرف غير المختص ، فأهملوها لعدم اختصاصها . وكلا الوجهين

(١) الإنصاف : ١٦٥/١ . وشرح المفصل : ١٠٨/١ . وهذا رأي الخليل في الجمل : ٩٣ - ٩٤ .

(٢) شرح المفصل : ١٠٨/١ . وانظر البحر المحيط : ٥٥/١ .

متقبل سائغ لأنه جارٍ على قياس لغة من لغات العرب ، وما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم .

في علامة إعراب المثني !

الاسم المثني واحد من الأسماء التي تعرب بالعلامات الفرعية بالنيابة ؛ فهي تعرب بالحروف نيابة عن حركات الإعراب ، وفق شروط مخصوصة ، رهينة بالوظائف النحوية التي يؤديها الاسم المثني . إذ يُرْفَعُ بالألف نيابة عن الضمة ، وينصب بالياء نيابة عن الفتحة ، ويجر بالياء نيابة عن الكسرة ؛ وذلك كقولك :

- المسألتان المهمتان هما الاقتصاد والمياه .
- أوفدت الجامعة مبعوثين إلى العراق وتونس .
- وافق المجلس على تعيين أستاذين جديدين .

والوجه المشهور في المثني ، أن الألف والياء هما علامتا الإعراب ، وذهب ابن مالك إلى أن علامات الإعراب في المثني والملحق به ، إنما تكون مقدرة على الألف رفعاً ، والياء نصباً وجرأ ؛ فالضمة تقتدر على الألف ، والفتحة والكسرة تقدران على الياء ^(١) .

والرفع بالألف ، والنصب والجر بالياء ، هو المشهور المتداول استعمالاً وتظهيراً باتفاق . ولكن من العرب من يخرج على هذا المشهور ، فيُلْزَمُ المثني الألف رفعاً ونصباً وجرأ ، وتكون علامات الإعراب مقدرة على الألف ، وهؤلاء يقولون :

- جاء الزيدان كلاهما .
- رأيت الزيدان كلاهما .
- مررت بالزيدان كلاهما .

(١) شرح ابن عقيل : ٦٠ / ١ .

وهي منسوبة إلى بلحارث بن كعب^(١) وَخَنَعَمَ وَزَيْدٍ وَكِنَانَةَ وَبَطْنَ مِنْ رَبِيعَةَ^(٢) .

وقد أوردت المصادر اللغوية عدداً من المثل شواهد على هذه اللهجة ، لعل أهمها :

قول هُوَيْرِ الحارثي^(٣) :

تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أَذْنَاهُ طَعْنَةً دَعْنَةً إِلَى هَابِي الترابِ عَقِيمٍ

فالزوم (أذناه) الألف ، وهي في موقع مضاف إليه .

وقال آخر^(٤) :

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قَدْ بَلَّغْنَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَاهَا

فالزوم (غايتها) الألف ، مع كونها في موضع نصب مفعول به .

وأكثر الأمثلة على هذه الظاهرة إثارة للجدل ، الآية الكريمة : (إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ)^(٥) ؛ إذ حملت على وجوه متعددة ، كان أحدها الحمل على لغة بلحارث بن كعب . قال الخليل : " فقد ذكر عن ابن عباس أنه قال : إن الله - تبارك اسمه - أنزل القرآن بلغة كل حي من أحياء العرب ، فنزلت هذه الآية بلغة بلحارث بن كعب ، لأنهم يجعلون المشى بسالآلف - في كل وجه مرفوعاً ، فيقولون : رأيت الرجلان ومررت بالرجلان وأتاني الرجلان ، وإنما صار كذلك ؛ لأن الألف أخفُّ بنات المدِّ واللين " ^(٦) .

وقال الفراء في هذه الآية : " فقرامتنا بتشديد (إن) وبالألف على جهتين : إحداهما : على لغة بني الحارث بن كعب : يجعلون الاثنتين في رفعهما ونصبهما وخفضهما بالألف . وأنشدني رجل من الأسد عنهم - يريد بني الحارث - :

١ (التسهيل : ١٢ . وشرح شذور الذهب : ٧٤-٧٥ . وسر الصناعة : ٧٠٥ / ٢ . والجمال للعليل : ١٣٢ . ومعان القرآن للأخفش : ١١٣ / ١ .

٢ (شرح شذور الذهب : ٧٤-٧٥ . وسر الصناعة : ٧٠٥ / ٢ .

٣ (سر الصناعة : ٧٠٥ / ٢ . والجمال للعليل : ١٣٣ . وشرح شذور الذهب : ٧٥ .

٤ (سر الصناعة : ٧٠٥ / ٢ . وشرح شذور الذهب : ٧٦ .

٥ (سورة طه : ٦٢ .

٦ (الجمال : ١٣٢ . وانظر : معان القرآن للأخفش : ١١٣ / ١ .

مساغاً لنبأه الشجاع لصمًا

فأطرق إطراقَ الشجاع ولو يرى

قال : وما رأيت أفصح من هذا الأسدي . وحكى هذا الرجل عنهم : هذا خط بدأ أخي

بعينه . وذلك - وإن كان قليلاً - أقيس^(١) .

- في الاستثناء المنقطع :

وأسلوب الاستثناء أحد أساليب العربية التي تتأدى على وجوه متعددة ، تبعاً لتعدد أحوال المقام والغرض . وينضبط بضوابط تركيبية لا يغادرها على التقريب . وهو يعبر عن خصيصة الاقتصاد في التداول اللغوي بالعربية ؛ إذ إنه يتكلف التعبير عن جملتين مختلفتي المعنى والتركيب في جملة واحدة . فإداة الاستثناء رابط تركيبية ودلالية بين جملتين أساس الأولى المستثنى منه ، وأساس الثانية المستثنى ، فقولك : جاء القوم إلا زيدا ، إنما هي - في بنائها العميق - جملتان :

- جاء القوم .

- لم يجرى زيد . / لم يجرى من القوم زيد .

وهكذا ربطت (إلا) بين الجملتين معنى وحكماً ، فجعلت ما بعدها خارجاً من حكم ما

قبلها معنى ووظيفة .

ويتعين أسلوب الاستثناء بوجوه متعددة ، أهمها :

- الاستثناء التام المثبت : وهو ما توافرت فيه عناصر الاستثناء كاملة غير

منقوصة . ويلزم الاسم الواقع بعد إلا حالاً واحدة لا يفارقها ، وهي النصب على

الاستثناء مطلقاً ، بصرف النظر عن الوظيفة النحوية التي يؤديها المستثنى

منه ، وسواء أكان الاستثناء منقطعاً أم متصلاً . نقول :

- زلوني أصدقائي إلا محمداً .

- حَلَلْتُ الأَسْئَلَةَ إلا الأَوَّلَ .

- رحبت بالضيوف إلا سعيداً .

- الاستثناء التام المنفي : وهو ما توافرت فيه عناصر الاستثناء ، ولكنه منفي أو شبه منفي وحكم الاسم الواقع بعد إلاّ النصب على الاستثناء أو الاتباع على البديل من المستثنى منه . نقول :

- ما وصل المسافرون إلاّ زيداً / زيد .
- ما قرأت الكتاب إلاّ صفحة .
- ما مررت بأحد إلاّ علياً / علي .

وهذا الحكم ينسحب على الاستثناء المتصل ، فإن انقطع الاستثناء احتمل وجوهاً متباينة ومتعددة . وانقطاع الاستثناء يعني أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه .

والأصل في الاستثناء المنقطع أن يلزم حالاً واحدة لا يخرج عليها ، وهي النصب على الاستثناء ، فنقول :

- ما وصل الضيوف إلاّ حقائبهم .
- ما سمعتُ القوم إلاّ بكاءهم .
- ما مررت بالقوم إلاّ أمتعتهم .

فلا يجوز الاتباع على البديل .

ثم جعل اللغويون هذا الاستثناء المنقطع على وجهين ، وفقاً لواقع الاستعمال والتداول ، هما :

- الأول : واجب النصب عند جميع العرب باتفاق ، وذلك إذا " لم يمكن تسليط العامل على المستثنى ، نحو : ما زاد هذا المال إلاّ ما نقص ، إذ لا يقال : زاد النقص ، ومثله : ما نفع زيد إلاّ ما ضرّ ، إذ لا يقال : نفع الضرّ " (١) . وعليه قول الله تعالى : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم ﴾ (فـ مَنْ) في موضع نصب ، لأنه من غير جنس المستثنى منه ، فعاصم فاعل و (مَنْ رحم) معصوم

من رحمة الله ، والفاعل ليس من جنس المفعول ، وهذا لا يجوز فيه إلا النصب على الاستثناء لتعذر البديل (١) .

- الثاني : واجب النصب عند أهل الحجاز ، ومتأرجح النصب والاتباع عند تميم ، إذا أمكن تسليط العامل على المستثنى . وقد فسّر اتباع تميم في الاستثناء المنقطع ، على وجهين (٢) :

أحدهما : أنك إذا قلت : ما جاني رجلٌ إلا حمارٌ . فكانك قلت : ما جاء إلا حمارٌ ، وذكرت رجلاً وما أشبهه تأكيداً ، فكانه في التقدير ما جاني شيءٌ لا رجل ولا غيره إلا حمار .

والوجه الآخر : أن تجعل الحمار يقوم مقام من جاني من الرجال على التمثيل كما تقول : عتابك السيف وتحيثك الضرب .

وقد وردت مثل كثيرة متأرجحة بين الوجهين الحجازي والتميمي ، في الشعر وكلام العرب والقراءات القرآنية .

فقد قرأ السبعة : « ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » (٣) وبنو تميم يقرءونها بالرفع . جعلون اتباع الظن علمهم " (٤) .

وقد وجهت كثير من الآيات توجيهات متباينة ، وفقاً للقراءات ، فقد وجه الأنباري الآية ٩٨ من سورة يونس : « فلو لا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس » بقوله : قومٌ ، منصوبة من وجهين :

أحدهما : لأنه استثناء منقطع ليس من الأول .

(١) المنقضب : ٤ / ٤١٢ . وشرح ابن عقيل : ١ / ٥٤٥ . والنسهل : ١٠١ - ١٠٤ .

(٢) المنقضب : ٤ / ٤١٣ . وسيبويه : ٢ / ٣١٩ - ٣٢٠ . وشرح ابن عقيل : ١ / ٥٤٥ . وشرح شذور الذهب : ٣٤٧ - ٣٤٨ .

وشرح قطر الندى : ٢٧٤ - ٢٧٥ . والبحر المحيط : ٢ / ٢٢٩ و ١ / ٢٧٥ و ٣ / ٣٨٤ - ٣٨٥ و ٥ / ٢٤٩ و ٧ / ٩١

و ٤ / ٤٠٤ .

(٣) سورة النساء : ١٥٧ . والاستشهاد : أوضح المسالك : ٢ / ٢٢٩ - ٢٣٠ . وشرح شذور الذهب : ٣٤٨ . والبيان : ١ / ٤٢١ .

(٤) المنقضب : ٤ / ٤١٣ .

الثاني : أن يكون منصوباً على الاستثناء غير المنقطع ، بأن يقدر في الكلام حذف مضاف تقديره : فلو لا كان أهل قرية آمنوا إلا قوم يونس . ومن رفعه حملته على البذل ، كقول الشاعر : وبلدة ... والبذل من غير الجنس لغة بني تميم " (١) .

وقال في الآية ١١٦ من سورة هود : (أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا) . " منصوب لأنه استثناء منقطع ، ويجوز فيه الرفع على البذل من (أولوا بقية) كما جاز الرفع في قوله تعالى : (إلا قوم يونس) وإن كان استثناءً منقطعاً ، وهي لغة بني تميم " (٢) .

ومنه قول الله تعالى : (وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) (٣) وبنو تميم تقرأ هذه الآية بالرفع (٤) .

ومن الشعر ، قول عامر بن الحارث :

وبلدة ليس بها أنيسُ
إلا العافيرُ وإلا العيسُ (٥)

يأتباع العافير والعيسُ لـ (أنيسُ) .

وعلى الرفع أنشدت بنو تميم قول النابغة :

وقفت فيها أصيلاً أساسئها
عيتَ جواباً وما بالربع من أحدٍ

إلا أوارِيُ لأياً ما أئينها
والتوي كالحوض بالمظلومة الجلدِ

وأهل الحجاز ينصبون (٦) .

(١) البيان : ٤٢١ / ١ .

(٢) السائق : ٣١ / ٢ .

(٣) سورة الليل : ١٩ - ٢٠ .

(٤) المقضب : ٤١٣ / ٤ .

(٥) أوضح المسالك : ٢٢٩ / ٢ - ٢٣٠ . وشرح شذور الذهب : ٣٤٨ . والبيان : ٤٢١ / ١ .

(٦) سيبويه : ٣١٩ / ٢ - ٣٢٠ . والمقضب : ٤١٤ / ٤ .

- خبر لا النافية للجنس :

و (لا) النافية للجنس أحد الحروف النواسخ المختصة بالدخول على الجملة الاسمية ، فتعمل فيها عمل (إن) ، تنصب المبتدأ اسماً لها ، وترفع الخبر خبراً لها ، وفق شروط مخصوصة ، أظهرها أن تكون نافية للجنس ، فإن نفت الوحدة لم تعمل .

وتأتلف جملة (لا) من عناصر أساسية لا يستغنى عنها ظاهراً أو تقديراً ، إذ عند تعرض أحوال حذف فيها خبرها لقرينة يعيُنُّها السياق . وبالرغم من لتفاق اللهجات على هذا الحذف ، نجد تبايناً في درجة اعتبار هذا الحذف ، فيكون مرجوحاً بين الجواز وللوجوب .

فإذا دلّ دليل على خبرها وجب حذفه عند التميميين والبطائين ، وكثر حذفه عند الحجازيين . ومثال ذلك أن يقال : هل من رجل قائم ؟ فنقول : لا رجل . تحذف الخبر وهو (قائم) وجوباً عند التميميين والبطائين ، وجوازاً عند الحجازيين . ولا فرق في ذلك بين أن يكون الخبر غير ظرف ولا جار ومجرور - كما مثل - أو ظرفاً أو جاراً ومجروراً^(١) . قال ابن يعيش : " اعلم أن أهل الحجاز يحذفون خبر " لا " من : لا رجل ولا غلام ولا حول ولا قوة ، وفي كلمة الشهادة ، نحو : لا إله إلا الله . والمعنى : لا رجل ولا غلام لنا ، ولا حول ولا قوة لنا ، وكذلك لا إله في الوجود إلا الله ، ولا أهل لك ولا مال لك ولا بأس عليك ، ويجوز إظهار الخبر نحو لا رجل أفضل منك ولا أحد خَيْرٌ منك . وهذا مذهب أهل الحجاز . وأما بنو تميم فلا يجيزون ظهوره البتة " (٢) .

وينبني على هذا التأرجح بين الوجوب والجواز ، تفاوت في الوظائف النحوية وبيان ذلك على ما يأتي :

نقول : لا رجل أفضل منك .

على لغة الحجاز ، تكون (أفضل) خبر لا النافية للجنس .

وعلى لغة تميم نعت لـ (رجل) ، جاء مرفوعاً على أصل محل (رجل) الذي هو

مبتدأ ويكون خبر لا النافية للجنس محذوف وجوباً .

وقد أجاز المبرد اعتبار (أفضل) خبراً للمبتدأ (لا رجل) .

(١) شرح ابن عقيل : ١ / ٣٧٨ . ومغني اللبيب : ٣١٥ . وشرح المفصل : ١ / ١٠٥ .

(٢) شرح المفصل : ١ / ١٠٥ . ومع الفواعل : ٢ / ٢٠٢ - ٢٠٣ . وارتشاف الضرب : ٣ / ١٢٩٨ - ١٣٠١ .

وعليه جاء قول أبي ذؤيب الهنلي :

وردَ جازِرُهُمْ حَرَقاً مُصْرَمَةً ولا كريمَ من الولدانِ مَصْبُوحُ

فتكون (مصبوح) : نعتاً لـ (كريم) على موضعها الذي هو مبتدأ ، ويكون الخبر مضمراً ، وهو لتميم . أو أن تكون خبراً كما قال أهل الحجاز (١) .

والتباين في حذف الخبر أو إثباته على هذا النحو يُعْرَى بالتماس أبعاد اجتماعية تلابس الظاهرة اللغوية . فتميم وطبئ من القبائل البدوية التي يعنيتها الإجاز والاختصار ، وهي تحفل كثيراً بدلالة السياق الاجتماعي والموقف اللغوي ؛ فلما كانت القرائن السياقية اللغوية والاجتماعية واضحة لم تكن ضرورة لإظهار الخبر ، بل أوجب حذفه . أما القبائل الحجازية فهي أميلُ إلى التحقيق والتثبت ، فالحجازيون يجيزون الحذف لتكأء على السياق ، ويحذفون بكثرة ، ولا يضيرهم التكرار بإعادة ذكر الخبر مع دلالة السياق اللغوي والاجتماعي عليه .

وأما إذا لم يدل على الخبر دليل ، فغير جائز حذفه عند الجميع ، نحو قوله **لا أحدٌ أُغِيرُ من الله** (٢) . وهذا الإجماع يدخل في باب المشترك من اللهجات العربية كلها ؛ لإتسار العربية حذف ما لا دليل عليه ، ولا يوضحه السياق .

وهذا التباين محمول على التعدد اللهجي ، وتفاوت القبائل العربية في هيئة أدائها وصولاً إلى غايتها . وقد يصح أن يكون هذا التباين محمولاً على التطور ؛ ويؤيد ذلك أن الحجازيين يحذفونه بكثرة مع جواز إثباته ، فقد يكون هذا الإثبات إشارة إلى طور منقادم ، ثم صارت اللهجة الحجازية وغيرها إلى إسقاط الخبر اقتصاداً واختصاراً .

(١) شرح المفصل : ١٠٧/١ . وارتشاف الضرب : ٣/١٢٩٩ .

(٢) شرح ابن عقيل : ١/٣٧٨ .

المبحث الثالث

الاشتراك في الأدوات

وأصل هذا الباب ، أن كلمة واحدة في بنائها الصرفي وهيئتها الصوتية تتخذ دلالات متعددة ، ووظائف نحوية متنوعة . فقد ورد اللغويون العرب على كثير من حروف المعاني ، فوجدوها على هيئة من النطق واحدة ، ونظروا في معانيها ، فوجدوها تحتل معنى أو أكثر ، يستفاد ذلك من ملابسات التركيب اللغوي والسياق الاجتماعي للكلام . ثم إن هذا التباين في المعاني يفضي إلى تحكُّم في الوظيفة النحوية التي يقوم بها الحرف في التركيب الجملي ، فتأولوا ذلك ، وحاولوا البحث عن أدلة مستأنسة تدعم ما نطقت به العرب ، وجاء على قياس لغتهم .

وهذا الباب في حروف المعاني واسع عريض ، لا يكاد حرف من حروف العربية يستثنى منه ، فيجري عليه من الاشتراك في المعنى والوظيفة ما يكون عُلماً على تباينه معنى ووظيفة وهيئة أداء واستخدام وظيفي .

فلما ورد اللغويون هذه الموارد ، لزمهم أن يستبطنوا الوقائع اللغوية المتداولة في بنائها الشكلي السطحي ، ليصلوا إلى العمق الخبيء والمعنى المكتنه في داخله ، فكان التباين في وظائف الأدوات عامل تباين متنازع بين الاستعمال الواقعي ، وملهج التفسير والتحليل الذي اصطنعه اللغويون .

وقد وقف اختياري على حرفين من حروف المعاني هما : حتى ، ولن ، حاولت أن أدرك كُنْه التباين الذي وقعا فيه ، بحثاً عن علله وأسبابه .

- التَّبَاينُ فِي وَجْهِ حَتَّى (١) :

والوقوف على وجوه حتى ، يقفنا على حسن تدبير العربي في تصرفه في لفته وحملها على محامل متعددة ، تكون بمنأى عن اللبس والغموض . وهو في ذلك إنما يترسم منهجاً اقتصادياً سديداً في الاستخدام اللغوي ؛ لوجعل الحرف علماً على وجوه من الاستخدام متعددة ، يضبطها ضابط العلاقة السياقية بين المتحدث والمستمع فلا يكون في تعدد استخداماتها مظنة زلل أو لبس ، لأنهم تعارفوا على هذه الوجوه . فتأت لهم تأتي الطبع والسياقة الحاضرة ، فأجزوا وأنجزوا ، كأنما يتمثلون ما يشيع بين اللسانيين المحدثين من دعوى تميز النظرية اللسانية الحديثة بالاقتصاد ، أي قدرتها على التعبير عن أكثر المعاني بأقل الألفاظ ، وهذا ملحوظ لطيف من العربي في استخدامه ، ومن اللغوي في استنباطه قواعده .

و" حتى " حرف له عند البصريين ثلاثة أقسام : يكون حرف جر ، وحرف عطف وحرف ابتداء . وزاد الكوفيون قسماً رابعاً ، وهو أن يكون حرف نصب ينصب الفعل المضارع وزاد بعض النحويين قسماً خامساً ؛ وهو أن يكون بمعنى الفاء " (٢) .

وبيان ذلك ما يلي :

١ - حتى الجارة :

ومعناها انتهاء الغاية ؛ وهي في ذلك تجري مجرى إلى ، من حيث الدلالة والوظيفة فهي تدل على انتهاء الغاية الزمانية أو المكانية ، وتعمل الجرة في الاسم الذي بعدها على خلاف بين البصريين والكوفيين في عامل الجر ، فالبصريون يرون أنها جارة بنفسها ، والفرقاء يرى الخفض بعدها لنبايتها عن (إلى) (٣) . وعلى ذلك تخريج الآية الكريمة : ﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾ يكون :

حتى : حرف جر .

مطلع : اسم مجرور وعلامة جره الكسرة .

١ (سيويه : ٢٧ - ١٦ / ٣ . والمقنَّب : ٣٧ / ٢ - ٤٢ . ووصف البان : ١٨٠ - ١٨٥ . والجنى الداني : ٥٤٢ - ٥٥٨ . ومعنى اللب : ١٦٦ - ١٧٣ . والجمل للخليل : ١٦٣ . والتسهيل : ١٧٥ - ١٧٧ . وشرح قطر الندى : ٩٠ - ٩١ . وأسرار العربية : ١٤٥ - ١٤٦ .

٢ (المرادي ، الجنى الداني : ٥٤٢ . وأيضاً : معنى اللب ! ٣٧٣ - ٣٧٥ . وشرح المفصل : ١١١ / ٨ - ١١٢ . وارتشاف الضرب : ١٦٤٣ / ٤ - ١٦٤٥ . والجمل للخليل : ١٦٣ .

٣ (الجنى الداني : ٥٤٢ . والإنصاف : ٥٩٧ / ٢ - ٥٩٨ .

فاستقر الحال على أن يكون مجرورها اسماً صريحاً ظاهراً بعدها . فلما وردوا على قوله تعالى : (حتى يقول الرسول)^(١) وانتظرني حتى أرجع ، نظروا إلى المعنى ، فوجدوه يشبه المثل التي وردوا عليها أولاً في كونه يعني (إلى) فأولوا ذلك ، وحملوه على معنى (إلى أن) ، وجعلوا مجروره مصدرأ مؤولاً من أن المضمره والفعل المضارع المنصوب . وعليه
 - قول :

حتى : حرف جر مبني على السكون .

يقول : فعل مضارع منصوب بأن المضمره وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة . والمصدر المؤول (قول) في محل جر اسم مجرور بحتى .

هذا قول البصريين الأرجح . ودلالة الآية : إلى أن يقول الرسول .

ثم نظروا في (حتى) الداخلة على الفعل المضارع ، فوجدوها على ثلاثة معانٍ^(٢) :

أولها : إلى أن .

ثانيها : مرادفة (كي) التعليلية ، كقوله تعالى : (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم) .

ثالثها : مرادفة لإلا في الاستثناء ، كقولنا : والله لا أفعل إلا أن تفعل .

واختلفوا في حكم الاسم الواقع بعدها ، هل يدخل في حكم ما قبلها أم تنتهي الغاية إليه فلا يكون داخلاً في حكمه . " ذهب المبرد وأبو علي وأكثر المتأخرين إلى أنه داخل ، وقال ابن مالك : (حتى) لانتهاه العمل بمجرورها أو عنده ، يعني أنه يحتمل أن يكون داخلاً فيما قبلها أو غير داخل ، وذكر أن سيبويه والقراء أشاروا إلى ذلك ، وحكي عن ثعلب أن حتى للغاية والغاية تدخل وتخرج^(٣) .

وعلى ذلك ، تحتمل عبارة : ضربت القوم حتى زيد . وجهين :

الأول : ضربت القوم بما فيهم زيد .

(١) الآية ٢١٤ من سورة البقرة . وفيها قرأتان . وانظر : الحجة في القراءات السبع : ٤٢ . والبيان للأنباري : ١ / ١٥١ . والمجلد - -

للحليل : ١٦٣ . وروصف الماني : ١٨٢ .

(٢) معنى اللب : ١٦٩ . والجن الثاني : ٥٥٤ . والمقنضب : ٢ / ٣٧ .

(٣) الجن الثاني : ٥٤٥ .

والثاني : ضربت القوم حتى بَلَّغْتُ زِيداً فما ضربته .

وقد يفضي بناء اللغة أحياناً ، إلى ترشيح الجملة الواحدة لمعنيين ، فمن ذلك الآية :
(فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله) فإن فيها وجهين :

الأول : أن تكون حتى بمعنى (كي) التعاليلية ، فيكون الهدف من القتال مُعللاً برغبة
أكيدة في رَجْعهم إلى حكم الله .

الثاني : أن تكون بمعنى (إلى أن) وبذلك تكون غائية ، ينتهي القتال حال رجوعهم إلى
الله . وهذا من نواميس اللغة وقوانينها الفاعلة التي ليس ملها محيص .

٢ - حتى العاطفية :

وتكون بمعنى الواو على التعيين ، فتجري ما بعدها على ما قبلها حكماً ودلالة . وهذا
مستسقى رأي البصريين ، أما الكوفيون فيجعلون حكم ما بعدها معلقاً بإضمار عامل . نقول :

قَدِمَ الْحُجَّاجُ حَتَّى الْمَشَاءِ .

رَأَيْتُ الْحُجَّاجَ حَتَّى الْمَشَاءِ .

مررت بالحجاج حتى المشاة .

وهي في ذلك تلبس الاسم الواقع بعدها ليوس ما قبلها معنى ووظيفة .

وإذا كان اللغويون حملوها على الواو معنى ووظيفة ، فقد جعلوا إعمالها العطفَ شريطة
أمرين (١) :

الأول : أن يكون الاسم المعطوف بها بعضاً من المعطوف عليه أو كبعضه ، فلا يكون
إلاً واحداً من الجمع ، أو جزءاً من أجزاء . فقولك : قدم الحجاج حتى المشاة ، بعض من
كل ، وقولك : قدم الصيادون حتى كلابهم ، هذا كونه كبعض .

الثاني : أن يكون ما بعدها غاية لما قبلها في الزيادة أو النقص ، والزيادة تشمل القوة
والتعظيم ، والنقص يشمل الضعف والتحقير . وقد اجتمعت الزيادة والنقص في قول الشاعر :

(١) المبنى الثاني : ٥٤٧ . وورصف المباني : ١٨١ . والمقتضب : ٢ / ٣٨ . والإنصاف : ٢ / ٥٩٧ - ٥٩٨ .

كهرناكم حتى الكماء فإنكم^١ لتخشوننا ، حتى بيننا الأصاغرا^(١)

واشترط هذين الشرطين يُسلم إلى القول : إن حتى لا تكون عاطفة للجمل ، إنما تعطف
مردداً على مفرد ، وذلك مفهوم من اشتراط كون معطوفها بعض المعطوف عليه .

٣ - حتى الابتدائية :

وتكون (حتى) حرف ابتداء غير عامل فيما بعده ، ومعنى حرف ابتداء : أن الجمل بعده
مستأنف ، فيدخل على الجملة الاسمية وعلى الجملة الفعلية التي فعلها مضارع أو ماضٍ .

فأما دخولها على الجملة الاسمية ، فقول جرير :

فما زالت القتلى تمج دماءها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل^(٢)

فتكون (حتى) حرف ابتداء لا محل له من الإعراب ، وماء : مبتدأ مرفوع .
" أشكل " : خبر مرفوع . والجملة الابتدائية لا محل لها من الإعراب .

وعليه أيضاً قول جرير :

فيا عجباً حتى كليب تسبني كأن أباهاً نهشل ومجاشع^(٣)

وأما دخولها على الجملة الفعلية المصنّرة بمرفوع ، فنحو : (وزلزلوا حتى يقول
رسول ..) على قراءة الرفع^(٤) . وقد دخلت حتى الابتدائية على الجملتين الاسمية والفعلية في
بيت امرئ القيس :

سريت بهم حتى تكلم مطيهم وحتى الجياد ما يقنن بأرسان^(٥)

(١) المعنى الثاني : ٥٤٩ .

(٢) معنى الليب : ١٧٣ . والمعنى الثاني : ٥٥٢ . وشرح المفصل : ١٨/٨ .

(٣) شرح المفصل : ١٨/٨ . ومعنى الليب : ١٧٣ . ووصف البيان : ١٨١ . والقضب : ٣٩/٢ .

(٤) المحجة في القراءات السبع : ٤٢ . والجمل للحليل : ١٦٣ . ومعنى الليب : ١٧٣ . والبيان للأباري : ١٥١/١ .

(٥) معنى الليب : ١٧٤-١٧٥ . وشرح المفصل : ١٩/٨ . ووصف البيان : ١٨١ . والقضب : ٣٩/٢ .

ومن دخولها على الجملة الفعلية التي فعلها ماضٍ ، قول الله تعالى : « حتى عفوا - وقالوا » (١) .

وقد حُملت بعض الشواهد على الوجوه الثلاثة المتقدمة ، منها قول الشاعر (٢) :

ألقى الصحيفة كي يخفف رحلَه والزاد حتى تغلُّه ألقاها

فالرفع على أن (حتى) ابتدائية و(نعلُه) مبتدأ مرفوع .

والنصب على أحد وجهين : أن " حتى " عاطفة و (نعلُه) معطوفة على (الصحيفة) .
والثاني أن (حتى) ابتدائية ، ونعلُه منصوبة على الاشتغال بفعل مضمرة تقديره : ألقى نعلَه ألقاها .

وأما الجر فباعتبار (حتى) جارة ، و (نعلُه) مجرور بها .

وهذه الوجوه المتأدية من التفسير ، إنما هي من صنع اللغويين ، فالبيت يجري على قول واحد (٣) ، ولكن منهج النظر في " حتى " جعلهم يصلون إلى هذه الوجوه ، وهي وجوه يسمح بها البناء اللغوي ، وتسمح به العربية عموماً ، وهذا ملحظ لطيف في الاستدلال على منزلة المعنى في تحديد الوظائف النحوية ، وأن التركيب الظاهر إذا اختلف مقصده العميق ، اختلفت بنيته التركيبية ، وهذا من تقطن اللغويين وعمق نظرهم في جعل الشكل اللغوي الظاهر مسجراً للبنية العميقة التي تتحرك في ذهن المتكلم ، وهذا متبق للغويين العرب يحفظ ويُسجل .

٤- حتى الناصبة للفعل المضارع :

وهذا القسم للكوفيين خاصة ؛ " فإن حتى عندهم تنصب المضارع بنفسها ، وأجازوا إظهار أن بعدها توكيداً ، ومذهب البصريين أنها هي الجارة ، والناصب أن مضمرة " (٤) .

(١) الآية : ٩٥ من سورة الأعراف ، والاستشهاد : الجني الثاني : ٥٥٢ ، والمنقح : ١٧٤ .

(٢) الجني الثاني ، ص : ٥٥٣ ، ووصف الباني : ١٨٢ .

(٣) في تحقيق مثل هذه المسألة ، انظر : لماد الموسى : نحو منهج في تحقيق قراءة الشعر القلم ، مجلة دراسات ، الجامعة الأردنية / ٦٣ / عدد : ١ / ١٩٧٦ .

(٤) الجني الثاني ، ص : ٥٥٤ .

وهي في هذا الوجه ، لا تعدو أن تكون على واحد من معنيين ، أولهما : الغاية ، كقوله تعالى : (قالوا لن نبرحَ عليه عاكفين ، حتى يرجعَ إلينا موسى) أي إلى أن يرجع . وثانيهما : التعليل ، نحو جئت حتى أطمئن عليك ، أي : كي أطمئن عليك . وعلامة كونها للغاية أن يحسن في موضعها " كي " ^(١) . وأضاف ابن مالك في التسهيل معنى ثالثاً ، وهو أن تكون بمعنى (إلا أن) فتكون بمعنى الاستثناء المنقطع .

وأجل أن ينتصب المضارع بها ، لا بد أن يكون مستقبلاً و مؤولاً به ، ومنه قراءة غير نافع (حتى يقول الرسول) ^(٢) فإذا كان حالاً أو مؤولاً بالحال رُفِعَ وُعْتُتْ ابتدائية .

٥- حتى التي بمعنى الفاء :

وهي التي يرتفع المضارع بعدها لكونه حالاً أو مؤولاً بالحال ، فتكون على معنى الفاء في إفاضة السببية ، وتصلح الفاء في موضعها معنى لا وظيفة ، وتعد حرف ابتداء لا حرف عطف ؛ لأن حتى العاطفة لا تعطف الجمل عند الجمهور .

وهذه الأوجه التي تكون عليها حتى ، ثلاثة مقدمة معروفة ، واثنان فيهما اختلاف في القياس والاستعمال . أما من حيث هيئة الأداء النطقي ففيها ثلاث لغات مشهورة ، هي ^(٣) :

الأولى : حتى بالحاء ، وهي الوجه المشهور .

الثانية : إبدال حائها عيناً ، وهي لغة هذلية معروفة بالفصحى ، وبها قرأ ابن مسعود (ليسجنته عتي حين) ^(٤) .

الثالثة : إمالة ألفها ، وهي لغة يمنية .

قد انقضى القول في الوجوه التي تكون عليها (حتى) معلى ووظيفة وتطقاً ، وإذا كانت هذه الوجوه غير منسوبة ، إلا في المستوى الصوتي ، فإن هذا دليل صريح على أن هذه الوجوه شائعة في القبائل العربية جميعاً . ويُعْرَفُ في خاطر سؤال متعلق بالأسباب للمقضية إلى

(١) الجن الثاني ، ص : ٥٥٤ . والنحن : ١٦٩ .

(٢) الحجة : ٤٢ . والجمل للتحليل : ١٦٣ . والبيان للأخباري : ١ / ١٥١ .

(٣) الجن الثاني : ٥٥٨ .

(٤) سورة جرسف : ٣٥ .

التباين عندما نستبعد العامل الأساس ، وهو العامل اللفظي . ومفاد هذا السؤال : هل كان العربي في استخدامه (حتى) على وجوها ، يصدر عن وعي بالوظائف الدلالية والنحوية التي تؤديها ؟ أم أن هذه الوظائف من ابتداع النحاة حسب ؟

المرجح عندي أنهم كانوا يصندرون عن وعي عميق بهذه الدلالات ، وهم متعارفون على هيئات من الأداء متواضع عليها ، يدل عليها السياق ويحكمها الاستخدام ، فلا يطلقون عباراتهم محمولة على وجوه ثلاثة أو أكثر ، وإنما يحملونها على وجه واحد يكشفه السياق اللفظي الأنسي ، ويتحصل لدينا من ذلك أن يكون الكلام موافقاً للمقام ، فتكون الإجابات عن الأسئلة التالية ، مفادها :

س : لم رحلت إلى المدينة ؟

ج : حتى أبيع بضاعتي .

س : حتامَ تمكثُ في الجامعة ؟

ج : حتى السادسة / حتى يحضر أخي .

س : مَنْ زارك ؟

ج : جميع جيراني حتى محمد .

هذه السياقات التي اصطنعتها ، لا شك في أنه كان يجري مثلها ، وكان العربي عند إجراء هذه العبارات يستحضر المعنى الذي يريده ، فيعبر بتركيب جملي مفهوم لدى السامع ؛ فهو حين يجيب عن السؤال الأول يستحضر القصد من (حتى) ، لبيان السبب والتعليل ، وهذا مفاد السؤال الذي يستفسر عن سبب ، وبذلك يكون عرّفَ السائل ما أراد وأجابه إلى ما سأل . ولو أنه قصد (إلى أن) ما كان مجيباً عن السؤال ، وما كان مفهوماً سائله .

وإجابته عن السؤال الثاني ، صدور عن وعي بالسؤال عن انتهاء الغاية الزمانية ، أي انتهاء المكوث ، فيعين له الساعة السادسة يغادر بعدها ، أو يعين له انتهاء مكوثه بحضور أخيه ، ولو أنه قصد (كي يحضر أخي) لما كان صحيحاً ؛ لأنه لم يجب سائله إلى ما أراد .

وأما الإجابة عن السؤال الثالث ، فهي صدور صريح عن معرفته بعلاقة التضمن التي تربط محمداً بالجيران .

وهكذا يكون التباين في وجوه (حتى) تبايناً في الاستخدام الوظيفي ؛ فقد استخدمها العرب بناءً واحداً للدلالة على وظائف متعددة يفرزها السياق ويقويها الاستعمال . فورد اللغويون هذه الموارد المتعددة ، فسبروا الدلالات العميقة للتراكيب ، والأغراض التي يسعون إلى إدراكها قصد الإفهام والتوصيل ، فآلبسوا (حتى) باستخداماتها المتعددة لباساً من التنظير اللغوي المطرد ، فوصفوها وضبطوا أحكامها وجردوا أمثلتها وأطلقوا عليها مصطلحاتهم الخاصة . فكل تركيب استخدمت فيه (حتى) لبيان السبب والتعليل ، وإعمالها النصب فيما بعدها ، جعلوها بمثابة (كي) في الدلالة و الوظيفة . وكل تركيب وردت فيه (حتى) على نية إقامة علاقة تضمن بين الاسمين اللذين تتوسطهما ، عُدت كالواو معنى ووظيفة . وكل تركيب وردت فيه بمعنى بلوغ الغاية والانتهاء إليها ، أنزلوها منزلة (إلى) معنى ووظيفة .

وهكذا استقام للغويين العرب ، وصف الأداء اللغوي آنذاك ، واستقام لهم منهج في استبطان الأداء اللغوي للولوج منه إلى عقل المتكلم ونفسه ، وقوفاً على ما اعتمل في نفسه لحظة الكلام .

وأظهر ما يكون ذلك في القراءات القرآنية ، التي كانت تصويراً حقيقياً لأفهام الناس ، محترزة من كل ما قد يكون مظنة لبس أو غموض ، فنبهت على ما تحتل فيه البنية الشكلية مثل هذا الاختلاف ، لأنها تتوحد في ظاهرها ، ويحمل على ذلك قوله تعالى : (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم) فإن (حتى) تحتل أن تكون بمعنى (كي) ، ويكون الغرض من القتال ودنهم . وقد تحتل أن تكون بمعنى (إلى أن) ، فيكون القتال مستمراً ما داموا ماكنين على ما هم عليه ، ويتوقف عند ارتدادهم . وهما وجهان مُنقلبان وسائغان دلالة ووظيفة.

- الاشتراك في لن :

" مذهب سيبويه والجمهور أنها بسيطة غير مركبة ، وذهب الخليل والكسائي إلى أنها مركبة من لا و (أن) ، وحدث لها بالتركيب معنى لم يكن قيل التركيب ، واستقلت بما بعدها

كلاماً ، وذهب الفراء إلى أنها (لا) النافية أبدل من ألفها نون ، وذهب المبرد إلى أن (لَنْ)
والفعل في موضع رفع بالابتداء ، والخبر محذوف ، والتقدير في لَنْ تقوم (لا أن تقوم)
موجود .^(١)

وهو حرف مختص بالمضارع ، يعمل فيه معنى وإعراباً ، أما عمله في المعنى فتغني
المستقبل ؛ ينفي ما كان مثبتاً بالسين أو سوف ، تقول :

سوف أزورك غداً . لَنْ أزورك غداً .
سأتصل بك . لَنْ أتصل بك .

وأما عمله وظيفة ؛ فإنه من نواصب الفعل المضارع ، يدخل عليه فيعمل فيه النصب
بعد أن كان مرفوعاً . هذا هو الشائع المشهور في عمل لَنْ . ولكننا نرد على مواضع قليلة
عملت (لَنْ) في المضارع الجزم ، فقد حكى اللحياني في نواتره عن بعض العرب
جزمه^(٢) . واستشهد ابن هشام على ذلك بشاهدين^(٣) :

قال كثير عزة :

أيادي سبا يا عزُّ ما كنتُ بعدكم فلَنْ يحلُّ للعينين بعدك منظرُ
وقال أعرابي يمدح الحسين بن علي :
لَنْ يخيبِ الآنَ مَنْ رجاكَ مَنْ
حرَّكَ مِنْ دُونِ بابِكَ الحلقة

والأول محتمل للاجتزاء بالفتحة عن الألف بالضرورة .

وظاهر القول أن (لَنْ) تستقيم على هيئة من الأداء ثابتة ، وهي تأتي على وجهين
عملاً ؛ الوجه الشائع نصب ما بعدها والوجه النادر أن تجزم ما بعدها . وهذا الوجه قد يكون
متقدماً في الزمن فانصرفت العرب عنه ، ولكنه سقط إلى السنة بعضهم فبقي مستحكماً

(١) ارتشاف الضرب : ٤ / ١٦٤٣ .

(٢) ارتشاف الضرب : ٤ / ١٦٤٣ .

(٣) معنى الليب : ٣٧٥ . أيادي سبا : مُنَّتِ الشُّمْل .

فيهم قياساً واستعمالاً. ولكن مثل هذا الاختلاف لا يرقى إلى مرتبة التباين الكلي ، فعليه ينتقي التباين .

الفصل الخامس التباين الدلالي (المعجمي)

المبحث الأول : اختلاف اللفظين والمعنى واحد (الترادف)

- المترادف .

- ما اقتصت به القبائل من ألفاظ .

- ما ورد في القرآن من الألفاظ الخاصة .

المبحث الثاني: اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين (المشترك)

أولاً : المشترك اللفظي .

ثانياً : المتضاد .

المبحث الأول

اختلاف اللفظين والمعنى واحد (المترادف)

الترادف أن يُدَلَّ على المعنى الواحد بألفاظ متعددة ، أو هو - كما عرّفه الفخر الرزقي - " توالي الألفاظ المفردة الدالة على معنى واحد باعتبار واحد ، وقد لحتز بالإفراد عن الاسم والحدّ ، فليسا مترادفين ، وبوحدة الاعتبار عن المتباينين كالسيف والصارم ، فإنهما دلاً على شيء واحد . لكن باعتبارين ، أحدهما على الذات والآخر على الصفة " (١) .

وقد وقف اللغويون العرب من المترادف مواقف متأرجحة بين الرفض والقبول . فكانت حجة القائلين بوقوعه ، أن أهل اللغة إذا أرادوا تفسير شيء ، فسروه بما يقاربه أو يُشاكله ، " فإذا أرادوا أن يفسروا اللب قالوا : هو العتل ، أو الجرح قالوا : هو الكنب ، أو الكنب قالوا : هو الصب . وهذا يدل على أن اللب والعتل عندهم سواء ، وكذلك الجرح والكنب ، والصب والكنب وما أشبه ذلك " (٢) .

كذلك يُحْمَلُ كلام سيويه على إثباته وقوع الترادف في العربية ، حيث يقول : " اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، ولتلاق اللفظين واختلاف المعنيين " (٣) .

ويروي مثبتو الترادف لحديث تنتصر لمذهبهم وتؤيده ؛ فقد روي أن ابن خالويه كان يحفظ للسيف خمسين اسماً ، وقد قيل إنه صنع مصنفاً في أسماء الأسد وآخر في أسماء الحية (٤) .

(١) السيوطي ، الزهر : ٤٠٢ / ١ .

(٢) أبو غلال العسكري ، الفروق في اللغة : ١٦ .

(٣) الكتاب : ٢٤ / ١ .

(٤) الزهر : ٤٠٧ / ١ .

ولما الطرف الآخر الذي حملت آراؤه على الإنكار ، فبتقدمهم ثعلب وأبو علي الفارسي وابن فارس ، يقول ابن فارس : " الاسم واحد وهو السيف وما بعده من الألقاب صفات ، وكذلك الأفعال نحو : مضى وذهب وانطلق وقعد وجلس ورقد ونام وهَجَعَ ، ففي كل منها ما ليس في سواها ، وهو مذهب شيخنا أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب " (١) .

ومدار الإنكار لدى هؤلاء ، أن ثمة فروقاً دلالية - ولو دقيقة - بين كل كلمة وشبهتها ، وليس التطابق بينهما تطابقاً تاماً . فالذي في الصارم غير الذي في البتار ، وهكذا .

ويبدو أن هذا ادعى إلى الصواب وأدعى إلى القبول . وبيان ذلك أن تلك الألفاظ المترادفة إنما تشبه أن تكون (مفاهيم) اصطلاح على إطلاقها على أفعال أو أسماء تشترك في ملامح دلالية عامة ، ولكنها تفرق في ملامح خاصة لا تكون إلا لواحدة ، وكذا القول في الثانية والثالثة . فقولنا : كتاب ؛ إنما هو مفهوم دال على صفحات مرقومة تعالج موضوعاً خاصاً على التعيين بلغة ما . فهذه هي الحدود العامة للكتاب تصدق على ما كان ورقه صغيراً أو كبيراً ، مُجلداً أو غير مجلد ، بالعربية أو غيرها ، ملوناً أو غير ملون ، قصة أو رواية أو اجتماعاً أو طياً . وهكذا كانت الحال ، فكانوا يفسرون الكلمة بما يقاربها أو يشاركها في الغالب من صفاتها الدلالية ، التي هي المشترك والمتواضع عليه لدى الجماعة .

وفي العنصر الحديث درس الترادف على نحو مفصل ، بُغية رصد الفروق الدلالية الدقيقة بين الكلمات المحمولة على الترادف ، فتوصل اللغويون إلى مفهومي الترادف وشبه الترادف ، فقسّموا الألفاظ إلى الأقسام التالية (٢) :

١- الترادف الكامل : وذلك حين يتطابق اللفظان تمام المطابقة ، ولا يشعر أبناء اللغة بأي فرق بينهما ؛ ولذلك يبادلون بحرية بينهما في السياقات كلها . " وهو نادر الوقوع ؛ لأنه من الكماليات التي لا تستطيع اللغة أن تجود بها بسهولة ويسر ، فإذا ما وقع هذا الترادف التام ، فالعادة أن يكون ذلك لفترة قصيرة محدودة (٣) " .

(١) الزهر : ١ / ٤٠٤ .

(٢) أحمد مختار عمر ، علم الدلالة : ٢٢٠ - ٢٢٤ . وأولمان ، دور الكلمة في اللغة : ١٠٩ - ١١٦ .

(٣) سفيان أولمان : دور الكلمة في اللغة : ١٠٩ .

٢- شبه الترادف أو التشابه : وذلك حين يتقارب للفظان تقارباً شديداً حتى يصنع المميز بينهما ، فيستعمل الواحد مكان الآخر دون حرج . كقولنا : عام وسنة وحول . ومنه في الإنجليزية :

ill : Sick
Possess : own

٣- التقارب الدلالي : ويتحقق ذلك حين تتقارب المعاني ، و يختلف كل لفظ عن الآخر بملح هام واحد على الأقل ، وذلك قولك : حلم ورؤيا .

الأسباب المنفضية إلى الترادف :

١- التباين اللهجي :

* قال أهل الأصول : لوقوع الألفاظ المترادفة سببان : أحدهما : أن يكون من واضعتين وهو الأكثر ؛ بأن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين ، والأخرى الاسم الآخر للمسمى الواحد ، من غير أن تشعر إحداهما بالأخرى ، ثم يشتهر الوضعان ، ويخفى الالوضعان أو يلتبس وضغ أحدهما بوضع الآخر ، وهذا مبني على كون اللغات اصطلاحية ، والثاني : أن يكون من وضع واحد وهو الأهل (١) .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها : العُلَيَّة لفظة لأهل مكة ، ويعنون بها البيت فوق البيت وجمعها عَلالي ، ويسمونها البَصْرِيون العُرْفَة وجمعها عُرْفَات (٢) ، وهكذا تصبح العُلَيَّة والعُرْفَة مترادفتين حسب نظرية الوضع هذه .

وقد صرح ابن جني بذلك حيث يقول : " إذا كثرت على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة ، لمُسمِّت في لغة إنسان واحد ، فإن أخرى ذلك أن يكون قد أفاد أكثرها أو طرفاً منها ؛ من حيث كانت القبيلة الواحدة لا تتواطأ في المعنى على ذلك كله وذلك كما جاء عنهم في أسماء الأسد والسيف والخمر وغير ذلك وكلما كثرت الألفاظ على المعنى

(١) السيوطي ، الزهر : ٤٠٦/١ .

(٢) الجاحظ : البيان والبيان : ١٩/١ . واللان (علو) .

خوادم ، كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات . اجتمعت لإنسان واحد من هنا من هنا " (١) .

وتصدق هذه الأقوال على لغة قريش ؛ ذلك أنها كانت " مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة مستنها ، إذا أنتهم الوفود من العرب ، تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفي كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلاتقهم التي طبعوا عليها (٢) " . فلما كانت هذه اللغة هي لغة قريش منسقط كثير من الألفاظ ذات الدلالة اللهجية الخاصة ، فلما انتقلت إلى قريش صادفت لفظاً أخرى تدل على المعنى نفسه ، فجرت على ألسنتهم كما جرت الأولى بالعرف والاصطلاح ، فنشأ الترادف في لغتهم . وقد يكون إبراهيم أنيس معتمداً على هذا الرأي ، حين اشترط اتحاد البيئة اللغوية لوقوع الترادف (٣) .

٦- التطور اللغوي :

وينشعب إلى عوامل فرعية ، منها :

أ - التغيير الدلالي :

يستقيم الزمن عاملاً فاعلاً في انتقال الدلالات اللغوية إلى معانٍ أضيق أو أوسع ، فيفعل الزمن فعله ، مما قد يؤدي إلى الترادف مع امحاء الفروق الدلالية الدقيقة بين الألفاظ . من ذلك أن العرب كانوا يتداولون كثيراً من المفردات للدلالة على " الجمل " في أحواله المختلفة ؛ جنساً وعمراً ولوناً ، وكانوا على معرفة اصطلاحية بالفروق الدلالية بين كل لفظتين ، أما في الوقت الحاضر فإننا لا نعدو أن نستخدم كلمة واحدة للدلالة على الجمل ، وهي : جمل ، بصرف النظر عن اللون أو العمر أو سمات أخرى ، وهذا تغير دلالي اقتضته معطيات البيئة التي لم تعد تحقل بدور " الجمل " في الحياة ، مثلما كان الأمر لدى العربي قديماً .

(١) الخصائص : ١ / ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٢) الصّاحي : ٢٨ .

(٣) إبراهيم أنيس ، اللهجات العربية : ١٧٨ - ١٧٩ .

قال الثعالبي في "فصل في ترتيب أحرف العليل": "عليل ثم سقيم ومريض ، ثم وقيد ، ثم دنف ثم حرض ومُحَرَّض ، وهو الذي لا حي فيرجى ولا ميت فينسى" (١) .
لما في الوقت الحاضر ، فنستخدم كلمة (مريض) للدلالة على هذه الأحوال جميعاً ، وقد نُخصص اشتداده فنقول : مريض جداً ، أو في حالة خطرة . واتحاد العصر من شروط وقوع الترادف عند إبراهيم أنيس (٢) .

ب- المجاز :

وذلك بالانتقال من المعنى الأصلي إلى معنى يصدق معه إطلاقه على معنى آخر لشبه ما ، من ذلك ؛ الحليلة : امرأة الرجل ، والحلُّ نقيض الارتحال ، والجلّة القوم النُّزول . ويظهر أن الزوجة سُميت حليلة لأنها تحال زوجها وهما يتحالآن معاً في النوم (٣) .

ج- الاقتراض من اللغات الأجنبية :

وذلك بأن تقترض العربية ألفاظاً من غيرها من اللغات ، فتدور على السنة العرب مع الألفاظ العربية أصلاً ، فيصبح للمعنى الواحد كلمتان ، إحداهما عربية والأخرى مقترضة ، فيترادفان .

من ذلك ما لورده الثعالبي في "فصل فيما حاضرت به مما نسبت به بعض الأئمة إلى اللغة الرومية" حيث يورد ألفاظاً استخدمت مع مرادفها للعربي (٤) :

- | | |
|-------------------------|-----------------------------|
| الفِرْنُوس : اللبستان . | القِسْطَاس : الميزان . |
| السُّجَّجَل : المرأة . | القِسْطَل : الغبار . |
| القَرَامِيد : الأجر . | التُّرْبَاق : دواء السموم . |

ومما يدور في عصرنا للحاضر :

- | | |
|-------|---------|
| هاتف | تلفون |
| تلفاز | تلفزيون |

١ (فقه اللغة : ١٥٧ .

٢ (في اللهجات العربية : ١٧٨ - ١٧٩ .

٣ مهدي عرار : جدل اللفظ والمعنى ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ١٩٩٥ ، ص : ٧٤ .

٤ (فقه اللغة : ٣٦٣ .

كمبيوتر : حاسوب بريد إلكتروني : (إي - ميل) .

ومهما يكن ، فإن الترادف يمثل واقعاً لغوياً تقتضيه حاجات التعبير المتباينة المتجددة ، ومتغيرات أحوال الإنسان على الزمان .

- ما اقتصت به القبائل من الألفاظ :

لعل إمعان النظر في المعجمات العربية ومصادرها اللغوية ، يقفنا على نوعين من الألفاظ :

الأول : الألفاظ التي تدل على معنى واحد مأروف في اللهجات العربية جميعها ، كقولك : أكل وشرب ، ولعب ، ونام .

الثاني : الألفاظ الخاصة باللهجات محددة ، تدل على معانٍ معروفة في اللهجات العربية الأخرى ، أو في العربية الفصحى .

و الراجع في الألفاظ الخاصة ، أن تلك القبائل التي اقتصت بها ، على معرفة باللفظ العام المتداول في العربية المشتركة ، أو اللهجات العربية عامة ، تستخدمها إذا ما غادرت وطنها ومسكنها وحدودها الإقليمية ، فإذا عاد أفراد هذه القبيلة إلى قبيلتهم ، عادوا إلى ما تعارفوا عليه في محيطهم ، ويدل على ذلك أشعارهم وأقوالهم ، وحتى القرآن الكريم الذي زخر بالألفاظ مخصوصة بقبائل على التعيين .

وقد يُحتمل أن ظروفاً ما قد حملت لفظةً على الشُيوع والانتشار مع بقاء الألفاظ المحلية حيّة قائمة ، فسقطت تلك اللفظة إلى لهجات أخرى ، اكتسبتها إضافة إلى ما استحکم فيها من ألفاظ خاصة بها ، فأفضى ذلك إلى ترادف في اللهجة الواحدة . فإذا قلنا : إن كلمة (يعزب) تعني (يغيب) في لغة " كنانة " ، فالأغلب أن الكنانيين يستخدمون مترادفين للمعنى الواحد ، فيستخدمون (يعزب) في لهجتهم الخاصة ، ويستخدمون (يغيب) خارج قبيلتهم أو داخلها مع الوافدين إليهم ، وهكذا تحمل (يعزب) على الترادف في لهجة كنانة .

وقد صرف كثير من اللغويين جهودهم لتأصيل المعجمات اللهجية الخاصة بالقبائل المتعددة ، فتونوا اللغة ونصّوا على أصولها ونسبتهها ، ولا يخلو معجم أيّاً كان من المفردات القبليّة الخاصة ، وقد يكون معجم (الجمهرة) الموقوف على اللهجات اليمنية خير شاهد على ذلك .

وشملت هذه الجهود والدراسات النص القرآني ، فحاول كثير من المصنفات للنصّ على نسبة اللهجات الواردة في القرآن الكريم إلى أصحابها ، وأهمها كتاب أبي عبيد " لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم " . فهو يشبه أن يكون معجماً لهجياً ، يتّصّ على المفردات وينسبته إلى قبائلها ، بالانكاء على حصيلته اللغوية وروايات العلماء النقات .

ومما ورد منسوباً إلى لهجات على التعيين ، ما يلي:

- البئس أو البئس : التين بلغة أهل اليمن ^(١) ، وفي المجرّد : العَدَس بلغة أهل لليمن ^(٢) .
- التَّم : واحد الأكلام ، وهو الشقوق التي يشقها الحرث للزرع بلغة أهل اليمن ، وبعضهم يقول : تَلَام ^(٣) .
- الصنارة : الأذن ، بلغة أهل اليمن ^(٤) .
- الحَجَمَة : العين ، لغة يمانية . وعين الأسد خاصة في كل اللغات ^(٥) .
- المنامة والقُرطَف : القطيفة في لغة أهل الحجاز ^(٦) .
- أهل نجد يُسمّون المرثد : الجرين . ويسميه بعض من يلي الإمامة : المينطَح . وفي غريب الحديث : المرثد بلغة أهل الحجاز : مواضع التمر . والجرين لهم أيضاً ، والأكثر لأهل الشام ، والبيدر لأهل العراق ^(٧) .

(١) أبو ميّشل الأعرابي ، الثوادر : ١ / ٣٥٧ .

(٢) نفسه : ١ / ٢٨٧ .

(٣) شمس العلوم : ١ / ٤٥٥ .

(٤) البطلوسي ، الفرق بين الحروف الخمسة : ٥٢٧ ، والمنجد : ٢٤٣ .

(٥) المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة : ١ / ١٦٥ . وأمالى القالي : ١ / ١٣٦ .

(٦) نادر أبي ميّشل : ١ / ١٠٩ .

(٧) أبو عبيد ، غريب الحديث : ١ / ٣٠٩ . والغريب المصنف : ٢ / ٤٩٠ . واللسان (ريد) .

- الذي يسقط من البُسْر قبل أن يدرك : السَّراء ، الواحدة سراءة . وهو الجدال ، والواحدة جَدَالَة ، وهو السَّداء ممدود بلغة أهل اليمامة وهو السُّدى بلغة أهل المدينة ، وهو السِّيَاب ، الواحدة سَيَابَة بلغة أهل وادي القُرى . وهو الرُّمخ بلغة طييء ، الواحدة رَمْخَة . وهو الخلال بلغة أهل البصرة وأهل البحرين (١) .

- قال الأصمعي : السَّاف في البناء ؛ كل صف من اللين . وأهل الحجاز يسمونه المذمَّك (٢) .

- الألف في كلام قيس : الأدمق . والألف في كلام تميم : الأغر (٣) .

- يقال : هَيْذ و هَيْذ بمعنى : مالك ؟ وهي لبني تميم . وأهل الحجاز يقولون : مَهَيْم ؟ في ذلك المعنى . وكلَّب تقول : أَيْم ، في ذلك المعنى ، حكاه الكسائي عنهم (٤) .

- الكُرابة : ما بقي في أصول السَّعَف ؛ بلغة أهل اليمامة . والغُشانة بلغة أهل عُمان . يقال للرجل : تَكَرَّبَ هذه النخلة ، من الكُرابة ، وتَغَشَّهَا من الغُشانة ، وهي الخلالة بلغة أهل البصرة والبحرين (٥) .

- القَلُوب والقَلَيْب : اللَّذْب ، واللَّوْهَب : النار ، والواهر : الساكن مع شدة الحر ، وكل هذه الأحرف من لغة أهل اليمن (٦) .

- أهل الحجاز يسمون النَّبَّاش : المَخْنَفِي ؛ لأنه يستخرج أكفان الموتى ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ لَعَنَ المَخْنَفِي والمَخْنَفِيَّة (٧) .

- العُروب ، عند أهل مكة ؛ الشُّكْلَة ، والمَغَنُوجَة في لغة أهل المدينة وجمعها عُروب (٨) .

١ (مجالس نعلب : ٤٨٣ / ٢ .

٢ (الغريب المصنف : ٢٦٦ / ١ . والنجد : ٨٥ . واللسان (دملك) .

٣ (الغريب المصنف : ٨٦ / ١ . والجراد : ١٩٩ / ١ .

٤ (نوادر أبي إسحاق : ٣٤٤ / ١ .

٥ (مجالس نعلب : ٤٨٣ / ٢ .

٦ (أمالي القائل : ١٣٦ / ١ .

٧ (السابق : ٢١١ / ١ . والحري ، غريب الحديث : ٨٤٠ / ٢ .

٨ (اللسان (عرب) .

- العُبر : جماعة القَوْم ، بلغة هذيل ^(١) .
 - الكَوثر : الغبار ، بلغة هذيل ^(٢) .
 - الضئنا : الولد ، في لغة طييء ^(٣) .
 - شايختُ في لغة تميم وقيس : حازرتُ . وفي لغة هذيل : جَدَدْتُ في الأمر ^(٤) .
 - الرضِيع : النار ، بلغة أهل اليمن ^(٥) .
 - قال الأصمعي : الشُرثُور : طائر صغير مثل العصفور ، يسميه أهل الحجاز الشُرثُور ، وتسميه الأعراب : البرقيش ^(٦) .
 - البِل (بالكسر) : المباح ، بلغة حمير . واختلف الناس في قول عبد المطلب في زمزم : " وهي لشارب حل وبل " . قال الأصمعي : بِل : مباح ، وقال قوم : اتباع ، كما قيل : حَسَنَ بَعْن . وقال قوم : شفاء ، من قولهم : بِل من مرضه وأبل واستبل ، إذا برئ ^(٧) .
 - متى في لغة هذيل بمعنى : وسط . يقال : جَعَلْتَهُ في مَتَى كُمَي ، أي في وسطه ، وأنشد الكسائي :
- شَرِبْنَ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَقَّتْ مَتَى لَجَجَ حُضْرٍ لَهْنٌ نَثِيحٌ ^(٨)
- السُّهْوَةُ في كلام طييء : الصخرة . وفي كلام غيرهم الصُّفَّة بين بيتين ^(٩) .
 - الهَجْرِيَس ، عند الحجاز : القرد ، وعند تميم : الثعلب ^(١٠) .

١ (التحد : ٢٦٠ .

٢ (نفسه : ٣٢٠ .

٣ (التحد : ٢٤٨ .

٤ (أمال القائل : ٢٥٨ / ١ .

٥ (أمال القائل : ١٣٦ / ١ .

٦ (الغريب المصنف : ١ / ٣٢٠ . والمجرد : ١ / ٢٦٩ ، واللسان (شرر) .

٧ (الحرد : ١ / ٢٣٦ .

٨ (الفراء ، القصور والمدود : ٥٧ . وشرح ابن عقيل : ٢ / ١٠ . وأوضح المسالك : ٣ / ٨ .

٩ (المنحد : ٢٢٨ .

١٠ (اللسان (محرس) .

- العُليّة ، لأهل مكة ، ويعنون بها البيت فوق البيت ، وجمعها عَلَليّ ، ويسمونها البصنريون : العُرُفة ، وجمعها عُرفَات (١) .
- القرآن ، لأهل الحجاز يعني القارورة ، ويسمونها أهل الإمامة : الخنْجورة (٢) .

• ما ورد في القرآن من الألفاظ الخاصة (لغات القبائل) :

جاء القرآن الكريم مادة لغوية معبرة عن الوقائع اللغوية التي كانت السلسلة العرب عليها ، وما يلايس تلك الوقائع من مناسبة الكلام لمعطيات الموقف الاجتماعي . ويمكن القول : إن القرآن مجتمع كلامي للعربية ، يمثل الوجوه اللهجية واللغوية الاجتماعية التي يجري عليها الاستعمال في المجتمع العربي ، وعزز ذلك ، القول بمشروعية القراءات وإجازة الرسول ﷺ لها ، إذ كان العرب يقرؤون وفق ما استحکم فيهم من عادات لغوية .

وقد كان القرآن باعثاً على حركة ثقافية ولغوية ناشطة ، تمثل رُكناً ركيناً في الثقافة العربية الإسلامية ؛ إذ أصبح مادة للدرس اللغوي والثقافي والاجتماعي والديني والعلمي ، ومجالات المعرفة المتعددة .

وكان من أوائل المباحث التي شغلت الناس والعلماء ، اللغة التي أنزل بها القرآن الكريم، فأثيرت تساؤلات متعلقة بالموضوع ، لعل أهمها : هل كانت لغة القرآن عربية خالصة أم شابها بعض الألفاظ الأعجمية في أصل الوضع ؟ وعلى أي لهجة من لهجات العربية أنزل القرآن ؛ ألهجة قريش وحدها أم مزجتها لهجات أخرى ؟ وما التوجيه المرتضى لحديث الرسول ﷺ الذي ينص على نزول القرآن على سبعة أحرف كافية وافية ؟

ولعل البدء بحديث الرسول ﷺ يكون خير مدخل لمعالجة هذه القضية ؛ فقد وجّه هذا الحديث توجيهات متعددة ، منها اختلاف الأبنية والشكل ، واختلاف الدلالات ، واختلاف الأحكام الشرعية ، واختلاف اللهجات .

(١) البيان والبيان : ١٩ / ١ . واللسان (علو) .

(٢) اللسان (قرن) .

وربما يكون التوجيه على أساس اللهجات هو الأدعى للقبول ؛ لما عرف عن العرب من اختلاف في لهجاتهم وخصائصها النطقية والتصريفية والتركييبية ، وهذا مذهب أبي عبيد وتعلّب والأزهري (١) . وقد عبّر عنه أبو عبيد بقوله : " ليس المراد أن كل كلمة تُقرأ على سبع لغات ، بل اللغات السبع مفرقة فيه ، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة تميم ، ومما يبين ذلك قول ابن مسعود : إني قد سمعت القراء ، فوجدتهم متقربين ، فقرأوا كما علمتم ؛ إنما هو كقول أحدكم : هلمّ وتعال ، وكذلك قال ابن سيرين : إنما هو كقولك هلمّ وتعال وأقبل " (٢) .

وهذا التفسير يُنخلنا في إشكالية اللغة التي أنزل بها القرآن : هل كانت لغة قريش وحدها ، أم لغات سبع ، حسب التفسير السابق ، أم فيها من لغات العرب جميعاً ؟

والحق أنها مسألة شائكة متنازعة بين التعصب والتوسط ، وإن كان المرجوح أنه أنزل بلهجات العرب المتعددة ، على تفاوت في القلة والكثرة ، ويؤيد ذلك التفسير الذي قدمه أبو عبيد ، وممن يؤيده أيضاً السجستاني إذ يقول : " نزل بلغة قريش وهذيل وتميم والأزد وربيعة وهوازن وسعد بن بكر " (٣) .

" وقيل : نزل بلغة مضر خاصة ؛ لقول عمر : نزل القرآن بلغة مضر ، وعين بعضهم فيما حكاه ابن عبد البر السبع من مضر أنهم : هذيل وكنانة وقيس وضبة وتيم الرباب وأسد بن خزيمة وقريش ، فهذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات " (٤) .

" وقال الكلبي رواية عن أبي صالح عن ابن عباس : نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العجز من هوازن . قال أبو عبيد : العجز هم : سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف . وهذه القبائل هي التي يقال لها علياً هوازن وهم الذين قال فيهم أبو عمرو

(١) السيوطي ، الإتيان : ١٥٨ / ١ .

(٢) غرب الحديث : ١٥٩ / ٣ - ١٦٠ . والإتيان : ١٥٩ / ١ - ١٦٠ .

(٣) الإتيان : ١٥٩ / ١ .

(٤) المصدر نفسه ، والصحة .

ابن العلاء : أفصح العرب عليا هولزن ومثقلى تميم ، فهذه عليا هولزن ، أما مثقلى تميم فبلو
دلرم * (١) .

* ونقل أبو شامة عن بعض الشيوخ انه قال : أنزل القرآن أولاً بلسان قريش ومَن
جاورهم من العرب الفصحاء ، ثم أبيح للعرب ان يقرؤوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها
على اختلافهم في الألفاظ والإغراب ، ولم يكلف أحد منهم الانتقال عن لغته إلى لغة أخرى
للمشقة ، ولما كان فيهم من الحمية ، وطلب تسهيل فهم المراد * (٢) .

* وقال أبو بكر الواسطي في كتابه : " الإرشاد في القراءات العشر " : في القرآن من
اللغات خمسون لغة : لغة قريش ، وهذيل ، وكنانة ، وختعم ، والخزرج ، وأشعر ، ونمير ،
وقيس غيلان ، وجرهم ومن غير العربية : الفرس ، والرؤم ، والنبط ، والحبشة ،
والبربر ، والسريانية ، والعبرانية ، والقبط * (٣) .

ويعزز القول بنزول القرآن بالعربية حسب ، أدلة نقلية من القرآن ذاته ، ففي مواضع
متعددة ، أهمها قوله تعالى : (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) (٤) وقوله تعالى : (ولو
جعلناه قرآناً أعجمياً ..) (٥) .

وهذه أدلة نقلية قوية ، ولكنه يشغب علينا إقرار اللغويين القدماء بوجود كلمات ليست
عربية في أصل وضعها ، فكان ذلك مبعثاً على مسألة مثيرة للجدل ، مفادها التساؤل عن وجود
كلمات من غير العربية في القرآن .

والظاهر أن كتب التفسير وغريب القرآن قد تضمنت ألفاظاً قرآنية محدودة نصت على
أعجميتها ، ومن هذه الألفاظ :

(١) الرومان : ٢٨٣ / ٢ . والصاحي : ٣٢ . والإيمان : ١ / ١٥٨ .

(٢) الإيمان : ١ / ١٥٩ .

(٣) المصنف نفسه ، ٤٨٣ / ١ .

(٤) سورة يوسف : ٣ .

(٥) سورة فصلت : ٤٤ .

- حَصَبٌ : نص أبو حيان على أنها الحطب بالحشية^(١) .
- صَلَوَاتٌ : كُنَاسٌ الْيَهُودَ ، وَهِيَ بِالْعِبْرَانِيَةِ صَلَوَاتَا^(٢) .
- طَوْبَى : اسْمٌ لِلجَنَّةِ بِالْحَبَشِيَّةِ ، وَقِيلَ بِلُغَةِ الْهِنْدِ^(٣) .
- طه : يَا رَجُلَ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَابْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعِكْرَمَةَ ، مَعْنَى طه : يَا رَجُلَ . فَقِيلَ : بِالنَّبَطِيَّةِ ، وَقِيلَ : بِالْحَبَشِيَّةِ ، وَقِيلَ : بِالْعِبْرَانِيَّةِ ، وَقِيلَ : لُغَةً يَمَانِيَّةً^(٤) .
- هَيْتَ : تَعَالَى . زَعَمَ الْكَسَائِيُّ وَالْفَرَّاءُ أَنَّهَا لُغَةٌ حِوْرَانِيَّةٌ ، وَقَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْحِجَازِ ؛ فَتَكَلَّمُوا بِهَا ، وَمَعْنَاهَا : تَعَالَى . وَقَالَ عِكْرَمَةُ وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ : هِيَ عِبْرَانِيَّةٌ : هَيْتِيخٌ ، أَي تَعَالَى ، فَأَعْرَبَهُ الْقُرْآنُ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ : بِالسَّرْيَانِيَّةِ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : بِالْقَبْطِيَّةِ : هَلُمَّ لَكَ^(٥) .

وقد وقف اللغويون والمفسرون من هذه القضية مواقف متباينة ، تراوحت بين الرفض المطلق والتوسط^(٦) .

ويقف الزركشي واحداً من أشد المعارضين للقول بوجود ألفاظ من غير العربية في القرآن ؛ إذ يقول : " اعلم أن القرآن أنزل بلغة العرب ، فلا يجوز قراءته وتلاوته إلا بها ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾^(٧) وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا .. ﴾^(٨) يدل على أنه ليس فيه غير العربي ؛ لأن الله تعالى جعله معجزة شاهدة لنبيته - عليه الصلاة والسلام - ودلالة قاطعة لصدقه ، وليتحدثي العرب العرباء به ، ويحاضر البلغاء والفصحاء والشعراء بآياته ؛ فلو اشتمل على غير لغة العرب لم تكن له فائدة ؛ هذا مذهب الشافعي ، وهو قول

١ (تحفة الأريب : ٧٢ . والبحر المحيط : ٢ / ٣٩٠ .

٢ (الآية ٤٠ من سورة الحج ، تحفة الأريب : ١٦٦ .

٣ (البحر المحيط : ٥ / ٣٨٩ .

٤ (البحر المحيط : ٦ / ٢٢٤ .

٥ نفسه : ٥ / ٢٩٣ .

٦ (انظر تفصيل ذلك : حاسر أبو صغية ، مُعَرَّبُ الْقُرْآنِ عَرَبِيٌّ أَمْ لَيْسَ .

٧ (سورة يوسف : ٣ .

٨ (سورة فصلت : ٤٤ .

جمهور العلماء ؛ منهم أبو عبيدة ومحمد بن جرير الطَّبْرِي ، والقاضي أبو بكر بن الطَّيِّب في كتاب (التقريب) ، وأبو الحسن بن فارس اللغوي وغيرهم " (١) .

" وقال أبو عبيدة فيما حكاه ابن فارس : إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول ، ومن زعم أن كذا بالنبطية فقد أكبر القول " (٢) .

وعلى النقيض من موقف هؤلاء ، أبو عبيد القاسم بن سلام ؛ إذ يقول : " فهذا ما جاء في لغات مُضَر ، وقد جاءت لغات لأهل اليمن في القرآن معروفة ، منها قوله - جل ثناؤه - (مُتَكَنِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ) (٣) قال : (كَنَّا) يقال : إنها حبشية . وقوله " هَيْتَ لَكَ " يقال : إنها بالخورانية ، فهذا قول أهل العلم من الفقهاء . وزعم أهل العربية أن القرآن ليس فيه من كلام العجم شيء وأنه كله بلسان عربي والصواب عندي - والله أعلم - مذهب فيه تصديق للقولين جميعاً ؛ وذلك أن هذه الحروف وأصولها أعجمية - كما قال الفقهاء - إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها ، وحوادثها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب . فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال : أعجمية فهو صادق " (٤) .

ويبدو أن رأي أبي عبيد لدعى إلى القبول وألصق بالتفسيرات اللغوية ولا سيما الحديثة منها . وهو يدل على فطنة ونفاذ بصيرة في استشراف نواميس اللغة وسيرورتها . وذلك أنه جعل هذه الألفاظ أعجمية في أصل الوضع ، ثم اقترضتها العرب وتداولتها ، وجرت على ألسنتهم فصارت مأنوسة لديهم ، فكانهم وضعوها وضعاً جديداً ، فصارت لهم بمقياس الوضع الجديد والاستعمال الوظيفي .

ووجهة النظر هذه معروفة ومتداولة بين اللسانيين المحدثين ، فيما يعرف بالافتراض اللغوي ؛ إذ لا تخلو أي لغة من مظاهر الافتراض ، فتتكئ على وسائلها الخاصة في تحويل

(١) الزَّهَّان : ٢٨٧ / ٢ .

(٢) نفسه : ٢٨٧ / ٢ . والصاحي : ٣٣ .

(٣) سورة الكهف : ٣١ .

(٤) الصاحي : ٣٢ - ٣٣ .

الألفاظ ، لجعلها تتناسب مع نوقها وبنائها ، وتكثير الدلائل اللغوية التاريخية إلى اقتراض كثير من اللغات من العربية كالإنجليزية والإسبانية والتركية والماليزية (١) .

ومما سبق يتبين أن القرآن الكريم تضمن كثيراً من المفردات ذات الدلالات الخاصة بلهجات غير لهجة قريش . وكذلك تضمن عدداً يسيراً من المفردات التي كانت أصلاً أجنبية ، ثم صارت عربية وفق الاستعمال .

وفيما يلي بعض أمثلة لما أوردته كتب اللغات في القرآن الكريم ، من ألفاظ للقبائل العربية المتعددة :

- (فمن خاف من موصٍ جنفاً) . والجنف : تعمد الميل والجور ، بلغة قريش (٢) .
- (فلارفت) . الرفت : الجماع ، بلغة منجج (٣) .
- (ثم أفيضوا) . أفيضوا : أنفروا ، بلغة خزاعة (٤) . والإفاضة : الانتفاع والإكثار وسرعة الركض (٥) .
- (فلا تغضلوهم) . أي لا تحبسوهم ، بلغة لزد شنوءة (٦) .
- (وسيداً وحصوراً) . الحصور : الذي لا حاجة له في النساء ، بلغة كنانة (٧) .
- (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) . نحلة : فريضة ، بلغة قيس عيلان (٨) .
- (غير منافحين) . والمنافحة : الزنا ، بلغة قريش (٩) .
- (حصرت صدورهم) . حصرت : ضاقت ، بلغة أهل اليمامة (١٠) .

1) Wajih H, Abderrahman, A linguistic Study of Lexical Borrowing in Arabic and English, AL- Lissan AL- Arabi, No : 34, 1990 .

٢) سورة البقرة : ١٨٢ . أبو عبيد ، لغات القبائل : ٥٧ .
 ٣) سورة البقرة : ١٩٧ . أبو عبيد ، نفسه : ٥٧ . واللسان (رفت) .
 ٤) سورة البقرة : ١٩٩ . لغات القبائل : ٥٨ . والإفتان : ٤٨١ / ١ .
 ٥) اللسان : فيض .
 ٦) سورة البقرة : ٢٣٢ ، لغات القبائل : ٦٠ . واللسان (عضل) ، الإفتان : ٤٧٧ / ١ .
 ٧) سورة آل عمران : ٣٩ . لغات القبائل : ٦٥ . واللسان (حصر) .
 ٨) سورة النساء : ٤ . لغات القبائل : ٧٧ . واللسان (نحل) ، والإفتان : ٤٧٩ / ١ .
 ٩) سورة النساء : ٢٥ . لغات القبائل : ٧٩ . واللسان (سفح) .
 ١٠) سورة النساء : ٩٠ . لغات القبائل : ٨٣ . واللسان (حصر) . والإفتان : ٤٨١ / ١ .

- (فافرقُ بيننا) . افرقُ : اقضِ ، بلغة مَدِين (١) .
- (وما يغني عنه ماله إذا تردى) . تردى : مات ، بلغة قريش (٢) .
- (إن الإنسان لربه لَكَنُودٌ) . كَنُودٌ : كَفُورٌ بِالنَّعْمَةِ ، بلغة كِنَانَةَ (٣) .
- (والأرضَ وضعها للأنام) . الأنام : الخلق ، بلغة جُرْهُم (٤) .
- (لقد جنتِ شيئاً إمرأً) . إمرأً : عَجَبًا ، بلغة قريش (٥) .
- (وما مستني السوء) . السوء : الجنون ، بلغة هُدَيل (٦) .
- (وقد كنتُ فينا مرْجُوءاً) . المرْجُوءُ : الحَقِيرُ ، بلغة حمير (٧) .
- (بعجلٍ حنيدٍ) . حنيدٌ : مشويٌّ ، بلغة قريش (٨) .
- (قيل لها ادخلي الصُّرْحَ) . الصُّرْحُ : البيت ، بلغة حمير (٩) .
- (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) . أنكر : أقبِح ، بلغة قريش (١٠) .
- (يوم تمورُ السماء مسوراً) . تمورُ : تتشققُ ، بلغة قريش (١١) .
- (يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً) . يدعون : يُدفعون ، بلغة قريش (١٢) .
- (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) . الإملاق : الجوع ، بلغة لَحْم (١٣) .
- (فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) . الهضم : النقص ، بلغة هُدَيل (١٤) .

(١) سورة المائدة : ٢٥ . لغات القبائل : ٩٢ . واللسان (فرق) . والإتقان : ٤٨٣ / ١ .

(٢) سورة الليل : ١١ . لغات القبائل : ٣٢٨ .

(٣) سورة العاديات : ٦ . لغات القبائل : ٣٣١ . والإتقان : ٤٧٣ / ١ .

(٤) سورة الرحمن : ١٠ . لغات القبائل : ٢٦٧ .

(٥) سورة الكهف : ٧١ . لغات القبائل : ١٨١ .

(٦) سورة الأعراف : ١٨٨ . لغات القبائل : ١٠٩ .

(٧) سورة هود : ٦٢ . لغات القبائل : ١٣٥ . والإتقان : ٤٧٥ / ١ .

(٨) سورة هود : ٦٩ . لغات القبائل : ١٣٦ .

(٩) سورة النمل : ٤٤ . لغات القبائل : ٢١٦ . والإتقان : ٤٧٦ / ١ .

(١٠) سورة لقمان : ١٩ . لغات القبائل : ٢٢١ . ونسبها السيوطي إلى حمير ، الإتقان : ٤٧٦ / ١ .

(١١) سورة الطور : ٩ . لغات القبائل : ٢٥٩ .

(١٢) سورة الطور : ١٣ . لغات القبائل : ٢٥٩ .

(١٣) لغات القبائل : ٩٨ . واللسان (ملق) . الآية ١٥٠ من سورة الأنعام . والإتقان : ٤٨٠ / ١ .

(١٤) سورة طه : ١١٢ . لغات القبائل : ١٩٣ . واللسان (هضم) . والإتقان : ٤٧٤ / ١ .

- (رَبِّ أَوْزَعْنِي) . أوزعني : ألهمني ، بلغة كريش ^(١) .
- (وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ) . القِطْر : النُّحاس ، بلغة جُرْهُم ^(٢) .
- (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُؤَفِّكُونَ) . تُؤَفِّكُونَ : تكذبون ، بلغة كريش ^(٣) .
- (وَامْتَسَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرَمُونَ) . امتازوا : اعتزلوا ، بلغة كريش ^(٤) .
- (وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) . لُغُوبٍ : إعياء ، بلغة حَضْرَ مَوْت ^(٥) .
- (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ) . الخراصون : الكذَّابون ، بلغة كِنَانَةَ وَقَيْسِ عِيلَانَ ^(٦) .
- (كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) . الأَسْفَار : الكُتُب ، بلغة كِنَانَةَ ^(٧) .
- (أَوْ إِطْعَامٍ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ) . الْمَسْغَبَةُ : المجاعة ، بلغة هُذَيْل ^(٨) .

١ (سورة النمل : ١٩ . لغات القبائل : ٢١٦ .

٢ (سورة سبأ : ١٢ . لغات القبائل : ٢٢٧ .

٣ (سورة فاطر : ٣ . لغات القبائل : ٢٢٩ .

٤ (سورة يس : ٥٩ . لغات القبائل : ٢٣١ . والإنتقان : ١ / ٤٨٠ .

٥ (سورة فاطر : ٧٥ . لغات القبائل : ٢٥٢ .

٦ (سورة الذاريات : ١٠ . لغات القبائل : ٢٥٥ . والإنتقان : ١ / ٤٧٢ .

٧ (الجمعة : ٥ . لغات القبائل : ٢٨٠ .

٨ (سورة البلد : ١٣ . لغات القبائل : ٣٢٦ . والإنتقان : ١ / ٤٧٥ .

المبحث الثاني

اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين (المشترك)

أولاً : المشترك اللفظي :

يغلب على الظن في معاني المفردات ، أنها في أصل الوضع محددة بكلمة واحدة ، وذلك بأن تكل كل كلمة على معنى واحد على التعيين ، لا تتجاوز إلى سواه . ويظهر أن هذا هو مبتدأ الحال في اللغات في مراحلها الأولى ، ولما كانت اللغات تتفعل بالزمن وتتأثر به ، كان طبيعياً أن تظهر آثاره في مستويات اللغة المختلفة ، الصوتية والصرفية والنحوية ، وأظهر ما يكون ذلك في المستوى الدلالي .

وقد نظر اللغويون العرب في المفردات ، وما تعبر عنها من معانٍ ، فوجدوها ألفاظاً ثابتة البناء متوحدته ، ولكنها متعددة المعاني ، متقاربة أحياناً ومتباعدة أحياناً أخرى ، فكان وقوفهم على ظاهرة بارزة في علم الدلالة العربي ، هي المعروفة بالمشترك اللفظي .

" وحذّ المشترك عند الأصوليين وعموم اللغويين ، أنه اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة " (١) .

والمشترك كغيره من الظواهر الدلالية التي وقف عليها العرب وقفة المتأمل ، فإنكر وقوعها بعضهم ، وأقرّ بوقوعها أغلبهم وأكثرهم ، وكان لكل طائفة منهم دلائل عقلية ونقلية لارتضوها وبنوا عليها ، وصنفوا فيها كثيراً من المصنفات لعل أهمها : الأجلّاس من كلام العرب وما اشتبه في اللفظ واختلاف في المعنى ، لأبي عبيد القاسم بن سلام . وكتاب " ما اتفق لفظه واختلاف معناه " لأبي العمير ابن الأعرابي ، و " المنجد " لكراع النمل و " اتفاق المباني واقتراق المعاني " لسليمان بن بنين النحوي . إضافة إلى فصول مستقلة في مصنفات متعددة ، إضافة إلى ما تحفل به المعجمات وكتب التفسير والشروح الشعرية .

وهكذا تتوفر اللغويون على مادة زاخرة من المشتركات اللفظية ، ألفاظ معدودة ومحدودة ، بدلالات متشعبة ومتكاثرة ، فكان اللغة بذلك تمارس آلية من آلياتها في الاقتصاد في التداول اللساني ؛ وذلك بأن تعبر عن معانٍ كثيرة بألفاظ قليلة .

وتداولُ الألفاظ المشتركة على هذا النحو ، يدفع سؤالاً للظهور بحثاً عن إجابة : ألا يتعارض التوحد في أصل الوضع والاشتراك اللفظي ؟

الحق أنه لا تعارض ؛ لأن اللغة لا تبقى على أصل وضعها ، فيعرض لها من العوامل الداخلية والخارجية ما يكون سبباً في تغيير الدلالات وانتقالها إلى دلالات قد تكون قريبة أو قد تكون بعيدة عن الدلالة الأصلية .

ومن أبرز ما يساق من أمثلة المشترك - وهي كثيرة - ما يلي :

- العَيْن . وتكون دالة على الوجوه التالية (١) :
- النُقد من دنائير أو دراهم ليست بعرض (كل متاع غير الدراهم والدنائير) .
- مطر أيام لا يُقَلع ، يقال : أصابت أرض بني فلان عَيْنٌ .
- عَيْن البئر : مخرج مائها .
- القناة التي تُعمل حتى يظهر ماؤها .
- الفَوَّارة ، التي تفور من غير عمل .
- ما عن يمين القبلة ، قبلة أهل مغيب الشمس ، يقال : نشأت السحابة من قَيْل العَيْن .
- عين الإنسان : التي ينظر بها .
- عَيْن النفس ، وهو من قولهم : عان الرجلُ الرجل ، إذا أصابه بعيْن ؛ وذلك إذا نَظَرَ إليه ، فتعَجَّبَ له ، ورجل مَعِين أو مَعِينون .
- عين الدابة أو الرجل ، وهو الرجل نفسه أو الدابة نفسها أو المتاع نفسه ، تقول : لا أقبل منك إلا دراهمي بعينها : أي لا أقبل بدلاً منها . وهو قول العرب : لا تتبع أترأ بعْد عين . وعينه يؤكد بها مثل (نفسه) .

(١) أبو الة: يُقِيل بن الأعران ، ما اتفق لفظه واختلف معناه : ٣٦-٣٧ . والمتحد الكراع : ٣٢-٣٣ . والتمالي فقه اللغة : ٤٥٠ . وإصلاح النطق : ٦٥ . واتفاق المبان واختراق المعاني : ١٠٧-١٢٠ .

- عين الميزان إذا رجحت إحدى كفتيه .
- عين الجيش الذي ينظر لهم وعليهم ، ويقال له : الشنيقة والطليلة .
- العين : عين الرُكبة .
- النقرة التي عن يمين الرُضفة (١) وشمالها .

ولو نظرنا إليها بميزان الاستعمال الحادث لوجدنا أنها تستعمل في معانٍ ، منها : شاهد عيان : وهو الذي يشهد الحادثة بأم عينه ، والعين هو الجاسوس . وهو العضو في مجلس الأعيان ، أي أكابر القوم على المستوى الرسمي ، وعين الناس خيارهم ، وأنت على عيني : في الإكرام والحفظ (٢) .

- الطَبِق (٣) :

- طبق كل شيء غطاؤه .
- المطر العام ، يقال في الدعاء : اسقنا غيثاً طبقاً .
- التزاق اليد بالجنب من وجع أو خنقة كأنه ليس له إنط ، يقال : يد فلان طبقة ، أي شديدة الطبق .

- الهوي (القسم) من النهار ، يقال : انتظرتك طبقاً من النهار .
- الحال بعد الحال . وفي القرآن : « لتركبن طبقاً عن طبق » (٤) .
- جماع طبقة مثل : خرزة وخرز ، وطبقات مثل خرزات .

ومن الاستعمالات الحادثة :

- الصنخ ، ويقال هي مغرّبة عن الفارسية (٥) .
- القرص (الصنخ) اللاقط ، وهي ترجمة لـ (ستلايت) .

١ (الرُضفة : عَظْمٌ مُنطَقٌ عَلَى الرُّكْبَةِ .

٢ تُقْسَمُ هَذِهِ الدَّلَالَاتُ الْحَادِثَةُ فِي مَعْنَى حَدِيثٍ ، كَالْمَعْنَى الرُّسِيْطِ ، مَادَّةُ (عَيْنٌ) .

٣ (ابو العيثل : ٤٩ . وَالْمُنْحَدُ : ٢٥١ .

٤ (سورة الانشقاق : ١٩ .

٥ (الثعالبي ، فقه اللغة : ٣٦١ .

- لعبة من ورق ، يُطَيَّرُها الصبيان في الهواء ، ممسوكة بزمام طويل .
- جزء من سقف الفم ، أكثر ما يستخدم في علم الأصوات ، وتُنسَبُ إليه الأصوات التي يكون هو مَخْرَجُهَا .
- الوجبة من الطعام .

- الصُّنْبُ (١) :

- من الصنلابة ، يقال : عود صنْبُ ورجل صنْبُ .
- المتن من الأرض ، الذي فيه غَلْظٌ وطول ، وهو قليل الغرض .
- عظم الظهر الذي فيه النُّخَاعُ .
- ويتصل بالمعنى الأول ما نستخدمه هذه الأيام للدلالة على المعين (٢) .

و مدا جاء في القرآن مشتركاً :

- الضُّرْبُ : وهو في القرآن على ثلاثة وجوه (٣) :
- الأول : السَّيْرُ . ومنه في (سورة النساء) : « وإذا ضربتم في سبيل الله » (٤) ، و « وإذا ضربتم في الأرض » (٥) ، ومثله : « وأخرون يضربون في الأرض » (٦) .
- الثاني : الضرب باليد ونحوها ، ومنه في (سورة النساء) : « واضربوهن » (٧) ، وفي (سورة الأنفال) : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلَّ بنان » (٨) . وفي (سورة محمد) : « فضرب الرقاب » (٩) .

١ (أبو العَمَيْل : ٣٣ .

٢ (انظر : - مثلاً - المعجم الوسيط ، مادة صُنْبُ .

٣ (النعالي ، الأشباه والنظائر : ١٩٠ - ١٩١ . وابن الجوزي : منتخب نزهة عيون النواظر في الوجوه و النظائر في القرآن الكريم : ١٦٣ - ١٦٤ .

٤ (سورة النساء : ٩٣ .

٥ (سورة النساء : ١٠٠ .

٦ (سورة المزمل : ٢٠ .

٧ (سورة النساء : ٣٣ .

٨ (سورة الأنفال : ١٢ .

٩ (سورة محمد : ٤ .

الثالث : الوصف . ومنه في (سورة البقرة) : « أن يضرب مثلاً »^(١) ، ومثله :
« وضربنا لكم الأمثال »^(٢) و « وضرب الله مثلاً »^(٣) .

وتتسبب ظاهرة الاشتراك عن أحد الأسباب التالية :

١- التباين اللفظي :

وذلك أن تستخدم اللهجة كلمة للدلالة على معنى ما ، وتستخدم لهجة أخرى الكلمة نفسها للدلالة على معنى آخر ، فتتداول الكلمتان عن وعي ودراية . فلما جاء المعجميون وجامعو اللغات ، رصدوا هذه الكلمات دون تعيين أو نسبة ، فصار غياب النسبة علماً على التوحد في المعنى وإن اختلف الأصل والمبنى . وعلى ذلك فقد " يوجد المشترك لجواز أن يقع من واضعین ، بأن يضع أحدهما لفظاً لمعنى ، ثم يضعه الآخر لمعنى آخر ، ويشتهر ذلك اللفظ بين الطائفتين في إفادته المعنيين " ^(٤) .

وقد يتغير المعنى الأصلي في إحدى اللهجات ، ثم بمرور الوقت ، ينسى المعنى الأصلي ، فيستخدم اللفظ للدلالة على المعنى الجديد حسب .

٢- التطور اللفظي :

ربما تكون المعاني والدلالات أكثر العناصر اللغوية تقبلاً للانتقال والتغير ، فترقى المعاني أو تنحط ، أو تعبر عن معانٍ حادثة بفعل الزمن ، وأهم الأسباب المتصلة بالتطور ، والمؤذنة بالاشتراك :

أ- الانتقال (التوسع) المجازي :

(١) سورة البقرة : ٢٦ .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٥ .

(٣) سورة إبراهيم : ٢٤ والحل : ٧٥ والزمزم : ٢٩ .

(٤) الزهر : ١ / ٣٦٩ .

وذلك بأن ينتقل اللفظ من المعنى الذي وضع له أصلاً ، إلى ما يشبهه أو يقاربه في الاستعمال مجازاً لا حقيقة . من ذلك ما يذكره السيوطي من الاشتراك الحادث في معنى العين ؛ إذ يقول : " وأما الراجع إلى التشبيه فستة معان : العَيْن : الجاسوس ، تشبيهاً بالعين ؛ لأنه يطلع على الأمور الغائبة . وَعَيْن الشيء : خياره . والعين : الربيبة ، وهو الذي يركب القوم . وَعَيْن القوم سيدهم . والعَيْن : واحد الأعيان ، وهم الإخوة الأشقاء . والعَيْن : الخمر . كل هذه مشبهة بالعين لشرفها " (١) .

ب- تغيير المعنى المقصود :

وأظهر ما يكون هذا في الألفاظ الإسلامية ، وذلك أن الألفاظ الشرعية والفقهية وألفاظ العبادات ، كانت موجودة في الاستعمال العربي قبل الإسلام ، وكانت تدل على معانٍ متعارفة ومُتداولة . ولكن نزول القرآن باستعمالات مخصوصة بالعبادات ، نقل هذه الألفاظ إلى معانٍ جديدة ودلالات اصطلاحية غير التي كانت لها . فلم تعد (الصلاة) تعني الدعاء على التعيين ، وإنما باتت تعني عبادة مخصوصة تؤدي على هيئة ثابتة ومشروطة بشروط لا تتنقص ، وكذا القول في الزكاة والصوم .

وفي العصر الحديث ، يحدث مثل هذا الانتقال كثيراً ، ويشكل حقولاً دلالية في المصطلحات الفنية الخاصة بالعلوم المتعددة .

ج- دلالة الأصل على معنى عام :

وذلك أن الأصل يكون على معنى عام يتضمن دلالات فرعية منضوية تحته فقد جعل " ابن بَنِين النحوي " (المشق) من المشترك ، فهي تجري على خفة الخط ومنزعة السير وتطويل الشيء ومدّ الوتر ، وأخذ الإبل الكلاً بسرعة وعليها أحمالها ، وضرب من النكاح (٢) . وإذا نظرنا في (لسان العرب) وجدنا أن

(١) الزهر : ١ / ٢٧٥ .

(٢) أمثاق المبان وأثراف المعان : ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(المشق) يجري على السرعة والخفة ، فكانت المشتقات مَحْمُولَةٌ على الاشتراك .

٣- أسباب صرفية :

وذلك أن يختلف الأصلان الاشتقائيان ، ولكن أسباباً تصريفية تجعلهما يشتركان في صيغة صرفية واحدة ، وأبرز ما يكون ذلك في اسم الفاعل حين يصاغ من ثلاثي معتل الوسط (أجوف) أو مهموز ، فنقول : سائل وثائر ، من سال وسأل ، ومن ثار وثار . فتتوحد البنية على معنيين مختلفين ؛ لاختلاف الأصل .

ولعل في هذا تفسيراً لوجوه الاشتراك التي حملها " أبو العميل " على " جائر " ، فقد ذكر من وجوهها : المائل عن القصد ، وهذا مؤننٌ باعتبارها من (جار - يجور) . ومنها بمعنى المصوت ، وعندها تكون من (جار - يجار)^(١) .

ثانياً : المتضاد :

يدخل التضاد في باب الألفاظ المشتركة التي تدلُّ على أكثر من معنى ، ويخصَّصُ بدلالته على معنيين متضادين أو متعاكسين . والراجح انتفاء أن يكون هذان المعنيان حاصلين في أصل الوضع ، وإنما أحدهما موضوع أصلاً والثاني حادث طارئ ؛ إذ لا يستقيم للكلمة الواحدة معنيان متضادان أصلاً .

والظاهر أن ثمة أسباباً مسؤولة عن التضاد ، ولا سيما في ضوء انتفاء كونه في أصل الوضع انتفاءً يقينياً . وأهم الأسباب المسؤولة عن التضاد هي :

١- اختلاف اللهجات :

وذلك أن تستخدم اللهجة لفظاً على معنى مخصوص ، وتستخدمه أخرى على معنى مضاد له ، فيتعاور حيان اللفظة الواحدة بمعنيين ضدين وتجري أسسنتهم بالمعنيين ،

فتصير اللفظة من الأضداد ، قال ابن الأبياري : " وقال آخرون : إذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فمُحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ، ولكن أحد المعنيين لحي من العرب والآخر لحي غيره ، ثم سمع بعضهم لغة بعض ، فأخذ هؤلاء عن هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء ، قالوا : فالجئون : الأبيض في لغة حي من العرب ، والجئون : الأسود في لغة حي آخر من العرب ، ثم أخذ أحد الفريقين من الآخر " (١) .

وهكذا يندرج التضاد ضمن تركيب اللغات ، ومما يؤيد هذا المذهب ما وقع من الأضداد منسوبا إلى قبائل معينة على معنيين متضادين . وفيما يلي بعض أمثلة مدخمة :

- القرء ، عند أهل الحجاز : الطهر . وعند أهل العراق : الخيض . " وقال الأصمعي - وأبو عبيدة : يقال : قد أقرأت المرأة إذا دنا حيضها ، وأقرأت إذا دنا طهرها . وحكى بعضهم : قرأت ، بغير ألف في المعنيين جميعاً " (٢) .

- السدقة : في لغة تميم الظلمة ، وفي لغة قيس الضوء (٣) . " وقال الأصمعي : يقال : أسدق ؛ أي تتخ عن الضوء ، وقال غيره : أهل مكة يقولون للرجل الواقف على البيت : أسدق يا رجل ، أي تتخ عن الضوء حتى يبدو لنا " (٤) .

- السامد . في كلام أهل اليمن : اللاهي . والسامد في كلام طيء العزير . " سأل نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس عن قول الله - عز وجل - : « وأنتم سامدون » فقال : معناه : لاهون ، فقال نافع : وهل كانت العرب تعرف هذا في الجاهلية ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول هزيلة بنت بكر وهي تبيكي عاداً حيث تقول :

قيل : قم فانظري إليهم
ثم دغ عنك السمودا

وقال عكرمة : سامدون من السمود ، والسمود : الغناء بالحميرية ؛ يقولون : يا جارية اسمدي لنا ، أي غني لنا ، وقال أبو عبيدة : السمود : اللهو واللعب " (٥) .

١ (ابن الأبياري ، الأضداد : ١٢ . وانظر المرمر : ١ / ٤٠١ . والغريب المصنف : ٢ / ٦٣٣ .

٢ (المصدر نفسه : ٢٧ - ٢٩ . وثلاثة كتب في الأضداد ، نشرها المشرق هَمَّر : ٥ ، ٩٩ ، و ١٦٣ . وفتح اللغة للتعالي : ٤٥٣ .

٣ (ابن الأبياري : ١١٤ . وثلاثة كتب في الأضداد : ٣٥ ، ٨٦ ، ١٨٩ . والغريب المصنف : ٢ / ٦٢٣ .

٤ (ابن الأبياري : ١١٤ .

٥ (ابن الأبياري ، الأضداد : ٤٣ - ٤٤ .

- عَنُوة ، العَنُوة : القَهْر . وأهل الحجاز يقولون : الطَّاعة . يقال : أخذته عَنُوة ؛ أي قَهراً . وقال أهل الحجاز : طاعة (١) .

- لَمَقَ . " لَمَقْتُ الشيءَ أَلَمَقُهُ لَمَقاً إذا كَتَبْتَهُ في لغة عَقِيل ، وسائر العرب يقولون : لَمَقْتُهُ ، مَحَوَّتُهُ (٢) . وأضاف المتجستاني : سائر قيس يقولون : لَمَقْتُهُ ؛ مَحَوَّتُهُ (٣) .

- القَلَّتْ : " قالوا : في لغة أهل الحجاز ؛ النُقْرة . وهو الموضع الذي يستتبع فيه الماء في السهل والجبل ، واسع يَغْرُقُ فيه الفيلُ . وأما قَيْسُ وأسد وتميم فيجعلونها النُقْرة الصَّغِيرَةَ في الصخرة ونحوها " (٤) .

- " قال قُطْرِبُ : المُعْصِرُ حرف من الأضداد ؛ فهو في لغة قيس وأسد : التي دنت من الحَيْضِ . وهو في لغة الأزْد : التي وَاَدَّتْ أو تَعَنَسَتْ . وقال أبو عبيد : قال الأصمعي : المُعْصِرُ : التي أدركت . وقال الكسائي : المُعْصِرُ التي راهقت العشرين " (٥) .

- الحَجُونُ : للأبيض والأسود ، " وقال قطرب : هو للأسود في لغة قُضاعة " (٦) .

- وَثَبَ ، حرف من الأضداد . " يقال : وَثَبَ الرجلُ : إذا نَهَضَ وَطَفَرَ من موضع إلى موضع ، وَجَمَزَ تقول : وَثَبَ الرجل إذا قعد . وقال الأصمعي وغيره : دخل رجل على ملك من ملوك حمير ، وكان الملك جالسا في موضع مشرف ، فأرتقى إليه ، فقال له الملك : ثُوب ؛ يريد : اجلس ، فطفر فسقط ، فاندقت عُنُقُهُ ، فقال الملك : من دخل ظفَّارِ حَمْرٍ ، أي تكلم بلسان حمير " (٧) .

٢- الأتساع :

" إذا وقع الحرف على معنيين متضادين ؛ فالأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع . فمن ذلك : الصَّريم ، يقال لليل : صريم ، وللنهار : صريم ؛ لأن الليل

١ (ثلاثة كتب في الأضداد : ١٢٦ .

٢ (ابن الأنباري : ٣٥ . وثلاثة كتب في الأضداد : ٤٠ و ١٠٥ .

٣ (ثلاثة كتب في الأضداد : ١٩٣ . والغريب المصنف : ٢/ ٢٢٣ .

٤ (ابن الأنباري : ٤٢١ . وثلاثة كتب في الأضداد : ١٥٠ .

٥ (ابن الأنباري : ٢١٦ - ٢١٧ .

٦ (سليمان بن بِنين ، اتفاق المبان وانفراق المعاني : ٢٠١ .

٧ (ابن الأنباري : ٩١ - ٩٢ . وأضداد ابن السكيت في " ثلاثة كتب في الأضداد " : ١٩٩ . والصَّغَان : ٢٤٧ .

ينصرم من النهار والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنيين من باب واحد هو القطع (١) .

٣- أسباب نفسية واجتماعية منتزعة من طبيعة النشاط الاجتماعي الذي يمارسه الناطقون باللغة ، وما استقر فيهم من أعراف وعادات ، كالتفاؤل والتشاؤم والتهم والتأدب ؛ إذ يلجأون إلى التلطف في عباراتهم للتدليل على معانٍ تشبه أن تكون محظورة اجتماعياً أو مكروهة ، أو رغبة في التلميح وبُعْداً عن التصريح المباشر . يذكر ستيفن أولمان أن من عوامل ظهور الأضداد في اللغات عوامل اجتماعية متعلقة بالمعتقدات والأفكار المتوارثة ؛ فالناس في بلاد " المجر الوسطى " كانوا يُسمون أطفالهم بأسماء وقائية ، كأن يدعى الواحد : " الموت الصغير " أو " ليس حياً " أو " القذارة " أو " الوسخ " ؛ وذلك لصرف الأرواح الشريرة عن هذه المخلوقات التي لا تساوي شيئاً في ادعاء أهلها (٢) .

ومما وضع في العربية للدلالة على هذه المقترضات :

- المفازة :

وهي تقع على المنجاة وعلى المهلكة ، وهي في أصلها مأخوذة من (فاز) ودلالته على النجاة ، فكيف حُمِلت على الهلاك ؟ . " اختلف الناس في تأويلها : فقال الأصمعي وأبو عبيد وغيرهما : سُمِّيت مفازة على جهة التفاؤل لمن دخلها بالفوز ، كما قيل للأسود أبو البيضاء ، وقيل للعطشان ريان . وقال ابن الأعرابي : إنما قيل للمهلكة مفازة ، لأن من دخلها هلك ، من قول العرب : قد فوز الرجل إذا مات " (٣) . وعليه قول الكميت :

وما ضرها أن كعباً ثوى وفوز من بعده جزول (٤)

- السليم :

يقال للسالم الصحيح الخالي من العيب أو المرض : سليم ، وسليم للملذوغ . وظاهر أن أصل الوضع جاء على الأول ، وأما المعنى الثاني فإنما منشؤه التفاؤل والنفور مما لا

(١) ابن الأنباري : ٨ . والنعماني ، فقه اللغة : ٤٥٣ . والمزهر : ١ / ٤٠١ . والغريب المصنف : ٢ / ٦٢٧ .

(٢) دور الكلمة في اللغة ، ترجمة كمال بشر : ١٩٣ .

(٣) ابن الأنباري : ١٠٤ - ١٠٥ .

(٤) السابق : ١٠٥ . واللسان (فوز) . وأضداد ابن السكيت : ١٩٢ . وأضداد الأصمعي ثلاثة كتب في الأضداد : ٣٨ .

يُسْتَسَاغ ذِكْرُهُ أَوْ تَعَاْفَهُ النَّفْسُ . فَقَدْ " جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ فِىَّ الْحَيَّ سَلِيمًا ؛ أَي مَلْدُوغًا . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ وَأَبُو عُبَيْدٍ : إِنَّمَا سُمِّيَ الْمَلْدُوغُ سَلِيمًا عَلَى جِهَةِ التَّفَاوُلِ بِالسَّلَامَةِ ، كَمَا سُمِّيَتِ الْمَهْلَكَةُ مَفَازَةً عَلَى جِهَةِ التَّفَاوُلِ لِمَنْ دَخَلَهَا بِالْفَوْزِ " (١) .

كذلك ينضوي تحت هذا البُعد الاجتماعي ، ألفاظ دلت على نشاطات اجتماعية يشترك فيها اثنان أو جماعتان ، فتكون للأول على معنى وللثاني على معنى مضاد ، ولما كان أحدهما لا يتحقق إلا بوجود الثاني ، أطلق اللفظ على الموقف كله بما يتضمنه من فعلين متضادين . ومن ذلك :

- اشتريت : اشتريت الشيء ، على معنى قبضته وأعطيت ثمنه ، وهو المعنى المعروف عند الناس . ويقال : اشتريته إذا بعته . قال الله - عز وجل - : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى ﴾ (٢) . " قال جماعة من المفسرين : معناه باعوا الضلالة بالهدى . وقال بعض أهل اللغة : كل من أثر شيئاً على شيء ، فالعرب تجعل الإيثار له بمنزلة شرائه . ويقال : شريت الشيء إذا بعته ، وشريته إذا ابتعته . قال الله - عز وجل - : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ (٣) . فمعناه من يبيع نفسه " (٤) .

- بعت :

يقال : بعت الشيء ، على المعنى المعروف عند الناس ، وبعث الشيء إذا ابتعته . وقال الفراء : سمعت أعرابياً يقول : بع لي تمراً بدرهم ، يريد : اشتر لي تمراً بدرهم . وقال قُطْرِب : شريت بمعنى بعت ، لغة لغاضرة ، وأنشد لأبي ذؤيب :

فإن تحسبني كنتُ أجهل فيكمُ فإني شريت الجلمَ بَعْدَكَ بِالْجَهْلِ

وجاء في الحديث عن حذيفة أنه قال عند موته : بيعوا لي كفنًا ، أي اشتروه " (٥) .

(١) ابن الأثيري : ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) سورة البقرة : ١٦ .

(٣) سورة البقرة : ٢٠٧ .

(٤) ابن الأثيري : ٧٢ - ٧٣ . وأدب الكاتب : ٢١٢ .

(٥) ابن الأثيري : ٧٤ . وأدب الكاتب : ٢١٢ . ومعان القرآن للأحفش : ١ / ١٦٦ . ومعان القرآن للفراء : ١ / ٥٦ .

والناظر في هذين الفعلين (بعت واشتريت) ودلالات الضد فيهما ، يجد أن طريقة البيع التي كانت متداولة بين العرب قبيل سبك العملة هي المسؤولة عن هذا الوضع اللغوي ؛ ذلك أن نظام المقايضة كان يتبع من البيع والشراء في آن واحد .

٤ - التطور اللغوي :

وذلك أن للزمن فعله في انتقال دلالات المفردات من دلالة إلى أخرى ، وفعل الزمن رهين بالاستخدام الواقعي ؛ إذ قد يحدث أن ينتقل الناطقون باللغة من دلالة ما إلى دلالة مضادة لها . وهذا الأمر يسري على اللغات جميعاً ؛ إذ يظهر أنها من العموميات اللغوية ، وفي ذلك يورد (أولمان) أمثلة ، يقول : " ومن المعروف أن المعاني المتضادة للكلمة الواحدة قد تعيش جنباً إلى جنب لفترة طويلة دون إحداث أي إزعاج أو مضايقة ؛ فالكلمة اللاتينية (altus) مثلاً قد يكون معناها : مرتفع أو منخفض وهذا مرجعه إلى الإدراك النسبي للمدى ، وهو إدراك تتحكم فيه وجهة نظر المتكلم . والكلمة (Sacer) هي الأخرى قد يكون معناها : مقدّس أو ملعون . وكذلك الشأن في الكلمة الفرنسية الحديثة (Secré) (مقدس أو ملعون) والكلمة الإنجليزية (blessed) : (مقدس أو ملعون) (١) .

وقد وقع في القرآن الكريم ألفاظ خُملت على الأضداد ، وذلك لأن السياق فيها يحتمل الوجهين المتضادين ، أو يُقوّي المعنى غير الشائع ، ومما جاء من ذلك :

- ظَنُّ : فإنها تأتي بمعنى الظن (الشك) وبمعنى اليقين ، فالشك قوله تعالى : ﴿ إن نطنن إلا ظناً ﴾ (٢) . و ﴿ ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ﴾ أي توهموا ذلك (٣) . ومن اليقين : ﴿ الذين يظنون أنهم ملائكة ربهم ﴾ و ﴿ ظن أنه الغراق ﴾ .

(١) دور الكلمة في اللغة : ١٣٣-١٣٤ .

(٢) سورة الحانية : ٣٢ .

(٣) أضداد السحسان ، ثلاثة كتب في الأضداد : ٧٦ ، و ١٨٨-١٨٩ ، والمجرد : ١/٢١٢-٢١٤ .

- أسررت : يكون بمعنى كتمت وهو الغالب على الحرف ، ويكون بمعنى أظهرت^(١). قال الله عز وجل - : « وأسروا النجوى الذين ظلموا »^(٢) ؛ إذ يعني " أسرُّوا " ها هنا : كتموا . وقال تبارك وتعالى في غير هذا الموضع : « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب »^(٣) . " فقال الفراء : معناه كتم الرؤساء الندامة من السفلة الذين أضلُّوهم . وقال أبو عبيد وقطرب : معناه : أظهروا الندامة عند معاينة العذاب ، واحتجًّا بقول الفرزدق :

ولما رأى الحجاج جرد سيقه أسرَّ الحروريُّ الذي كان أضمر
معناه : أظهر الحروري " .^(٤)

١ (ابن الأباري ، الأضداد : ٤٥ . وثلاثة كتب في الأضداد : ١١٤ .

٢ (سورة الأنبياء : ٣ .

٣ (سورة يونس : ٥٤ .

٤ (ابن الأباري : ٤٥ - ٤٦ . وثلاثة كتب في الأضداد : ١٧٧ . والغريب المصنف : ٦٣٢ / ٢ .

الفصل السادس

التباين في الرسم والهجاء .

المبحث الأول : في رسم العربية :

- العوامل الفاعلة في رسم العربية .
- رسم العربية ورسم المصحف .
- تعالقي الرسم بالنظم اللغوية الأخرى (المستويات) .

المبحث الثاني : التباين في وجوه الرسم .

- التباين في رسم الهمزة .
- الألف الفارقة .
- ابن وابنة .
- كلاكتا .
- المقصور والممدود .
- الفصل والوصل .
- ألف ما الاستفهامية .

المبحث الأول في رسم العربيّة

تتحقق اللغة - بوصفها ظاهرة إنسانية - على هيتين من الأداء : هيئة منطوقة وهيئة مكتوبة . وتشير الدراسات اللسانية الحديثة إلى أن اللغة أول ما كانت منطوقة ؛ فهي أصوات يودبها الناس تحقيقاً لأغراض على التعيين ، فتكون وسيلتهم في التواصل والإنجاز . وهكذا كان هذا التحقّق الصوتي للغة يستدعي مُرسلاً (المتحدث) ومستقبلاً (المستمع) وأداة ناقلة ، ورسالة تحملها الإشارات الصوتية ، ليتحقق التواصل المنشود .

وهكذا كانت بداية التواصل الإنساني ؛ على نحو مباشر يستدعي حضور المتكلم والسماع . ثم إنه جدّت حاجات ومقتضيات ، استدعت أن يتواصل الناس على نحو غير مباشر ؛ ذلك أن متطلبات البحث عن الطعام ، ومجابهة الوحوش الضارية ، والبحث عن سُبُل حماية ، دفعتهم إلى التباعد عن مكان الالتقاء ، فكان لابد من البحث عن وسيلة تكون هادية ودليلاً على ما يصبون إليه من إنجاز ، فبدأوا يفكرون بوسيلة تُصدّق أن تكون نائبة عن المشافهة المباشرة ، فاهتدوا إلى الرسم والكتابة ، فتدرجوا في مراحل متفاوتة التطور في التصوير والتعبير بأشكال كتابية بسيطة ، إلى أن بلغت في الوقت الحاضر فنية عالية وأصابت من الرقي ما يبعث على الإدهاش .

ومع مرور الزمن ودورته ، أخذ العُرف والتواضع يعلنان فعلهما في الربط بين المنطوق والمكتوب . فتواضع الناس على هينات كتابية كانت وسيلة حافظة لمنطوق الأصوات ، إلى أن صارت عُرفاً وتواضعاً يتحصل في الناس تحصيل السليقة ، بل بات النظام الكتابي جزءاً من الكفاية اللغوية لدى الإنسان .

وهكذا حفظت الكتابة - إلى حد بعيد - للغات قيمها الصوتية ، حتى إنها لتكاد تكون تمثيلاً أميناً لما ينطقه الناس ؛ لأنها تعبر عن معظم الأصوات وقوانين النظام الصوتي للغة ، وإن كان ثمة ما يخرق هذا التمثيل .

وقد حظيت اللغة بوجهيها المنطوق والمكتوب ، بعناية الدارمين والباحثين منذ عصور قديمة ، وتبوأ في الحاضر مكانة مرموقة في النظريات اللسانية الحديثة ، فرصدت العلاقة بينهما ، اتفاقاً واقتراحاً ، ودرست ميزات كل واحدة منهما على أنحاء متفاوتة (١) .

والناظر في مراجع اللسانيات والدراسات اللسانية الحديثة ، يقف على ضيم شديد ألحق بالأنظمة الكتابية في اللغات ؛ إذ قُصِر في درسها ، ومحاولة تفهمها على نحو لساني يفيد حقها كغيرها من مستويات التحليل اللساني المألوفة ، حتى إن المدرسة البنيوية قد جعلتها في أدنى منازل الأهمية (٢) .

والنظر إلى رسم العربية يظهر في نظامه كثيراً من الاتساق والاطراد ، حتى لا يكاد الرسم يخرج على ما اختط له إلا في أحوال معلومة ؛ إذ يكاد التطابق بين المنطوق والمكتوب يكون تطابقاً مرئياً . والنظر بعين المقارنة بينه وبين رسم الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها من اللغات ، يبرز مدى تفوق رسم العربية وقرب اطراده (٣) .

ويقوم النظام الكتابي للعربية على الرسم الأبجدي (الألف بائي) ؛ إذ يتعين كل صوت برمز كتابي واحد يَطْرُد اطراداً كاملاً ، فلا يتجاوز رسمه أبداً . وهذا من أبرز عناصر الاتساق في رسم العربية . ومما يمتاز به رسم العربية : خُلُوه من الشواذ - على التعميم - ؛ إذ إنه ينضبط بقواعد مقررة ، تضبط سلوك الحروف وحركتها . أما الشواذ فإنها قليلة محصورة ، يمكن أن تقدم بأعيانها مقرونة بأسباب شذوذها .

كذلك يتصل رسم العربية الحاضر اتصالاً وثيقاً بالرسم القديم والرسم القرآني ، مما يحفظ القيمة الصوتية للحروف ، حتى يصبح الربط بين المنطوق والمكتوب من معطيات التواضع الذي يستحكم في النفوس مع طول الإلف والاعتقاد .

(١) لف تفصيل العلاقة بين المنطوق والمكتوب ، انظر : مازن الوعر ، دراسات لسانية تطبيقية : ٧٣ - ١٠٣ .

(٢) غاد المرسي ، قضية الكتابة العربية : ٦ . نقلاً عن : The writing Systems of the world : P : 322 .

(٣) لف بعض نقائص الكتابة الإنجليزية والفرنسية ، انظر : طالب عبد الرحمن ، نحو تقوم جديد للكتابة العربية : ٩٤ - ١٠٤ .

وثمة عوامل تُدفع القوانين الفاعلة في رسم العربية ، فتخرجه عما رُسم له من قواعد ، وهي عوامل لغوية ، تتكافأ أثراً في رسم العربية ، وهي :

١ - الفسوقُ وأمن اللبس :

وذلك أنهم أضافوا في الخط حروفاً ، أو حذفوا أخرى ، أو غيروا في هيئة رسمها حسب قواعد اللغة ؛ فرقاً بين الكلمة وما قد يلتبس بها من نظائر في الرسم .

فقد أضافوا واواً بعد كلمة (عَمَرُو) ؛ فرقاً بينها وبين (عَمَرَ) ^(١) . وزادوا الواو في (أولئك) ؛ فرقاً بينها وبين (إِلَيْكَ) . وزادوا في (أُولَى) واواً ؛ فرقاً بينها وبين (إِلَى) ^(٢) .

ومن ذلك أنهم أضافوا ألفاً في (مائة) ؛ فرقاً بينها وبين (مِنْهُ) ^(٣) . وكتبوا (يحيى) علماً على أصل القاعدة ؛ فرقاً بينه وبين (يحيى) فعلاً ^(٤) . وكتبوا (قرأاً) و (ملأاً) بالفتحة ؛ لتفريق الألف الثانية بين الفعل الواحد وفعل الاثنين ، وكان الكتاب يكتبون ذلك فيما تقدم بألف واحدة ، والألفان أجود مخافة اللبس ^(٥) .

٢ - كثرة الاستعمال :

وذلك أنهم حذفوا حروفاً لكثرة دورانها واستعمالها ، فأصبح الاستعمال علماً على إسقاط هذه الحروف والتخفيف منها ، فحذفوا الألف من (بسم الله) إذا اقترنت بلفظ الجلالة ، مفتحاً بها الكلام ؛ لكثرة شيوعها واستعمالها . وفي هذا يقول ابن قتيبة : " تكتب بسم الله ، إذا افتتحت بها كتاباً أو ابتدأت بها كلاماً بغير ألف ؛ لأنها كثرت في هذه الحال على الألسنة ، في كل كتاب يُكتب ، وعند الفزح والجزع وعند الخبر يردُّ والطعام يُؤكل ؛ فحذفت الألف استخفافاً ، فإذا

١ (أبو محمد بن الدهان النحوي ، باب المعاء : ٧ . وابن مكي الصقلي ، تنقيح اللسان : ٣٨٧ . وابن عصفور ، شرح جمل الزجاجي : ٤٩٤ / ٢ .

٢ (ابن مكي ، تنقيح اللسان : ٣٨٧ . وشرح جمل الزجاجي : ٤٩٤ / ٢ .

٣ (باب المعاء : ٦ . وشرح شافية ابن المحاسب : ٣ / ٣٢٧ . وابن عصفور ، شرح جمل الزجاجي : ٤٩٣ / ٢ .

٤ (تنقيح اللسان : ٣٧٨ .

٥ (ابن قتيبة ، أدب الكاتب : ٢٢٧ . وتنقيح اللسان : ٣٨٤ . وشرح الشافية : ٣ / ٣٢٠ .

توسطت كلاماً أثبت ألفاً فيها ، نحو : أبدأ باسم الله ... وقال الله - عز وجل - (١) : (اقرأ باسم ربك الذي خلق) (٢) .

ومن هذا الباب أيضاً حذف الألف من الأسماء الأعجمية التي يكثر استعمالها ، قال ابن مكي : " وما حذفوا منه الألف استخفافاً لكثرة استعماله : إبراهيم وإسماعيل وإسحق وإسرائيل وهرون وسليمن ، وما أشبه ذلك ، مما يكثر استعماله من الأسماء إلا داود ؛ لأنه قد حذفت منه الواو ، فلا يجتمع عليه حذفان " (٣) . وأثبتت الألف في نظائرها التي لا يسمي بها كثيراً ؛ فرقاً بين الشائع المتداول والقليل (٤) .

٢- الحَمْلُ عَلَى النُّظَيْرِ (الإِجْرَاء) :

وذلك أنهم أضافوا حروفاً أو حذفوها إجراءً لهذه الرسوم على نظائرها النحوية أو الصرفية . فقد حمل (اللذان) رفعاً على (اللذين) . وكذا (اللتان) واللتين (وإن لم يكن لبس ؛ إجراءً لباب المثني مجرى واحداً ، وكان إثبات اللام في المثني أولى في الجمع ، لكون المثني أخف معنى من الجمع ، فخفف الجمع لفظاً ، دلالة على ثقل معناه (٥) .

ثم إنهم لما زادوا الواو في (أولئك) ، أجروا عليها (أولاء) ، ولما أضافوا الواو في (أولي) أجروا (أولو) عليه ، ولما زادوا الألف في (مائة) ألحقوا بها (مائتان) (٦) .

٤- مطابقتها المكتوب للمنطوق (إجراء المكتوب على المنطوق) :

وذلك أن ثمة قواعد صوتية تعمل في الكلمة الحذف في النطق ، فيتغاير المنطوق والمكتوب . والأصل أن يُرسم هذا الباب على هيئته الأصلية بصرف النظر عما يحدث من تبدل

(١) سورة العلق : ١ .

(٢) أدب الكاتب : ٢١٦ . وانظر أيضاً : باب المعاء : ٩٦ . والأبجدي ، البيان : ٣١ / ١ . وشرح حمل الزجاجي : ٤٩٧ / ٢ - - - - ٤٩٨ .

(٣) تقييد اللسان : ٣٨٤ . وأدب الكاتب : ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٤) المصدران السابقان ، والصفحة . وشرح حمل الزجاجي : ٤٩٦ / ٢ . ومعاني القرآن للفراء : ٨٨ / ١ .

(٥) تقييد اللسان : ٣٣٠ .

(٦) نفسه : ٣٢٧ . وباب المعاء : ٦ . وشرح حمل الزجاجي : ٤٩٤ / ٢ .

صوتي ؛ لأن مجال ذلك النطق لا الكتابة ولكن من الرسم ما أجري مجرى نطقه ، فحذف منه ما حُذِفَ منطوقاً ، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم ، وفي الشعر العربي ، ومما جاء في القرآن :

- (ويدعُ الإنسان) (١) .
- (يمسحُ الله) (٢) .
- (سندعُ الزبانية) (٣) .
- (سوف يوت الله) (٤) .

وهذه أفعال معتلة الآخر مرفوعة ، لم يُقرض لها جازم ، فوجب ثبوت الواو في الآيات الثلاث الأولى ، والياء في الآية الرابعة . وما حدث أن هذه الحروف إنما هي عللٌ طويلة (أصوات مد) صادفت صوتاً ساكناً هو الألف ، فقُصرت العلة لتصير ضمةً أو كسرةً ، حتى لا يلتقي ساكنان وهذا قانون صوتي يعمل في النطق ، ولا يثبت في الكتاب والرسم ، وهم بذلك : " حملوا الخط على اللفظ ولم يعتبروا صورة الابتداء والانفصال ، وإثباتها أولى " (٥) . ومثل هذا في القرآن كثير .

وينشعب عن هذا الباب فرع ناشئ عن اللهجات ؛ وذلك أن لبعض القبائل العربية مَمَمًا خاصاً في النطق ، يخالفون فيه ما جرت العرب عليه (٦) . فينعكس هذا السميت على الرسم والكتاب . وأبرز ما نستك في هذا الباب ، التاء التي يوقف عليها هاء .

والمعلوم أن هذه التاء يوقف عليها هاء ، فترسم هاء (تاء غير منقوطة) ، إلا على لغة من وقف عليها بالتاء ، فترسم تاءً ، فيقولون ويرسمون (٧) .

فاطمتُ وحَمَزتُ وخَاتِمَتُ

(١) سورة الإسراء : ١٧ .

(٢) سورة الشورى : ٢٤ .

(٣) سورة العلق : ١٨ .

(٤) سورة النساء : ١٤٦ .

(٥) باب المحاء : ٣٨ .

(٦) عرض هذا الوجه في محت الوقف : ص : ١١٢ - ١١٥ من هذا البحث .

(٧) انظر : تنقيح اللسان : ٣٩٢ - ٣٩٣ . والأفضل ، معان القرآن : ١ / ٥١٩ .

وهذا وارد بكثرة في القرآن الكريم ، إشارة إلى هيئة القراءة ووجهها ، ومنه :

- (إن شجرت الزقوم) (١) .
- (جنت نعيم) (٢) .
- (إن رحمت الله قريب من المحسنين) (٣) .

فإذا كانت في اسم مضاف إلى غير مظهر ، جاز لك الوجهان ، تكتبها بالتاء وبالهاء :

| | |
|---------------|-------------------------------------|
| قنَّةُ الجبل | قنَّتُ الجبل . (أغلاه) |
| حَمَاءُ البئر | حَمَاتُ البئر . (طين أسود متتن) . |

والمستحسن أن تُرسمَ بالهاء (التاء غير المنقوطة) .

" ويستثنى من ذلك (السلام عليكم ورحمت الله) . فإنهم أجمعوا على كتابتها بالتاء ، لكثرة استعماله مُضَافاً ، حتى صار الاسم قلماً يفارق الرحمة ، فصار كالإضممار الذي لا يفارق ، كقولك : رحمته ورحمتك ، ونحو ذلك " (٤) .

- رسم القرآن ورسم العربية :

قدّم نسخ المصحف الشريف خدمة عظيمة اللغة العربية وأداتها المادية ألا وهي الكتابة ، وذلك أنه نقل الكتابة من حيز ضيق إلى نطاق أوسع من التداول ، فازداد عدد الكتاب ، واطردت زيادة القارئ . ويمكن القول : إن نسخ المصحف كان الخطوة العلمية الأولى في محو الأمية في الحضارة العربية الإسلامية .

كذلك كان النسخ تقدماً خطيراً في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية على المستوى المنهجي ؛ ذلك أنه نقلها من ثقافة روائية شفاهية إلى ثقافة تدوينية ، توثق إنجازاتها ومعطيات حضارتها بالكتابة .

(١) سورة الدخان : ٤٣ .

(٢) سورة الواقعة : ٨٩ .

(٣) سورة الأعراف : ٥٦ .

(٤) تقيف اللسان : ٣٩٢ - ٣٩٣ . وباب المعاء : ٤٧ . وابن دستوربه ، كتاب الكتاب : ٩٥ - ٩٦ . والأخفش ، معان القرآن :

ويتصل رسم المصحف بسبب وثيق برسم العربية ، إذ إنه أنموذج ممثل لمرحلة هامة من مراحل تبلور الكتابة العربية وتشكلها في صورتها الحاضرة . وكان جل الاهتمام المصروف إلى رسم المصحف مدفوعاً بدوافع دينية ، مرتبطة بوجوه القراءة الجائزة ، وهيئة الأداء النطقي ، ثم حكم الالتزام بهذا الرسم أو الخروج عليه .

والظاهر أن رسم المصحف يفارق - في بعض ملامحه - الكتابة العربية الاصطلاحية ، فورد عليه المفسرون والباحثون في علوم القرآن والعربية ، وحاولوا تحري وجوه الاختلاف ووجوه الاتفاق بينه وبين رسم العربية ، ثم إنهم حاولوا تعليل وجوه الزيادة أو الحذف أو تغيير أشكال الحروف المتعارفة ، فكان أن وجَّهوا هذا الافتراق توجيهات متباينة المنطلق والتفسير ، وأهم هذه التوجيهات (١) :

١- التوجيه اللغوي النحوي :

ذلك أنهم التمسوا لوجوه الافتراق تلك عللاً لغوية بحتة ، ودلوا على ذلك بأدلة محمولة على ظاهرة لغوية أو صوتية . ومن ذلك أنهم فسروا رسم الألف ياءً بالإمالة ، ورسم الهمزة بأحد حروف العلة الثلاثة للتسهيل . ومن ذلك أنهم حملوا زيادة بعض الحروف أو حذفها على التخفيف وكثرة الاستعمال .

قال الأنباري : " وحذفت الألف من (الله) أكثر الاستعمال ، ولذلك أيضاً حذفت ألسف الرحمن " (٢) . وقال تعليقاً على الآية (ويقيمون الصلوة) من سورة البقرة " وكتبوا (الصلوة) بالواو على لغة الأعراب ، لأنهم ينحون بها نحو الواو " (٣) .

١ (غمام فلوري الحمد ، رسم المصحف - دراسة لغوية تاريخية : ٢٠٥ - ٢٣١ .

٢ (البيان في غريب إعراب القرآن : ٣٢ / ١ .

٣ (المصدر السابق : ٤٨ / ١ .

ومن ذلك كتابة هاء التانيث تاء مبسوطة على اللفظ ، على لغة من يقفون عليها بالتاء . قال الخليل : " والهاء التي تتحول تاء ، وهي لغة في بعض لغات العرب قال الله - عز وجل - : (إن شجرت الزقوم) (١) . ومثله : (إن رَحِمْتَ الله قريب) (٢) .

٢- حَمَل تلك الظواهر على الخطأ :

وذلك أنهم حملوا بعض الرسوم الخارجة على رسم العربية الاصطلاحي على خطأ للكتابة والنسخ الذين قاموا على رسم القرآن أول الأمر . قال ابن قتيبة : " وليست تخلو هذه الحروف من أن تكون على مذهب من مذاهب أهل الإعراب فيها ، أو أن تكون غلطاً من الكاتب - كما ذكرت عائشة - رضي الله عنها - ، فإن كانت على مذاهب النحويين فليس مهناً لَحْنٌ ، بحمد الله ، وإن كان خطأ في الكتاب فليس على الله ولا على رسوله ﷺ جناية الكاتب في الخط ، ولو كان هذا عيباً يرجع على القرآن لرجع عليه كل خطأ وقع في كتابة المصحف من طريق التهجي " (٣) .

والنظر في منهج انتقاء النساخ والكتبة ، يشير إلى تحري الدقة والتوثيق في اختيارهم ، يتعد معه أن يسقطوا في أخطاء يعد بعضها من مبادئ هجاء العربية ، ثم إن الكتابة كانت تُراجع بعد أن ينتهي الكتبة من التدوين ؛ وعليه فهذا التوجيه مُستبعد .

٣- اختلاف في الرسم لاختلاف المعنى :

وذلك أن بعض من صنف في الرسم القرآني ، حمل هينات رسمه على دلالات عميقة متعلقة بالباطن والغيب وأسرار الوجود وأحواله ومقتضياته مما يستعصي على الفهم . وأهم من يمثل هذا الاتجاه ابن البناء المراكشي .

(١) سورة الدخان : ٤٣ .

(٢) سورة الأعراف : ٥٦ . المحل في النحو : ٢٧٢ . ولربما تفصيل بشأن هذه الظاهرة في رسم القرآن ، انظر : القسطلاني ، لطائف الإشارات : ٣٠٣-٣٠٤ .

(٣) : أويل مشكل القرآن : ٤٠ - ٤١ .

صنف ابن البناء كتاباً وسَمَّه " الدليل من مرسوم خط التنزيل " فسُر فيه أحوال الرسم وفق دلالات عميقة ، وإذا كان الكتاب مفقوداً ، فإن الزركشي وابن قتيبة والقسطلاني قد حملوا كثيراً مما تضمنه الكتاب . فقد نقل القسطلاني من الكتاب ما نصه " وأما الواو ، فإن زيادتها تدل على ظهور معنى الكلمة في الوجود في أعلى طبقة وأعظم رتبة ، مثل قوله تعالى : (ساوركم دار الفاسقين) ^(١) و (ساوركم أمآيتي) ^(٢) . زِيدت الواو تبيهاً على ظهور ذلك بالفعل للعيان ، أكمل ما يكون ، ويدل هذا على أن الأيتين جاءتا للتهديد والوعيد . وكذلك زيدت في (أولئك) لأنه جمع مبهم يظهر منه معنى الكثرة الحاضرة في الوجود ، وليس الواو للفرق بينه وبين إليك ، كما قال قوم : لأنه منقوض بـ (أولاء) ^(٣) .

ولا تعدو هذه التفسيرات أن تكون تمحلاً وتكلفاً ظاهرين .

٤- تفسير الزيادة والحذف باحتمال القراءات :

ويطرح هذا التفسير مُشكل العلاقة بين حديث سبعة الأحرف والرسم القرآني . وذلك أن بعضهم حمل هذا على جواز أن يكون الرسم موافقاً للوجوه السبعة ، وزاد من قوة هذا الاحتمال لديهم أن القرآن لم يكن مشكولاً ولا معجماً ، فحملوا الحديث على القراءات وحملوا الرسم على موافقة القراءات واحتمالها . فكان أن عُلِّت الزوائد أو الحذوفات أو التغييرات في هينات الرسم بالجري على وجوه القراءات .

والظاهر أن هذا التوجيه فيه بُعد ، ذلك أنه يفترض أن الرسم من أول ، قد صنم ليوافق وجوه القراءات ، وهذا عسير التحقق ؛ لأنه لا تطابق كاملاً بين القراءات في الرسم ، فما يحذف في واحدة قد يثبت في أخرى ، وما يُسهل في قراءة قد يُحَقِّق في أخرى ، وهكذا يتحمل الرسم تناقضات لا يستطيع أن يجمعها في هيئة واحدة .

والراجح " أن رسم الكلمات جاء لتمثيل لفظ واحد ونطق معين ، بغض النظر عن احتمال أكثر من قراءة ، بسبب تجرد الكتابة آنذاك من الشكل والإعجام ، ومن ثم فإن هذا

١ (سورة الأعراف : ١٤٥ .

٢ (سورة الأنبياء : ٣٧ .

٣ (لطائف الإشارات : ١ / ٢٨٨ .

لاتجاه في تعليل بعض ظواهر الرسم لا يقوم على أساس راجح . بل إنه لا يختلف كثيراً عن اتجاه القائل باختلاف أحوال الرسم لاختلاف المعاني في ضعف الأساس الذي بُني عليه " (١) .

٥- الرسم بُني على حكمة ذهبت بذهاب كتهته :

وهذا يعني أن الدواعي التي حملت الكتابة على تخصيص هينات معلومة من الرسم بحروف مقصورة على معرفتهم وعلمهم ، لا تتعداهم إلى سواهم ، فلما ماتوا حملوا سرهم

وهذا التوجيه فيه مجافاة للواقع اللغوي آنذاك ، ومجافاة للنصوص التي ألمعت إلى مسيرات لغوية أو قرآنية مقبولة يستأنس بها .

ثم إنه لما استقام علم القراءات ، علماً قوي الأركان ، اتخذ من موافقة القراءة للمصحف رسمه شرطاً لتصحيح القراءة وتجويزها ، فقاسوا مقدار دلالة الخط على القراءة ، فما وافقه اتبعوا ، وما كان غير ذلك شُدِّد ودُفِعَت القراءة به . وثمة وقائع كثيرة تؤيد هذا ؛ قال الفراء : اتباع المصحف إذا وجدت له وجهاً من كلام العرب وقراءة القراء أحب إليّ " (٢) .

و مما ورد مخالفاً لرسم العربية (٣) :

١- حذف الألف الفارقة :

- (وجاءو أباهم) سنورة يوسف : ١٦ .
- (وجاءو على قميصه) سورة يوسف : ١٨ .
- (فبأعو بغضب) سورة البقرة : ٩٠ .
- (فإن فاعو) سورة البقرة : ٢٢٦ .

١ (غلام فدوري الحداد ، مرجع سابق : ٢٣١ - ٢٣٢ .

٢ (معاني القرآن : ٢ / ٢٩٣ .

٣ (في تفصيل هذه المسائل ، انظر : المتسللان ، لطائف الإشارات : ١ / ٢٨٦ - ٣٠٦ .

٢-زيادة الألف بعد الفعل المُستند إلى الواحد :

- (أو يعفوا الذي ..) سورة البقرة : ٢٣٧ .
- (ويعفوا عن ..) سورة الشورى : ٣٠ .

٣-زيادة الألف بعد واو جمع المذكر السالم :

- (وأولوا الأرحام) سورة الأنفال : ٧٥ .
- (إنكم لذائقوا العذاب الأليم) سورة الصافات : ٣٨ .
- (ثم إنكم لصالوا الجحيم) سورة المطففين : ١٦ .

٤-اختلاس ياء ضمير المتكلم :

- (فارهبون) سورة البقرة : ٤٠ .
- (يعباد لا خوف) سورة الزخرف : ٦٨ .
- (يقوم) سورة البقرة : ٥٤ .
- (يُخَيِّن) سورة الشعراء : ٨١ .

٥-رسم الهاء (التاء غير المنقوطة) تاءً مبسوطة :

- (رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت) سورة هود : ٧٣ .
- (وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها) سورة إبراهيم : ٣٤ .
- (إذ قالت امرأت عمران) سورة آل عمران : ٣٠ .
- (قالت امرأت العزيز) سورة يوسف : ٥٢ .

٥٢٨٢٢٢

* تعالق رَسْم العربية بالأنظمة اللغوية الفرعية :

١-التعالق بالنظام الصوتي :

الحق أن النظام الكتابي في العربية يكاد يطابق بين المنطوق والمكتوب ؛ ذلك أن كل صوت في العربية مرتبط برمز كتابي واحد حسب . ويكاد هذا التطابق يكون مطرداً ، بالرغم من ثقافته أحياناً . ولو أنك طلبت إلى أحدهم أن يكتب : ذهب سعيد إلى بيته ، لما فارق هذا الرسم ؛ لأنه تحصل لديه تحصل العرف والسليقة ، بعد قليل دربة على الربط بين الصوت ورمزه المكتوب . وهذا التحصل أصبح جانباً من جوانب الكفاية اللغوية في صورتها الناجزة كتابة . ويقابل هذا مفارقة صارخة ، فيما إذا طلبت إلى أحدهم أن يكتب : زيد ، فكتبها (أحمد) فهو بذلك يخرق قانون العرف والتواضع في تمثيل المنطوق .

وعلى أي حال ، ليس التطابق بين المنطوق والمكتوب تطابقاً مرادياً ، لأن ثمة جوانب صوتية فاعلة في النطق حسب ، ولا يجري فعلها في المكتوب ، بما يفضي إلى مفارقة المنطوق للمكتوب .

وأبرز ما يكون من هذا الباب (أل) الشمسية ، وذلك أنك تنطقها على هيئة وتكتبها على هيئة أخرى ، نحو :

| <u>المكتوب</u> | <u>المنطوق</u> |
|----------------|----------------|
| التعليم | أتعليم |
| الثور | أثور |
| الطالب | أطالب |
| الدار | أدار |
| الذئب | أذئب |
| الرجل | أرجل |
| السؤال | أسؤال |
| الشمس | أشمس |
| الصيف | أصيف |

| | |
|---------|--------|
| الضئيف | أضئيف |
| الظالم | أظالم |
| اللُعبة | أُعبة |
| النَّاس | أنَّاس |

وبيان ذلك أن قاعدة المماثلة الصوتية قد أعملت هذا التغيير الصوتي ، فقلبت اللام صوتاً مماثلاً للصوت المجاور . وهذه القاعدة الصوتية تتأتى للناطقين بالعربية تأتي عفويّاً وتلقائياً ، يصنرون في كتابهم عن المعرفة اللاواعية بالقاعدة ، فلا يلتبس الأمر عليهم ؛ لأن هذه القاعدة من أساسيات الكفاية المتحصلة فيهم أصلاً .

ثم إن النظام المقطعي للعربية لا يسمح بتتابع صامتين ، إلا حصراً في الوقف ؛ ولهذا يخلص العربية من هذين الصامتين إما بالحذف وإما بالتحريك ، وقد يكون الحذف في النطق الكتاب ، وقد يكون في المنطوق حسب ، فيورث فرقا بين المنطوق والمكتوب . وذلك أننا نكتب :

- أدرس في الجامعة الأردنية .

- المعلمون شاركوا المدير فرحته .

- محمد وسعيد درسا الأدب العربي في الجامعة .

والظاهر أننا أثبتنا الياء في (في) والواو في (شاركوا) والألف في (درسا) في الرسم ، وهي أصوات مند طويلة ، ولكننا في المنطوق نقصر هذه العلال لمصادفتها (أ) ؛ لالتقاء الساكنين ، فيكون النطق على ما يأتي :

- فإل جامعة .

- شاركمدير .

- درمئل أدب .

ومنه أيضاً (١) :

| <u>المكتوب</u> | <u>المنطوق</u> |
|----------------|----------------|
| نجا الركاب | نج ر ركاب |
| نجا الملاح | نج ل ملاح |
| نجا الطيار | نج ط طيار |
| نجا السائق | نج س سائق |

“ بل إن نظام الكتابة الذي له تميزه الخاص في تشكيله النهائي وعلائقه الجدلية مع سائر مستويات النظام اللغوي ، يساعده أحياناً على رفع اللبس الذي يوقع فيه المنطوق ؛ إذ قد يتوحد المنطوق أو يتفق ويختلف أو يفترق معنى وتركيباً ، ثم تكون الكتابة هي المئينة عن الفرق ، فلذا قرأنا هاتين الجملتين :

- سل ما تريد أن تسأل عن أعمال المؤتمر .

- سلمى تريد أن تسأل عن أعمال المؤتمر .

سمعنا نطقاً واحداً ملبساً ، لا يكشف لنا عن معنى واحد بعينه إلا إذا متناها بالكتابة (١) .
ومثله أيضاً :

- زيدٌ علا الجبل .

- زيدٌ على الجبل .

وليست هذه المفارقة قاصرة على العربية ، فهي موجودة بكثرة في الإنجليزية والفرنسية . فمن الإنجليزية : Sea و See ، Si - و Know , no . week , weak . وقد أشار إلى مثل هذه الظاهرة في الإنجليزية ستيفن أولمان (٢) .

١ (محمد الموسى ، قضية الكتابة العربية ، وفاعل . وعمر قضايا اللغة العربية وتحدياتها في القرن الحادي والعشرين ، ماليزيا ، ١٩٩٦ ، ص : ٥ .

٢ (محمد الموسى ، المرجع السابق : ٦ .

٣ (دور الكلمة في اللغة : ١٤٨ وما بعدها أيضاً : 97 . George Yule , The Study of Language .

٢-التعاليق بالنظام النحوي :

يتعاليق الرسم بالنظام النحوي في العربية ؛ إذ يكون تغيير الرسم علماً على وظائف نحوية متعددة ، ولا سيما في الإعراب بالحروف . فالاسم المثنى يكتب على صورتين وفقاً للحالة الإعرابية ، فنكتب :

- في المدينة جسران .
 - أنشأت الحكومة جسرين .
 - المهمة تجاوزت الجسرين .
- فتكون الألف هادية إلى وظيفة الرفع ، وتهدى الياء إلى النصب أو الجر .

ثم يعرض لنا أن يكون الاسم المثنى لازماً للألف في إحدى اللهجات العربية ، فلا يبين رسم عن وظيفة نحوية ، وإنما يستعاض عن ذلك بالقرائن الدلالية والتركيبية .

وعلى ذلك يجري جمع المذكر السالم ؛ فإن رسمه بالواو علم على الرفع ، ورسمه بالياء علم على الجر أو النصب ، نكتب :

- يؤدي المسلمون الزكاة .
- فرض الله على المسلمين الزكاة .
- أكرم الله المسلمين بالحج .

ومما يدل رسمه على وظيفته النحوية . الأمثلة (الأفعال) الخمسة ، فإنها تختص بـهيات من الرسم تتصل بالحالة الإعرابية والعامل فيها الرفع أو النصب أو الجزم . نحو :

| <u>الرفع</u> | <u>النصب</u> | <u>الجزم</u> |
|--------------|--------------|--------------|
| يدرسون | لن يدرسوا | لم يدرسوا |
| تدرسون | لن تدرسوا | لم تدرسوا |
| يدرسان | لن يدرسا | لم يدرسا |
| تدرسان | لن تدرسا | لم تدرسا |
| تدرسين | لن تدرسي | لم تدرسي |

فثبوت النون عَلَّمَ على الرفع ، وسقوطها عَلَّمَ على الجزم أو النصب ، وإزالة الفرق حاصلة بتعرف العامل الذي أفضى إلى الحذف ، أجازم أم ناصب ؟ وأما الألف الفارقة التي لحقت الواو ، فإنما هي لتمييزها من الواو الأصلية في الفعل المسند إلى المفرد ، ولتكون علماً على كون هذه الواو ضميراً فاعلاً للفعل المتصلة به .

ثم يكون حذف حرف العلة من الرسم دليلاً على جزم المضارع المعتل :

| <u>الرفع</u> | <u>الجزم</u> |
|--------------|--------------|
| يرجو | لم يرجُ |
| يسمو | لم يسنمُ |
| ينهى | لم ينه |
| يشترى | لم يشتر |

وكذلك يكون حذفه علماً على بناء الأمر المعتل :

اغزْ واسنغْ وارجْ .

وقد يعبر عن تركيبين عميقين برسم واحد ، نكتب :

- عقاب القاضي صارم .

وتحتل : العقاب الذي أوقعه القاضي صارم . (القاضي فاعل معنى) .

العقاب الموقع على القاضي صارم . (القاضي مفعول معنى) .

ومثله : سيرة ابن هشام . وتحتل :

- السيرة التي كتبها ابن هشام لغيره .

- السيرة المتعلقة بحياة ابن هشام .

فتكون السيرة مضافة إلى فاعل في الأولى ، ومضافة إلى مفعول في الثانية .

٣-التعالق بالنظام الصرفي :

وذلك أن مجيء الكلمة على بناء صرفي محدد ، يملئ علينا أن نرسمها على هيئة جديدة . من ذلك أن التباين في رسم الألف اللينة في الأسماء والأفعال دال على أصل تلك الألف ؛ فإذا كانت منقلبة عن واو ، رسمت قائمة ، وإن كانت منقلبة عن ياء ، رسمت ياءً الفأ مقصورة) ، نحو :

رجا ← يرجو . دنا ← يدنو .

سما ← يسمو . شدل ← يشدو .

عدا ← يعدو . رنا ← يرنو .

ومن اليائي :

سقى ← يسقي . شوى ← يشوي .

روى ← يروى . درى ← يدري .

وعى ← يعى . ونى ← يني .

وهكذا دلت الألف على أصلها الذي انقلبت عنه . فإذا نظرنا إلى المضارع وصلنا إلى رأي مفاده : صيغة المضارع التي تكون لهذه الأفعال : فتكون : رجا - يرجو ، وأمثالها على بناء : فَعَلَ يَفْعُلُ . وتكون الأفعال : شوى - يشوي ، وأمثالها على بناء : فَعَلَ يَفْعُلُ .

ومما تعالق فيه النظام الصرفي بالنظام الكتابي ، ما ورد عن العرب بالياء وبالواو ، باختلاف الأصل والاستخدام أفضى إلى اختلاف في الرسم .

ومن هذا الباب ورود كلمات على هئتين من الرسم ، لاختلاف تصريفها في اللهجات العربية ، ومن ذلك كتابة الألف المتطرفة في الأسماء الثلاثية ، نحو :

الخطا . الخطى .

الخنا . الخنى .

الذرا . الذرى .

| | |
|--------|----------|
| الرّبا | الرّبي . |
| الرّضا | الرّضى . |
| الرّثا | الرّثى . |
| السّنا | السّنى . |
| الضّحا | الضّحى . |
| العرا | العري . |
| العلا | العلى . |

ومرّد هذا الاختلاف إلى اللهجات ، فبعض القبائل يجعلها من ذوات الواو ، فيكتبها طبقاً للقياس بالألف ، وبعضهم يجعلها من ذوات الياء فيكتبها طبقاً للقياس بالياء (١) .

٤-التعالق بالنظام الدلالي :

ويكون هذا التعالق على مستويات مختلفة ، فقد يدل الرسم الواحد على معانٍ متعددة (المشترك) ، وقد يدل على معنيين متضادين (الأضداد) وقد يعبر عن المعنى الواحد برسوم متعددة (المترادف) .

(١) ان تفصيل هذه المسألة ، انظر : الغرب المصنف ، باب يفعلُ وفعلٌ من ذوات الباء والواو : ٦١٩ - ٦٢١ .

المبحث الثاني

التباين في وجوه الرسم .

- التباين في رسم الهمزة :

تشبه الهمزة أن تكون مظنة كثير من اللبس والإشكال في رسم العربية ؛ فهي تستعصي على الضبط ، ويصعب التحكم في سيرورة حركتها داخل بنية الكلمة العربية ، وهي أكثر حروف العربية تغيراً في الرسم . والحق أن " الهمزة حرف لا صورة له في الخط ، وإنما تكتب على صورة حروف اللين " (١) .

ومرد التباين في رسمها إلى الموقع الذي تحتله في بنية الكلمة ؛ إذ يتوقف رسمها على حركة الحرف المتقدم عليها مرة ، وعلى حركته وحركتها مجتمعين مرة أخرى ، وعلى موقعها في بنية الكلمة ، أولى أو وسطى أو ختامية ، تارة ثالثة . وتعدد أشكالها على هذا النحو يكون مظنة ليس وزلل كبرى عند شدة الكتابة والمتعلمين ، في إقامة فرق بين أحوالها المتعددة .

فإذا سكنت الهمزة وقبلها فتحة كتبت ألفاً ، كرسمك قرأت وملأت ورأس . وإذا سكنت وانكسر ما قبلها كتبت ياءً نحو : برنت وشنت . فإن سكنت وانضم ما قبلها كتبت واواً ، نحو : جزوت ، وجؤنة ولؤم (٢) .

وقد يتعالق رسم الهمزة بالنظام النحوي للعربية ، فترسم الهمزة وفق موقع الكلمة من الإعراب ، إن كانت الهمزة حرفاً أخيراً في الكلمة ، فنحن نكتب :

- علم الرجل أبناءه .

- وثق الرجل بأبنائه .

١ ابن منظور ، كتاب اللغات ، ٢٧ . وابن الدعان ، باب المعاء : ٣٩ .

٢ ابن فنيبة ، أدب الكاتب : ٢٦٢ . وشرح حمل الزجاجي : ٢ / ٥٠١ .

- تعاون الرجل وأبناؤه .

وبيان ذلك أن علامة الإعراب قد تغيرت ، ولما كانت الهمزة تتغير رسماً بحركتها هي ، تغير رسمها . فإن جاءت أمثال هذه للكلمة غير مضافة إلى ضمير احتفظت برسم واحد في الحالات الإعرابية الثلاث ، وذلك أنك تكتب :

- حضر عملاً المصنّف مبكرين .
- هاتف المدير عملاً المصنّف .
- سلمت على عملاء المصنّف .

فإن أضفت إلى ياء المتكلم ، لزمته حالاً واحدة ، هي الرسم ياءً ، وذلك موافاة لقواعد النظام الصوتي للعربية الذي يفرض أن يلزم الصوت (الحرف) الذي يتقدم ياء المتكلم حركة واحدة هي الكسر ، فنكتب :

- هؤلاء شركائي .
- زرت شركائي .
- سلمت على شركائي .

وهكذا يعيننا الموقع النحوي ، والقاعدة الصوتية ، وحركة الحرف المتقدم على الهمزة ، وحركة الهمزة ، على تمثيل شيء من قواعد رسمها ، أجل ضبطها ورصد وجوها . وقصد مزيد إيضاح وبيان ، نرصد وجوهاً من التباين في رسم الهمزة ، هي - على التعيين :

١ - رسم الهمزة حرفاً أخيراً أصلياً في الكلمة (١) :

إذا وقعت الهمزة حرفاً أخيراً أصلياً في الكلمة ، وقبلها حرف مفتوح ، رسمت ألفاً فسي الرفع والنصب والجر ، نكتب :

- هو يقرأ ويقرأ منك .

- رأيتُ الملاً وعرفتُ الخطأ .
- مررتُ بالملاً وأقررتُ بالخطأ .

هذه حال الهمزة على غير إضافة (غير متصلة بحروف) ، أما في الإضافة فحالها متغيرة . وذلك أنك إذا أضفت إلى ظاهر بقيت على حالها لا تتغير . فإن أضفت إلى ضمير كان فيها أحوال . ففي حالة النصب تبقى هيئتها كما هي ، فنكتب : رأيت ملاًهم وعرفت خطاهم ولن أقرأه .

أما في الرفع فنجعلها واواً ، فنكتب :

- هو يقرؤه ويملؤه .
- هل أتاك نبؤهم وملؤهم .

وإذا كانت الهمزة مجرورة كتبت باءً ، فنكتب :

- مررتُ بملئهم .
- وسمعتُ بنبيهم .

فهذه الوجوه هي المقدمة في الرسم ، ولكن ثمة وجهاً آخر يجري على نسق واحد . وذلك أنهم يتركون الهمزة على حالها مرسومة على ألف ، ويدلّسون على الفرق في الحركات ، بإثباتها على الألف ، فيكتبون (١) :

- هو يقرأه .
- الله يكلاك .
- عجبت من شناك .
- هو ملأهم .
- هذا ملأهم .

- فلان لا يرزأك شيئاً .

وقد يكون هذا الوجود أكثر اتساقاً ؛ ذلك أنه يستبقي صورة من الرسم واحدة حَسْب ، ويدل على الموقع النحوي بحركة ظاهرة ، وقد يدل الشكل ذاته على الحركة ، إذ مما يتحصل بالسليقة أن الضمة لا تكون إلا فوق الحرف ، وأن الكسرة لا تكون إلا تحته ، فيفرض الالتباس بين الفتحة والضمة من جهة ، والكسرة من جهة أخرى ، وليس من الصعوبة بمكان إزالة اللبس الحادث بين الضم والفتح ؛ لسهولة تعريف الوظيفة النحوية . ولا يخفى أن وجود الهمزة فوق الألف أو تحته علم على حركتها ، رفعا أو نصبا أو جرا .

٢- رسم الهمزة المسبوقة بهمزة الاستفهام :

إذا كانت الهمزة الحرف الأول في الكلمة كتبت ألفاً ، بصرف النظر عن حركتها ضمياً أو فتحاً أو كسراً ، نحو : أحد ، وإلى ، وأنت وأين وأخذ . فإذا لا يستها همزة (أ ل ف) الاستفهام تغيرت سيرتها .

فترسم هذه الهمزة جوار الهمزة المفتوحة ، وتظهر الهمزتان في الرسم :

- أنت ————— ← أنت ؟

- أخذت ————— ← أخذت ؟

- أنام ————— ← أنام ؟

وإن كانت الهمزة (أ ل ف القطع) مضمومة ، ولا يستها همزة الاستفهام ، جعلت في الرسم واواً ، نحو (١) :

- أكرمك ————— ← أكرمك ؟

- أعطيك ————— ← أعطيك ؟

- أنبئك ————— ← أنبئك ؟

٤- رسم الهمزة المتوسطة :

إذا جاءت الهمزة مضمومة أو مكسورة ، وبعدها ياء أو واو ، كتبت بياء واحدة أو واو واحدة ، وحذفت الهمزة - يقصد الألف - فنكتب :

- اقرؤا وقد قرؤا وهم يقرؤن . وهم يهزؤن بنا وهم يماؤن ، وهم مستهزؤن وهؤلاء مقرؤن ومخطؤن ، هذا الذي عليه المصحف ومتقدمو الكتاب^(١) . وهو مذهب البصريين^(٢) .

وكتبه بعضهم بياء قبل الواو نحو : مستهزؤن و يقرؤون . وهو " مذهب الكوفيين والأخفش "^(٣) .

• الألفُ الفارقة :

ومما أضيف إلى الرسم وهو ليس منه ، الألف الفارقة ، وهي الألف التي تلتحق واو الجماعة الواقعة موقع الفاعل في فعل ماضٍ أو مضارع منصوب أو مجزوم أو فعل أمر . وإنما كانت إضافتها فرقاً بين الاسم والفعل . فنكتب :

| | | | |
|--------|-----------|-----------|-------|
| اضربوا | لن يضربوا | لم يضربوا | ضربوا |
| اكتبوا | لن يكتبوا | لم يكتبوا | كتبوا |

وقد جعل الكوفيون هذه الزيادة دَفْعاً لانتباس واو الجمع بواو العطف ، " وقال جماعة من الكوفيين : ألف الفصل يزداد بعد واو الجمع مخافة انتباس واو التثنية في مثل : كفروا

١ (أدب الكاتب : ٢٦٣ .

٢ (تنقيح اللسان : ٣٨١ .

٣ (السابق ، والصفحة .

وردوا ، فلو لم يدخلوا الألف بعد الواو واتصلت بكلمة أخرى ، لظن القارئ أنها : كفر ووردوا ، فتجيء بالألف لهذا الفرق " (١) .

وقد تبعهم في ذلك ابن الحاجب ، حيث يقول : " وأما الزيادة بعد واو الجمع المتطرفة في الفعل ألفاً نحو : أكلوا وشربوا ، فرقاً بينها وبين واو العطف ، بخلاف يدعو ويغزو " (٢) .

أما إذا كان الفعل للواحد مختوماً بواو أصلية لم تلحقه ألف . " وكتبه بعضهم بالألف كفعل الجماعة لما أشبهت واو الجمع ، إلا أنهم اتفقوا على إسقاط الألف إذا نصبت ، فقلت : لن يدعو ، لأنه قد ذهب عنه شبه الجمع " (٣) .

وهكذا نتحصل لنا صورتان لهذه الأفعال في الرفع ، وصورة واحدة في النصب :

| | | |
|----|---------|---------|
| هو | - يغزو | يغزوا . |
| | يرجو | يرجوا . |
| | يدعو | يدعوا . |
| | لن يرجو | . x |
| | لن ينجو | . x |

وقد اثبت بعضهم الألف في ما كان مجموعاً جمع مذكر سالماً ، منقوص النون للإضافة ؛ فرقاً بينه وبين " أبو زيد " و " أخو عمرو " ، فكتبوا (٤) :

- هلك بنوا زيد .

- ضاربوا عمرو .

١ (ابن الدهان ، باب المعاء : ٥ . وانظر : شرح حمل الزجاجي : ٤٩٤ / ٢ - ٤٩٥ .

٢ (شرح الشافية : ٣ / ٣٢٧ . وانظر : شرح حمل الزجاجي : ٤٩٤ - ٤٩٥ .

٣ (تقيف اللسان : ٣٨٣ .

٤ (نفسه .

وقال الرضي في شرح الشافية : " والأكثرون لا يكتبون الألف في واو الجمع الاسمي نحو : شاربوا الماء ؛ لكونه أقل استعمالاً من الفعل المتصل به واو الجمع ، فلم يبال باللبس فيه إن وقع ، لقلته ، ومنهم من يحذف الألف في الفعل والاسم لندور الالتباس فيهما " (١) .

- رسم ابن وابنة (٢) :

ينضبط رسم ابن وابنة بضابطين على التقريب ، هما : الوظيفة النحوية والعدد . وذلك أنك تحذف الألف منهما خطأ كما تحذف لفظاً إذا وقعتا مضافتين إلى علم ووصفاً لعلم ، فإن كانا خبرين أثبت الألف ، فيكون ثبوت الألف أو حذفها علماً على الوظيفة النحوية ، نكتب :

- عمرُ بنُ الخطابِ خليفةُ رسولِ الله .

- زيدُ بنُ ثابتٍ من كتبةِ الوحي .

- ولأدةُ بنتُ المستكفي شاعرة .

وذلك على الوصفية ، فإن جعلتهما خبرين ، رسمت :

عمرُ ابنُ الخطابِ .

زيدُ ابنُ ثابتٍ .

ولأدةُ ابنةُ المستكفي .

وفي المصحف : « قالت اليهودُ عزيزُ ابنُ الله وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله » (٣) ويجري هذا الحكم على الكنية ، فنكتب :

- معاويةُ بنُ أبي سفيانٍ . . .

- معاويةُ ابنُ أبي سفيانٍ .

(١) ٣٨٢ / ٣ .

(٢) في تفصيل هذه المسألة ، انظر : باب الهجاء : ١١ - ١٢ . وتذيق اللسان : ٢٧٣ . وشرح الشافية : ٣ / ٢٢٩ و ٣٣١ . وشرح

جمل الزجاجي : ٤٩٧ / ٢ .

(٣) سورة التوبة : ٣٠ .

وإذا نسبته إلى لقب قد غلب على أبيه ، أو صناعة مشهورة قد عُرف بها ، كقولك :
زيد بن القاضي . وبكر بن الأمير ، فإنك تحذف الألف منه أيضاً (١) .

وينبني على هذا التفريق في الرسم تفريق في تنغيم الأداء الصوتي ، يميز المستمع فيه
وظيفة من أخرى .

وتثبت الألف خطأ إذا تثبت ، نحو :

- هذان زيد وعمرو ابنا بكر .

- الحسن والحسين ابنا علي .

" لأنهما وصف لاثنين ، والاثنان إذا كانا بصيغة واحدة لم يكونا معرفة بالعلمية
(٢) سوى ما قد شدّ نحو : أبائين " (٢) .

وكذلك إذا نسبته إلى جده ، كقولك : قال محمد ابن شهاب وعبد الملك ابن
الماجشون ، ونحو ذلك ، لا بد من إثبات الألف ؛ لأن شهاباً والماجشون جدهما " (٣) .

أما (ابنة) فإذا كتبت بالهاء (هـ) فالاختيار إثبات ألفها في كل حال ، وجاز حذفها
لمن كتبها بالتاء ، وبعضهم لم يُجزَّ فيها إلا إثبات الألف " (٤) .

وذهب بعضهم إلى أن الألف لا تحذف من ابنة كما تحذف من ابن . " قال أحمد بن
جعفر الدينوري : وإنما لم تحذف من ابنة كما حذفت مع المذكر ؛ لأنه لم يكثر استعمالهم
للمؤنث كما كثر في المذكر " (٥) .

- رسم كلا وكتلتا :

يسند التباين في (كلا وكتلتا) على مدى فسيح من مستويات العربية ، نحواً ووظيفة
ودلالة ورسماً . وينسحب التباين عليهما هنا إن كانتا مضافتين إلى اسم ظاهر . والمحتكم في

(١) تنقيح اللسان : ٣٧٣ .

(٢) ابن الدهان ، باب الهاء : ١٢ .

(٣) تنقيح اللسان : ٣٧٤ .

(٤) ابن الدهان ، باب الهاء : ١٢ .

(٥) تنقيح اللسان : ٣٧٤ .

رسمهما - حسب ابن قتيبة - هو الوظيفة النحوية التي تؤديها الكلمة منهما ؛ فإن كانت مرفوعة رُسِمَتْ بالألف القائمة ، وإن كانت منصوبة أو مجرورة رُسِمَتْ بالياء (الألف المقصورة) .

وفيما يلي نص ابن قتيبة - نوره على طوله - " فاما كلا وكلتا ، فقد اختلفَ فيهما ، والذي اُسْتُحِبُّ أن يكتبَ إذا وليا حرفاً رافعاً بالألف ؛ فنكتب : أتاني كلا الرجلين ، وأتاني كلتا المرأتين . وإذا وليا حرفاً ناصباً أو خافضاً كتبنا بالياء ، فنكتب : رأيتُ كلَي الرجلين ، ومررت بكلتي المرأتين . وإنما فرقت بينهما في الكتاب في هاتين الحالتين ؛ لأن العرب فرقت بينهما في اللفظ مع المكني ، فقالوا : رأيت الرجلين كليهما بالياء ومررت بهما كليهما ، ورأيت المرأتين كليهما ، ومررت بهما كليهما ، فلفظوا بهما مع الناصب والخافض بالياء ، وقالوا : جاءني الرجلان كلاهما ، والمرأتان كلتاهما ، فلفظوا بهما مع الرفع بالألف " (١) .

وقد يبدو هذا أكثر اتساقاً لأنه يساوي بين الإضافة إلى مضمرة وإلى ظاهر .

رسم المقصور والممدود :

المقصور هو الاسم الذي حُرِّفَ إعرابه ألف لازمة . والممدود هو الاسم الذي في آخره همزة تلي ألفاً زائدة نحو حَمْرَاءٌ وكِسَاءٌ (٢) . ويتباين هذان النوعان من الأسماء في الرسم . ولكن ثمة أسماء ممدودة قصرت مع الاحتفاظ بمعناها ، فكان أن تغير رسمها أو احتفظت به كما هو على حاله . ومن ذلك (٣) :

| ممدود | مقصور |
|----------|---------|
| الزَّناء | الزَّنى |
| الشُّراء | الشُّرى |
| الضُّواء | الضُّوى |

(١) أدب الكاتب : ٢٦١-٢٦٢ . أيضاً كتاب الكتاب : ٤٨-٤٩ . وتقييد اللسان : ٣٩٣-٣٩٤ . والفراء ، معان القرآن : ١٨٤/٢ .

(٢) شرح ابن عقيل : ٤٠١/٢ و ٤٠٣ .

(٣) في تفصيل القول في هذه المسألة ، انظر : أدب الكاتب : ٣٠٤-٣٠٥ . والفراء ، المقصور والممدود : ٤٢-٤٣ . وابن دريد ، شرح المقصور والممدود .

| | |
|------------|-----------|
| الوناء | الونى |
| البُكاء | البكى |
| فحواء | فحوى |
| الهيحاء | الهيجا |
| الدُّهْناء | الدُّهْنا |
| زكرياء | زكريا |

وقال كَعْبُ بن مالك الأنصاري :

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقُّ لَهَا بُكَاهَا
وما يُعْنِي البُكَاءُ ولا العَوِيلُ (١)

وقد أورد الفراء : الزنا والشفا والضنوا والعصا والبُكا وزكريا والونا والنجا ، مرسومة
بألف ممدودة ، لا ياء (٢) .

ومن هذا الباب أيضاً حروف الهجاء ، ما كان منها على حرفين الثاني منهما ألف ، يُمدُّ
ويقتصر ، من ذلك الباء والتاء والثاء والحاء والياء والطاء والظاء والراء والفاء والهاء والياء .
واعلم أن الزاي ليس من هذا ، وليس فيه مدٌّ ولا قصر (٣) . نكتب :

| | | | | | |
|-----|----|-----|----|-----|----|
| باء | با | تاء | تا | ثاء | ثا |
| حاء | حا | حاء | حا | طاء | طا |
| ظاء | ظا | راء | را | فاء | فا |
| هاء | ها | ياء | يا | | |

(١) الفراء ، المقصور والمدود : ٤٣ .

(٢) المقصور والمدود : ٤٣ .

(٣) المصدر السابق : ٤٤ .

ومما ورد من متفرقات هذا الباب :

- الصُدَى من العطش والصُدَى ذَكَرُ البوم ، مقصوران يُكْتَبان بالياء والألف :
الصدا / الصدى . والألف أجود (١) .
- الملا من الأرض ، مقصور غير مهموز ، يكتب بالياء والألف : الملى
والملا ، والألف أجود ، وهو ما أتسع من الأرض (٢) .
- الذُّرَا ، ذُرَى الجبل ، ما استدرت به واستترت به من الريح ، مقصور
يكتب بالياء والألف : الذُّرَا / الذُّرَى (٣) .
- السُدَى بالياء على ثلاثة أوجه : السُدَى من النُدَى ، والسُدَى : سُدَى الثوب
... والسُدَى : البَلَح ... يكتب ثلاثهن بالياء وإن شئت بالألف (٤) .
- القَرَا ، يكتب بالألف ، وهو الظُّهر ؛ لأنه يُتَنَّى قَرَوَيْن ويقال قَرَيْنَيْن ،
ويقال : فرس قَرَوَاء بَيْنَةَ القَرَا ، إذا طال ظَهْرُهَا ، وربما كتبت بالياء
لإشارة العرب إلى الياء بالكسر (٥) .
- الحَشَا ، مقصور يكتب بالألف وربما كتب بالياء ، يذهبون به إلى الياء
لأنهم يقولون : حَشَيْتَ الطَّيِّبَ بالسهم وحَشَوْتَهُ ، وحَشَأْتُ ، والمعنى واحد ،
وهو الأحشاء (٦) .
- الحمى والرَضَى يكتبان بالياء وبالألف ؛ لأن الكسائي زعم أنه سمع العرب
تقول : جِمْوَان ورضوان وهميان ورضوان (٧) .
- رَحَوْتُ الرُّحَا ورَحَيْتُ الرُّحَى ، وقال ابن قتيبة : " وأن تكتبها بالياء أَحَبُّ
إلي ؛ لأنها اللغة العالية (٨) .
- الرَّبَى ، مقصور يكتب بالياء . وهو في المصحف مكتوب بالواو (٩) .

(١) الفراء ، المقصور والمدود : ٤٧ .

(٢) نفسه : ٤٧ - ٤٨ .

(٣) نفسه : ٤٨ .

(٤) نفسه : ٥٥ .

(٥) نفسه : ٥٥ .

(٦) نفسه : ٥٦ .

(٧) نفسه : ٥٦ .

(٨) أدب الكاتب : ٢٥٨ . والمتحضر والمدود : ٥٥ .

(٩) المقصور والمدود : ٥٧ .

- قال الفراء : " متى .. حرف للاستهـام يكتب بالياء ، ومتى لغة في هـنـيل بمعنى وسط ، ولست أعرف لها فعلاً ، فإن شئت كتبتها بالياء ، وإن شئت كتبتها بالألف " (١) .
- حتى ، تكتب بالياء ؛ لأنه لا يُعْرَفُ لها فعل ، ويجوز بالألف . قال سلمة : " سألت الفراء : كيف تكتب حتى ؟ فقال : بالألف ، ثم رجع فقال : بالياء ، وهي في مصاحف ابن الزبير كلها بالياء " (٢) .
- كَبَشُ أَيْانُ بَيْنُ الأَلَى ، مقصور يكتب بالياء والألف وتقديره العلى مقصور (٣) .

- الفَصْلُ وَالْوَصْلُ :

ويقصد بالفصل والوصل أن ترسم كلمتان متصلتين أو منفصلتين ، ويكون الانفصال أو الاتصال علماً على وظائف نحوية ، وفصائل نحوية على التعيين ، تسهم في مَيزَ عناصر التركيب ، وتحديد وظائفها وأغاريبها .

وأظهر ما يكون من هذا الباب (إن وما) ، فإن اتصالهما عَلِمَ على أن " ما " حرفية كافة تَدْخُلُ على " إن " ، فتبطل عملها في المبتدأ والخبر ويجري ما بعدها على أصله بصرف النظر عن وجود إن . فإن انفصلت " ما " عن " إن " كان ذلك علماً على اسميتها ، فتكون موصولة .

قال ابن مكي : " وكذلك هي مع إن ، إذا كانت صلة وصلتها ، كقولك : إنما فعلت كذا ، وإنما أنا أخوك . وإذا كانت في موضع اسم فصلتها . كقولك : إن ما عندي أحب إلي ، وإن ما جئت به قبيح . وكتبت في المصحف - وهي اسم - بالوجهين . كتبوا : (إن ما توعدون لآت) (٤) مقطوعة . وكتبوا : (إنما صنعوا كيدُ ساحر) (٥) موصولة . والأحسن أن تقطع الاسم وتصل الصلة " (٦) .

(١) المقصور والمدود : ٥٨ .

(٢) نفسه : ٥٨ .

(٣) نفسه : ٦٢ .

(٤) سورة الأنعام : ١٣٤ .

(٥) سورة طه : ٦٩ .

(٦) تنقيح اللسان : ٣٨٩ - ٣٩٠ . وشرح الشافية : ٣/ ٣٢٥ - ٣٢٧ . والفراء : معاني القرآن : ١/ ١٠٠ - ١٠٢ .

ويستقيم لنا في الآية الثانية وجهان :

الأول : أن نجعل (ما) اسماً موصولاً ، في موقع اسم إن . وكيدٌ خبره .

الثاني : أن نجعل (ما) كافةً لعمل إن ، فيقتضي ذلك نصب (كَيْدٌ) على أنها مفعول ، وهذا هو الوجه في الرسم .

ويتمسب القول نفسه على (ما) مع (أين) ، فإن عُدَّت معها كلمة واحدة وجَبَ وصلها ، وإن كانت اسماً موصولاً فصلت ، نكتب (١) :

- أينما كُنْتُ فافعل كذا .

- نحن نأتيك أينما كُنْتُ .

- أين ما كنت تُعِدُّنا ؟

- أين ما أخذت .

ومن هذا الباب " نِعْمَ وَبِئْسَ " ، فإذا باشرتُهما (ما) فلكَ فيها وجهان نعمًا وبئسما ونعم

وبئس ما ، والأحسن في " نعمًا " الوصل للإدغام ولأنها موصولة في المصحف . و"بئسما " محمولة عليها للشبه وإن لم تكن مُذخمة (٢) .

- ألف ما الاستفهامية :

تحذف الألف من (ما) الاستفهامية ، إذا اتصل بها حرف جر ؛ لكثرة الاستعمال ،

وقرئاً بينها وبين " ما " الموصولة . قال الأنباري مُعلقاً على الآية (فيمَ كنتم) (٣) : " ... فيمَ

(١) تقيف اللسان : ٣٨٩ - ٣٩٠ . وشرح الشافية : ٣ / ٣٢٥ - ٣٢٧ .

(٢) تقيف اللسان : ٣٩٠ .

(٣) سورة النساء : ٥٧ .

... وما هنا استفهامية ، ولهذا حذفت الألف منها لدخول حرف الجر عليها ؛ لأن ما إذا دخل عليها حرف الجر حُذِفَتْ أَلْفُهَا تَخْفِيفاً لِكثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ ، وليفرق بينها وبين (ما) بمعنى الذي ، ليفرق بين الخبر والاستفهام . ولم يحذفوا الألف من (ما) في الخبر إلا في موضع واحد هو قولهم : ادعُ بِمَ شئت ، بالذي شئت ، وما عداه فلا يحذف منه الألف " (١) .

وعلق ابن جني على قراءة عكرمة وعيسى (عَمَّا يتساعلون) (٢) ، قائلاً : " هذا أضعف اللغتين ، أعني إثبات الألف في (ما) الاستفهامية إذا دخل عليها حرف جر ، وروينا عن مُطَرِّبٍ لِحْسَانٍ :

على ما قام يشتمني لثيمٌ كخنزير تمرغ في نمان
فأثبت الألف مع حرف الجر " (٣) .

" وزعم أبو زيد أن كثيراً من العرب يقول : سلَّ عَمَّ شئت ، حذفوا ألفها وهي موصولة لكثرة الاستعمال . وقال المبرد : هي لغة " (٤) .

وهكذا يكون الرسم متفهماً بين (ما) الاستفهامية و (ما) الموصولة .

(١) البيان في غريب إعراب القرآن : ٢٦٦/١ . وارتشاف الضرب : ١٠٣٠/٢ . وشرح حمل الزجاجي : ٤٩٦/٢ . وشرح ديوان الحامسة : ٦٣/١ .
(٢) سورة البأ : ١ .
(٣) المحاسب : ٣٤٧/٢ . وشرح شواهد الشافية : ٢٤٢/٢ .
(٤) أبو حيان : ارتشاف الضرب : ٢٤٩-٢٥٠ .

الفصل السابع

نظرية التباين في العربية

المبحث الأول : الدراسات الحقلية في التراث العربي .

١- الدراسات الحقلية واللسانية الاجتماعية .

٢- الدراسات الاحصائية في التراث العربي .

المبحث الثاني : نظرية التباين في العربية .

-المفهوم والمصطلح .

-منهج الدرس .

-بنية النظرية :

١-التعليل والتفسير :

أ-العوامل اللغوية الداخلية .

ب-العوامل الخارجية .

٢-الاشتراك .

٣-الحمل على اللفظ والحمل على المعنى

المبحث الأول

الدراسات الحقلية في التراث العربي

• الدراسات الحقلية واللسانية الاجتماعية :

تعالق البحث اللساني منذ نشأته بأفرع المعرفة الأخرى ، فأفاد منها ما أطاق : ومنشأ هذا التعالق وجهة النظر الحادثة في التعامل مع اللغة ؛ فقد صودرت النظرة التقليدية المعيارية للغة ، وحلت محلها نظرات وصفية جديدة ، اجترأت على الأعراف اللغوية السابقة وهزّت أركانها .

ولعلّ أظهر وجوه التعالق قد وقع بين اللسانيات وعلم الاجتماع وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ؛ ذلك أن البحث في اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية قد فرض سلوك سبل مناهج البحث الاجتماعي والإنساني ، ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية كغيرها من نشاطات الإنسان الاجتماعية ، فقد صدقت عليها مناهج البحث في العلوم الاجتماعية .

وتدين اللسانيات الحديثة في أرقى درجات تطبيقها للسانيات الاجتماعية ؛ إذ حملت اللسانيين على مدارس الظاهرة اللغوية في أفق استعمالها اليومي ، وفي سياقاتها الوظيفية التي تتأدى للناطقين بها تأدياً عقوياً بعيداً عن التكلف ، وهكذا باتت الدراسة الحقلية الميدانية ركناً ركيناً في الدراسات اللسانية الاجتماعية .

وانتحت هذه الدراسات سمّاً منهجياً واضحاً يتلخص في خطوات إجرائية ثلاث :

الأولى : جمع المادة اللغوية . وذلك بغد أن يكون الباحث قد حدد الفرض من الدراسة ، وانتقى مجتمع البحث الذي سيجري عليه البحث ؛ لينضبط بحدوده الإجرائية والعسية .

الثانية : تصنيف المادة ، وفق معايير متعددة منبثقة من طبيعة المادة المجموعة ، لتخدم غرض الدراسة .

الثالثة : التحليل والتعديد ؛ أي : تحليل المادة المجموعة وفق قواعد تحليلية مقررة سلفاً . والدراسات اللسانية الاجتماعية عموماً ، ودراسات التباين خصوصاً تعتمد على المخلّلات الإحصائية للوصول إلى نتائج ذات دلالات إحصائية ، وقد يشتمل التحليل على نماذج إحصائية محوسبة تتعامل مع العينات المتوافرة ، وقد تتجاوز ذلك إلى نتائج تنبؤية .

هكذا هي الحال في الدراسات اللسانية الاجتماعية والتباينة المعاصرة ، فكيف كانت الحال في نظرية التباين العربية في التراث ؟

لعله من أبجديات منهج البحث اللغوي العربي القول : إن أساس التعديد في النظرية اللغوية العربية كان قائماً على الدراسات الحقلية ؛ وذلك أن اللغويين العرب لما عزموا على تعديد اللغة ، تمثّلوا غرضاً مُسبقاً يدفعهم إلى تدوين الصورة المثلى للغة على وفق المتداول ، فساروا على منهج يتمثل فيما يلي :

- أولاً : مقدمات منهجية :

حدد اللغويون العرب هدفهم من تعديد اللغة في صونها من اللحن ، والحفاظ على صورتها النقية الخالية من الشوائب ؛ لتقدم مادة خالصة سائغة للشداة والمتعلمين من العرب وغيرهم . وهكذا عملوا على ضبط سيرهم من الأول ، فوضعوا قيود انتقاء مكانية وزمانية ونوعية تحقق لهم ما يريدون .

ثانياً : جمع المادة :

كان جمع المادة اللغوية الخطوة الأولى لتعديد اللغة ، وتحقيقاً لذلك شرع اللغويون بجوبون البوادي ويتسقطون أخبار البدو في مضاربهم ؛ ليرصدوا وقائع الاستخدام اللغوي الواقعي في مشاهد الحياة المختلفة . والنظر في كتب اللغة الأصول يقفنا على كثير من الوقائع التي تدعم ذلك .

وأكثر ما بلغت النظر في هذه المادة ، تلك المواقف العفوية التي دُونت في مظانهم وكتبهم ؛ فبعضها في السوق وبعضها في المَرعى ، وبعضها في الحج ، وفي أماكن أخرى . فقد روى الأصمعي : " قال الفرزدق : رأيت أعرابياً بمكة ، ومعه عجوز وغلaman ، وهو يقول :

أَنْكَ وَهَبْتَكَ زَائِداً وَمَزِيداً

وشيخة أولسج فيها الأجردا

والعجوز تقول : إذا شَبَكَ إذا شَبَكَ ! يريد : أنت وهبت ، وإذا شَبَت شَبَت " (١) .

و " حكى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنه سمع بعضهم يقول : جاءتته كتابي فاحتقرها ، قال أبو عمرو : فقلت : أتقول : جاءتته كتابي فاحتقرها ؟ قال : نعم ، أليست هي صحيفة " (٢) .

ومما يُعزِّزُ القول بوثوقية الدراسات الحقلية التراثية ودقتها مظهران هامين هما : التوثيق الدقيق للظواهر اللهجية الصوتية (الكساسة والكشكشة ...) وذلك أنها تعتمد على الدقة في السماع ، لتحديد السمة اللهجية تحديداً دقيقاً .

والثاني : الفروق الدقيقة في دلالات الألفاظ التي يشتبه أن تكون مترادفة ، كتفريقهم درجات النوم والخوف ، وأوائل الأشياء ، واختلاف المسميات باختلاف الظروف المحيطة والخصائص المحددة لذلك المسمى .

جاء في كتاب " مبادئ اللغة " للخطيب الإسكافي " باب وَصَف قِيَام الخَيْل " (٣) :

- الصَّافِين : المتورِّك بإحدى رجلَيْه .

- المُخِيم : المعتمد على طرف إحدى قوائمه . وإذا راوح بيلهما في الاعتماد

كَيْل : مُراوح .

(١) أبو الطيب اللغوي ، الإبدال : ١/ ١٤٠ - ١٤١ . تستخدم اللفظة الحشوية الكاف بدلاً من تاء الضمير ، ولعل هذا يكون من المشترك بين الساميات قديماً . انظر في تفصيل هذه المسألة : إسماعيل عمارة ، ظاهرة التأنيت بين اللغة العربية واللغات السامية : ٦٦ .

(٢) شرح ديوان الحماسة : ١/ ١٦٧ . ومعنى اللبيب : ٨٨٨ .

- المتعنى : المتعاسى على أحد لفتاره (١) .
- الجائل : الذي يجول في الطول (٢) .
- الصنائن : يئتي على حوافره خوف الوجى (٣) .

وقال - في باب المياه وأوصافها وذكر أماكنها - (٤) :

- حقر فأماه ، أي : بلغ الماء .
- أنبظ : بلغ النبط ، وهو أول ما يظهر من الماء .
- أجبل : وجد حجراً منعه .
- وإذا بلغ الرمل قيل : أسهب .
- أخسف : صادف ماءً كثيراً .
- أوشل : صادف ماءً قليلاً .
- ماء فرات وعذب : طيب .
- ماء نقاخ : شديد العذوبة ، نмир في الماشية .
- ماء وخم : لا يستمراً .
- شريب : فيه قليل عذوبة .
- شروب : دونه (دون شريب) .

وروى ابن جنى عن الأصمعي قال : " تنازع رجلان في السقر . فقال أحدهما :
بالصناد والآخر بالسين ، فتراضيا بأول من يجتاز بهما ، فإذا راكب يوضع ، فسألاه ، فقال :
ليس كما قلت ولا كما قلت : إنما هو الزقر " (٥) .

(١) أثار : واحدها أثار ، وهو الشاحبة والجانب .

(٢) الطول : الخيل يربط في وتد ونحوه ويطلق للدابة فرعى مفيدة .

(٣) الوجى : من وجى : رقت قدمه أو حقه من كثرة المشي .

(٤) ٦٤٤ .

(٥) المحب : ٢/ ١٦٨ - ١٦٩ . والخصائص : ١/ ٣٧٥ .

وهكذا كان السماعُ والرواية عن الثقات الأسلوبَ العلمي الذي اتبعه اللغويون العرب في جمع مادتهم ، ثم جاء القرآن مادة لغوية ناجزة توثقُ المنطوق على هيئاته المتباينة خير تمثيل ، على ما أتيج من تعدد في وجوه القراءات .

ثالثاً : تصنيف المادة :

صار اللغويون العرب إلى مادة حاضرة والفرة ، يستقيم مع كثرتها ووفرتها وتنوعها استخلاص قواعد ضبط محددة ، فضبطوا قواعدها وجرّدوا أمثلتها على التعيين ، فانتقلوا إلى تصنيف مادتهم وفق أسس وطرائق نظر متعددة ، فكان أن برزت معايير متعددة في التصنيف ، أهمها :

١-المعيار الكمي :

ومستصفاه النظر إلى المفردة أو التركيب أو الاستعمال اللغوي بمعيار كثرة الاستعمال والشيوع أو قلته ونُدْرته ، فما كان أشيع وأكثر استخداماً كان ادعى للقبول ، وما كان أقل كان ادعى للتأخير وتقديم سواء عليه . ويجري هذا المقياس على الظواهر اللغوية الصرفية والصوتية والنحوية والدلالية والاستخدام اللغوي . وكتب المصادر اللغوية تطفحُ بأمثلة هذا المعيار ، منها :

- " وتقول : عسى أن يفعل ، وعسى أن يفعلوا ، وعسى أن يفعل . وعسى محمولة على أن وكل ذلك تكلّم به عامة العرب " (١) .

- " يقال : جاءنا بعد هدأة من الليل ، وهتأة من الليل ولم تُسمع هذه اللفظة بالإنال " (٢) .

- الجوّثاء والحوّثاء : عرق في الكبِد ، وهو بالجيم أكثر وأغرفُ " (٣) .

- " وقالوا : الذهاب والثبات ، فبنوه على فعال ، كما بنّوه على فُعول ، والفُعول فيه أكثر " (٤) .

- ' كان فلان يفعل كذا ، ولا يقال كاد فلان أن يفعل كذا وقد جاء في الشعر وهو قليل " (٥) .

١ (سيره ، الكتاب : ١٥٨ / ٣ .

٢ (أبو الطيب ، الإبدال : ١٠٢ / ١ .

٣ (المصدر نفسه : ٢١٠ / ١ .

٤ (سيره : ٢٥ / ٤ .

٥ (أدب الكتاب : ٤١٩ .

٢- المعيار النوعي :

وهو متعلق بإجماع اللغويين على فصاحة الالفة (اللهجة) أو انتفائها ، وما يتعلق بذلك من مفاهيم الشذوذ والندرة والقلّة . وأبرز ما يذكر في هذا الباب تنصيب اللغويين على اللغات الشاذة التي أفردوا لها باباً خاصاً فيما عرف بمسئسب اللغات وأقبحها (١) .

- قال ابن جنى : " فأما قولهم : سكرانة و عطشانة فشاذ " (٢) .
- قال أبو عثمان : " فإذا كانت الواو أولاً وكانت مفتوحة فليس فيها إبدال إلا أن يشذ الشيء فيجاء على غير القياس . قالوا : امرأة أناة وهي وناة الوني . وقالوا : أخذ في وحذ وهذا شاذ نادر ليس مما يتخذ أصلاً وإنما يحفظ نادراً " (٣) .
- " وهن فعلت ، يريدون (إن) ، وهي لغة طائفة وهذا الإبدال وإن كثرت عنهم على ما ذكر ، فإنه نزر يسير بالنسبة إلى ما لم يبدل فلا يجوز القياس عليه بل تتبع ما قالوا وتبف حيث انتهوا " (٤) .
- " وحكى قطرب عن طييء أنهم يقولون : كيف البنون والبناء وكيف الإخوة والأخواء ؟ فأبدلوا من تاء الجمع هاء في الوقف كما يبدلون منها من تاء التانيث الخالصة وذلك شاذ " (٥) .
- قال ابن جنى : " ومن العرب من يضم النون في المثى ، وهو من الشذوذ بحيث لا يقاس عليه " (٦) .

٣- المعيار الذاتي :

ومفاده تفضيل اللغوي وجهاً من الوجوه على الأخرى ، وقد يكون التفضيل مديلاً بتسوية وقد لا يديل ، وأمثله متفرقة في المصنفات ، منها :

١ (قد فصل القول في هذا الموضوع في الفصل الثامن من هذا البحث . وانظر أيضاً : الزهر : ٢١٤ / ١ - ٢١٦ .
٢ (المصنف : ١٥٩ .
٣ (المصدر نفسه : ٢١١ .
٤ (شرح المفصل : ٤٣ / ١٠ .
٥ (نفسه : ٤٥ / ١٠ .
٦ (مع المرامح : ١٦٥ / ١ .

- " وقال بعض العرب : التُّكْلان في الأصل تُوكْلان ، والتُّرَاث : توراث ... قال الكسائي : والقول الأول أحبُّ إليَّ " (١) إشارة إلى أن الواو المضمومة تقلب تاء . وقال أبو عبيد : " ويقال الرُّضاع والرُّضاع ، والرُّضاع أحبُّ إليَّ بفتح الراء " (٢) .
- وقال ابن قتيبة : " وإذا كانت ألف القطع مكسورة ودخلت عليها ألف الاستفهام نحو قولك : أُنْتُكَ ذاهب وأنذا جئت أكرمتي ، قلبت ألف القطع ياءً ، وعلى ذلك كتاب المصحف ، وإن شئت كتبت ذلك بالفتحة على مذهب التحقيق وهو أعجب إليَّ " (٣) .

ومهما تعددت هينات تصنيف المادة ، يبقى المقياس الكميُّ هو الأكثر والأوعب والأكمل لدى اللغويين ، فكانت كثرة الاستعمال مقدّمة على القياس في الغالب .

- الدراسات الإحصائية في التراث العربي :

لعل شيئاً من إجمالة النظر في الدراسات اللغوية العربية ، يقفنا على ملامح من السدرس الإحصائي والكمي ، الذي قام على استقراء مادة البحث للوصول منها إلى قواعد مضبوطة في الظواهر اللغوية .

ويظهر أن الخليل بن أحمد الفراهيدي كان أبرع من تعامل مع الاستقراء والاستنباط الرياضي في مصنّفاته المتعددة . فقد كانت محاولاته الأولى ماثلة في إرساء دعائم العروض العربي ؛ إذ استقرى النماذج الشعرية العربية على تنوعها واختلاف بيئاتها ، فدرسها درساً عميقاً خلّص منه إلى تحصيل نظام موسيقي للشعر العربي ، وهذا النظام الموسيقي قائم على مقاييس كمية في رصد الظواهر الصوتية للعروض العربي .

ويتعاضم جهد الخليل في محاولته ضبط أبنية العربية ، وفق قوانين الاحتمالات الرياضية أو ما يعرف بالتقليبات ، وهو نظام يضاهي النماذج المحوسبة لرصد التباين ؛ إذ تعتمد على قيم احتمالية لوجود المتغير اللغوي في ظروف لغوية (بيئة لغوية) أو عدم وجوده .

(١) دقائق التصريف : ٢٤١ .

(٢) غرب الحديث : ١ / ٤٤٥ .

(٣) أدب الكاتب : ٢٢٥ .

لقد كان جهد الخليل مستنداً إلى تفكير منطقي رياضي دقيق يَدْعَمُهُ نفاذُ بصيرة وحُسن تدبُّر للقضايا اللغوية . فقد تتبع الخليل ألفاظ العربية تتبعاً إحصائياً قائماً على مفهوم التقليلات ، فأسلمه ذلك إلى دراسة الاحتمالات التي تكون عليها الألفاظ ، مستعملة أو مهملة .

فقد " ذكر حمزة الأصبهاني في كتاب الموازنة فيما نقله عنه المؤرخون ، قال : ذكر الخليل في كتاب (العين) أن مبلغ عدد أبنية كلام العرب ، المستعمل والمهمل على مراتبها الأربع ، من الثاني والثلاثي والرابعي والخماسي من غير تكرار ، اثنا عشر ألفاً وثلاثمائة ألف وخمسة آلاف وأربعمائة واثنا عشر :

الثاني : سبعمائة وستة وخمسون .

والثلاثي : تسعة آلاف وستمائة وخمسون .

والرابعي : أربعمائة ألف وواحد وتسعون ألفاً وأربعمائة .

والخماسي : أحد عشر ألف ألف وسبعمائة ألف وثلاثة وتسعون ألفاً وستمائة " (١) .

وقد فصل الزبيدي في " مختصر كتاب العين " المستعمل والمهمل من كل باب على التعيين ، وهو نص طويل أورده السيوطي ، نجتزئ منه شيئاً هادياً . قال الزبيدي : " عِدَّةٌ مستعمل الكلام كله ومهملة ستة آلاف ألف وستمائة ألف وتسعة وخمسون ألفاً وأربعمائة ، المستعمل منها خمسة آلاف وستمائة وعشرون ، والمهمل ستة آلاف ألف وستمائة ألف وثلاثة وخمسون ألفاً وأربعمائة ، والمعتل ستة آلاف . المستعمل من الصحيح ثلاثة آلاف وتسعمائة وأربعون ، والمهمل منه ستة آلاف ألف وتسعة وثمانون ألفاً وأربعمائة وستة وخمسون . المستعمل من المعتل ألف وستمائة وستة وسبعون ، والمهمل منه أربعة آلاف وثلاثمائة وأربعة وعشرون " (٢) .

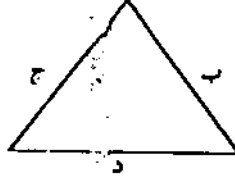
أما كيفية الإجراء الرياضي ونظام التقليلات ، فيجرى على نحو ما يوضحه ابن دريد في الجمهرة ، حيث يقول : " إذا أردت أن تؤلف بناءً ثنائياً أو ثلاثياً أو رباعياً أو خماسياً فخذ من كل جنس من أجناس الحروف المتباعدة ، ثم أدر دائرة الأحرف حولها ، ثم فكها ضد حرف

(١) المرمر : ٧٤ / ١ - ٧٥ .

(٢) المصدر السابق : ٧٥ / ١ .

بِمَنَّةٍ وَيَسْرَةً ، حَتَّى تَفُكَّ الْأَحْرَفَ الثَّلَاثَةَ ، فَيُخْرِجُ مِنَ الثَّلَاثِي سِتَّةَ أَبْنِيَةِ ثَلَاثِيَّةٍ ، وَتِسْعَةَ

أَبْنِيَةِ ثَنَائِيَّةٍ وَهَذِهِ هِيَ الصُّورَةُ



فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ اسْتَعَصَى مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا تَكَلَّمُوا بِهِ ، وَمَا رَغِبُوا عَنْهُ .

فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَسْتَعَصَى مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا كَانَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِمَّا تَكَلَّمُوا بِهِ أَوْ رَغِبُوا عَنْهُ مِمَّا يَأْتَلَفُ أَوْ لَا يَأْتَلَفُ ، مِثْلَ : كَمْ وَقَدْ وَعَنْ وَأَخْوَاتِهَا ، فَانظُرْ إِلَى الْحُرُوفِ الْمَعْجَمَةِ ، وَهِيَ ثَمَانِيَّةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا ، فَاضْرِبْ بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ تَبْلُغُ سَبْعِمِائَةَ وَأَرْبَعَةَ وَثَمَانِينَ حَرْفًا ، وَلَا يَكُونُ الْحَرْفُ الْوَاحِدَ كَلِمَةً ؛ فَإِذَا أَزْوَجْتَهُنَّ حَرْفَيْنِ حَرْفَيْنِ ، صِرْنَ ثَلَاثِمِائَةً وَاثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ بِنَاءً مِثْلَ دَمٍ وَمَا أَشْبَهَهُ فَإِذَا قَلْبَتَهُ عَادَ إِلَى سَبْعِمِائَةِ وَأَرْبَعَةَ وَثَمَانِينَ بِنَاءً ، مِنْهَا ثَمَانِيَّةٌ وَعِشْرُونَ بِنَاءً مُشْتَبِهَةٌ الْحَرْفَيْنِ مِثْلَ : هَه ، قَلْبُهُ وَغَيْرَ قَلْبِهِ لَفْظٍ وَاحِدٍ ، وَمِنْهَا سِتْمِائَةُ بِنَاءً صَحِيحَةٌ ثَنَائِيَّةٌ ، لَا أَوْ فِيهَا وَلَا يَاءُ وَلَا هَمْزَةٌ ، يَجْمَعُهَا ثَلَاثِمِائَةُ قَبْلَ الْقَلْبِ وَمِنْهَا سِتَّةُ أَبْنِيَةِ مَعْتَلَةٍ يَجْمَعُهَا ثَلَاثَةُ أَبْنِيَةِ قَبْلَ الْقَلْبِ ، وَمِنْهَا ثَلَاثَةُ أَبْنِيَةِ مَضَاعِفَةٍ ، وَخَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ بِنَاءً ثَنَائِيًّا صِبَاحًا مَضَاعِفَةً فَافْهَمْ . فَقَدْ بَيَّنْتُ لَكَ عِدَّةَ مَا يُخْرِجُ مِنَ الثَّنَائِيِّ مِمَّا تَكَلَّمُوا بِهِ وَرَغِبُوا عَنْهُ " (١) .

وَمِثْلُهُ يَجْرِي الْقَوْلُ فِي الْأَبْنِيَةِ الْأُخْرَى .

وَلَيْسَتْ مَصْنُفَاتُ الْخَلِيلِ وَتَلَامِذَتُهُ غَايَةَ الدِّرَاسَاتِ الْإِحْصَائِيَّةِ ، فَثُمَّ مَصْنُفَاتُ أُخْرَى سَيُتَكَلَّمُ عَلَيْهَا عَلَى مَلَاظَمِ إِحْصَائِيَّةٍ مُسْتَمَدَّةٍ مِنَ الْمَادَّةِ اللَّغْوِيَّةِ الْمَجْمُوعَةِ . وَمِنْ هَذِهِ الْمَصْنُفَاتِ كِتَابُ " لَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ " لِابْنِ خَالَوَيْهِ . وَهَذَا الْكِتَابُ يَتَنَاوَلُ كَثِيرًا مِنَ الْإِسْتِخْدَامَاتِ اللَّغْوِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْحَصْرِ وَالْعَدِّ ، مُسْتَدًّا عَلَى مَا جَمَعَتْهُ الْمَصَادِرُ اللَّغْوِيَّةُ الْمَتَقَدِّمَةُ عَلَيْهِ . وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ :

- " لَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ فَعْلٌ ثَلَاثِيٌّ يَسْتَوْعِبُ الْأَبْنِيَةَ الثَّلَاثَةَ فَعُلٌ وَفَعِيلٌ وَفَعَلٌ إِلَّا :

كَمُلٌ وَكَذُرُ الْمَاءِ ، وَخَثْرُ الْعَسَلِ ، وَسُخُو الرِّجْلِ وَسَرَى سَرَا سَرَوْ " (٢) .

(١) الزهر : ٧١ / ١ - ٧٣ .

(٢) ليس في كلام العرب : ٤٣ .

- " ليس في كلام العرب : فَعَلَ فَعَلًا إِلَّا : يَطْلُبُ طَلْبًا ، وَرَقَصَ رَقْصًا ، وَطَرَدَ طَرْدًا ، وَحَلَبَ حَلْبًا ، وَجَلَبَ جَلْبًا ، وَرَقَصَ رَقْصًا ، سِنَّةٌ أَحْرَفَ ، جَاءَ الْمَصْدَرُ وَالْمَاضِي مُفْتَوِحِينَ " (١) .

- " ليس في كلام العرب مثل : هرقت الماء -- والأصل أَرَقَيْتَ - إلا ثلاثة أحرف : هرقته أهريقه ، وهنرت الثوب أهنيره ، وهزجت الدابة أهريجها . وأصل ذلك كُله : أَرِيْقُ وَالنَّيْرُ وَالْأَرِيْحُ ، فابدلوا من الهمزة الثانية هاءً استتقلاً ، ومن قال أَرِيْقُ اسنقط واحدة " (٢) .

ولقد يبدو استقرار ابن خالويه ناقصاً ، أو استتباطه غير دقيق ، لكنه يظل محاولة على التقريب ، أصابت جزءاً كبيراً من الواقع اللغوي المعيش آنذاك .

ومما يصح إدراجه في باب الدراسات الإحصائية ، كتاب " المثلث " للبطليوسي (ت ٥٢١ هـ) . فهو يقوم على دراسة حقلية إحصائية في المستوى المعجمي ، لمفردات اشتركت في عدد حروفها ، لكنها اختلفت في أبنيتها الصرفية ، فجاء حرف أو حرفان من بنيتها على أكثر من حركة .

ويقوم الكتاب على تقسيم ثنائي ، مُثَلَّثٌ مُخْتَلِفٌ المعاني ومُثَلَّثٌ مُتَّفِقٌ المعاني ، شَفَعَ المؤلف كل قسم بعدد المفردات التي جاءت في الباب الواحد وفق استقرار من المصادر اللغوية والمعجمات المتقدمة ، فكانت حصيلة الإحصائية ستمائة وخمس وتسعين كلمة من مختلف المعاني ، ومائة وثمان ثلاثين كلمة من المثلث مُتَّفِقٌ المعاني . ومن ذلك :

(١) ليس في كلام العرب : ٣٣ .
 (٢) السابق : ٤٦ . على العكس من ذلك ، ترى الساميات المغاربة أن اللغات السامية - ومنها العربية - كانت تعدي الفعل بالماء ثم صارت تعديه بالهمزة في مرحلة لاحقة واحتفظت العربية كغيرها من الساميات بأمانة من هذه الأقيسة المهجورة التي عُذَّت سماعة لا قباسية . للتفصيل انظر : إسماعيل عمارة ، معالم دراسة في الصرف : ٣١ - ٣٧ .

الحاء

باب المثلث المتفق المعاني

وهو ثلاث كلمات (١)

- ١-كَلَمْتَه بَحَضْرَتِه فلان وحَضْرَتِه وحَضْرَتِه .
- ٢-يقال : ما بقي من الماء في الحوض إلا حَقْلَةٌ وحِقْلَةٌ وحَقْلَةٌ .
- ٣-حَوْبَةُ الرجل وحَيْبَتِه وحَوْبَتُهُ : أمُّه . وتكون أيضاً أخته وبنته .

اللام

باب المثلث المتفق المعاني

وهو ثلاث كلمات (٢)

- ١-شاة لُجْبَةٌ ولُجْبَةٌ ولُجْبَةٌ ، إذا كانت قليلة اللبن .
- ٢-يقال للسارق : أصنت و لُصنت و لُصنت . والأصمعي يختار الضم والمشهور المعروف : لص بكسر اللام دون تاء .
- ٣-يقال لواحدة المعالك : مَمْلَكَةٌ و مَمْلَكَةٌ و مَمْلَكَةٌ ، ثلاث لغات .

ولو أمعنا النظر في كتب غريب الحديث وغريب القرآن ، لوجدنا مؤلفيها يصنثرون عن وعي إحصائي حاضر ؛ ذلك أنهم استقروا مادة وافرة من العربية ثم ضاهوها بالقرآن أو الحديث، فوقفوا على إحصاء الغريب غير الشائع في لغة عامة العرب . وينضاف إلى ذلك كثير جداً من الإشارات المتناثرة في المصادر اللغوية على تعددها .

١ (ابن السيد الطبرسي ، المثلث : ١ / ٤٣١ .

٢ (المصدر السابق : ٢ / ١٢٧ .

المبحث الثاني

نظرية التباين في العربية

قامت الصورة الكلية للنظرية اللغوية العربية على نظريات فرعية ، يهتم بعضها بالاستخدام اللغوي الواقعي ، ويهتم بعضها الآخر بتفسير تلك الأداءات اللغوية التي تصدر عن العربي بعقويّة وتلقائية ، فكانت الأداءات اللغوية هي المفتاح للدخول إلى نظام الكفاية اللغوية لدى العربي ، في محاولة لاستبطان الآليات الذهنية واللغوية التي تجعله يؤدي اللغة على وفق المتداول .

وكانت هذه النظريات الفرعية العماد الأساس الذي لا يُستغنى عنه في توصيف الظواهر اللغوية وتعبيدها ، وهي المعروفة بأصول النحو - غالباً - فلا يستقيم بحث لغوي في العربية لا يصدر عن وعي بالقياس والسماع ونظرية التعليل ونظرية العامل ونظرية الأصل والفرع ، والحمل على اللفظ والحمل على المعنى ، وأمن اللبس والحمل على التظير وغيرها .

ويستقيم لنا أن نقول: إنه كان للتباين في العربية نظرية واضحة المعالم ، مرسومة الحدود محكمة الضبط - إلى حد ما - يتسجم في دوائرها المتكاملة مع الإطار الكلي للنظرية اللغوية العربية .

وقد تكون نظرية التباين أوفر حظاً من غيرها ، ذلك أنها استثمرت مستخلصات النظريات الأخرى . فأفادت من القياس والسماع في ترجيح أحد الوجهين ، وأفادت من الحمل على اللفظ والحمل على المعنى في توجيه صور التباين ، وأفادت من التعليل في المستوى التفسيري لورود الظاهرة على وجوه متباينة .

كذلك أفادت من معطيات الواقع الاجتماعي، ودوران اللغة وسيرورتها في مجتمعها الكلامي، مما أفرز وجوهاً من التباين محمولة على الاقتضاء الاجتماعي والتداول اللساني المنصوص .

وقد جَعَلْتُ هذه النظرية في ثلاثة أقسام :

الأول : المفهوم والمصطلح .

الثاني : منهج النظر .

الثالث : بنية النظرية .

أولاً : المفهوم والمصطلح :

لم يستخدم اللغويون العرب - فيما وقفت عليه من مصادر - مصطلح التباين للدلالة على تعدد الوجوه المستخدمة في البنية اللغوية الواحدة . ولكنهم استخدموا كثيراً من العبارات والمصطلحات التي تدل عليه وتشير إليه ، وهكذا يكون اللغويون العرب قد ألمعوا إلى التباين وصنّروا عنه صدوراً واعياً وإن لم يصرحوا به .

وكان مما استخدموه عبارات كـ: فيه لغتان ، وفيه وجهان ، وفيه خلاف وهو لهجة معروفة ، وغير ذلك . ومن أمثلته :

- " قال الشَّيباني : ضَمَّ نون التثنية لغة " (١) .

- " الجُنْدَب والجُنْدَب لغتان " (٢) .

- وقال الأخفش : " والصَّرَاط فيه لغتان : السين والصاد . إلا أنا نختار الصاد

لأن كتابتها على ذلك في جميع القرآن " (٣) .

- وقال الخليل : " وفي هُوَ ثلاث لغات ، يقال : هُوَ وهُوَ وهُوَ " (٤) .

(١) مع المراجع : ١ / ١٦٦ .

(٢) الغرب المصنف : ١ / ٣٢٨ .

(٣) معاني القرآن : ١ / ١٦ .

(٤) الجمل في النحو : ٢٦٧ .

ثم إننا إذا تناولنا مفهوم المتغير اللغوي ، الذي هو الأساس في درس التباين ، وجدنا أن اللغويين العرب قد صدروا عنه صدوراً واضحاً ، بل إنهم صرحوا به تصريحاً ، وذلك حين حددوا مفهوم الإبدال ، ومتى يكون إبدالاً ومتى يكون أصلاً لا إبدالاً .

فالأصل في المتغير اللغوي أن يدل على معنى واحد ووظيفة واحدة بأبنية متباينة . قال أبو الطيب : " ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف وإنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة ، تتقارب اللفظتان والمعنى واحد حتى لا يختلفا إلا في حرف واحد " (١) .

وقد ركز اللغويون العرب على توحد المعنى مع اختلاف المبني ، حين يرد المعنى بأبنية متعددة ، ولا سيما في الإبدال الصوتي أو الاتحاد في البنية الصرفية . قال أبو الطيب : " أبو عمرو ، يقل : فرّ الرجل وأفررته ، وفرّ وأفرزته والمعنى واحد " (٢) . ومما جاء بكثرة من هذا الباب ، ما تضمنه كتاب أدب الكاتب من أبواب متفقة المعنى على اختلاف المبني ، منها :

- باب فَعَلْتُ - بفتح العين - في الواو والياء بمعنى واحد .
- باب أبنية من الأفعال مختلفة بالياء والواو بمعنى واحد .
- باب ما يهزم أوله من الأفعال ، ولا يهزم بمعنى واحد .
- باب فَعَلْتُ وَفَعَلْتُ بمعنى .
- باب فَعِلْتُ وَفَعَلْتُ بمعنى .

ومثله في الغريب المصنف :

- باب فَعَلَ الشَّيْءَ وَفَعَلْتَهُ .
- باب فَعِلْتُ وَفَعَلْتُ .
- باب يَفْعِلُ وَيَفْعَلُ .
- باب يَفْعِلُ وَيَفْعَلُ من ذوات الياء والواو .

(١) الزهر : ١ / ٤٦٠ .

(٢) الإبدال : ٢ / ٣٥ .

وورد مثل هذه الأبواب كثيراً في المثلث للبطلبوسى ، ولا سيما السثلث المتفق المعاني .

ومن أكثر المصطلحات التي استخدمها العرب اقتراباً من المتغيّر اللغوي ، مفهوم المشترك . فقد استخدموه للدلالة على بنية واحدة تتعدد معانيها ، وهو مفهوم ينشطر إلى نصفين : الأول : وهو المشترك ، والثاني : وهو المتضاد .

فقد استخدمه بعض اللغويين للدلالة على التضاد ، كقول أبي حيان : " القرء مشترك بين الخيض والطهر " (١) . وقال أيضاً : " كالصريم : أي الليل ، وقيل : كالصبح : فهو مشترك " (٢) .

وقد أورد السيوطي جملة من الآراء المتأرجحة بين قبول تسمية المتضاد مشتركاً أو رفضها . وكان أول القائلين بالاشتراك . إذ يقول بعد اثبات عنوان (معرفة الأضداد) : " هو نوع من المشترك " (٣) .

و " قال الكيا * في تعليقه : المشترك يقع على شيين ضيئين ، وعلى مختلفين غير ضدين ، فما وقع على الضدين كالجوز وجلال ، وما يقع على مختلفين غير ضدين كالعين " (٤) .

وهكذا يكون الشرط الأساس في المتغير اللغوي قد تحصل ضمنياً لدى اللغويين العرب ، فصدروا عنه صدوراً واعياً وإن لم يُصَرِّحوا به .

(١) تحفة الأريب : ٢١٤ .

(٢) المصدر نفسه : ١٦٢ .

(٣) الزهر : ٣٨٧ / ١ .

* الكيا المرآسي : أبو الحسن علي بن محمد بن علي . الملقب بعماد الدين ، المعروف بالكيا المرآسي فقيه شافعي مفسر ، ولد في طبرستان وسكن بغداد ، توفي سنة ٥٠٤ هـ ، الحاشية الأولى .

(٤) الزهر : ٣٨٧ / ١ .

ثانياً : منهج النظر :

- الأنظار الوصفية :

شهد مطلع القرن العشرين اتجاهاً منهجياً محدثاً في دَرَس الظاهرة اللغوية ، يفارق النظر المعياري التقليدي من ناحية ، ويفارق المنهج التاريخي الذي ساد أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكان اللغوي السويسري فردنان دي سوسير رائد هذا الاتجاه ؛ حين أقام فرقاً بين الدرس التاريخي التطوري والدرَس الوصفي الثابت ، فكان داعية إلى دراسة اللغة وفق منظور مكوني يفترض معه - نظرياً - ثبوت الظاهرة اللغوية ، مستبعداً بذلك دور السيوروة التاريخية وأثرها في الظاهرة اللغوية .

ثم صار هذا المنهج عُمدة الدراسات اللسانية المعاصرة على اختلاف اهتماماتها ومجالات بحثها ومادتها ، فكان تارة تقابلياً وتارة مقارناً ، تقريراً تارة وتفسيرياً تارة أخرى .

والحق أنه سهل التوفر على كثير من الأسس النظرية والتطبيقية للمنهج الوصفي في التراث العربي . وذلك أن التعويد اللغوي للعربية إنما قام على مباشرة الظواهر واستقائها من أفواه الأعراب والبدو الفصحاء في مواقف الحياة اليومية ، حين كانوا يتواصلون بلغتهم تواصلًا عفويًا بعيداً عن رقابة آلات التسجيل أو التصوير .

ثم إنهم لما توفروا على مادة تصدق ممثلاً للعربية ، بدأوا بفرزها وتقسيمها ، فأطلقوا عليها مسميات خاصة ليس للعرب إلف بها أو اعتياد ، فصنعها اللغويون والنحاة ؛ ليذللوا بها على سنات ووظائف لغوية على التعيين .

ومن مسلمات التعويد اللغوي عند العرب ، القول بالنقاء اللغوي ، وتصديقاً لذلك اختاروا قبائل تصدق عليها معايير الفصاحة والنقاء . ثم إنهم عنوا عناية خاصة بالراوي اللغوي (الأفراد) ، فلم يأخذوا عن كل من وردوا عليه ، بل ضبطوا ذلك بشروط تصدق على من تؤخذ عنه اللغة .

وقد تحدث ابن جنّي في هذا المبحث ، في باب سماء : " باب في الشيء يسمع من العربي الفصيح لا يسمع من غيره " ، يقول : " وذلك ما جاء به ابن أخمر في تلك الأحرف

المحفوظة عنه ، قال أحمد بن يحيى : جدثني بعض أصحابي عن الأصمعي أنه ذكر حروفاً من الغريب ، فقال : لا أعلم أحداً أتى بها إلا ابن أحمز الباهلي منها : الجبتر وهو الملك وإنما سُمي بذلك - أظن - لأنه يجبر بجوده . وهو قوله :

اسلم براووق حُبَيْتَ بِهِ وانعم صباحاً أيها الجَبْرُ

والقول في هذه الكلم المقدم ذكرها وجوب قبولها ؛ وذلك لما ثبتت به الشهادة من فصاحة ابن أحمز . فإما أن يكون شيئاً أخذه عن ينطق بلغة قديمة لم يشارك في سماع ذلك منه ، على حد ما قلناه فيمن خالف الجماعة وهو فصيح ؛ كقوله في الذُرْخَرَج : الذُرْخَرَج ونحو ذلك . وإما أن يكون شيئاً ارتجله ابنُ أحمز ؛ فإن الأعرابي إذا قويت فصاحته ، وسَمَتْ طبيعته تصترف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به * (١) .

وفي المزهري ، عَقَدَ السُّيُوطِيُّ باباً سَمَّاهُ : " معرفة من تُقْبَلُ روايته ومن تُرَدُّ " جمع فيه كثيراً من آراء المتقدمين عليه في الأخذ أو الرد . وقد أورده على هيئة مسائل متعددة منها :

١-أخذ اللغة سماعاً . " قال ابن فارس في فقه اللغة : تؤخذ اللغة سماعاً من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة ، ويُتَّقَى المظنون فَلْيَتَحَرَّ أَخْذُ اللُّغَةِ أَهْلُ الأمانَةِ والصدق والثقة والعدالة * (٢) .

٢-عَدَلَ ناقل اللغة . " قال الكمال الأنباري في " لَمَعُ الأَدْلَةِ في أصول النحو " : يشترط أن يكون ناقل اللغة عَدَلًا ، رَجُلًا كان أو امرأة ، حُرًّا كان أو عبداً ؛ كما يشترط في نقل الحديث فإن كان ناقل اللغة فاسقاً لم يُقْبَل نقله * (٣) .

وقد أفاض السيوطي في إيرادات فئات يجوز النقل عنها لأسباب أوردها رواية عن أصحابها .

والنظر في المدونات العربية الأصول ، يقفنا على كثير من مظاهر الوصفية في الدرس العربي عموماً ، وفي درس التباين خصوصاً ، وأهم مظاهره ما يلي :

(١) الحماصي : ٢١ / ٢ - ٢٥ .

(٢) المزهري : ١٣٧ / ١ - ١٣٨ .

(٣) نفسه : ١٣٨ / ١ .

١- السماع من الأعراب مباشرة ، في مواقف طبيعية تتأدى اللغة فيها تأدياً عفويّاً تلقائياً . " قال أبو عمرو بن العلاء : قلت لرجل من بني حنظلة : ممن أنت ؟ فقال : فُقَيْمِج . قال : قلت : من أيّهم ؟ قال : مُرْج . يريد : قَيْمِي ومُرِّي " (١) .

٢- استخدام الكتابة الصوتية ؛ لتوضيح هيئة النطق فإن تعذر ذلك قدموا وصفاً دقيقاً للصوت حسب مخرجه وهيئة نطقه . وأظهر ما يكون ذلك في السمات اللهجية الخاصة التي عرفت باللغات المستقبحة . قال سيبويه : " وقوم يلحقون الشين ليبيّنوا بها الكسرة في الوقف ، كما أبدلوا مكانها للبيان ، وذلك قولهم : أعْظِيكُش وأكرمِش " (٢) .

وقال ابن يعيش : " قد أبدلت الطاء من التاء إبدالاً مُطَرِّداً ؛ وذلك إذا كانت تاء افتعل أحد حروف الإطباق ، وهي أربعة الصاد والضاد والطاء والظاء ، نحو : اضطبر يضطبر واضطرِب يضطرب واطرد واطلطم ، والأصل اصتبر واضترب واطتلم ... " (٣) .

ومن الأصوات التي وصفوها وصفاً دقيقاً دون أن يرسموها ؛ لعدم وجود خط لها في الرسم " ... حروف لا تتكلم بها العرب إلا ضرورة ، فإذا اضطروا إليها حولوها عند المتكلم بها إلى أقرب الحروف من مخرجها . فمن تلك الحروف الحرف الذي بين الباء والفاء . مثل (بور) إذا اضطروا فقالوا : فور . ومثل الحرف الذي بين القاف والكاف والجيم - وهي لغة سائرة في اليمن - مثل : جمل ، إذا اضطروا قالوا : كمل . والحرف الذي بين الشين والجيم والياء في المذكر غلامج وفي المؤنث غلامش " (٤) .

ومنها أيضاً : " ... وستة أحرف مستحسنة ، وهي : النون الخفيفة ، وهمزة بين بين ، والألف المعالة ، وألف التخميم ، والشين كالجيم ، والصاد كالزاي ... وثمانية أحرف غير مستحسنة وهي : الكاف التي بين الجيم والكاف ؛ والجيم التي كالكاف ، والجيم التي كالشين ، والفاء كالباء ، والضاد الضعيفة ، والصاد التي كالسين ، والطاء كالتاء ، والظاء كالشاء ...

١ (ابن السكيت ، الإبدال : ٩٥ .

٢ (الكتاب : ١٩٩/٤ - ٢٠٠ .

٣ (شرح المنصل : ١٠ / ٤٦ .

٤ (الصاحي : ٢٩ - ٣٠ .

وذکر قوم أربعة أحرفه آخر : الشين كالزاي ، والجيم كالزاي ، واللام المغخمة ، والقاف كالکاف " (١) .

٣- استتطاق الأعراب الفصحاء وسواهم لتوثيق تجويز وجه أو منعه ، روى أبو الطيب : " قال أبو حاتم : قلت لأم هيثم : هل تبدل العرب الجيم ياءً في شيء من الكلام ؟ فقالت : نعم . ثم انشدتني :

إذا لم يكن فيكن ظلٌ ولا جنى فابعدكن الله من شيرات

أي : من شجرات " (٢) .

- الأنظار التاريخية :

والنظر في المصادر اللغوية المتنوعة يقفنا على ملامح من النظر التاريخي في وجوه التباين الواحدة . وذلك أننا نجد اللغويين يشيرون أحياناً كثيرة إلى التطور الزمني بوصفه عاملاً من العوامل التي أفضت إلى التباين ؛ وذلك أنهم فسروا أحد الوجهين على أنه لغة قديمة أو استخدام قديم ، ثم صار إلى استخدام آخر ، وظلت اللغة على الاستخدامين ، غير أن أحدهما أكثر من الآخر .

ومما ورد إشارة إلى التبعد التاريخي في نرس الظاهرة ما يلي :

- قال المبرد : " واعلم أن الأصل مستعمل فيما كانت حروف الحلق في موضع عينه أو لامة ؛ نحو : زار يزير ، نام ينثم ؛ لأن هذا هو الأصل والفتح عارض ، لما ذكرت لك ها هنا من أجل مصدره ليجري الفعل عليها " (٣) .

ويظهر من كلام المبرد هذا أنهم في الأصل كانوا يستخدمون صيغة " فَعَلَ يَفْعِل " إذا كانت لامة أو عينه حرف حلق ، ثم صاروا إلى نطقها بالفتح تسهلاً وتيسيراً . وهكذا يرصد

(١) ابن الدهان ، الفصول في العربية : ١٥٦ .

(٢) الإبدال : ٢٦١ / ١ . وردت كلمة (شيرات) مكسورة الشين في الزهر : ١٤٦ / ١ .

(٣) المقتضب : ١١١ / ٢ .

الميرد التطور الصوتي لهذه الصيغة ، مقدماً مسوغاً علمياً مقبولاً ، تتشابه معه التفسيرات الصوتية المحدثة .

- وقال أبو علي القالي : " يقال : خَلَّتْ أَخالُ ، إِخالُ طائفة ، فكثرت استعمالها في السنة غيرها ، حتى صار أَخالُ كالمرفوض " (١) .

وفي هذا إشارة إلى أن كثرة الاستعمال رفعت إحدى اللغتين على حساب الأخرى ، حتى صارت المتروكة - لندرتهما وقلة استعمالها - مهجورة لا تستساغ .

وقال أبو حيان : " تَنْسَخُ : النَّسْخُ : نقل شيء من موضع إلى موضع ، وقيل إبطال الحُكْم ، واللفظ متروك " (٢) .

وقد خصَّصَ السيوطي باباً متعلقاً بالتطور التاريخي وأثره في انتقال المفردات دلالة واستعمالاً ، سماه " معرفة الضعيف والمُنْكَر والمتروك من اللغات " . قال : " الضعيف : ما انحطَّ عن درجة الفصح ، والمنكر أضعف منه وأقل استعمالاً بحيث أنكره بعض أئمة اللغة ولم يعرفه . والمتروك ما كان قديماً من اللغات ثم ترك واستعمل غيره " (٣) .

وما يهمنا هنا المتروك من اللغات ، ومما جاء منه :

- قول السيوطي : " ومن أمثلة المتروك ، قال في الجمهرة : كان أبو عمرو بن العلاء يقول : مضني كلام قديم قد تُرِكَ ، قال ابن دريد : وكأنه أراد أن أمضني هو المستعمل " (٤) .

١ (الأسامي : ١ / ٢٤٩ .

٢ (لغة الأريب : ٢٥٨ .

٣ (الزهر : ١ / ٢١٤ .

٤ (المصدر نفسه : ١ / ٢١٨ .

- " وفي الصحاح للجوهري : جَلَّتْ القَدْرُ : كَفَلَتْهَا وَصَبَّتْ مَا فِيهَا ، وَلَا تَقَلُّ أَجْفَاتُهَا .
وأما الحديث الذي فيه فأجفنا قُدورهم بما فيها . فهي لغة مجهولة ، فهذا يحتمل أن
يكون من أمثلة المتروك ، ويحتمل أن يكون من أمثلة المنكر " (١) .

- " وفي شرح المعلمات لأبي جعفر النحاس : قال الكسائي : محبوب من حَبَّيت ، وكأنها
لغة قد ماتت ، كما قيل : دمت أدوم ، ومت أموت وكان الأصل أن يقال : أمات وأدام
في المستقبل ، إلا أنها قد تركت " (٢) .

- وقال ابن دريد في الجَمْهْرَة : أسماء الأيام في الجاهلية : السَّبْت : شَبَّار ، والأحد :
أول ، والاثنين : أهون وأوهَد ، والثلاثاء : جُبَّار ، والأربعاء : دُبَّار ، والخميس :
مُونَس . والجمعة : عَرُوبَة .

- وأسماء الشهور في الجاهلية : المُؤْتَمِر وهو المحرَّم . وصَفَّر وهو ناجر . وشهر ربيع
الأول وهو خُوَّان وقالوا خُوَّان . وربيع الآخر وهو وَبَّصَان . وجمادى الأولى : الخُنَيْن .
وجمادى الآخرة : رَبِي . ورجب : الأَصَم . وشعبان : عَادِل . ورمضان : نَاتِق .
وشوَّال : وَعَل . وذو القعدة : وَرْنة . وذو الحجة : بُرْكَ (٣) .

- " وقال ابن دريد : " خُوَّان يوم من أيام الأسبوع من اللغة الأولى ، وخُوَّان وخُوَّان شهر
من شهور السنة العربية الأولى " (٤) .

- وقال الفراء : " فَإِنَّ القَوْمَ فيما ذكر لغة قديمة وهي الجَنْطَة والخُبْرُ جميعاً قد ذكرا ، قال
بعضهم : سمعنا العرب من أهل هذه اللغة يقولون : فَوَمَّوْنَا بالتشديد لا
مَوْر : يريدون : اختبَرُوا " (٥) .

(١) الزهر : ٢١٩/١ .

(٢) الزهر : ٢١٩/١ .

(٣) نفسه : ٢١٩/١ .

(٤) نفسه : ٢١٨/١ .

(٥) معان القرآن : ٤١/١ .

ولجد ابن جني يسوّغ لمن يتفرد بوجه من العربية استعماله وذلك لأنه " قد يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدُها وعفا رسمُها ، وتأيّدت معالمُها " (١) .

ثم نرد على أبي حاتم الرازي ، فنراه يتتبع بعض الألفاظ تتبعاً حسب سياقها التاريخي ، ومما أورثها إياه من دلالات حادثة ، يقول تعليقاً على كلمة الرحمن (٢) : " وقيل أنسجد لما تأمرنا " (٣) . قال : ذكروا أن مُسَيِّمَةَ الكَذَّابِ كان يقال له الرحمن ، فقالوا : ما نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة . يعنون مسيئمة الكذاب . فأنزل الله - عز وجل - : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّ ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ (٤) .

ويضيف الرازي : " سمعت ثعلباً يقول : كانت العرب تآبى الرحمن ، وقال في قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ قال : كان النبي ﷺ يكتب أولاً بسم الله الرحمن ، فكانت العرب تآبى الرحمن ، فقال الله : قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن " (٥) .

- الألفاظ الإسلامية :

الألفاظ الإسلامية أبرز الظواهر الدلالية العربية ، وأكثر الظواهر التي درست من منحنى النظر التاريخي .

قال ابن فارس : " كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم . فلما جاء الله - جل ثناؤه - بالإسلام حالت أحوال ونُسِخَت دِيَانَات وأبطلت أمور ، ونُقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى آخر بزيادات زيدت ، وشرائع شرعت ، وشرائط شُرطت . فعنى الآخر الأول فصار الذي نشأ عليه آباؤهم ونشأوا

(١) الخصائص : ١ / ٢٨٦ .

(٢) الزينة : ٢ / ٢٥ .

(٣) سورة الفرقان : ٦٠ .

(٤) سورة الإسراء : ١١٠ .

(٥) الزينة : ٢ / ٢٥ .

عليه كأن لم يكن ، وحتى تكلموا في دقائق الفقه وغوامض أبواب المواريث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي بما حفظ ودون حتى الآن " (١) .

والحق أن التطور اللغوي الذي أحدثه الإسلام ، لم يقف على الانتقال من مدلولات لغوية إلى مدلولات شرعية، بل تعدى ذلك إلى شيوع تراكيب جديدة كانت نادرة الاستعمال أو مهجورة ، ويضاف إلى ذلك استحداث ألفاظ وعبارات على لسان الرسول الكريم . ومواطن هذه الاستخدامات كتاب " الزينة " على التعيين .

فقد أورد الرازي عبارات كثيرة لم يكن العرب أو غيرهم على إلف بها قبل الإسلام ، ولكن ارتباطها بدلالات شرعية جعلهم يتعاورونها ويقدمون على استخدامها دون تغيير أو تبديل . من ذلك :

- " بسم الله الرحمن الرحيم " هي آية أنزلها الله على الرسول محمد ﷺ وجعلها فاتحة كتابه وفاتحة كل سورة . فصار ذلك قدوة لجميع الأمم قد تراضوا بها ، واتبعوا رسول الله ﷺ على ذلك ، فجعلوها فاتحة كتبهم مُصنَّرة في صدر كل كتاب ، مستحسنة عندهم . قد أقرروا بفضلها حتى إن كل كتاب لم يفتتح بها هو عندهم ناقص مبتور ، مسلوب البهاء مهجور . ولم يكن ذلك لسائر الأمم ولا عرفوها ، إلا ما ذكره الله - عز وجل - في كتابه أن سليمان - عليه السلام - كتب بها إلى بلقيس . ولم يدونها هذا التدوين ، ولا زينوا بها كتبهم هذا التزيين ، ولا عرفوا لها الفضل المبين ، حتى جاء الله بالإسلام ، وأحكمها على لسان رسوله محمد ﷺ فقبلتها الأمم أحسن قبول وصار فصلها في كتبهم أفضل الفصول " (٢) .

- " الحمد لله رب العالمين " قد كان فيما تقدم من الكتب المنزلة تحميد وتمجيد ، ولكن لم يكن هذا الاختصار بهذا اللفظ ، ولم يدون هذا التدوين " (٣) .

- " السلام عليكم " لم تكن هذه التحية للأمم الماضية ، وهي تحية أهل الجنة ، قال الله تعالى : (تحيتهم فيها سلام) (٤) . وروي عن الرسول أنه قال : أعطيت أمي ثلاث

(١) الصاحي في فقه اللغة : ٤٤ .

(٢) أبو حاتم الرازي ، الزينة في الألفاظ الإسلامية العربية : ١ / ١٥٠ .

(٣) الزينة : ١ / ١٥٠ . هكذا وردت في النص : " كان محمداً ومحمداً " .

(٤) سورة يونس : ١٠ ، وسورة إبراهيم : ٢٣ .

خصال لم يُعْطها أحدٌ قبلهم ، صنوف الصلاة ، وتبوية أهل الجنة ، وأمين ، إلا ما كان من موسى وهارون ؛ فقد روي أن موسى كان يدعو وهارون يؤمن ^(١) .

- قال أبو عبيد : حدثنا مروان بن معاوية عن يفيان بن زياد قال : سمعت سعيد بن جبير يقول : ما أعطي أحد (إنا لله وإنا إليه راجعون) و (ما شاء الله كان) إلا النبي ﷺ . ولو أوتي أحد لأوتيته يعقوب حين يقول : (يا أسنى على يوسف) ^(٢) .

فهذه بعض الاستخدامات والتراكيب الحادثة بمجيء الإسلام ، وإنما هي آيات قرآنية ، ثم دارت على الألسنة وقُدِّرَ لها الذبوع والشبوع ، وبتنا نستخدمها الآن على أنها عبارات اصطلاحية ترتبط بمواقف اجتماعية على التعيين .

ثم إنه تنوّه الرسول بعبارات وتراكيب ما سمعت قبله قط ، فكانت بداية استخدامها العصر الإسلامي ، مع نطق الرسول لها ، ثم دارت على الألسنة وبتت تستخدم في سياقات محمولة على مشابهة السياق الأصلي الذي قيلت فيه . ومن هذه العبارات :

- جاء في فقه اللغة للثعالبي : إذا مات الإنسان عن غير قتل قيل : مات حَتْفَ أَنفِهِ ، وأول من تكلم بذلك النبي ﷺ . وفيه : إذا كان الفرس لا ينقطع جَرْتُهُ فهو بَحْر ، شَبَّهَهُ بِالْبَحْرِ الذي لا ينقطع ماؤه وأول من تكلم بذلك رسول الله ﷺ في وصف فرس ركبه ^(٣) .

- قال ابن دريد : " ومن الألفاظ التي لم تُسْمَع من عربي قبله ، قوله : لا يَنْتَضِح فيها عَنَزَان . وقوله " الآن حَمِي الوطيس " وقوله : " لا يُلْدَغ المؤمن من جُخْرٍ مرتين " وقوله : " الحَرْبُ خَذَعَةٌ . وقوله : " إياكم وخضراء الدَّمن " ^(٤) .

ولا يقف الأمر في إحداث ألفاظ جديدة على الرسول حَسْب - مع تميزه - فقد وردت عبارات وتراكيب مُسْتَدَةٌ إلى غير واحد ، مدعومة بجديتها في السماع . قال ابن خالويه في كتاب ليس :

(١) الزينة : ١ / ١٥١ .

(٢) الزينة : ١ / ١٥١ - ١٥٣ .

(٣) الزهر : ١ / ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٤) الزهر : ١ / ٣٠٢ .

لم يسمع جَمْع الدُّجَال من أحد إلا من مالك بن أنس فقيه المدينة ، فإنه قال : هؤلاء
الدُّجَالَةُ " (١) .

" وفي شرح الفصيح لابن خالويه عن الأصمعي قال : أول ما سمع مصدر (فاض
الموت) من شريح ، قال : هذا أوان فَوْضِهِ " (٢) .

" وفي تهذيب الإصلاح للتبريزي : يقال : اجْعَلْ هذا الشيء بأجأ واحداً ، مهموزة ، أي
طريقاً واحداً . ويقال : إن أول من تكلم به عثمان بن عفان " (٣) .

أما فيما يتعلق بالمفردات ، فإن الإسلام لم يُخَدَث كثيراً من المفردات ، وإنما نقلها من
دلالات إلى دلالات جديدة شرعية تتناسب والمعنى الأصلي الذي وضعت له . فأصبحت اللفظة
الواحدة على دالتين : شرعية ولفوية .

قال ابن فارس : " فكان مما جاء في الإسلام ذِكْرُ المؤمن والكافر والمنافق . وإن العرب
إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو التصديق ، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها
سمي المؤمن بالإطلاق مؤمناً . وكذلك الإسلام والمسلم ، إنما عرَفَتْ منه إسلام الشيء ثم جاء
الشرع من أوصافه ما جاء . وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر . فأما المنافق
فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه ، وكان الأصل من ناقصاء اليربوع . ولم
يعرفوا في الفسق إلا قولهم : (فسقت الرُّطبة) إذا خرجت من قشرتها ، وجاء الشرع بأن
الفسق الإفحاش في الخروج عن طاعة الله - جل ثناؤه - " (٤) .

ثم كان الإسلام - بما جَدَّ فيه من شرائع - حافظاً على هَجْر كثير من المفردات
والتراكيب التي تتناقض مع جوهر الشرع ، فكانت نُذرة الاستعمال وقلته مسوغاً لموت تلك
الكلمات وتحجُّرها . فقد جاء في المزهَر نقلاً عن ابن فارس : " ومن الأسماء التي كانت فزالت

(١) الزمر : ٣٠٣/١ .

(٢) الزمر : ٣٠٣/١ .

(٣) السابق : ٣٠٣/١ .

(٤) الصاحي : ٤٥ . ومزيداً . تفصيل في ذلك ، انظر : الزمر : ١/ ٢٩٤ - ٣٠٣ . والزينة لأبي حاتم الرازي .

بزوال معانيها قولهم : المربع والنشيطه والفضول ، ولم يذكر الصقي ، لأن رسول الله ﷺ قد اصطفى في بعض غزواته ، وخص بذلك وزال اسم الصقي لما توفي ﷺ (١) .

" ومما ترك أيضاً : الإتاوة ، والمكس والخلوان ، وكذلك قولهم : انعم صباحاً وانعم ظلاماً ، وقولهم للملك : أبيت اللعن . وترك أيضاً قول المملوك لمالكه : ربّي ، وقد كانوا يخاطبون ملوكهم بالأرباب . وترك أيضاً تسمية ألم يحج ضرورة ؛ لقوله ﷺ : لا ضرورة في الإسلام . وقيل معناه : الذي يدع النكاح تبثلاً أو الذي يحدث حدثاً ويلجأ إلى الحرم " (٢) .

ومما ترك أيضاً (٣) :

- قولهم للإبل تساق في الصداق : النواج .

- حَجْرًا محجوراً : وكان ذلك لمعنيين ، أحدهما : الحرمان ، إذا سئل الإنسان قال : حَجْرًا محجوراً ، فيعلم السامع أنه يريد أن يحرمه . والوجه الآخر : الاستعاذة ، كان الإنسان إذا سافر فرأى من يخافه قال : حَجْرًا محجوراً ، أي حرام عليك التعرض لي .

- ومما كرهه الإسلام من الألفاظ قول القائل : خبئت نفسي ؛ للنهي عن ذلك في الحديث ، وكره أن يقال : استأثر الله بفلان .

ثالثاً : بنبرة النظرية :

١ - التعليل والتفسير : ثم إنه لما توافرت للغويين العرب مادة حاضرة ، على درجات من التباین متفاوتة ، بدا لهم أن التباین ملازم للعربية في مستوياتها المختلفة ، فدرسوه من منظورين : منظور وصفي ثابت يصف الظواهر اللغوية كما وردوا عليها ، مادة متداولة في سياقات لغوية واجتماعية مخصوصة . ومنظور تاريخي تطوري ، يتناول فعل الزمن في الظاهرة اللغوية ، ويدرس التطور والتغير اللغوي .

(١) الزهر : ١ / ٢٩٦-٢٩٧ .

(٢) الزهر : ١ / ٢٩٧ .

(٣) نفسه : ١ / ٢٩٨ .

ثم كان عليهم - في إطار الوصف - أن يقدّموا تفسيرات وتعليقات لغوية أو غير لغوية لما وردوا عليه من التباين وظواهره الناجزة . فهداهم تفكيرهم إلى تفسيره بما يلي :

١ - العوامل اللغوية ، وتشمل :

أ - التعدد اللهجي .

ب- تراكب اللغات وتداخلها .

ج- التاموس اللغوي .

٢ - العوامل غير اللغوية (الخارجية) ، وتشمل :

أ - العوامل التاريخية (التطور اللغوي) .

ب- العوامل الاجتماعية والنفسية .

وفيما يلي فضلُ بيان ومزيدُ توضيح :

١ - العوامل اللغوية :

أ - التعدد اللهجي : وينشعب هذا العامل إلى فرعين يتفاوتان قوة وضعفاً ؛ أما الأول فمحمولٌ على التعدد اللهجي المتأني من انفراد لهجات محددة بخصائص لغوية على التعيين ، وأما الثاني فهو ما نسبة اللغويون إلى (إحدى لغات العرب أو لغة) دون تعيين تلك اللغة أو أصحابها .

والعامل اللهجي أقوى العوامل المفضية إلى التباين في المستويات اللغوية المتعددة ؛ ذلك أن اللسان العربي قد قام على لغات (لهجات) متعددة ، وهذه اللغات إنما هي تجليات ذلك اللسان تشخص في نظم مشتركة متبادلة الوضوح ، ولكنها تفترق فيما بينها في صفة أو خصيصة أو ملامح لغوي ، يكون استخدامه حصراً في القبيلة ، أي : المجتمع اللغوي الذي تتداول فيه ، فإذا صادف هذا الملمح الوجهة الفصيحة صار إلى التباين في الملمح الواحد ؛ المحلي (اللهجي) والفصيحة . وهذا الوجه من التعدد اللهجي مشهور معروف في علم اللغة العربي ، قد فصلنا القول فيه في متن الرسالة .

- أما الوجه الآخر ، فلا يعدو أن يكون تعليقاً غير منسوب ، بالقول ؛ إنه لغة ، مع حُكْم قيمي يلازمه ، يرفع من شأنه أو يحمله على الشذوذ والبذرة . ومثل هذا الوجه كثيرة ، منها :
- قول ابن السكيت : " يوسف ويوسف يُهمزان ولا يهمزان ، ومثله : يونس ويونس . قال : يوسف غير مهموز لغة " (١) .
- وقوله أيضاً : " فسَدَ الشيء وصلَحَ وفسَدَ وصلَحَ لغة " (٢) .
- وقوله : " قَحَلَ الشيء يَقْحَلُ قَحولاً وقد قَحَلَ لغة " (٣) .
- وقول أبي عبيد : " صاف السهم يَضِيفُ : إذا عدَلَ عن الهدف ... وفيه لغة أخرى ... صاف السهم بمعنى صاف " (٤) .
- وقول الأخفش : " يَرشُدون ؛ لأنها من رَشَدَ يَرشُدُ . ولغتها العرب رشيدَ يَرشُدُ " (٥) .
- وقول أبي حيان : " وزعم أبو زيد أن كثيراً من العرب يقول مثل عمَّ شئت ؛ حذفوا ألفها وهي موصولة ؛ لكثرة الاستعمال . وقال المبرد : هي لغة " (٦) .
- وقول أبي الطيب : " هذا كوز من خَزَفٍ ومن خَزَبٍ في بعض اللغات " (٧) .
- وقول ابن قتيبة : " كَفَاتَ الإناء : قَلَبْتُهُ ، وأكفأته أيضاً لغة " (٨) .

ب- تركب اللغات وتداخلها :

أستلم الفرز النوعي للمادة اللغوية المجموعة إلى ضبط أبنية العربية وأصواتها والقواعد التي تجري عليها وفق مقاييس الاستعمال اليومي وضوابط القاعدة اللغوية .

ثم إنهم وردوا على وجوه من العربية ، فوجدوها على غير استقامة أو قياس لغوي واحد ؛ إذ لا تجري على سمت الفصحى أو قياس لهجي لإحدى اللهجات . فنظروا إلى الواقع

(١) إصلاح المنطق : ١٥١ .

(٢) المصدر نفسه : ٢١٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٣٢ .

(٤) غرب الحديث : ١ / ١٣٩ .

(٥) معان القرآن : ١ / ١٦٠ .

(٦) ارتشاف الضرب : ١ / ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٧) الإبدال : ١ / ٢١ .

(٨) أدب الكاتب : ٣٦٦ .

اللغوي ، فوجدوا العرب يتعاورون وجهين للظاهرة الواحدة : أحدهما موافق لقياس والثاني موافق لقياس آخر ، ففسروا ذلك بتركب اللغات وتداخلها .

ويقصد بتركب اللغات أن تؤخذ صيغتان من لهجتين مختلفتين ؛ لتشكلا بناءً واحداً ليس موجوداً في البناء الأصيل . وهذا التركب قد ينشأ من تداخل لغتين مختلفتي القياس والاستعمال ، وقد ينشأ من استخدامين في اللهجة الواحدة . ويعد ابن جنى صاحب القول بهذا التعليل ، إذ عقد باباً خاصاً في الخصائص سماه " باب في تركيب اللغات " ، إضافة إلى أبواب أخرى تبحث في الموضوع ذاته .

قال ابن جنى : " واعلم أن العرب يختلف أحوالها في تلقي الواحد منها لغة غيره ، فمنهم من يخف ويسرع قبُول ما يسمعه ، ومنهم من يستغصم فيقيم على لغته البتة ، ومنهم من إذا طال تكرر لغة غيره عليه لصقت به ووجدت في كلامه " (١) .

وقال " وإذا ثبت وجوب خلاف صيغة الماضي صيغة المضارع وجب أن يكون ما جاء من نحو سلا يسلى ، وقلسى يقلى ونحو ذلك ، مما التقت فيه حركتا عينيه منظورا في أمره ، ومحكوماً عليه بواجبه . فنقول : إنهم قد قالوا : قَلَيْتُ الرَّجُلَ وَقَلَيْتُهُ . فمن قال : قَلَيْتُهُ فإنه يقول : أَقْلِيهِ . ومن قال : قَلَيْتُهُ قال : أَقْلَاهُ . وكذلك من قال : سَلَوْتُهُ فإنه يقول : أَسْلَوُهُ ، ومن قال سَلَيْتُهُ قال : أَسْلَاهُ ثم تلاقى أصحاب اللغتين فسمع هذا لغة هذا ، وهذا لغة هذا ، فأخذ كل واحد منهما من صاحبه ما ضمته إلى لغته ، فتركبت هناك لغةٌ ثالثة ؛ كأن من يقول " سلا " أخذ مضارع من يقول " سلى " فصار في لغته سلا يسلى " (٢) .

وقال : " وقد يجوز أن تكون هذه لغات تداخلت ، فيكون بعضهم يقول : مِتَّ تَمَات ، وبعضهم يقول : مِتَّ تَموت ، ثم سمع من أهل لغة الماضي وسمع من أهل لغة أخرى المضارع فتركبت من ذلك لغة أخرى " (٣) .

(١) الخصائص : ١ / ٣٨٢ .

(٢) الخصائص : ١ / ٣٧٦ .

(٣) النصف : ٢٢٨ ، وانظر شرح الشافية : ١ / ١٣٧ .

وقال : " ويجوز أن تكون للقبيلة الواحدة أو الحي الواحد لغتان : نَعِمَ يَنْعَمُ ، وَلَعَمَ يَنْعَمُ . فيسمع منهم ماضي إحداهما ومضارع الأخرى : وكذلك مَنْ قال : كُنْتُ أَكَادُ ، إنما جاء بأكاد على كُنتَ مثل : هَبْتَ تَهَابُ ، فإما أن يكون من لغة مَنْ قال ذلك : كُنْتُ وكُنتَ جميعاً ، فيكون أكادُ على كُنتَ ، وإما أن يكون يوافق في المضارع مَنْ يقول في الماضي : كُنتَ لأنهم قالوا في المصدر : كَيْدًا ، فالواو والياء لغتان " (١) .

ويظهر أن النظر إلى تركيب اللغات معمول على بُعدين منهجين ، أحدهما وصفي يتناوله في إطار زمني واحد ، والثاني تاريخي يتحقق نتيجة استخدام لغة قديمة وأخرى متداولة (حديثاً) ، فتتركب في اللهجة صورتان .

قال ابن جني : " فقد علمت بهذا أن صاحب لغة قد راعى لغة غيره . وذلك لأن العرب وإن كانوا كثيراً مُتَشَرِّين ، وخَلْقاً عَظِيماً في أرضِ الله غير متحجرين ولا مُتَضَاعِطِينَ ، فإنهم بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يَجْرُونَ مجرى الجماعة في دار واحدة ، فبعضهم يلاحظ صاحبه ويراعي أمرَ لغته ، كما يراعي ذلك من مُهمِّ أمره ، فهذا هذا ومن ذلك قول بعضهم في الوقف (رأيتُ رجلاً) بالهمزة . فهذه الهمزة بَدَلُ من الألف في الوقف في لغة مَنْ وقف بالألف ، لا في لغته هو ؛ لأن من لغته هو أن يقف بالهمزة أفلاً نراه كيف راعى لغة غيره ، فأبدل من الألف همزة " (٢) .

وقال : " وقد يجوز أن تكون لغته في الأصل إحداهما ، ثم إنه استفاد الأخرى من قبيلة أخرى ، وطال بها عهدٌ ، وكثر استعماله لها ، فلحقت - لطول المدة واتصال استعمالها - بلغته الأولى . وإن كانت إحدى اللفظتين أكثر في كلامه من صاحبته فأخلق الحالين به في ذلك أن تكون القليلة في الاستعمال هي المُفَادَة والكثيرته هي الأولى الأصلية . نعم " (٣) .

ج- الناموس اللغوي :

وذلك أن اللغة تجهد أن تُبين عن معانيها ودلالاتها ، بإقامة الفرق بين الأبنية المختلفة ، فيكون البناء مُفضياً إلى دلالة مستقلة تغاير دلالة غيرها من الأبنية . لكن اللغة -

١ (المصنف : ٢٣٠ .

٢ (الحصائص : ١٥ / ٢ - ١٧ .

٣ (الحصائص : ١ / ٢٧٣ - ٢٧٤ .

على حرصها الشديد - لا تُسَلِّمُ من الوقوع في اللبس أو الاشتباه أو الاشتراك ، مراعاة لمبدأ الاقتصاد والتناهي في الأبنية ، للدلالة على معانٍ لا تنتهي .

فيكون من حكمة اللغة أن تلجأ إلى المشترك النحوي والمشارك الصرفي والمشارك الدلالي للتعبير عن معانيها اللامتناهية ، وهذا ما يسلمنا إلى مجابهة اسم الفاعل واسم المفعول من الثلاثي المضعف المزيد على هيئة من البناء واحدة ، فنقول : " مُنْتَدٍ " لاسم الفاعل واسم المفعول ونقول : مُرْتَدٍ أيضاً لكليهما .

وقانون الاقتصاد هو نفسه الذي جعلنا نستخدم وزن (أفعل) للدلالة على اسم التفضيل تارة ، وعلى فعل ثلاثي مزجياً بالهمزة تارة أخرى . وذلك قولك :

- اشتريتُ قميصاً أنعمَ من قميصك .

- الله أنعمَ علينا بنعمة العقل .

- شرح الأستاذُ البحثَ وأجملَ النظريةَ بجملتين .

- السيارةُ كانت أجملَ قبلَ الطلاء .

وهو القانون نفسه الذي جعلنا نستخدم (أو) العاطفة لدلالات كثيرة متعددة . وإذا كانت اللغة في مسعاها إلى الاقتصاد تفضي إلى الإلباس ؛ فإنها تستعين من داخلها بقرائن لغوية وسياقية تزيل الإلباس ، و تحل محله الإيضاح والإفهام .

٢- العوامل غير اللغوية : (الخارجية)

أ- العوامل التاريخية :

ويقصد بها سيرورة الزمن ودورته ، وذلك أنه يعمل في الظواهر اللغوية فيحيلها إلى ظواهرٍ مفارقةٍ لها في سمةٍ أو مَلَمَحٍ ؛ وهو ما يعرف بقوانين التطور اللغوي . وهذه القوانين قد تكون صوتية أو دلالية أو نحوية .

وقد يتمثل القانون التاريخي في التحول من لغة قديمة إلى أخرى جديدة ، فتجتمع الاثنان في الاستعمال مع تراجع القديمة وتقدم الحادثة (١) .

(١) في تفصيل أمثلة من ذلك ، انظر : لماد الموسى ، ظاهرة الإعراب في اللهجات العربية القديمة .

وأمثلة ذلك كثيرة متناثرة شذرات هنا وهناك ، قال أبو الطيب اللغوي : " أبو زيد : يقال : أجَادَ في كلامه وأجَوَدَ ، وقد أطلَّ حمائل سيفه وأطَوَّلَهَا " (١) .

فهاتان صورتان : اطلَّ وأطَوَّلَ .

أجاد وأجَوَدَ .

والثانية هي الأصل ، والأولى حادثة عنها لقانون صوتي .

وقد أنكر ابن جني أن يكون الأصل في هذه الصيغة قد استخدم في مرحلة زمنية سابقة ، وإنما بعرفه العربي بالاعتقاد دون الاستعمال ، يقول : " هذا الموضع كثير الإيهام لأكثر من يسمعه ، لا حقيقة تحته ، وذلك كقولنا : الأصل في قام قَوْمَ وفي باع بَيْعَ فهذا يؤهم أن هذه الألفاظ وما كان نحوها - مما يدعى أن له أصلاً يخالف ظاهر لفظه - قد كان مرة يقال ، حتى إنهم كانوا يقولون في موضع قام زيد : قَوْمَ زيدَ وكذلك نوم جعفر ، وليس الأمر كذلك ، بل بضده ، وذلك أنه لم يكن قَطُّ مع اللفظ به إلا على ما تراه وتسمعه .

وإنما معنى قولنا : إنه كان أصله كذا : أنه لو جاء مجيء الصحيح ولم يعلل لوجب أن يكون مجيئه على ما ذكرنا . فأما أن يكون استعمل وقتاً من الزمان كذلك ، ثم انصرف عنه فيما بعد إلى هذا اللفظ فخطأ لا يعتقده أحد من أهل النظر " (٢) .

٤

ولكنه في سياق آخر يُلْمِحُ إلى إقرار وجود هذه الصيغة سابقاً قبل أن يصيبها التغير ، يقول معلقاً على إبدال أمسى ← أمسج : " فهذا ونحوه ما استدل أهل التصريف على أصول الأشياء المغيرة ، كما استدلوا بقوله - عز اسمه - (استخوذ عليهم الشيطان) على أن أصل استقام : استقوم وأصل استباغ استبيع ، ولو لا ما ظهر من هذا ونحوه لما أقدموا على القضاء بأصول هذه الأشياء ، ولما جاز ادعاؤهم إياها " (٣) .

والحجة التي يقدمها ابن جني هنا قوية ، وذلك أنها وردت في القرآن ، ومعلوم أن القرآن جاء بلغة العرب وأساليبهم . وهكذا تكون هذه الصيغة قد جاءت على الأصل الأول قبل التغير .

(١) الإبدال : ٢ / ٥٢١ .

(٢) الحاصل : ١ / ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٣) لحن العامة والتطور اللغوي : ٣٧٦ - ٣٧٧ .

٣- العوامل الاجتماعية والنفسية:

وذلك أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، تسري عليها القوانين الفاعلة في الظواهر الاجتماعية ، كالعرف والتواضع وحدث مقتضيات جديدة ، واختراع أشياء حادثة . أو الانتقال من استخدام اجتماعي إلى استخدام آخر ، أو الاستعانة باللغة للتعبير عن فكر اجتماعي أو معتقد ثقافي يسري في المجتمع ويتداوله أبناء ذلك المجتمع وفق ما استحکم فيهم من لمط ثقافي لغوي مخصوص .

من ذلك أن مجيء الإسلام قد ألغى كثيراً من العادات والأعراف الاجتماعية التي كانت سائدة في الجاهلية ، فلما توقفت ممارسة هذه العادات ضعفت الألفاظ الدالة عليها في الاستخدام ، ثم ضعفت في نفوسهم ، وباتت ميراثاً لغوياً خاملاً لا يُذكر إلا إن كان دون سابقاً .

ومن هذا الضرب كلمة " المربع " التي كانت تُشير إلى رُبْع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية ، فقد زالت الكلمة في الاستعمال ، لزوال العرف الاجتماعي الذي كانت تدل عليه . ومثله : الإتاوة والمكس والخلوان ، وانعم صباحاً وانعم ظلاماً ، وقولهم للملك : أبيت اللعن (١) .

ومما كان العامل الاجتماعي سبباً في تباينه ، بعض ما ورد من الأضداد ، وذلك السوراء يكون من خلف وقدام ، والصريم الليل وهو أيضاً الصبح لأن كلاً منهما ينصرف عن صاحبه ، والجلل اليسير والجلل العظيم ؛ لأن اليسير قد يكون عظيماً عند ما هو أيسر منه ، والعظيم قد يكون صغيراً عند ما هو أعظم منه . كذلك فإن العظيم عند شخص ، يسير عند آخر (٢) .

وقد يكون التفاؤل أو التهكم أو التشاوم سبباً في حمل الألفاظ على الضدية ، وإن كان ذلك يتعرف بالسياق . فانت تقول لأحدهم - استهزاء - : أنت ذكي جداً ، مع أنه أبلد رأياً فسي غاية الحمق . ومنه قولك لمريض عنته : علمت أنك بعافية تفاؤلاً وتخفيفاً عنه . ومنه قولك :

١

(١) المره : ٢٩٦ / ١ - ٢٩٧ . أليم ... هكذا وردت في المره ، وأحسب أنها : التعم .

(٢) الثعالي ، فقه اللغة : ٢٧٣ - ٢٧٤ .

سَأَلَتْ عَنكَ العَاقِيَةَ ، أو اشْتَاقَتْ إِلَيْكَ العَاقِيَةَ ، لِمَ تَرُدُّ مِنْذُ زَمَنٍ ، وَهِيَ تَحْمِلُ إِشَارَةَ إِلَى الْإِفْتِقَارِ إِلَى الصِّحَّةِ وَالعَاقِيَةَ ، وَلَكِن العُرْفُ الاجْتِمَاعِي حَمَلَهَا عَلَى تَعْنِي العَاقِيَةَ لَهُ .

وَقَدْ أُثِرَ عَنِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ أَبْنَاءَهُمْ بِأَسْمَاءِ شَنِيعَةٍ ، فِيهَا قَسْوَةٌ وَشِدَّةٌ وَصِرَامَةٌ ، مَعَ احْتِمَالٍ أَنْ يُنَاقِي ذَلِكَ طِبْيَاعَ أَبْنَائِهِمْ ، قَالَ الثَّعَالِبِيُّ فِي فَصْلِ " فِي تَسْمِيَةِ الْعَرَبِ أَبْنَاءَهَا بِالشَّنِيعِ مِنَ الْأَسْمَاءِ " : " هِيَ مِنْ سَنَنْ الْعَرَبِ ؛ إِذْ تَسْمِي أَبْنَاءَهَا بِحَجَرٍ ، وَكَلْبٍ وَتَمْرٍ وَذَنْبٍ وَأَسَدٍ ، وَمَا أَشْبَهَهَا . وَكَانَ بَعْضُهُمْ إِذَا وُلِدَ لِأَحَدِهِمْ وَلَدٌ سَمَّاهُ بِمَا يَرَاهُ وَيَسْمَعُهُ مِمَّا يَتَفَاعَلُ بِهِ ، فَإِنْ رَأَى حَجْرًا أَوْ سَمِعَهُ تَأَوَّلَ فِيهِ الشَّدَّةَ وَالصَّلَابَةَ وَالصَّبْرَ وَالْبَقَاءَ . وَإِنْ رَأَى كَلْبًا تَأَوَّلَ فِيهِ الْحِرَاسَةَ وَالْأَلْفَةَ وَبُعْدَ الصَّوْتِ ، وَإِنْ رَأَى نَمْرًا تَأَوَّلَ فِيهِ الْمَنَعَةَ وَالتَّيَّهَ وَالشُّكَّاسَةَ . وَإِنْ رَأَى ذَنْبًا تَأَوَّلَ فِيهِ الْمَهَابَةَ وَالْقُدْرَةَ وَالْحِشْمَةَ .

وَقَالَ بَعْضُ الشُّحُوبِيَّةِ (١) لِابْنِ الْكَلْبِيِّ : لَمْ سَمَّتِ الْعَرَبُ أَبْنَاءَهَا بِكَلْبٍ وَأَوْسٍ وَأَسَدٍ وَمَا شَاكَلَهَا ، وَسَمَّتْ عِبِيدَهَا بَيْتَسَ وَسَعْدَ وَيَمْنَ ؟ فَقَالَ وَأَحْسَنُ : لِأَنَّهَا سَمَّتْ أَبْنَاءَهَا لِأَعْدَائِهَا ، وَسَمَّتْ عِبِيدَهَا لِأَنْفُسِهَا " (٢) .

وَمَفَادُ هَذَا النَّصِّ حَمَلُهُمُ الْأَسْمَاءَ عَلَى التَّفَاوُلِ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ قَدْ تَصِيرُ إِلَى مَفَارِقَةٍ ، إِذَا جَاءَ الْوَلَدُ لِتِنَا مَنَعًا ، لَيْسَ لَهُ مِنَ الشُّجَاعَةِ شَيْءٌ . ثُمَّ إِنَّهُمْ أَطْلَقُوا عَلَى عِبِيدِهِمْ أَسْمَاءَ فِيهَا لِينٌ وَضَعْفٌ ، تَفْرِيقًا لَهُمْ عَنِ سَادَتِهِمُ الْأَشْدَاءِ الْأَكْوِيَاءِ ، مَعَ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَكُونُ فَتْيًا ، أَشَدَّ مِنْ سَيِّدِهِ بَأْسًا .

٢-الاشتراك : ويُعرَّفُ الاشتراكُ بدلالةِ البنيةِ الواحدةِ على غيرِ معنى .

وَعُرْفُ أَكْثَرِ مَا عُرِفَ فِي الدَّرْسِ الدَّلَالِي الْعَرَبِيِّ ؛ إِذْ قَصِدُ بِهِ الْمَشْتَرِكِ اللَّفْظِيِّ وَالْمَتَضَادِّ . لَكِن دَرَسَ التَّبَايُنِ فِي وَجُوهِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَمِظَانِهِ الرَّئِيسَةَ يَتِيحُ لَنَا سَبِيلًا لِتَوْسِيعِ مَفْهُومِ الْإِشْتِرَاكِ لِیْتَضَمَّنَ وَجُوهًا نَحْوِيَّةً وَصَرْفِيَّةً .

(١) يغلب أن تكون : الشعرية .

(٢) الثعالبی ، فقه اللغة : ٤٤٢ .

وهكذا يستقيم لنا أن نُطلقَ على الأدوات التي تؤدي وظائف متعددة في سياقات جُمليّة وظيفيّة ، مشتركات نحوية ، فتكون (ما) مشتركاً نحويّاً في سياقاتها المختلفة (١) :

١- ما الاسميّة :

- الموصولة : اعمل ما شئت .
- الاستفهاميّة : ما اسمك ؟
- التعجيبية : ما أعجب أمرك !
- الشرطيّة : ما تفعل يعلمه الله .

٢- ما الحرفيّة :

- النافية : - ما حضر زيد .
- ما أنت طالب .
- المصدرية : سادفغ عن لغتي ما حبيت .
- الزائدة :
- أ- كافة : إنما أنت طالب .
- ب- غير كافة : ذهبت إلى المدينة كيما أشتري كتاباً .

ومن المشترك النحوي ، " كان " بدلالاتها المتعددة ووظائفها المتباينة ، فقد جعلها الأنباري على خمسة أوجه (٢) :

الأول : أن تكون ناقصة فتدل على الزمان المجرد عن الحدث ، نحو : كان زيداً قائماً . ويلزمها الخبر .

الثاني : أنها تكون تامة فتدل على الزمان والحدث كغيرها من الأفعال الحقيقيّة ، ولا تنتقل إلى الخبر ، نحو : كان ما كان . وهي بمعنى حدث ووقع .

(١) في تفصيل ذلك ، انظر : معني اللب ٣٩٠ - ٤١٩ . ومع المرامح : ٨٣ / ٢ .

(٢) أسرار العربية : ٨٥ - ٨٧ .

الثالث : أن يُجْعَلَ فيها ضميرُ الشأن والحديث ، فتكون الجملةُ خبرها ، نحو : كان زيدٌ قائمٌ ، كان الشأن والحديثُ زيدٌ قائمٌ .

الرابع : أن تكون زائدة غيرَ عاملة ، نحو : زيد كان قائمٌ ، أي زيدٌ قائمٌ ، وقال الفرزدقُ :

فكيف إذا مررت بدار قومٍ وجيران لنا كانوا كرام

الخامس : أن تكون بمعنى صار ، قال الله تعالى : ﴿ وكان من الكافرين ﴾ ^(١) ، أي : صار .

وقد يصحُّ أن نَدْخَلَ في هذا الباب (المُشْتَرَكِ النحوي) الأدوات (الحروف) التي تقوم بوظيفة نحوية واحدة ولكنها تُحْمَلُ على معانٍ متعددة . من ذلك (أو) العاطفة ، فإنها تقوم بهذه الوظيفة على تحمُّل دلالات متعددة ، انتهى النحويون إلى اثني عشر معنىً هي ^(٢) :

-الأول: الشُّكُّ ، نحو : ﴿ لبثنا يوماً أو بعضَ يوم ﴾ ^(٣) .

-الثاني : الإبهام ، نحو : ﴿ وإنا أو آياتكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ ^(٤) .

-الثالث : التخيير ، نحو : تزوّجَ هنداً أو أختها .

-الرابع : الإباحة لأ نحو : جالس الزُّهاد أو العلماء .

-الخامس : الجمع المطلق كالواو ، كقول جرير ^(٥) :

جاء الخلافة أو كانت له قَدراً كما أتى ربّه موسى على قَدْرِ

-السادس : الإضراب كـ (بل) ، نحو : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألفٍ أو يزيدون ﴾ ^(٦) .

-السابع : التقسيم ، نحو : الكلمة اسم وفعل وحرف .

-الثامن : أن تكون بمعنى (إلا) في الاستثناء ، نحو : لأقتلنه أو يُسَلِّمَ .

(١) سورة البقرة : ٣٤ .

(٢) معنى الليب : ٨٧ - ٩٥ .

(٣) سورة المؤمنون : ١١٣ .

(٤) سورة سبأ : ٢٤ .

(٥) المعنى : ٨٩ .

(٦) سورة الصافات : ١٤٧ .

- التاسع : أن تكون بمعنى (إلى) ، نحو : لأكرمنك أو تقضيني حتى .
- العاشر : التقريب ، نحو : ما أدري أسلم أو ودع .
- الحادي عشر : الشرطية ، نحو : لأضربنه عاش أو مات .
- الثاني عشر : التبعض ، نحو : (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى)^(١) .

أما المشترك الصرقي ، فإن تحمّل البنية الواحدة على معنيين أو أن تدلّ على صيغتين مختلفتي الأصل . وأبرز ما يذكر من هذا الباب اشتباه اسم الفاعل من الأجوف والمهموز الثلاثي ، فانت تقول :

- سأل ← سائل .
- سأل ← سائل .
- ثار ← ثائر .
- ثار ← ثائر .
- جار ← جائر .
- جار ← جائر .
- زار ← زائر .
- زار ← زائر .

ومن المشترك الصرقي أن يلتبس اسم الفاعل باسم المفعول في البناء السطحي ، لدواع صوتية ، وذلك من مثل :

- | | | |
|-----------------------|----------|---------|
| اسم فاعل واسم مفعول : | مُمْتَدّ | امتدّ : |
| اسم فاعل واسم مفعول . | مُرْتَدّ | ارتدّ : |
| اسم فاعل واسم مفعول . | مُشْتَدّ | اشتدّ : |
| اسم فاعل واسم مفعول . | مُحْتَدّ | احتدّ : |

| | | |
|---------|-------|-----------------------|
| اختار : | مختار | اسم فاعل واسم مفعول . |
| احتار : | محتار | اسم فاعل واسم مفعول . |
| احتال : | محتال | اسم فاعل واسم مفعول . |
| انصاع : | منصاع | اسم فاعل واسم مفعول . |

ومن الاشتراك الصرفي ، أن يأتي اسما الزمان والمكان على صيغة من البناء واحدة ؛ إذ يصاغان من الثلاثي مضموم العين في المضارع أو مفتوحها على وزن مَفْعَل (١) :

| <u>الفاعل</u> | <u>اسم المكان</u> | <u>اسم الزمان</u> |
|--------------------|-------------------|-------------------|
| دَخَلَ يَدْخُلُ | مَدْخَلٌ | مَدْخَلٌ |
| خَرَجَ يَخْرُجُ | مَخْرَجٌ | مَخْرَجٌ |
| حَلَّ يَحُلُّ | مَحَلٌّ | مَحَلٌّ |
| طَبَخَ يَطْبُخُ | مَطْبَخٌ | مَطْبَخٌ |
| صَنَعَ يَصْنَعُ | مَصْنَعٌ | مَصْنَعٌ |
| عَمِلَ يَعْمَلُ | مَعْمَلٌ | مَعْمَلٌ |
| لَعِبَ يَلْعَبُ | مَلْعَبٌ | مَلْعَبٌ |

فإذا تماثلا من فعل واحد دل السياق على زمانية أحدهما أو مكانيته .

ويلتبس اسما المكان والزمان من غير الثلاثي باسم المفعول من غير الثلاثي أيضاً ، فنقول :

| <u>الفاعل</u> | <u>اسم المكان</u> | <u>اسم الزمان</u> | <u>اسم المفعول</u> |
|---------------|-------------------|-------------------|--------------------|
| استودع | مُستودِعٌ | مُستودِعٌ | مُستودِعٌ |
| استشفى | مُستشفى | مُستشفى | مُستشفى |

(١) لهاد الموسى ، كتاب العربية - نظام الهيئة الصرفية : ٧٣ .

| | | | |
|--------|----------|--------|--------|
| استوصف | المستوصف | مستوصف | مستوصف |
| تنزه | متنزه | متنزه | متنزه |
| التقى | ملتقى | ملتقى | ملتقى |

ويكون السياق علماً على تحديد دلالة البنية الصرفية، فنقول :

- هذا مستودع الأدوات الرياضية . دلالة على المكان .
- أيهما أقدم : يوم ذي قار أم مستودع النعمان هاني بن قبيصة دروعه ؟ دلالة على الزمان .
- السر المستودع لدى الصديق مكتوم ؛ دلالة على المفعول .

وأما المشترك الصوتي ، فإن تشابه كلمتان أو جُمُلتان في النطق . غير أن هذا الاشتراك الصوتي يُفَضُّ بالكتابة ، وذلك قولك :

- فِ الكاس ماء .
- في الكاس ماء .
- الحمد لله علا كل شيء .
- الحمد لله على كل شيء .

٤

وقد لا يُفَضُّ الرسمُ الاشتراك الصوتي . وذلك كقولك :

- محمد كريم .
- محمد كريم .
- لنا صديقة أجنبية .
- لنا طالبة مجتهدة .

٣- الحمل على اللفظ والحمل على المعنى :

المعنى أحد الأصول التي أسهمت في ربح النظرية اللغوية العربية ، فصرح به اللغويون تارة ، وصدروا عنه تارة أخرى ، متكئين على إرهابات يُحْمَلُ عليها كلامهم ، فكان المعنى المَعْوَلُ عليه في تفسير كثير من الظواهر اللغوية .

وقد تقاسم المعنى مع المبنى (اللفظ) ضبط الظواهر اللغوية في العربية ، فاعتمد اللغويون عليهما في التعليل والتفسير ، فحملوا الظواهر التي تخرج على أصل المبنى (البنية الظاهرة) على المعنى ، وأولوها تأويلاً دلاليًا عميقاً يتسق وهينة التركيب ، الهيئة العامة للباب ، استخداماً وتقييداً . ومثلما كان الحمل على اللفظ والحمل على المعنى متآرجحاً في النظرية اللغوية عموماً ، كان التآرجحُ بينهما ظاهراً في صلب نظرية التباين .

وأبرز ما يُساق في هذا السياق ، تآرجحُ (كلا وكلتا) بين اللفظ والمعنى في الوظيفة النحوية والدلالية والرُسم . فقد حملوها على اللفظ باعتبار الأفراد ، فكان أن استدعى ذلك أئراً في ما ينيها من عناصر التركيب ، فقالوا :

- كلا الامتحانين سهل .
- كلتا المدينتين نظيفة .
- كلا المهندسين جاء .
- كلتا المهندستين غادرت .

ثم حُمِلَت الكلمتان على المعنى باعتبار التشبية ، فقالوا :

- كلا الامتحانين سهلان .
- كلتا المدينتين نظيفتان .
- كلا المهندسين جاءا .
- كلتا المهندستين غادرتا .

أما في الرسم ، فقد حملوه على الوظيفة النحوية ، فإن كانتا على الرفع رُسمتا بساأللف ، وإن كانتا على النصب أو الجر رُسمتا بالياء (الألف المقصورة) ، وذلك كتابك :

- نام كلا الطفلين .

- أطعمت كلي الطفلين .

- وضعت الغطاء على كلي الطفلين .

ومما تعاوره اللفظ والمعنى ، تذكير الفعل وتأتيه مع الفاعل إذا كان جمع تكسير لمذكر أو مؤنث أو جمع سلامة لمؤنث ، فإذا أنثَ حُمِلَ على معنى الجماعة ، وإذا ذُكِرَ حُمِلَ على معنى الجمع ، وذلك قولك :

- حضرَ الطلابُ . حضرَتِ الطلابُ .

- قامَ الهنودُ . قامتِ الهنودُ .

- قامَ الهنداتُ . قامتِ الهنداتُ .

وتأويلهمـا :

- حضر (جمع) الطلابُ . حضرت (جماعة) الطلابُ .

- قام (جمع) الهنودُ . قامت (جماعة) الهنودُ .

- قام (جمع) الهنداتُ . قامت (جماعة) الهنداتُ .

ومثل هذا كثير في كلام العرب وفي القرآن مثله .

ومما حمل على اللفظ والمعنى فصيحة الجنس في العربية ؛ ذلك أنهم عاملوا بعض الكلمات على وجهين مرة مذكرة ومرة مؤنثة . فقد جعلوا الصوت مؤنثاً حملاً على المعنى ، وجعلوا الكتاب مؤنثاً حملاً على المعنى أيضاً . فقد روى شارح ديوان الحماسة : " قال رؤيشد بن كثير الطائي :

يا أيها الراكبُ المزجي مطيئةً سائلُ بني أسد ما هذه الصوتُ ؟

وإنما قال : ما هذه الصوت ؟ والصوت مذكر ؛ لأنه قصد به إلى الصيحة والجلبة " (١) .

(١) المرزوقي : ١٦٧/١ . وشرح المنعزل : ٩٤/٥ .

" وحكى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنه سمع بعضهم يقول : جاءته كتابي فاحتقرها : قال أبو عمرو^٤ : فقلت : أتقول : جاءته كتابي ؟ قال : نعم ، أليست هي صحيفة " (١) .

وهكذا كان التباين في الاستخدام الوظيفي للغة مفضياً إلى التباين في التحليل ، فكان للغويين الحق في الحمل على اللفظ أو الحمل على المعنى لتفسير ذلك الاستخدام .

(١) شرح ديوان الحماسة : ١ / ١٦٧ .

- الخاتمة :

جهدت هذه الدراسة أن تأسس لنظرية التباين في العربية ؛ إذ استقام أن التباين كان ظاهرة ملازمة للعربية - كغيرها من اللغات - في تحققاتها اللهجية والأسلوبية المتعددة ، وفي مستوياتها التحليلية : الصوتية والصرفية والنحوية والدالية والهجائية .

وقد استقام لنا أن العرب صدروا في تداولهم اللغوي عن سليفة استحكمت فيهم ؛ وعن قياس لغوي ناجز يحتكمون إليه في الاستخدام . ولما كانت العربية تتأني على وجوه لهجية متعددة ، اقتضى ذلك أن تتعدد الأقيسة ، فجاء قياس لغة على غير قياس الأخرى .

وهكذا توارث العرب لغتهم على وجوه متباينة ، تحصّلت فيهم بالاكْتساب وتمكّنت في نفوسهم - تمكّن العزف والعادة - بالمران والذربة ثم التعليم . ثم كان منهم من أصاب لغته ولغة غيره فحظي بتعدد لهجي أورثه تركباً في اللغات محمولاً على الاكْتساب والسليقة .

وقد حاولت هذه الدراسة استبطان الواقع اللغوي العربي في عصور الاحتجاج ؛ أجل الوصول إلى العوامل اللغوية وغير اللغوية التي أسلمت إلى التباين ، وكان مستصفي القول في ذلك أن التعدد في وجوه العربية محمول على عوامل تاريخية خاصة ولغوية عامة ، إضافة إلى عوامل اجتماعية خالصة .

وتتخذ العوامل التاريخية الخاصة أبعاداً ثلاثة : بُعداً مكانياً يتمثل في أن بناء العربية قد أقيم على لهجات متعددة ، وبُعداً زمانياً يتبدى في أن النحويين اتسعوا في استقرار العربية على مدى ثلاثة قرون ونيف من حياتها ، وبُعداً منهجياً أقامه اختلاف طرائق النظر اللغوي .

وينضاف إلى هذه العوامل عامل لغوي عام تقتضيه النواميس الذاتية والخارجية الفاعلية في صياغة البناء اللغوي بمستوياته المتكاملة المختلفة : الصوتية والهجائية والصرفية والنحوية والدالية ، وهي نواميس تقضي بالضرورة إلى مواضع لبس تُعرض في نقاط معينة على كل مستوى ، ثم كان العامل الاجتماعي معززاً للتباين ، من حيث إن اللغة ظاهرة اجتماعية تتداول

في المجتمع ، وتتأثر بقيمه ومعتقداته وأنماطه الثقافية ، فكان التراوح والحروب ونظام الخلع ، والنظام التجاري الذي ساد آنذاك ، عوامل تمازج لغوي أفضت إلى التباين إلى حد ما .

وحاولت هذه الدراسة أن تكشف عن معالم التباين في العربية ، فاقتضاها ذلك أن تسير في خطين متوازيين :

الأول : وهو متعلق بالأداء اللغوي الفعلي كما استقام للعربي الفصيح ؛ إذ كان رصد التباين في وجوه الأداء المتعددة مادة ضرورية للوصول إلى استنتاجات منهجية قوية .

الثاني : وهو متعلق بالأحكام التي أطلقها العلماء اللغويون على الوجوه المتباينة التي تجمعت لديهم ، إذ استتبع التباين في المادة تبايناً في وجوه النظر والتفسير والتعليل ، فكان ذلك مؤسساً لظاهرة الخلاف النحوي تخصيصاً والخلاف اللغوي تعميمياً .

وكان المعول عليه ، استفاد مستويات التحليل اللغوي ؛ أجل التوصل إلى صورة متكاملة ، واضحة المعالم ، تؤسس لنظرية التباين في العربية على المستوى المنهجي والأدائي ، وفق منحى شمولي^١ .

وقد كشفت هذه الدراسة عن وجوه كثيرة من النظر اللغوي الاجتماعي في تراث العربية ، وكشفت عن بُعد نظر ولفاذ بصيرة في استشراف الأبعاد غير اللغوية التي تلابس الأداء اللغوي ، بما يكشف عن تأصيل عميق للدرس اللساني الاجتماعي العربي ، ولا سيما عند سيوييه وابن جنى .

وكان مما ألت إليه الدراسة أن ثمة وجوه شبيهة تصبّل درس التباين في اللسانيات الاجتماعية المعاصرة واللسانيات العربية التراثية ، وهذه الوجوه هي :^(١)
أولاً : يلتقي اللغويون العرب - بوجه عام - مع اللغويين مثل " لايوف " و " بيلي " في

١ (عشاري محمود ، التوحيد بين اللسانيات الحديثة والعربية في دراسة الالهجات ، اشغال ندوة اللسانيات في خدمة اللغة العربية (١٩٨١) ، ص ٢٢٠-٢٢١ .

رويتهم للتباين بوصفه ظاهرة لازمة للغة أو اللهجة في مستوياتها التحليلية كلها . فنظرية التباين التي قدمها " لابوف " بديلاً للنظريات المهيمنة القائلة باطراد اللغة وانسجامها ، تجسد صدى مباشراً في أعمال اللغويين العرب القدامى كابن جنى والثعالبي وابن فارس وسيبويه والزيبي وابن مكّي وغيرهم .

ثانياً : إن دراسة التطور اللغوي التي هي جوهر الدراسات اللهجية في اللسانيات الحديثة ، كانت مثار اهتمام اللغويين العرب القدماء ، يدل على ذلك النظر في البعد التطوري للظاهرة اللغوية ، أداءً وتوجيهاً .

ثالثاً : يشارك اللغويون العرب القدامى اللغويين الغربيين المحدثين في انتعاشهم منحى شمولياً في جمع المادة اللغوية . فقد ركز اللغويون العرب على المصادر اللغوية المتنوعة : القرآن الكريم والقراءات القرآنية والحديث والشعر والنثر واللغات الخاصة والحديث اليومي .

رابعاً : ربط اللغويون والبلاغيون العرب - ولا سيما ابن جنى والجاحظ - بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية ؛ فتحدث ابن جنى عن لغة أهل الوبر ولغة أهل المنذر ، كما تحدث الجاحظ عن لغات الطبقات والمهن الاجتماعية المختلفة ، فكان ذلك صدوراً واعياً عن إدراك فعل البنية الاجتماعية في البنية اللغوية .

خامساً : أدرك اللغويون العرب أثر المتغيرات الاجتماعية في التباين ، فالغة البدوي مغايرة - ضمن نطاق معين - لغة الحضري ، وما ذلك إلا لاختلاف متغير البيئة وما اعتاد عليه الناس من العادات اللغوية .

وثمة مشابهة كثيرة توزعت ثانياً هذا البحث .

وهكذا استقامت نظرية التباين في العربية ، مادةً ومنهجاً وتحليلاً ؛ لتكون بذلك نظرية فرعية تتسجم مع التصور الكلي للنظرية اللغوية العربية .

وقد يبدو لنا ممكناً استثمار مستخلصات نظرية التّباين في وجوه وظيفيّة متعدّدة ، لعلّ

أهمها :

- ١- في تعليم العربيّة .
- ٢- تأصيل العامّي وردّه إلى الفصيح .
- ٣- بناء المعجم التاريخي .
- ٤- قراءة التراث ومكاشفته .

مصادر الدراسة

و

مراجعتها

مصادر الدراسة ومراجعها :

• أولاً : الكتب بالعربية :

- القرآن الكريم .
- إبراهيم أنيس ، دلالة الألفاظ ، ط٦ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٦ .
- في اللهجات العربية ، ط٦ ، مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ، د.ت .
- وآخرون ، المعجم الوسيط . ط٢ ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- إبراهيم السامرائي ، في تاريخ العربية ، منشورات المركز الثقافي في جامعة الموصل ، ١٩٧٧ .
- أحمد تيمور ، لهجات العرب ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، ١٩٧٣ .
- أحمد طه سلطان ، في مناهج البحث اللغوي ، ط١ ، مطبعة الأمانة ، ١٩٩١ .
- أحمد علم الدين الجندي ، اللهجات العربية في التراث ، د.ط ، النداء العربية للكتاب ، ١٩٨٣ .
- أحمد قدور ، مبادئ اللسانيات ، ط١ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٦ .
- أحمد مختار عمر ، البحث اللغوي عند العرب ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١ .
- ، علم الدلالة ، ط٣ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
- ، اللغة واختلاف الجنسين ، ط١ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
- أحمد هيو ، الأبجدية : نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب ، ط٢ ، دار الحوار ، اللاذقية ، ١٩٨٤ .
- الأخفش ، أبو سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥ هـ) ، معاني القرآن ، تحقيق : فائز فارس ، ط٢ ، ١٩٨١ .
- إسماعيل عميرة ، ظاهرة التأنيث بين اللغة العربية واللغات السامية ، ط١ ، مركز الكتاب العلمي ، عمان ، ١٩٨٦ .
- ، المستشرقون ومناهجهم اللغوية ، ط٢ ، دار حنين ، عمان ، ١٩٩٢ .
- ، معالم دراسة في الصرّف ، ط٢ ، دار حنين ، عمان ، ١٩٩٣ .

- أمنة الزعبي ، مصادر الأفعال الثلاثية في اللغة العربية ، ط ١ ، مؤسسة رام للتكنولوجيا والكمبيوتر ، عمان ، ١٩٩٦ .
- إميل يعقوب ، الخط العربي ، ط ١ ، طرابلس ، ١٩٨٦ .
- ابن الأنباري ، أبو بكر محمد بن القاسم (ت ٣٢٨هـ) الأضداد ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دائرة المطبوعات والنشر في الكويت ، الكويت ، ١٩٦٠ ،
- ، المذكر والمؤنث ، تحقيق محمد عبد الخالق عضية ، منشورات وزارة الأوقاف في جمهورية مصر ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- الأنباري ، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٧٧هـ) ، أسرار العربية تحقيق : محمد حسين شمس الدين ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٧ .
- ، الإنصاف في مسائل الخلاف ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر .
- ، البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث ، تحقيق رمضان عبد التواب ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ، البيان في غريب إعراب القرآن ، تحقيق : طه عبد الحميد طه ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- أندريه مارتينييه ، وظيفة الألسن ودنياميتها ، ترجمة نادر سراج ، ط ١ ، دار المنتخب العربي ، بيروت ، ١٩٩٦ .
- برجستراسر ، التطور النحوي للغة العربية ، المركز العربي للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
- البُستى ، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطّابي (ت ٣٨٨ هـ) ، غريب الحديث ، تحقيق : عبد الكريم العزباوي ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٢ .
- البطلانيوسي ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد (ت ٥٢١هـ) ، الفرق بين الحروف الخمسة ، تحقيق : عبد الله الناصير ، ط ١ ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، ١٩٨٤ .
- ، المُتَلِّث ، تحقيق ودراسة : صلاح مهدي الفرطوسي ، ١٩٨٠ .
- البغدادي ، عبد القادر ، شرح شواهد الشانوية ، تحقيق محمد نور ومحمد الزفزاف ، مطبعة حيازي ، القاهرة .

- البناء ، أحمد الدمياطي (١١١٧ هـ) ، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر ، طبعة عبد الحميد حنفي ، د.ت .
- تمّام حسان ، الأصول ، ط١ ، دار الثقافة ، بدار البيضاء ، ١٩٨١ .
- التهامي الراجي الهاشمي ، بعض مظاهر التطور اللغوي ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ١٩٧٨ .
- توفيق محمد شاهين ، المشترك اللغوي ، ط١ ، مطبعة الدعوة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد (٤٤٦ هـ) ، الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية التي ترادفت مبانيتها وتنوعت معانيها ، تحقيق محمد المصري ، ط١ ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٤ .
- ، فقه اللغة وسر العربية ، تحقيق إميلي نسيب ، ط٢ ، دار الجبل ، بيروت ، ١٩٩٨ .
- ثعلب ، أبو العباس أحمد بن يحيى ، الفصيح ، تحقيق عاطف مذكور ، دار المعارف .
- ، مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف ، مصر ، د.ط .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الفكر ، بيروت .
- ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ، البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، دار المعارف ، ١٩٦٣ .
- جاسر أبو صفية ، مُعَرَّب القرآن عربي أصيل ، ط١ ، دار أجا ، الرياض ، ٢٠٠٠ .
- ابن الجزري ، أبو الخير محمد بن أحمد (ت ٨٣٣ هـ) ، تقريب النشر في القراءات العشر ، ط٢ ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
- ، النشر في القراءات العشر ، باعتناء علي محمد الضياع ، مطبعة مصطفى محمد ، مصر .
- جميل سعيد و داود سلوم ، معجم لغات القبائل والأمصار ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٧٨ .

- ابن حنّي ، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢ هـ) ، التصريف الملوكي ، ط ١ ، شركة التمدن الصناعية ، مصر ، د.ت .
-، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، ط ٢ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
-، سر صناعة الإعراب ، تحقيق حسن هندراوي ، دار القلم ، دمشق ، ١٩٨٥ .
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات ، تحقيق علي النجدي ناصف وعبد الحليم النجار وعبد الفتاح شلبي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
-، المنصف - شرح التصريف ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٩ .
- جوليت غارمادي ، اللسان الاجتماعية ، تعريب خليل أحمد خليل ، ط ١ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٩٠ .
- جون لاينز ، اللغة والمعنى والسياق ، ترجمة عباس صادق الوهاب ، ط ١ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٧ .
- الجبائي ، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة ، تحقيق محمد حسن عواد ، ط ١ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩١ .
- حاييم رابين ، اللهجات العربية الغربية القديمة ، ترجمة : عبد الرحمن أيوب دار السلاسل ، الكويت ، ١٩٨٦ .
- حسام النعيمي ، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جنّي ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- حلمي خليل ، دراسات في اللغة والمعاجم ، ط ١ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٨ .
- أبو حيان الأندلسي ، أثير الدين (٧٤٥ هـ) ، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب ، تحقيق : أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ، ط ١ ، مطبعة العساني ، بغداد ، ١٩٧٧ .
-، ارتشاف الضرب من لسان العرب ، تحقيق رجب عثمان ، ط ١ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
-، البحر المحيط ، ط ٢ ، دار الفكر ، ١٩٨٣ .

- أبو حيان الأندلسي ، أثير الدين (٧٤٥ هـ) ، نُخْفَةُ الأَرِيْبِ بِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ الْغَرِيْبِ ، تحْقِيقُ : أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ، ط ١ ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٧ .
- ، ارتشاف الضَرْبِ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ ، تحْقِيقُ رَجَبِ عَثْمَانَ ، ط ١ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
- ، البحر المحيط ، ط ٢ ، دار الفكر ، ١٩٨٣ .
- ، المبدع في التصريف ، تحْقِيقُ عَبْدِ الْحَمِيدِ السَّيِّدِ طَلَبِ ، ط ١ ، مكتبة دار العروبة ، للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٢ .
- ابن خالويه ، الحسين بن أحمد (٣٧٠ هـ) ، ليس في كلام العرب ، تحْقِيقُ أَحْمَدَ عَبْدِ الْغَفُورِ ، دار مصر للطباعة ، د.ت .
- ، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، المكتبة الثقافية ، دائرة المعارف العثمانية ، بيروت ، ١٩٨٧ .
- ، الحجة في القراءات السبع ، تحْقِيقُ أَحْمَدَ فَرِيدِ الْمَزِيدِيِّ ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٩ .
- خديجة الحديثي ، الشاهد وأصول النحو في كتاب سيوييه ، مطبوعات جامعة الكويت ، الكويت ، ١٩٧٤ .
- الخطيب الإسكافي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (٤٢١ هـ) ، مبادئ اللغة ، ط ١ ، تحْقِيقُ يَحْيَى عِيَابِنَه وَعَبْدِ الْقَادِرِ الْخَلِيلِ ، وزارة الثقافة الأردنية ، عمان ، ١٩٩٧ .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ) ، المقدمة ، دار العلم للجميع ، بيروت .
- الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٦ هـ) ، الجمل في النحو ، تحْقِيقُ فخر الدين قباوة ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٥ .
- الخوارزمي ، محمد بن أحمد بن يوسف (٣٨٧ هـ) ، مفاتيح العلوم ، تحْقِيقُ إِبْرَاهِيمَ الْإِبْيَارِيِّ ، ط ٢ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٩ .
- داود عبده ، أبحاث في اللغة العربية ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٣ .
- ، دراسة في بعض أحكام التجويد ، ط ١ ، العربي للنشر ، لندن ، ١٩٩٠ .

- ابن درُستويه (٣٤٧هـ-) ، كتاب الكتاب ، تحقيق إبراهيم السامرائي وعبد الله الفتلي ، ط ١ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٢ .
- ابن درُيد الأزدي ، محمد بن الحسن (٣٢١هـ-) ، شرح المقصور والممدود ، تحقيق ماجد الذهبي ، ١٦ ، دمشق ، ١٩٨١ .
- الدقيقي النحوي ، سليمان بن بنين (٦١٤هـ-) ، اتفاق المباني واقتراق المعاني ، تحقيق يحيى جبر ، ط ١ ، دار عمار ، عمان ، ١٩٨٥ .
- ابن الذّهان ، أبو محمد سعيد بن المبارك (٥٦٩هـ-) ، باب الهجاء ، تحقيق فائز فارس ، ط ١ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٢ .
- ، الفصول في العربية ، تحقيق فائز فارس ، ط ١ ، دار الأمل ، اربد ، ١٩٨٨ .
- الرازي ، أبو حاتم أحمد بن حمدان (٣٢٢هـ-) ، الزينة في الألفاظ الإسلامية العربية ، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ربحي كمال ، التضاد في ضوء اللغات السامية ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٢ .
- الرضي الاسترأبادي (٦٨٨هـ-) ، شرح شافية ابن الحاجب ، تحقيق محمد نور الحسين ومحمد الزفزاف ، ومحمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازي ، القاهرة .
- رمزي بلعكي ، فقه العربية المقارن ، ط ١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٩ .
- رمضان عبد التواب ، لحن العجامة والتطور اللغوي ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ، للتطور اللغوي ، ط ١ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
- روبنز (ر.ه-) ، موجز تاريخ علم اللغة ، ترجمة أحمد عوض ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد (٢٢٧) ، الكويت ، ١٩٩٧ .
- الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله (٧٩٤هـ-) ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة الجامعية ، بيروت .
- ستيفن أولمان ، دور الكلمة في اللغة ، ترجمة كمال بشر ، ط ١ ، مكتبة الشباب ، ١٩٦٢ .
- السجستاني ، أبو حاتم سهل بن محمد (٢٥٥هـ-) ، فَعَلْتُ وَأَفْعَلْتُ ، تحقيق ودراسة خليل إبراهيم العطية ، جامعة البصرة ، ١٩٧٩ .
- ابن السكيت ، أبو يوسف يعقوب (٢٤٤هـ-) الإبدال ، تحقيق حسين محمد شرف ، الهيئة العامة لشؤون المطابع ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

- سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان (١٧٧هـ) ، الكتاب ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، دار القلم ، ١٩٦٦ .
- ابن سيده الأندلسي ، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي (٤٥٨هـ) ، المخصص ، ط ١ ، تقديم خليل جفال ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٩٧ .
- السيد طي ، عبد الرحمن جلال الدين (٩١١هـ) ، الإتيان في علوم القرآن ، تحقيق عصام فارس ومحمد أبو صعيليك ، ط ١ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٨ .
- الاقتراح في علم أصول النحوي ، ط ٢ ، دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد - الدكن ، ١٣٥٩هـ .
- المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، شرح وضبط محمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي ، ط ١ ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر .
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، تحقيق عبد السلام هارون وعبد العال سالم مكرم ، دار البحوث العلمية ، جامعة الكويت ، الكويت ، ١٩٧٥ .
- الصبآن ، محمد بن علي (١٢٠٦هـ) ، حاشية الصبآن على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ، تحقيق إبراهيم شمس الدين ، ط ١ ، منشورات محمد بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٧ .
- مسبري السيد ، علم اللغة الاجتماعي - مفهومه وقضاياها ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ .
- الصيّمري ، أبو محمد عبد الله بن علي بن اسحق (ق.٤) ، التبصرة والتذكرة ، تحقيق فتحي أحمد علي الدين ، جامعة أم القرى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٢ .
- طالب عبد الرحمن ، نحو تقويم جديد للكتابة العربية ، كتاب الأمة ، العدد ٦٩ ، ط ١ ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر ، ١٩٩٩ .
- الطوسي ، أبو جعفر محمد بن الحسن (٤٦٠هـ) ، التبيان في تفسير القرآن ، تحقيق أحمد حبيب العاملي ، المطبعة العلمية ، النجف ، ١٩٦٣ .
- أبو الطيب اللغوي ، عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (٣٥١هـ) ، الإبدال ، شرح وتحقيق وضبط عز الدين التنوخي ، دمشق ، ١٩٦٠ .
- عبد الحلیم قنيس ، معجم الألفاظ المشتركة في اللغة العربية ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٧ .

- عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب ، ط ٢ ، تونس ، ١٩٨٦ .
-، اللسانيات وأسسها المعرفية ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٦ .
- عبد العال سالم مكرم ، أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية ، مؤسسة علي الصباح للنشر ، الكويت ، ١٩٧٨ .
- عبد الغفار هلال ، اللهجات العربية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
- عبد الفتاح الحموز ، ظاهرة التعويض في العربية ، ط ١ ، دار عمار ، عمان ، ١٩٨٧ .
- عبد القادر عبد الجليل ، البنية اللغوية في اللهجة الباهلية ، ط ١ ، دار صفاء ، عمان ، ١٩٩٧ .
-، التتوعات اللغوية ، ط ١ ، دار صفاء ، عمان ، ١٩٩٧ .
-، علم الصرف الصوتي ، ط ١ ، دار أزمنة ، عمان ، ١٩٩٨ .
-، عبده الراجحي ، اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (٢٤٤هـ -) ، لغات القبائل السواردة في القرآن الكريم ، شرح وتحقيق عبد الحميد السيد طلب ، ١٩٨٤ .
-، غريب الحديث ، تحقيق حسين محمد شرف ومراجعة عبد السلام محمد هارون ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
-، غريب الحديث ، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية ، بعناية محمد عبد المعين خان ، ط ١ ، ١٩٦٦ .
-، الغريب المصنّف ، تحقيق محمد مختار العبيدي ، ط ١ ، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ، ١٩٨٩ .
- العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله ، الفروق اللغوية ، تحقيق حسام الدين القدسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ابن عصفور الإشبيلي (٦٦٩هـ -) ، الممتع الكبير في التصريف ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ط ١ ، مكتبة لبنان ، ١٩٩٦ .

- المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله (ق.٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مكتبة ضياط ، بيروت ، ١٩٠٦ .
- ابن مكي الصقلي (٥٠١هـ) ، تنقيف اللسان وتلقيح الجنان ، تحقيق عبد العزيز مطر ، دار المعارف ، القاهرة .
- المؤدب ، القاسم بن محمد بن سعيد (ق. ٤) دقائق التصريف ، تحقيق أحمد القيسي وحاتم الضامن وحسين تورال ، منشورات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٨٧ .
- ميشال زكريا ، قضايا ألسنية تطبيقية ، ط١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٣ .
- نهاد الموسى ، ومحمود السمرة ، العربية : نظام البنينة المصرفية ، ط١ ، سلطنة عمان ، وزارة التربية والتعليم ، ١٩٨٥ .
- ، قضية التحول إلى الفصحى ، ط١ ، دار الفكر ، عمان ، ١٩٨٧ .
- ، اللغة العربية وأبناؤها ، ط٢ ، مكتبة وسام ، عمان ، ١٩٩٠ .
- ، نظرية النحو العربي ، ط٢ ، دار البشير ومكتبة وسام ، عمان ، ١٩٨٧ .
- هادي نهر ، اللسانيات الاجتماعية عند العرب ، ط١ ، دار الأمل ، اربد ، ١٩٩٨ .
- هاشم الطعان ، الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، العراق ، ١٩٧٨ .
- هديسون ، علم اللغة الاجتماعي ، ترجمة محمود عياد ، ط١ ، دائرة الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٧ .
- ابن هشام ، أبو محمد عبد الله جمال الدين (٧٦١هـ) ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، شرح وتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٩٨ .
- ، شرح قطر الندى وبل الصدى ، شرح وتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٢ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٩٧ .
- ، شرح شذور الذهب ، شرح بركات يوسف عبود ، ط٢ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٨ .
- ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ط١ ، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٢ .

- العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله ، الفروق اللغوية ، تحقيق حسام الدين القدسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ابن عصفور الإشبيلي (٦٦٩هـ) ، الممتع الكبير في التصريف ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ط ١ ، مكتبة لبنان ، ١٩٩٦ .
- ، شرح جمل الزجاجي ، شرح وتقديم فواز الشعار ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨ .
- ابن عقيل ، بهاء الدين عبد الله بن عقيل (٧٦٩هـ) ، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، بشرح محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٨٨ .
- علي زوين ، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث ، ط ١ ، دائرة الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ .
- علي وافي ، علم اللغة ، ط ٩ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة - القاهرة .
- أبو العميتل الأعرابي (٢٤٠هـ) ، ما اتفق لفظه واختلف معناه ، تحقيق محمود شاكر سعيد ، ط ١ ، دار العلم للطباعة والنشر ، جدة ، ١٩٩١ .
- غالب المطلبي ، لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، الجمهورية العراقية ، بغداد ، ١٩٧٨ .
- غانم قدوري الحمد ، رسم المصحف : دراسة لغوية تاريخية ، ط ١ ، بغداد ، ١٩٨٢ .
- الفارابي ، أبو نصر ، الحروف ، تحقيق محسن مهدي ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن فارس (٣٩٥هـ) ، الصحاحي في فقه اللغة ، علق عليه أحمد بسبح ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ، مجمل اللغة ، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٤ .
- فتحي عبد الفتاح ، لغات العرب وأثرها في التوجيه النحوي ، ط ١ ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٩٨١ .
- الفراء ، أبو زكريا يحيى بن زياد (٢٠٧هـ) ، معاني القرآن ، تحقيق أحمد يوسف نجاشي ومحمد علي النجار ، ط ٢ ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٥ .
- ، المقصور والممدود ، تحقيق ماجد الذهبي ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٢ .

- الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (٨١٧هـ) ، القاموس المحيط ، تحقيق مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة ، مؤسسة الرسالة ، ط٦ ، بيروت ، ١٩٩٨ .
- اقالبي ، أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي (٣٥٦هـ) ، الأمالي ، ط٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦ .
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (٢٧٦هـ) ، أدب الكاتب ، تحقيق وتعليق محمد الدالي ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- ، تأويل مشكل القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العربية .
- القسطلاني ، شهاب الدين (٩٢٣هـ) ، لطائف الإشارات لفنون القراءات ، تحقيق عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين ، ١٩٧٢ .
- ابن القوطية (٣٦٧هـ) ، الأفعال ، تحقيق علي فودة ، ط٢ ، مكتبة الخانجي ، ١٩٩٣ .
- القيسي ، مكي بن أبي طالب (٤٣٧هـ) ، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة ، تحقيق أحمد حسن فرحات ، دار عمار ، ١٩٨٤ .
- كراع النمل ، أبو الحسن علي بن الحسن الهنائي (٣١٠هـ) ، المنجد في اللغة ، تحقيق أحمد مختار عمر وضاحي عبد الباتي ، ط٢ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
- ، المجرّد في غريب كلام العرب ولغاتها ، تحقيق محمد بن أحمد العمري ، ط١ ، ١٩٩٢ .
- ﴿
- كمال بشر ، علم اللغة الاجتماعي ، ط٣ ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
- ، علم اللغة العام - الأصوات ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٦ .
- لطيفة النجار ، دور البنية الصرفية في وصف الظاهرة اللغوية وتعيدها ، ط١ ، دار البشير ، عمان ، ١٩٩٤ .
- ماريوباي ، أسس علم اللغة ، ترجمة أحمد مختار عمر ، ط٢ ، عالم الكتب ، ١٩٨٣ .
- مازن الوعر ، دراسات لسانية تطبيقية ، ط١ ، دار ملاح للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٩ .
- ابن مالك ، أبو عبد الله محمد جمال الدين (٦٧٢هـ) ، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، تحقيق محمد كامل بركات ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .

-، شرح الكافية الشافية ، تحقيق عبد المنعم أحمد هريدي ، دار المأمون للتراث .
- المالقي ، أحمد عبد النور المالقي (٧٠٢هـ) ، رصف المباني في شرح حروف المعاني ، تحقيق أحمد الخراط ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٥ .
- المُبرّد ، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٥هـ) ، المقتضب ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، القاهرة ، ١٣٩٩هـ .
-، الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، ط١ ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٩ .
-، المذکر والمؤنث ، تحقيق رمضان عبد التواب وصلاح الدين الهادي ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٠ .
- ابن مجاهد ، أبو بكر أحمد بن موسى (٣٢٤هـ) ، السبعة في القراءات ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر .
- محمد السيد علوان ، المجتمع وقضايا اللغة ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٥ .
- محمد نور الدين المنجد ، الترادف في القرآن الكريم ، ط١ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٧ .
-، التضاد في القرآن الكريم ، ط١ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٩ .
- محمد النوري ، علم أصوات العربية ، ط١ ، جامعة القدس المفتوحة ، عمان ، ١٩٩٦ .
- محمود ياقوت ، فقه اللغة وعلم اللغة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩١ .
- محمود السعران ، اللغة والمجتمع ، ط٢ ، دار المعارف ، ١٩٦٣ .
- مختار الغوث ، لغة قريش ، ط١ ، منشورات النادي الأدبي ، الرياض ، ١٩٩٢ .
- المرادي ، الحسن بن قاسم ، الجنى الداني في حروف المعاني ، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت .
- انمرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد (٤٢١هـ) ، شرح ديوان الحماسة ، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون ، ط١ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥١ .
- أبو مسنخل الأعرابي ، عبد الوهاب بن حريش ، النوادر ، تحقيق عزة حسن ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، دمشق ، ١٩٦١ .
- مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ط٤ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٤ .

-، مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، ط ١ ، تحقيق مازن المبارك ومحمد علسي
حمد الله ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٢ .
- هيلاري هنسون ، الأنثروبولوجيون الاجتماعيون واللغة ، ترجمة محمود حمدي عبد الغني ،
دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٩ .
- يوهان فك ، العربية : دراسة في اللغة والنهجات والأساليب ، ترجمة عبد الحليم النجار ،
مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥١ .
- ابن يعيش ، موفق الدين يعيش بن علي النحوي (٦٤٣هـ) ، شرح المفصل ، عالم الكتب ،
بيروت ، ومكتبة المتنبى ، القاهرة .

ثانياً : الدوريات العربية :

- أحمد الجنابي ، ظاهرة المشترك اللفظي وغموض الدلالة ، مجلة المجمع العلمي العراقي ،
م: ٣٥ ، الجزء الرابع ، ١٩٨٤
- أحمد الجندي ، لهجة القرآن بين الفصحى ولهجات القبائل ، حوليات كلية دار العلوم ،
القاهرة ، ١٩٦٩-١٩٧٠ .
- أحمد كشك ، الوقف على المختوم بالتاء وطبيعة ذلك الوقف ، اللسان العربي ، م١٧/
عدد ١ ، ١٩٧٩ .
- حامد صادق قنبي ، مدخل لدراسة المونثات السماعية ، أبحاث السيرموك م٤ / عدد ٢ ،
١٩٨٦ .
- حمادي محمد ضاري ، التذكير والتأنيث في العربية بين العلامة والاستعمال ، مجلة المجمع
العلمي العراقي ، م٣٣ / عدد ٢-٣ ، ١٩٨٢ .
- خليل نامي ، المحاييد : المذكر والمونث المجازيان ، مجلة دراسات عربية ، ٧-٨ ،
١٩٨٨ ، بيروت .
- رشيد العبيدي ، أثر اللهجات في شرح ابن عقيل على الألفية ، مجلة الجامعة المستنصرية ،
العدد الخامس ، ١٩٧٥ .

- رمضان عبد التواب ، الجغرافية اللغوية وأطلس برجستراسر ، مجلة مجمع القاهرة ، جزء
١٩٧٦ / ٣٧ .
- زهير القيسي ، النحويون والقراءات القرآنية ، مجلة آداب المستنصرية ، العدد ١٥ ،
١٩٨٧ .
- سمير ستيتيه ، تحليل الظواهر الصوتية في قراءة يعقوب الحضرمي ، مجلة مجمع اللغة
العربية الأردني ، العدد ٤٨ ، ١٩٩٤ .
- سعد محمد الكردي ، التعدد اللغوي واللهجي وبذاء القاعدة النحوية والصرفية في تفسير
الطبري ، مجلة جامعة البعث ، العدد ١٣ ، ١٩٩٤ .
- عبد الرحمن محمد إسماعيل ، أبرز خصائص لغة هذيل ، مجلة معهد اللغة العربية بجامعة
أم القرى ، مكة ، العدد ٢ ، ١٩٨٤ .
- علي الهروط ، لغات العرب في البحر المحيط ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد
٤٧ ، ١٩٩٤ .
- عمر الدقاق ، اللغة المحكية في أدب الجاحظ ، عالم الفكر ، الكويت ، م ١٧ ، العدد ٢ ،
١٩٨٦ .
- فيلبر ، اللغة الخاصة ودورها في الاتصال ، ترجمة محمد هليل ، اللسان العربي ، العدد
٣٣ ، ١٩٨٩ .
- محمد السيد بلاسي ، إطلالة علمية جديدة حول وقوع المعرب في القرآن الكريم ، اللسان
العربي ، العدد ٣٦ ، ١٩٩٢ .
- ، الترادف والمشارك اللفظي والتضاد وأثر كل في نمو العربية ، اللسان
العربي ، ١٩٨٩/٣٣ .
- نهاد الموسى ، ظاهرة الإعراب في اللهجات العربية القديمة ، مجلة الأبحاث ، الجامعة
الأمريكية ببيروت ، السنة ٢٤ / العدد ١-٤ ، ١٩٧١ .
- ، في الظاهرة النحوية بين النحويين ولهجاتها ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة
الأردنية ، م ٤ ، عدد ١-٢ ، ١٩٧٣ .
- ، فيها قولان : أضواء على مسألة التعدد في وجوه العربية ، مجلة أفكار ،
عمان ، العدد ٢٨ ، ١٩٧٥ .

-، الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه ، مجلة حضارة الإسلام ،
١٩٧٤ .
-، نحو منهج في تحقيق قراءة الشعر القديم وفقاً لصورته التاريخية ، مجلة
دراسات ، الجامعة الأردنية ، م ٦ العدد الأول ١٩٧٩ .
-، الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في اللغة العربية ، المجلة العربية
للدراسات اللغوية ، م ٤ ، العدد الأول ١٩٨٥ .
- ، في التطور النحوي وموقف النحويين منه ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة
الأردنية ، م ٤ ، العدد الأول ، ١٩٨٥ .
-، اللهجات العربية والوجوه الصرفية ، اللسان العربي ، م : ١٢ / العدد الأول /
١٩٧٥

الرسائل الجامعية :

- إن سوب لي ، الفصائل النحوية في اللغة العربية ، رسالة دكتوراه ، الجامعة الأردنية ،
عمان ، ١٩٩٨ .
- سائدة العيص ، الوجهة الاجتماعية في منهج التحليل اللغوي في الخصائص عند ابن جني ،
رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٩٦ .
- عيسى برهوم ، مسألة المذكر والمؤنث في اللغة والنحو ، رسالة ماجستير ، جامعة
اليرموك ، اربد ، ١٩٩٨ .
- لطيفة النجار ، منزلة المعنى في نظرية النحو العربي ، رسالة دكتوراه ، الجامعة الأردنية ،
عمان ، ١٩٩٥ .
- محمد رباع ، الفصحى المنطوقة : منزلتها في النظرية النحوية وصورتها في اللغة العربية ،
رسالة دكتوراه ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٩٤ .
- مهدي عرار ، جدل اللفظ والمعنى ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٩٥ .
- وايد أحمد العناتي ، تعاليم العربية لغير الناطقين بها في ضوء اللسانيات التطبيقية ، رسالة
ماجستير ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٩٧ .

وقائع المؤتمرات :

- بيتر بينشهاد ، في الأطلسين اللغويين لمصر واليمن ، أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات ، تونس ١٩٨٥ ، منشورات الجامعة التونسية ١٩٨٦ .
- داود عبده ، الترتيب في تطبيق القواعد الصوتية ، أشغال ندوة اللسانيات في خدمة اللغة العربية ، تونس ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٨١ .
- ، الدراسات الصوتية في اللغة العربية بين الوصف والتفسير ، ندوة تقدم اللسانيات في اللغة العربية ، وقائع ندوة جهوية (١٩٨٧) ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، ١٩٩١ .
- عبد الرحمن أبوب ، إطار مقترح لاستبانات الأطلس اللغوي العربي ، أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات ، تونس (١٩٨٥) ، منشورات الجامعة التونسية ، تونس ، ١٩٨٦ .
- ، المقارنات اللغوية وتاريخ اللغة العربية ، ندوة تقدم اللسانيات في الأقطار العربية الرباط (١٩٨٧) ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، ١٩٩١ .
- عشاري أحمد محمود ، التوحيد بين اللسانيات الحديثة والعربية في دراسة اللهجات ، أشغال ندوة اللسانيات في خدمة اللغة العربية (١٩٨١) ، الجامعة التونسية .
- فادمير شغال ، حول تنوع اللغة العربية الفصحى ، أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات (١٩٨٥) ، الجامعة التونسية ، ١٩٨٦ .
- مجيد الماشطة ، العلاقة بين العربية الفصحى واللهجات العامية في الماضي والحاضر والمستقبل ، أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات (١٩٨٥) ، الجامعة التونسية ، ١٩٨٦ .
- نهاد موسى ، قضية الكتابة العربية ، مؤتمر قضايا اللغة العربية وتحدياتها في القرن الحادي والعشرين ، كوالالمبور ، ماليزيا ، ١٩٩٦ .

المراجع بغير العربية :

أولاً : الكتب

- Abdel-Jawad , Hassan . *Lexical and Phonological Variation in Spoken Arabic in Amman* .Ph.D.Dissertation. The University of Pa, 1981.
- Bailly .C.J.N. *Variation and Linguistic Theory* , Arlington center for Applied Linguistics , 1973.
- Bell , Roger. *Sociolinguistics*, B.T.Batsford . L.T.D, London, 1976.
- BruceIngham. *North East Arabian Dialects*. first edition, Kegan Paul International, London, 1982.
- Carter, M. and Versteegh.k. *Studies of the History of Arabic Grammar* . John Benjamins Publishing Company, Amsterdam AM, Philadelphia, 1990.
- Fasold, R. *Analyzing Variation in language*. Washington D.C, Georgetown University Press, 1975.
- Fasold, R. *The Sociolinguistics of Society* , First edition , T.J.Press Britain, Padstow, 1981.
- Ferguson, C.H. *Contributions to Arabic Linguistics*. Harvard University Press, Cambridge . 1964.
- Haeri,Nilfor. *The Sociolinguistic Market of Cairo : Gender, Class and Education*. First edition , Kegan Paul International London, 1997.
- Holes, Clive. *Language Variation and Change in a modernizing Arab State : The Case of Bahrain*. First edition, K.P.I , Limited , London, 1987.
- Hudson, R.A. *sociolinguistics*, First edition, Syndicate of University of Cambridge, 1980.
- Hymes, Dell. *Foundations in Sociolinguistics: An Ethnographic Approach*. University of Pennsylvania Press, Philadelphia , 1974.
- Johnstone, T.M. *Eastern Arabian Dialect Studies*. Oxford University Press, London, 1967.
- Labove, William, *Locating Language in Time and Space*. Academic Press, Inc. London , 1980.
- Rice, Flank, *Eastern Arabic: an introduction to Spoken Arabic of Palestine, Syria and Lebanon*. Khayats, Beirut, 1960.
- Sankoff, D. *Linguistic Variation*. Academic Press, London, 1978.

- Versteegh, C.H. *Arabic Grammar and Qur'anic Exegesis in Early Islam*. Nether Lands, 1993.
- Yule, G. *The Study of Language*. Cambridge University Press, New Yourk, 1985.
- Wardhaugh, Ronold. *An Introduction to Sociolinguistics*, first edition, J.J.Press Ltd, Padstow, 1986.

ثانياً : الدوريات

- Abd-El-Jawad. Hassan, *Social Functions of Language Variation*. Al-Abhath, VO. 34, A.U.B, 1986.
- Abd-El -Malek , Zaki. *The Phenomenon of F'raab in Standard Arabic*. Al-Lissan Al-Arabi , NO.33, 1989.
- Bakir, M.J. *Sex Differences in the Approximation to Standard Arabic*. Anthropological Linguistics, VO . 28, NO. 1, 1986.
- Carter, M.G. *Language Control as People Control in Medieval Islam: The Aims of the Grammarians in their Cultural Context*. Al-Abhath , VO. XXXI, A.U.B,1993.
- Dionisias, A. Aguias. *Reliable Sources for Elicitation of Correct Arabic in the First Centuries of Islam*. Arab Journal of Language Studies, VO 6, NO. 1-2, 1988.
- Heins, Grotzfeld, *Language Hierarchy and Speaking Arabic: Language Constancy, Variation and Tolerance in an Arabic Dialect Area*, Al-Abhath VO.XXXI, 1983.
- Ibrahim, M.H. *Standard and Prestige Language : a problem in Arabic Sociolinguistics*. Anthropological Linguistics, VO. 28, NO.1 , 1986.
- Riad, F.Hussein , and Naser El-Ali, *Subjective Reactions toward Different Varieties of Arabic*. Arab Journal of Language Studies. VO. 5, NO. 1, 1986.
- Sawaic, M. *A Sociolinguistic Study of Classical and Colloquial Arabic Variation*. Arab Journal of Language Studies , VO. 6, NO. 1-2, 1988.
- Versteegh, C.H. *Arabic Grammar and Corruption of Speech*, Al-Abhath, VO XXXI , 1983.
-, *Modern Approaches to the History of Arabic*. Progres De La Linguistique Dans Les Etats Arabes, 1987.

ندوة تقدم اللسانيات في الأقطار العربية ، الرباط ، ١٩٨٧.

ABSTRACT

Variation and its Impact on the Formation of Arabic Linguistic Theory .

By : Walced Ahmad EL-Anati .

Supervisor : Prof. Nehad AL-Musa.

This study intends to reveal the Arabic linguistic reality in ages of grammatical correctness. It also tries to reveal the phenomenon of variation in Arabic and its various realizations on the used linguistic level, when the language is a means of communication in society, and on the theoretical level, when the language reveals thought patterns of culture found at that period.

The study is an attempt to reveal linguistic and non-linguistic factors which resulted in variation within the same phenomenon. It tries to bridge the linguistic structure with the social structure in order to show language development in society and the impact of social phenomenon on it.

The study tries to offer answers for a set of questions. The most important of which are :

- What are the factors that resulted in variation in Arabic ?
- What are the realizations of variation in Arabic ?
- What are the sociolinguistic views which the Arab linguists adopted in studying variation ?
- What are the general features of traditional and dialectal Arabic studies ?

-What are the general features of variation theory in Arabic and its position from old Arabic linguistic studies ?

This study consists of an introduction, seven chapters and a conclusion. The first chapter is about the base of variation theory in general and variation in Arabic. The following chapters, from the second to the sixth, encompasses realizations of variation in Arabic. The last chapter attempts to reveal the general aspects of variation theory in Arabic.

The conclusion tries to show the similarities between old sociolinguistic Arabic studies and the modern ones. It also presents how to invest variation on the functional level since variation can be used in teaching Arabic, making a historical lexicon and understanding legacy of Arabic.